المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

قامت الطالبة بإجراء التعديلات التى طلبتها لجنة المناقشة.

مناقش مناقش المشرف

علم المعاني في التفسير الكبير للفخر الرازي وأثره في الدراسات البلاغية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علوم البلاغة

إعداد

الطالبة / فائزة سالم صالح يحيى أحمد

إشراف

الأستاذ الدكتور / علي محمد حسن العماري

المجلد الأول

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى النهر الدافق الذي لاينضب

والدي العزيز

إلى أيكة الظل الوارف

والدتي العزيزة

أهدي إليكما ثمرة غرسكما الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الرسالة : علم المعاني في التفسير الكبير للفخر الرازي وأثره في الدراسات البلاغية.

الدرجة العلمية : دكتوراه.

اسم الطالبـة : فائزة سالم صالح يحيى أحمد.

ملخص البحث

قام هذا البحث بدراسة كل مايتعلق بأحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال في تفسير الفخر الرازي.

وقد بُني البحث على تمهيد وثلاثة أبواب :

التمهيد: تحدثت عن حياة الفخر الرازي باختصار مرتكزة في ذلك على التفسير.

الباب الأول: يبحث عن علم المعاني قبل الفخر وهو مبني على ثلاثة فصول ، تحدثت في الأول: عن المراد بعلم المعاني، وفي الثاني:عن علم المعاني عندالبلاغيين، وفي الثالث: عن علم المعاني عند المفسرين.

الباب الثاني: بُني على خمسة فصول، تناول الأول : النظم عند الفخر في التفسير، والثاني: عن نظرته في المفردات، والثالث : عن بناءالجملة في التفسير، والرابع : عن بناء الجمل ، أما الخامس : فعن الإعجاز القرآني في التفسير.

أما **الباب الثالث** : فقد خصصته لبيان تأثر الفخر بمن قبله وأثره فيمن بعده.

ثم **الخاتمة** : وعرضت فيها لخلاصة البحث وأهم ما توصلت إليه من نتائج ، ومن هذه النتائج :

١ – إن بلاغته تذوقية خالية من الأحكام العقلية والقواعد التقريرية التي نجدها في كتابه البلاغي (نهاية الإيجاز).

٢ – كان لديه القدرة على استنباط معاني متعددة للوجه البلاغي الواحد، وهو يميل في ذلك إلى الإطناب.

٣ – اهتم كثيراً بالكشف عن أوجه المناسبة بين كثير من الآيات والسور.

٤ – له نظرات بلاغية تفوق نظرات غيره من المفسرين كالزمخشري مثلاً.

٥ – كان يثبت القاعدة البلاغية في التفسير ثم يطبق عليهاآيات كثيرة.

الطالبة	المشرف	عميد كلية اللغة العربية
فائزة سالم أحمد	أ.د.علي محمدحسن العماري	د.محمد بن مريسي الحارثي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى أنزل القرآن وجعله حجة ،وأوضح به للناس طريق المحجة ،وأظهر لهم بآياته نوراً ،وجعله تبصرة لأولى الألباب . أجل الكتب قدراً ، وأغزرها علماً ،وأعذبها نظماً .

اللهم إني أعوذ بك من غفلة القلب ،وضلال الرأى ،وفساد القول ، كما أعوذ بك من التزيد بما لا أعلم ،والعجب فيما أعلم .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام العالمين ،وخاتم المرسلين ، سيد الفصحاء ،وإمام البلغاء ، صلاة تكون لنا نوراً ،وتهدينا إلى طريق الرشاد .

وبعد : فتكاد تختفي وتطوى جهود الإمام فخر الدين الرازى البلاغية ذلك أنه عرف مفكراً وعالماً في أكثر علوم عصره ،فبرع فى شتى ميادين العلم والمعرفة فكان :

كالبَدْرِ مِنْ حَيثُ التَفَتَّ رأيتَـهُ

يُهْدِى إلى عَيْنَيْكَ نُوراً ثاقِبَـا

والبلاغة جانب لامع من جوانب ثقافته ،عرف بها من خلال كتابه (نهاية الإيجاز) الذى لخص به كتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ،أما بلاغته في التفسير الكبير المسمى (مفاتيح الغيب) فقد ظلت تائهة زمناً طويلاً ،ومن خصها بنصيب من الدراسة تحدث عن جانب منها بعجالة واختصار ،لذا فقد رأيت أن أتناول بلاغته في التفسير

بالدراسة ، ولما وجدتها ممتدة متشعبة اقتصرت منها على ما يتصل بأحوال اللفظ العربي التي بها يطابق الكلام مقتضى الحال ما سمي بعلم المعاني، وتتبعته تتبعاً دقيقاً شاملاً ، فقرأت التفسير مرات ، واستغرق ذلك مني وقتاً طويلاً لكثرته ودقته ، فهو يقع في اثنين وثلاثين جزءاً ، وقد استخرجت منه جلّ ما يتصل بعلم المعاني ، ثم جمعت النظير إلى النظير ، وصنفته في أربعة وعشرين مبحثاً ، تناولت كل مبحث بالدراسة ، فحددت ملامحه ، وحررت مسائله ، وبينت ما أضافه من آرائه الخاصة ، وما أفاده من غيره ، وكنت أستأنس في أكثر الأحوال بآراء غيره ممن يوضح رأيه .

وقد رأيت الفخر في التفسير على غير ما رأيته في (نهاية الإيجاز) فهو هناك مخضع الأصول البلاغية إلى أحكام عقلية ، وهو هنا محلل ومتذوق ، لذلك فقد عمل على تثبيت وتنمية كثير من المسائل البلاغية التي أثيرت من قبله ، كما حرر مسائل أخرى ، وله سبق إلى كشف كثير من الدقائق البلاغية في آيات القرآن ، فقد لاحظ أسرارها المكتنفة وراء كلماتها وتراكيبها ، وكان يقف أمام كلمات القرآن يتأملها ، ويستجلى منها فيوضات المعاني بطريقة متفردة قادرة على النفاذ إلى مسافات ممتدة وراء المعاني الظاهرة .

هذا وقد قامت هذه الدراسة على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

تحدثت في التمهيد عن حياة الإمام الفخر باختصار مرتكزة في ذلك على تفسيره .

ثم الباب الأول : ويبحث عن علم المعاني قبل الفخر الرازي ، وقد كنت على ألا أضع هذه الدراسة ضمن البحث ، لكنني رأيت أنا وأستاذي أن الابرّ بهذه الدراسة البدء بمثل هذا الباب ، وقد قسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : يحدد المراد بعلم المعاني .

الفصل الثاني : يبحث عن علم المعاني عند البلاغيين وأهل اللغة .

الفصل الثالث : يبحث عن علم المعاني عند المفسرين ودارسي الإعجاز .

والباب الثاني : يبحث عن علم المعاني عند الفخر ، وهذا يضم خمسة فصول :

الفصل الأول : تتبعت فيه النظم عند الفخر .

الفصل الثاني : يتحدث عن نظرته في المفردات .

الفصل الثالث : يتناول نظرته في بناء الجملة .

الفصل الرابع : يتحدث عن نظرته في الجمل .

الفصل الخامس : يتحدث عن الإعجاز القرآني في التفسير .

ثم الباب الثالث : خصصته لبيان تأثر الفخر بمن قبله وأثره فيمن بعده .

وبنيته على فصلين :

الفصل الأول : تأثره بمن قبله، ويشمل تأثره بعبد القاهر الجرجاني والزمخشري ثم ببقية المفسرين ثم بالنحاة ، وقد أفردت دراسة تأثره بعبد القاهر والزمخشري لوضوح هذا التأثر .

الفصل الثاني : يبحث في أثره فيمن بعده ، ويشمل أثره في كتب البلاغيين ، وأثره في كتب التفسير ، وأثره في كتب علوم القرآن .

ثم الخاتمة عرضت فيها خلاصة البحث ، وأهم ما توصلت إليه من نتائج .

هذا وقد كان مما يشق عليّ أنني كنت أقف أحياناً حائرة أمام بعض المسائل والنظرات لا أدرى أين أضعها حتى يفتح الله عليّ فيها ،كما كنت أتردد كثيراً في الاكتفاء ببعض صور المبحث الواحد ،لأنّ كل صورة في المجال التطبيقي تمثل غرضاً جديداً ،ذلك لأنّ هدفي العام من هذه الدراسة ليس الاستقصاء الشامل لكل ما قاله في الباب الواحد ،إنما بيان منهجه وطريقته في النظر والتحليل البلاغي .

وأقول بل أؤكد أن البحث عن مثل هذه النظرات وتتبعها في كتب التراث تقوم على إثراء العلوم البلاغية ،فكثير من هذه الوجوه البلاغية لم تصل إليها الدراسات النظرية ، وهي صالحة لأنّ تكوّن منهجاً بلاغياً يطبق في مجال الكلام البليغ من شعر ونثر.

ولم يقتصر عملي على الجمع والعرض، بل حررت وناقشت وقبلت ورفضت ، مستضيئة في ذلك بآراء العلماء الأفذاذ في هذا الميدان ،هادفة إلى الكشف عن وجه الصواب دون حيف أو تعصب .

وتعد دراستي هذه - فيما أعلم - أول دراسة تقف على جلّ ما قاله الفخر في أبواب المعاني .

ثم لا يسعني إلا أن أتوجه بامتناني البالغ إلى كلية اللغة العربية التي هيأت لي مناهل المعرفة وأعانتني على ورودها .

وأتقدم بالشكر والعرفان إلى أستاذى الجليل الدكتور علىّ العمارى -أمد الله في عمره - الذى كان لي مناراً أهتدى به في أى وقت أشاء ،فقد فتح لي أبواب العلم ومنابع المعرفة أرد من نبعها الصافي ، ومنحني فرصة التعبير عن الرأى واحترام رأى الآخرين ،ليشتد عودى ،وتقوى مداركي ،ولم يترك مسألة في هذه الدراسة إلا اطلع عليها ووجهني فيها .

وأتقدم خافضة جناح الذل إلى والديَّ العزيزين اللذين عاشا معي معاناة هذا البحث خطوة بخطوة، ومنحاني التشجيع والعون، وسدداني بالدعوات الصادقات في جوف الليل.

وأخيراً لا أدعي فيما كتبته الكمال، ولا السلامة من زلات البيان، فإن كنت من المقصرات فقد يستصوب للمرء اجتهاده، وليعذر في تقصيره وخطئه، ومن رحمة الله بطالب العلم أن جعل للحق وجوهاً يرى كل فريق منها وجهاً، ولهذا اختلف العلماء، واتسعت أبواب العلم الواحد.

ثم أسأل الله جلت قدرته أن يجعل هذا البحث خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، ويبارك لي فيه، ولا يحرمني أجره، ويجعله لي نوراً يسعى بين يديَّ يوم يجزى كل إنسان على ما قدم من عمل إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين الذى بنعمته تتم الصالحات.

مساء الأحد، غرة شهر رجب المحرم ١٤١٢ هـ.

التمهيد

حياة الفخر الرازي

حيـــاة الإمـــام الفخـر الـــرازى

اسمه ولقبه وكنيته :

هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري.(١)

اختلفت بعض المصادر في اسم جده ، فبعضهم يسميه الحسين(٢) ، وبعضهم يسميه الحسن.(٣)

لكن الفخر الرازى يذكر في التفسير أن اسم والده عمر بن الحسين يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾(٤) :

("بِعَبْدِهِ" أجمع المفسرون على أن المراد محمد عليه الصلاة والسلام ، وسمعت الشيخ الوالد عمر بن الحسين -رحمه الله- قال ...)(٥)

لقب بالإمام ، وبفخر الدين ، وبالرازى ، وبشيخ الإسلام ، وقد حقق أستاذنا الفاضل عليّ العمارى في كل لقب ، ومن أطلقه عليه ، فمن شاء فليرجع إلى كتابه.(٦)

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير : ١٣/٥٥ ، وفيات الأعيان ، لابن خلكان : ٤/٢٤٨.

(٢) منها البداية والنهاية : ١٣/٥٥ ، سير أعلام النبلاء ، للذهبي ٢١/٥٠٠ .

(٣) مفتاح السعادة ، لطاش كبرى زاده : ١/١١٦ ، الأعلام ، للزركلي : ٧/٢٠٣ ، ومعجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة : ١١/٧٩.

(٤) سورة الإسراء : من الآية ١ .

(٥) التفسير الكبير : ٢٠/٢٤٧ م ١٠.

(٦) ينظر الإمام فخر الدين الرازى ، د. علي العمارى ، حياته وآثاره : ١٢-١٦ .

له أكثر من كنية ، فهو يكنى بابن خطيب الري [١] ، وبابن الخطيب [٢] وبأبي عبد الله [٣] ، وبأبي المعالي [٤].

وفي تعدد الكنى دلالة على رفعة المنزلة ، وعظم الفضل .

مولده :

اختلفت الرواة في سنة مولد الفخر الرازي ، فمنهم من قال إنه ولد سنة ٥٤٣ هـ ، وقيل سنة ٥٤٤ هـ كما ذكر ابن السبكي [٥] ومنهم من يرجح أنه ولد سنة ٥٤٤ هـ كابن خلكان [٦] والذهبي [٧] وغيرهم [٨] وأرجح أنه ولد سنة ٥٤٤ هـ بدليلين :

الأول : أن أكثر أصحاب السير ذكروا هذا التاريخ ، بما فيهم من عُرف بتحري الدقة في تحقيق التواريخ كابن خلكان .

---

(١) البداية والنهاية : ١٣/٥٥ ، مفتاح السعادة : ٢/١١٦ .
(٢) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩ ، روضات الجنات ، للخوانساري الأصبهاني : ٨/٣٩ .
(٣) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٨ ، شذرات الذهب ، للعماد الحنبلي : ٥/٢١ .
(٤) النجوم الزاهرة ، لابن تغري بردي : ٦/١٩٩ .
(٥) طبقات الشافعية الكبرى : ٨/٨٥ .
(٦) وفيات الأعيان : ٤/٢٥٢ .
(٧) سير أعلام النبلاء : ٢١/٥٠٠ .
(٨) كصاحب شذرات الذهب ، والوافي بالوفيات ، وروضات الجنات .

الثاني : ما ذكره الفخر في تفسيره من الدلالة على أنه ولد في هذه السنة، حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾[1] : (وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه ، فهذه التجربة قد استمرت من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغتُ فيه إلى السابع والخمسين)[2].

ثم يقول في آخر هذه السورة : (تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان سنة إحدى وستمائة)[3] ، فإذا أضيف هذا إلى تاريخ ميلاده المرجح وهو سنة ٥٤٤ هـ كان الحاصل هي السنة التي أتم فيها هذا التفسير ، وقد ذكر هذا الدليل دكتورنا الفاضل علي العماري في كتابه عن الفخر[4].

ولد بإقليم (الري) في مدينة هراة ، ونشأ في إقليم (طبرستان)[5].

---

(١) سورة يوسف : ٤٢ .

(٢) التفسير : ١٨/١٤٨ م٩ .

(٣) التفسير : ١٨/٢٣٣ م٩ .

(٤) الإمام فخر الدين الرازي : ١٧ .

(٥) روضات الجنات : للخوانساري الأصبهاني : ٨/٣٢ .

نشـأته :

نشأ الفخر الرازي في بيت علم ، فقد كان أبوه الإمام ضياء الدين عمر الذي لقب بخطيب الري ذا علم وافر ، ومنزلة رفيعة ، تلقى الفخر العلـم على يديه ، وذكره في عدة مواضع من التفسير وكان يلقبه (بالإمام) يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾(١) : (وسمعت الشيخ الإمام الزاهد الوالد - رحمه الله - يقول : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب)(٢).

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾(٣) : (كان الشيخ الوالد ضياء الدين عمر - رحمه الله - يقول الرضا عبارة عن ترك اللـوم والاعتراض)(٤).

وفي موضع آخر : (سمعت شيخي ووالدي رحمه الله)(٥).

ثم تلمذ الفقه على الكمال السمناني وصاحبه مدة ، ثم درس الحكمة وأصول الفقه على المجد الجيلي، ورحل معه لطلب العلم ، كما حرص الفخر علـى قراءة الكتب، فيقال إنه حفظ (الشامل في أصول الدين) لإمام الحرمين وهـو كتاب في علم الكلام ، والمستصفى للغزالي ، والمعتمد لأبي الحسن البصـري(٦)

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٠٢.

(٢) التفسير : ١٢٩/١٣ م٧.

(٣) سورة الزمر : من الآية ٧.

(٤) التفسير : ٢٤٧/٢٦ م١٣.

(٥) التفسير : ١٤٥/١٢ م٦.

(٦) ينظر وفيات الأعيان : ٢٥٠/٤.

ولما نبغ قصد خوارزم فجرى بينه وبين أهلها كلام فيما يرجع إلى العقيدة فخرج من بلده ،وقصد ما وراء النهر فحصل له ما حصل له بخوارزم فعاد إلى الري .

اتصل بالسلطان شهاب الدين الغوري صاحب غزنه فأكرمه كرماً عظيماً ،ثم عاد إلى خراسان واتصل بسلطان خوارزم شاه محمد بن تكش ،ثم توجه إلى الهند (١) . وذكر في تفسيره أنه رحل إليها حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) : (دخلت بلاد الهند ،فرأيت أولئك الكفار مطبقين على الاعتراف بوجود الإله ،وأكثر بلاد الترك أيضاً كذلك ،وإنما الشأن في عبادة الأوثان ،فإنها آفة عمت أطراف الأرض، وهكذا الأمر كان في الزمان القديم) (٣).

وأكثر المصادر لا تذكر أنه رحل إلى الهند إلاّ ما كان من صاحب الوافي بالوفيات فقد قال : (وأظنه توجه رسولاً إلى الهند) (٤).

وفي كلامه السابق إشارة إلى أنه رحل إلى بلاد الهند والترك، وقد ذكر الشيخ محمد الفاضل بن عاشور أن الإمام الفخر قد تنقل في كثير من البلدان كما يشير تفسيره إلى ذلك يقول : (تنقل الإمام فخر الدين في البلاد الأعجمية من الري إلى خراسان إلى خيوه ،وبخارى ،وعامة بلاد ما وراء النهر ، ودخل البلاد العربية العراق والشام ،كما استفدنا ذلك من تفسيره ، وإن لم ينص عليه أحد من مترجميه ،وكان أكثر استقراره وتدريسه بخوارزم،

---

(١) الوافي بالوفيات : ٤/٢٥٠.

(٢) سورة هود : من الآية ٥٠.

(٣) التفسير : ١٨/١١م٩.

(٤) الوافي بالوفيات : ٤/٢٤٩.

وهي مدينة خيوه شرقي بحيرة قزوين ،ثم استوطن مدينة هراة من البلاد الأفغانية وكانت وفاته فيها)[1].

وفي تفسيره دلالة على أنه لم يكتبه في مكان واحد ،فقد حرص على أن يثبت في أواخر أكثر السور مكان وتاريخ انتهائه من تفسيرها ،فمثلاً يقول في نهاية سورة إبراهيم : (تمّ تفسير هذه السورة يوم الجمعة في أواخر شعبان سنة إحدى وستمائة - ختم بالخير والغفران - في صحراء بغداد ، ونسأل الله الخلاص من الهموم والأحزان ..)[2].

ويقول في نهاية تفسيره لسورة الإسراء : (تمّ تفسير هذه السورة يوم الثلاثاء بين الظهر والعصر يوم العشرين من شهر المحرم في بلدة غزنين سنة إحدى وستمائة)[3].

كما نبغ الفخر في الطب والطبيعيات ،وله مؤلفات في ذلك فله كتاب (الطب الكبير) و (التشريح) وكتاب (في النبض) لم يتمه[4]. ويظهر ذلك في التفسير كقوله في آية : ﴿ يَوْماً يَجْعَلُ الوِلْدَانَ شِيباً ﴾[5] :

(فيه وجهان : الأول : أنه مَثَلٌ في الشدة يقال في اليوم الشديد : يوم يشيب نواصي الأطفال ،والأصل فيه أن الهموم والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان ،أسرع فيه الشيب ،لأنّ كثرة الهموم توجب انعصار الروح إلى داخل القلب ، وذلك الانعصار يوجب انطفاء الحرارة الغريزية ،وانطفاء الحرارة الغريزية وضعفها يوجب بقاء الأجزاء الغذائية غير تامة النضج ،وذلك يوجب استيلاء البلغم على الأخلاط ،وذلك يوجب ابيضاض الشعر)[6].

---

(١) التفسير ورجاله : ٦٩.

(٢) التفسير الكبير : ١٥٤/١٩ م١٠.

(٣) التفسير : ٧٣/٢١ م١١.

(٤) الوافي بالوفيات : ٢٥٥/٤-٢٥٦.

(٥) سورة المزمل : من الآية ١٧.

(٦) التفسير : ١٨٤/٣٠ م١٥.

وحديثه عن الطبيعيات منتشر في كل أجزاء التفسير، ويبدو واضحاً.

كذلك نبغ الفخر في علوم العربية، وله نقولات كثيرة من أئمة النحو في تفسيره، وقد قال بعض من ترجموا له إنه كانت له انتقادات على النحويين [1]، ومن كتبه: (شرح المفصل للزمخشري).

كذلك عرف بأنه بلاغي من خلال تناوله لكتابي عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) وتلخيصه وتحريره لمسائلهما في كتابه (نهاية الايجاز).

وهو في كل هذه العلوم نراه مثالاً للباحث المدقق، الذي يغوص في مسائل العلم بأنواعه، فيكشف الغامض، ويحرر المبهم.

صفاته :

كان يحضر مجلسه حشد كبير من الناس من شتى المذاهب والمعتقدات والطبقات، بل الحكام وأهل السلطة أيضاً، فكان يجيب عن سؤال كل واحد بأحسن إجابة، ولذلك كان موضع إجلال وإكبار وحب من تلاميذه، وكل من يحضر مجلسه. وقد كان لوعظه أثر كبير على قلوب الناس، فكان يَبْكي ويُبْكي كما يقول صاحب وفيات الأعيان [2]، وهذا يدل على فصاحة لسانه ورجاحة عقله وحسن إلقائه، وقوة حجته.

ذكر أهل العلم أنه كان يمتاز بخصال خمس ما جمعها الله لغيره وهي :

الخصلة الأولى : سعة العبارة، والقدرة على الكلام، وهذا راجع إلى معرفته بأصول النحو العربي والبلاغة العربية.

---

(١) الإمام فخر الدين الرازي، د. علي العماري : ٥٧.

(٢) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩.

الخصلة الثانية : صحة الذهن . والثالثة : الاطلاع وهذا يعود إلى شغفه بالعلوم ، دون التمييز بين علم وآخر ، فتعلم العلوم جميعها ، فرض من الفرائض الشرعية كما يقول [١] . الرابعة : المحافظة المستوعبة وهذه نتيجة مداومته على العلم ، فهي تعين على تفجر القرائح . والخامسة : الذاكرة التي تعينه على ما يريد [٢].

وكثير من أصحاب التراجم أثنوا عليه ومدحوه ووصفوه بصفات تدل على شدة إعجابهم به ، ومكانته العالية .

يقول الصفدى : (الإمام العلامة فريد دهره ونسيج وحده) [٣].

ويقول طاش كبرى زاده : (بحر ليس للبحر ما عنده من الجواهر ، وحبر سما على السماء وأين للسماء مثل ما له من الزواهر ، وروضة علم تستقل الرياض نفسها أن تحاكي ما لديه من الأزاهر ، انتظمت بقدره العظيم عقود الملة الاسلامية) [٤].

فهو بحر لا ككل البحار ، زهر في السماء ، روضة علم لا ككل الرياض . . فهذا هو إنصاف أهل العلم للعلماء ، وتقديرهم لهم ، وإكبارهم لمنزلتهم ومعرفة لمكانتهم .

أما صفاته الخَلْقِيّة فقد كان عبل البدن ، ربع القامة ، كبير اللحية في صورته فخامة ووقار وحشمة ، جهوري الصوت ، له ثروة ومماليك وبزة حسنة [٥].

---

(١) تنظر وصيته في طبقات الشافعية الكبرى : ٨/ ٩٠ - ٩٣ .

(٢) ينظر وفيات الأعيان : ٤/ ٢٤٨ .

(٣) الوافي بالوفيات : ٤/ ٢٤٨ .

(٤) مفتاح السعادة : ٢/ ١١٦ .

(٥) شذرات الذهب : ٥/ ٢١ .

مذهبه العقدي والفقهي :

كان الفخر سنياً أشعرياً ،دافع عن عقيدة أهل السنة والجماعة في كثير من كتبه [١] ،وتفسيره ملئ بتأييدهم ،ورد سائر الفرق التي تخالفهم.

يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [٢] : (اعلم أن جماعة من أصحابنا يحتجون بأمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام على أن آدم أفضل من الملائكة ... قال أكثر أهل السنة الأنبياء أفضل من الملائكة ،وقالت المعتزلة بل الملائكة أفضل من الأنبياء، وهو قول جمهور الشيعة ،وهذا القول اختيار القاضي أبي بكر الباقلاني من المتكلمين منا ،وأبي عبدالله الحليمي من فقهائنا) [٣] ففي قوله : (جماعة من أصحابنا) يدل على أنه من أهل السنة.

وفي قوله : (القاضي أبي بكر الباقلاني من المتكلمين منا ...) يدل على أنه أشعري .

وقد نقل صاحب (لسان الميزان) عن ابن الطباخ : (أن الفخر كان شيعياً يقدم محبة أهل البيت لمحبة الشيعة حتى قال في بعض تصانيفه : وكان عليّ شجاعاً بخلاف غيره) [٤].

وهذه دعوى لا أساس لها من الصحة ،فالفخر لم يكن شيعياً ولم يكن يفضل علياً على غيره من الصحابة ،وتفسيره ملئ بمحبة الصحابة رضوان الله عليهم ،بل كان أحياناً يُفضل سيدنا أبي بكر -رضي الله عنه- على عليّ بن أبي طالب وله كتاب في (فضائل الصحابة) .

---

(١) ينظر الإمام فخر الدين الرازي ،د. على العمارى : ٥٩ ومابعدها.

(٢) سورة البقرة : من الآية ٣٤.

(٣) التفسير : ٢/٢٣٤ م١.

(٤) لسان الميزان : ٤/٤٢٩.

كما ذكر ابن السبكي أن الفخر نازل فرق الشيعة.(١)

وقد مدح أبا بكر الصديق رضي الله عنه في مواضع كثيرة من التفسير راداً على مزاعم الشيعة .

فمثلاً يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ﴾(٢) : (أجمع المفسرون منا على أن المراد منه أبو بكر رضي الله عنه - واعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية ، ويقولون إنها نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام(٣) .... ولما ذكر ذلك بعضهم في محضري قلت : أقيم الدلالة العقلية على أن المراد من هذه الآية أبو بكر ، وتقريرها أن المراد من هذا الأتقى أفضل الخلق ، فإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد هو أبو بكر ، فهاتان المقدمتان متى صحتا صح المقصود).(٤)

وقد تكرر مثل هذا التفضيل في مواضع كثيرة من التفسير - كما قلت سابقاً -.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى : ٧/٧٢.

(٢) سورة الليل : ١٧ ، ٢١.

(٣) ذكر الدكتور علي العماري أنه سمع بعض العلماء يقول : إن الفخر لم يذكر علياً في تفسيره إلا مقروناً بقوله عليه السلام ، ثم يقول إن ذلك في الغالب وليس دائماً ، وعلل ذلك بأن الفخر كان يحب علياً حباً شديداً ويعرف قدره ، فقد مدحه في تفسير سورة الفاتحة حيث قال : (ومن اقتدى في دينه بعلي بن أبي طالب فقد اهتدى) والدليل عليه قوله عليه السلام : (اللهم أدر الحق مع علي حيث دار) ، وقوله : (ومن اتخذ علياً إماماً لدينه فقد استمسك بالعروة الوثقى في دينه) . الإمام فخر الدين الرازي : ٦٥.

(٤) التفسير : ٣١/٢٠٥ م ١٦.

أما مذهبه الفقهي : فقد كان شافعياً وله مؤلفات عدة في ذلك ، له (مناقب الإمام الشافعي)[١] و (شرح الوجيز للغزالي) في فروع الفقه الشافعي[٢] و (ترجيح مذهب الشافعي وأخباره) و (شرح أبيات الشافعي الأربعة)[٣].

وقد تعصب لهذا المذهب ،ودافع عنه ،وكان يناهض الحنفية ،ويجادلهم ويناقش أقوالهم ،ويرد عليهم كثيراً كما يبدو ظاهراً في تفسيره ،دون غيرها من المذاهب ،التي قد يذكرها أحياناً.

من ذلك أنه عرض للخلاف في القراءة خلف الإمام ،وذكر رأى الشافعي الذى أوجبها ،ثم ذكر رأى أبي حنيفة الذى قال : (تكره القراءة خلف الإمام بكل حال) ، ورد عليه بثلاث عشرة حجة.[٤]

وهذا الاتجاه كثير جداً في تفسيره.

على أنه قلّ ما يخالف رأى الشافعي كقوله في تفسيره قوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾[٥] : (قال أبوحنيفة : إخفاء التأمين أفضل ، وقال الشافعي رحمه الله إعلانه أفضل ،واحتج أبوحنيفة على صحة قوله قال في قوله : " آمين " وجهان : أحدهما : أنه دعاء ، والثاني : أنه من أسماء الله ، فإن كان دعاء وجب إخفاؤه ، لقوله تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ وان كان اسماً من أسماء الله تعالى وجب إخفاؤه ، لقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾[٦] ... ونحن بهذا القول نقول)[٧].

فهو قد اختار إخفاء التأمين ،خلافاً لما رآه الشافعي .

---

(١) لسان الميزان : ٤٢٧/٤ .
(٢) وفيات الأعيان : ٢٤٩/٤ .
(٣) الوافي بالوفيات : ٢٥٥/٤ .
(٤) التفسير الكبير : ٢١٨/١-٢٢٠ .
(٥) سورة الأعراف : من الآية ٥٥ .
(٦) سورة الأعراف : من الآية ٢٠٥ .
(٧) التفسير : ١٣٧/١٤م٧ .

عصر الإمام الفخر الرازي :

عاش الفخر في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، وهو عصر ملىء بالاضطرابات السياسية والاجتماعية والعقلية والدينية، والدولة الإسلامية قد انقسمت على نفسها .

فالدولة الخوارزمية في خراسان وخوارزم ، والدولة الغورية في بلاد الغور والأفغان والهند ، وكانت الحروب بينهما سجالاً ، وكان التتار يزحفون نحو الدولة الإسلامية ، والحملات الصليبية قائمة في الشام وغيرها من البلدان المتاخمة .

وفي خضم هذه الأحداث كثرت الخلافات المذهبية في الري بين الشافعية والحنفية والشيعة ، وكثرت الفرق الكلامية ، واشتد الجدل بينها من شيعة ومعتزلة وكرامية ومرجئة ، ونشطت الحركة الفكرية والثقافية في شتى العلوم .

في هذه الأوضاع نشأ الفخر الرازي ، وفتح عينيه على كل هذه الأحوال ، فاتجه علمه نحوها ، واتصل بعامة الناس ، وجادل الفرق ، ورد أقوالهم الباطلة ، فكثرت مؤلفاته حول تثبيت عقيدة المسلم ومحاولة ترسيخ المفاهيم الإسلامية التي تزعزعت في هذه الظروف .(١)

----

(١) ينظر الإمام فخر الدين الرازي : ٢٨ ومابعدها .
مقدمة كتاب المحصول في علم أصول الفقه ، للفخر الرازي : ١/ ٢٩-٣٢ القسم التحقيقي . تحقيق : د . طه جابر العلواني .

مؤلفاتـــــه :

خلّف الفخر ثروة عظيمة من الكتب القيمة التي حظيت باهتمام كبير ، يقال إنها بلغت مائتي مصنف [١] ، ولا يكاد يخلو كتاب من الكتب التي ترجمت له من ذكر مجموعة منها .

ذكر ابن خلكان كثيراً منها ويقول فيها : (كل كتبه ممتعة وانتشرت في البلاد فاشتغل الناس بها ورفضوا كتب المتقدمين) [٢] .

وسبب ذلك طريقته المتفردة في جمع المعلومات ، واستقصاؤه لكل حقائق العلم الذى يتحدث عنه ، والقدرة على مناقشة كل رأى وتحليله ، والاستنباط بعقلية ذكية فذة ، ومن البدهي أن الإنسان يحب أن يقرأ الكتب الشاملة الجامعة لكل ما قيل في العلم الواحد .

وعندما يقول (ابن خلكان) : إن الناس قد رفضوا كتب المتقدمين لا لما فيها من العلوم ، بل لأن العلم الواحد في كتب الأقدمين متفرق بين عدة كتب ، أما كتب الفخر فقد جمعت العلم الواحد وحللته واستنبطت منه .

أشهر كتبه وأهمها (التفسير الكبير) المسمى بمفاتيح الغيب وقد ذكر في التفسير أسماء بعض كتبه في مواضع متفرقة ، من هذه الكتب :

١ - (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) ، يقول : (ومن تأمل كتابنا في دلائل الإعجاز ، علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه الفصاحة إلى النهاية القصوى) [٣] . وهو مطبوع متداول .

---

(١) البداية والنهاية : ١٣/٥٥ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩ .

(٣) التفسير : ٢/١٢٧م١ .

٢ - المحصول في علم الأصول : يقول وهو يتحدث عن الميتة في آية ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴾ (١) : (وقد استقصينا الكلام فيه في كتاب المحصول في علم الأصول) (٢) ، وأشار إليه مرة أخرى وهو يتحدث عن تفسير قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٣) في اختلاف داود وسليمان عليهما السلام والمأخذ عليهما يقول : (أما المأخذ الأول فقد تكلمنا فيه في الجملة في كتابنا المسمى بالمحصول في الأصول) (٤). وهذا الكتاب مطبوع حققه الدكتور طه جابر العلواني .

٣ - الجبر والقدر : يقول وهو يتحدث عن خلق الله لأعمال العباد عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ (٥) : (واعلم أنا أطنبنا الكلام في هذا الدليل في كتاب الجبر والقدر) (٦) ويذكر الزركلي أنه مخطوط .

٤ - كتاب الأربعين في أصول الدين : يقول عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ (٧) : (وفي كتاب الأربعين في أصول الدين أن ما سوى الواحد ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فهو محدث) (٨) ويذكر الزركلي أنه مطبوع .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٧٣ .

(٢) التفسير ٥/١٥ م٣ .

(٣) التفسير : ٢٢/١٩٦ م١١ .

(٤) التفسير : ٥/١٥ م٣ .

(٥) سورة الأنعام : من الآية ١٠٢ .

(٦) التفسير : ١٣/١٢٧ م٧ .

(٧) سورة الأنعام : من الآية ١٠٠ .

(٨) التفسير : ١٣/١٢٠ م٧ .

٥ - الرياض المونقة : يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾[١] : (والمراد افتراق الناس في الأديان ، والأخلاق والأفعال،واعلم أنه لا سبيل إلى استقصاء مذاهب العالم في هذا الموضع ،ومن أراد ذلك فيطالع كتابنا الذى سميناه بالرياض المونقة)[٢].

٦ - تأسيس التقديس : يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[٣] : (ومن أراد الاستقصاء في الآيات والأخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس)[٤] وهو مطبوع[٥].

٧ - لوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات : يقول عند قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾[٦] يقول : (واعلم أن لنا في تفسير أسماء الله كتاباً كبيراً ،كثير الدقائق ،شريف الحقائق سميناه بلوامع البينات في تفسير الأسماء والصفات)[٧] وهو مطبوع ،طبعته مكتبة الكليات الأزهرية ،راجعه طه عبد الروءوف سعد[٨].

هذا وقد جمع الدكتور علي العماري أسماء كل كتب الفخر المثبتة في المصادر المختلفة ومن أراد المزيد فليرجع إليه[٩].

---

(١) سورة هود : من الآية ١١٨.

(٢) التفسير : ١٨/٧٨ م٩

(٣) سورة طه : ٥ .

(٤) التفسير : ٢٢/٧ م١١.

(٥) الأعلام : ٧/٢٠٣.

(٦) سورة الأعراف : من الآية ١٨٠.

(٧) التفسير : ١٥/٧٠ م٨ .

(٨) المباحث البيانية في تفسير الفخر ،د. أحمد هنداوى : ١٩ رسالة دكتوراه مخطوطة -جامعة الأزهر .

(٩) ينظر الإمام فخر الدين الرازى : ٤٢ ومابعدها .

شـــعره :

للفخر الرازي شعر هو أقرب إلى النظم منه إلى الشعر ، لخلوه من الخيال والتعبيرات الشعرية .

وقد قال الصفدي في ذلك : (وكان عارفاً بالأدب ، له شعر بالعربي ليس في الطبقة العليا ولا السفلى ، وشعر بالفارسي لعله يكون فيه مجيداً) .(١)

وقد تأملت شعره فوجدته يدور حول غرضين :

الأول : حديث في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها ، وحمل النفس على طاعة الله ، والابتعاد عن الهوى .

الثاني : رثاء ابنه محمد الذي توفي في ريعان شبابه ، وقد بث بعضه في ثنايا التفسير .

فمن النوع الأول قوله في زهده في الدنيا :

نهاية إقدام العقول عقال	وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال (٢)

---

(١) الوافي بالوفيات : ٢٤٩/٤ .

(٢) الوافي بالوفيات : ٢٥٠/٤ .

ويبدو أنه قال هذه الأبيات في أواخر عمره ،كما يظهر من البيت الثالث ، والفخر هنا يعيش غربة روح المؤمن في هذه الدنيا .

وله أبيات أخرى يذكر فيها قلة تعلقه بالدنيا يقول :

فلو قنعت نفسي بميسور بُلغة … لما سبقت في المكرمات رجالها

ولو كانت الدنيا مناسبة لها … لما استحقرت نقصانها وكمالها

ولا أرمق الدنيا بعين كرامة … ولا أتوقى سوءها واختلالها

وذاك لأني عارف بفنائها … وستيقن ترحالها وانحلالها

أروم أموراً يصغر الدهر عندها … وتستعظم الأفلاك طراً وصالها (١)

وله قصيدة نونية طويلة سماها (الهادية للتقليد المؤدية إلى التوحيد) أولها :

يا طالب التوحيد والإيمان … أبشر بكل كرامة وأمان

واعلم بأن أجلّ أبواب الهدى … تقرير دين الله بالبرهان (٢)

ويظهر من اسمها ومن هذين البيتين أنها من النظم التعليمي الخالي من روح الشعر .

أما النوع الثاني : فهو - كما قلت - في رثاء ابنه محمد ، فقد بكاه بكاءً مريراً .

وكثيراً ما كان يرجع حزنه وشعوره بضيق الصدر إلى فقده لهذا الولد الصالح ،فمثلا يقول عقب انتهائه من تفسير سورة يوسف : (وقد كنت

---

(١) الوافي بالوفيات : ٢٥٧/٤ .

(٢) المصدر السابق : ٤/ ٢٥٨ .

ضيق الصدر جداً بسبب وفاة الولد الصالح محمد تغمده الله بالرحمة والغفران، وخصه بدرجات الفضل والإحسان، وذكرت هذه الأبيات في مرثيته على سبيل الإيجاز :

فلو كانت الأقدار منقادة لنـــا   فديناك من حُمَّاك بالروح والجسم

ولو كانت الأملاك تأخذ رشـــوة   خضعنا لها بالرق في الحكم والاسم

ولكنه حكم إذا حان حينــه   سرى من مقر العرش في لَجَّة اليــم

سأبكي عليك العمر بالدم دائماً   ولم أنحرف عن ذاك في الكيف والكم

سلام على قبر دفنت بتربـــه   وأتحفك الرحمن بالكرم الجـــم

وما صدني عن جعل جفني مدفناً   لجسمك إلاّ أنه أبداً يهمـــى

وأقسم إنْ مسوا رفاتي ورمتـي   أحسوا بنار الحزن في مكمن العظم

حياتي وموتي واحد بعد بُعْدكم   بل الموت أولى من مداومة الغــم

رضيت بما أمضى الإله بحكمه   لعلمي بأني لا يجاوزني حكمـــى (١)

وشعره هذا أقرب إلى الكلام العادى منه إلى الشعر، وفيه مصطلحات المنطق كالروح والجسم والكم والكيف والحكم .

وله أيضاً أبيات في نهاية تفسير سورة الرعد في رثاء ابنه يقول : (وأقول في مرثية ذلك الولد شعراً :

أرى معالم هذا العالم الفـاني   ممزوجة بمخافات وأحـــزان

خيراته مثل أحلام مفزعـــة   وشره في البرايا دائــم دان (٢)

---

(١) التفسير : ١٨/٢٣٣ م٩٠

(٢) المصدر نفسه : ١٩/٧٢ م١٠٠

تفسير الفخر الرازي (مفاتيح الغيب)[1]

يعد هذا التفسير من أهم مؤلفات الفخر الرازي ، وأعلاها مكانة، ومنزلة، لم يكتبه دفعة واحدة على طريقة مرتبة ابتداءً بالفاتحة وانتهاءً بالناس كما فعل أكثر المفسرين ، إنما أملى أكثره يقول الصفدي : (ومن تصانيف الإمام رحمه الله تعالى "التفسير" الذي له وهو في ستة وعشرين مجلداً ، ذكر تفسير الفاتحة منه في مجلدة وهو على تجزئة ، الفاتحة في أكثر من ثلاثين مجلداً ، وأكمل التفسير على المنبر إملاء)[2] ، وقد لاحظت في تفسيره أنه كان يحيل عند تفسير السور المتقدمة من القرآن إلى السور المتأخرة.
وهذا يدل على أنه لم يفسره مرتباً حسب سور القرآن .
فقد أحال وهو يفسر سورة البقرة على سورة الشعراء ، فيقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾[3] : (إن محل العلم هو القلب . . . واستقصينا بيانه في قوله ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾[4] في سورة الشعراء)[5] .

---

(١) من طبعات الكتاب : طبعة المطبعة الخيرية بمصر عام ١٣٠٨هـ في ثمانية مجلدات ، وطبعة المطبعة البهية المصرية بميدان الأزهر في ستة عشر مجلداً ، ومنها نسخ مصورة : طبعة دار إحياء التراث ببيروت ، وطبعة دار الفكر عام ١٤٠٥هـ وتقع هاتان الطبعتين في ستة عشر مجلداً والطبعة الأخيرة هي التي اعتمدت عليها، وهي مليئة بالأخطاء في النحو والإملاء وكتابة الآيات القرآنية ، وقد صححت منها ما صادفني .

(٢) الوافي بالوفيات

(٣) سورة البقرة : من الآية ٧ .

(٤) سورة الشعراء : ١٩٣ ومن الآية ١٩٤ .

(٥) التفسير : ١٣٣/٧ م٤ .

وأحال في تفسير سورة الحجر إلى سورة الملك عند قوله تعالى :
﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [(١)] يقول : (... فقد استقصينا الكلام فيه في سورة الملك ... فلا نعيد ههنا إلا القدر الذى لا بد منه) [(٢)].

وهكذا تجد ذلك في أكثر السور .

ويبدو من التفسير أنه ألفه في فترة ممتدة من عمره قاربت الثمان سنوات كما يفهم من التواريخ التي كان يثبتها عند نهاية تفسير أكثر السور. فأول تاريخ أثبته في نهاية تفسير سورة آل عمران يقول : (تم تفسير هذه السورة بفضل الله وإحسانه يوم الخميس أول ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وخمسمائة) [(٣)].

وآخر تاريخ أثبته سنة ٦٠٣ هـ يقول عقب تفسير سورة " الفتح " :
(تم تفسير هذه السورة يوم الخميس السابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وستمائة من الهجرة النبوية) [(٤)].

وعلى هذا فتفسيره للقرآن وقع بين سنة ٥٩٥ هـ و ٦٠٣ هـ [(٥)].

---

(١) سورة الحجر : من الآية ١٦ .
(٢) التفسير : ١٧٢/٩ م١٠
(٣) التفسير : ١٦٢/٩ م٥ .
(٤) المصدر السابق : ١٠٩/٢٨ م١٤ .
(٥) ينظر الإمام فخر الدين الرازى ، د . علي العمارى : ١٧٠ .

آراء العلماء حول التفسير الكبير

تعرض منهج الفخر في تفسيره لكثير من انتقادات العلماء ،ذلك لأنهم رأوا أن تفاسير القرآن قبله اقتصرت على تحليل تراكيبه وبيان لنكته ولطائفه وإعرابه ، كما عند الزجاج والفراء والشريف الرضي والزمخشري .

ثم وجدوا تفسير الفخر الرازي قائماً على نمط آخر ، فهو ملئ بكل أنواع العلوم والحكم ،ولم يقتصر على الناحية المتصلة بمعناه اللغوي ،فقد تعرض لكل علم وفن ورأي وشبهه ،فناقش وحلل وفند وشرح .

ولذلك فقد قال ابن خلكان فيه : (له تصانيف مفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم ،جمع فيه كل غريب وغريبة).(١)

وكان الفخر قاصداً أن يجمع فيه كل شيء ،لأنه رأى أنه لا بد من الغوص في منابع القرآن ،وتفجير كل ما فيه من أسرار ،من ذلك أنه يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾(٢) بعد أن يبين الفوائد الفلكية في الآية : (.. إنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار ، لا لتكثير النحو الغريب ، والاشتقاقات الخالية عن الفوائد ،والحكايات الفاسدة نسأل الله العون والعصمة).(٣)

ولذلك أخذ الفخر ينتقل من علم إلى آخر ،ومن رأي إلى آخر ومن شبهة إلى أخرى على مدار التفسير كله ، حتى إن صاحب كشف الظنون

---

(١) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩ .

(٢) سورة الأعراف:من الآية ٥٤ .

(٣) التفسير : ١٤/١٢٧م٧ .

يقول فيه : (إن الإمام فخر الدين الرازي ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب) .(١)

حقاً لقد ملأ الفخر تفسيره بأقوال علماء الفلسفة والمنطق ، وأدخلها في تفسير أكثر الآيات .

من ذلك أنه يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾.(٢) : (.. إنّ التخيلات الذهنية كثيراً ما تكون أسباباً لحدوث الحوادث الكثيرة ، أليس تصور المنافي يوجب حصول كيفية الغضب ، ويوجب حصول السخونة الشديدة في البدن ، أليس اللوح الطويل إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي ، ولو جعل كالقنطرة على وهدة لم يقدر على المشي عليه) .(٣)

وكما يقول حاجي خليفة فإن الناظر يتعجب من سرده لكل هذه المعلومات المتنوعة في تفسير الآية الواحدة ، وبذلك يُشْهد له بتفرده في هذا النوع من التأليف .

ومن العلماء من كان ينقص من قيمة التفسير بسبب منهجه فيقول أبوحيان في تفسيره : (جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ، ولذلك قال بعض المتطرفين من العلماء فيه كل شيء إلاّ التفسير) .(٤)

في كلامه نظر ، ولعل الذين قالوا بأن فيه أشياء لا حاجة بها في علم التفسير يقصدون حديثه عن أشياء لا تمثل أهمية كبيرة ،

---

(١) نقلاً عن التفسير والمفسرون : د . محمد حسين الذهبي : ١/٢٩٥-٢٩٦ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ٤٥ .

(٣) التفسير : ٨/٥٣ م٤ .

(٤) البحر المحيط : ١/٣٤١ قال ذلك وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ .. ﴾ البقرة : من الآية ١٠٦ .

كتحديده لثمن شراء يوسف عليه السلام ، وخوضه في أقوال العلماء . أو كتحديده لمقدار المال الممدود في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ﴾ (١) أو تحديده لصفة سفينة نوح ومساحتها في قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ .. ﴾ (٢) حيث يقول : (ذكروا في صفة السفينة أقوالاً كثيرة : فأحدها : أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين ، وقيل في أربع سنين ، وكان طولها ثلثمائة ذراع ، و عرضها خمسون ذراعاً ، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً ، وكانت من خشب الساج) . (٣)

وكما أن هناك من يقول عن التفسير إن فيه كل شيء إلاّ التفسير كذلك هناك من يحكم عليه بأنه جامع لعلم التفسير ، إلاّ أن فيه عيوباً، يقول صاحب لسان الميزان : (ورأيت في " الاكسير في علم التفسير " للنجم الطوفي ما ملخصه : " ما رأيت في التفسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبي ومن تفسير الإمام فخر الدين إلا أنه كثير العيوب ") . (٤)

ويعد هذا التفسير جامعاً ، لأنّ الفخر لم يترك شيئاً مما قاله السابقون في الآية إلاّ ذكره ، متتبعاً لمقالاتهم ، مهتماً بمناقشة مذاهبهم ، مفنداً الباطل منها ثم ذاكراً رأيه .

وهناك من صنف عن التفسير كتباً ، بين فيه مآخذه عليه ، كالشيخ السرمياحي ، الذى كان شديد الحمل على الفخر والتهمة له .

---

(١) سورة المدثر : ١٢ .

(٢) سورة هود : من الآية ٣٨ .

(٣) التفسير : ١٧/٢٣٢ م٩ .

(٤) لسان الميزان : ٤/٤٢٧ - ٤٢٨ .

يقول صاحب لسان الميزان : (... حدثني شرف الدين النصيبي عن شيخه سراج الدين السرمياحي المغربي أنه صنف كتاب المأخذ في مجلدين، بين فيهما ما في تفسير الفخر من الزيف والبهرج ، وكان ينقم عليه كثيراً ويقول : يورد شبه المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق ، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق في غاية من الوهاء) .[١]

هل أكمل الفخر تفسيره؟:

ذكر بعض من تحدث عن سيرة الفخر الرازي أن له تفسيراً لم يكمله وذكر آخرون أن الذي أكمله شهاب الدين بن خليل الخويـّي ونجم الدين أحمد بن محمد القمولي .

يقول ابن خلكان : (له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم ، جمع فيه كل غريب وغريبة ،وهو كبير جداً لكنه لم يكمله) .[٢]

ويقول العماد الحنبلي : (ومن تصانيفه تفسير كبير لم يتمه في اثني عشر مجلداً كباراً) .[٣]

ويقول حاجي خليفة : (وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولي تكملة له وتوفي سنة ٧٢٧ هـ ،وقاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الخويـّي الدمشقي كمل ما نقص منه أيضاً وتوفي سنة٦٣٩ هـ) .[٤]

---

(١) المصدر السابق : ٤/٤٢٨ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤/٢٤٩ .

(٣) شذرات الذهب : ٥/ ٢١ .

(٤) كشف الظنون : ٢/١٧٥٦ .

ويقول ابن أبي أصيبعة في كتابه : (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) عند ترجمته لحياة أحمد بن خليل الخويّي : (ولشمس الدين من الكتب تتمة تفسير القرآن لابن خطيب الري) .(١)

ويقول ابن السبكي في (طبقات الشافعية) في ترجمته لنجم الدين القمولي: (وله تكملة في تفسير الإمام فخر الدين) .(٢)

وقد لاحظت في التفسير ما يوهم أن الفخر لم يكمله ذلك أنه يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾(٣) في سورة الواقعة : (وشيء من هذا رأيته في كلام الإمام فخر الدين الرازي -رحمه الله- بعد ما فرغت من كتابة هذا مما وافق خاطري خاطره ،على أني معترف بأني أصبت منه فوائد لا أحصيها) .(٤)

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٥) من السورة نفسها : (قال المفسر : المسألة الأولى أصولية ،ذكرها الإمام فخر الدين -رحمه الله- في مواضع كثيرة ونحن نذكر بعضها) .(٦)

وقد علق العلماء الذين نهضوا بتحقيق طبعته الأخيرة على الآية السابقة بقولهم في هامش الصفحة : (هذه العبارة تشعر وتؤكد أن الكتاب لمؤلف آخر غير فخر الدين الرازي ،وإنما هو لأحد تلامذته ،وربما كان من العلماء المتأخرين) .(٧)

---

(١) ٢/ ١٧١ .

(٢) ٥/ ١٢٩ .

(٣) سورة الواقعة : ٢٣ .

(٤) التفسير : ٢٩/ ١٥٥ م١٥ .

(٥) سورة الواقعة : ٢٤ .

(٦) التفسير : ٢٩/ ١٥٦ م١٥ .

(٧) التفسير : ٢٩/ ١٥٦ م١٥ .

وحددت بعض المصادر الموضع الذى وصل إليه الإمام الفخر في تفسيره فقد جاء في هامش كشف الظنون قوله : (الذى رأيته بخط السيد مرتضى نقلاً عن شرح الشفاء للشهاب أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء)[١].

فنحن الآن أمام مسألتين لا بد من التحقيق فيهما :

الأولى : هل أتم الفخر التفسير أو أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء وما بعدها ليست له.

الثانية : هل فسر الفخر سورة الواقعة أو أنها لغيره.

الذى أراه أن الفخر قد أتم تفسيره ، لأنه يحيل في تفسير بعض السور إلى ما بعد سورة الأنبياء .

فمثلاً يحيل وهو يفسر سورة سبأ على سورة الأعراف ، وسورة سبأ بعد سورة الأنبياء كما نعلم ، يقول في قوله تعالى : * قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ *[٢] : (قد ذكرنا في سورة الأعراف أن قوله * لَا تَسْتَأْخِرُونَ * يوجب الإنذار ، لأن معناه عدم المهلة عن الأجل)[٣].

ويحيل في الحديد على البقرة ، يقول في قوله تعالى : * مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً *[٤] : (... وهذه الآية مفسرة في سورة البقرة)[٥].

---

(١) نقلاً من كتاب (الإمام فخر الدين الرازى) ، للدكتور علي العمارى : ١٦٣ .

(٢) سورة سبأ : ٣٠ .

(٣) التفسير : ٢٥٩/٢٥ م١٣ .

(٤) سورة الحديد : من الآية ١١ .

(٥) التفسير : ١٦٩/٢٧ م١٤ .

كذلك نجد أن التواريخ المثبتة في أواخر السور التي بعد الأنبياء توافق تاريخ حياة الفخر، وهذا يعني أنه مفسر هذه السور.

يقول في آخر سورة (ص): (تم تفسير هذه السورة يوم الخميس الثاني من شهر ذي القعدة سنة ثلاث وستمائة)(١).

ويقول في آخر سورة فصلت: (تم تفسير هذه السورة وقت ظهر الرابع من ذي الحجة سنة ثلاث وستمائة ..)(٢).

وهذه أدلة تدل على أنه هو الذي أكمل التفسير.

كذلك لاحظت أن التفسير يسير على نمط واحد وطريقة واحدة في الأسلوب، لأن لكل متكلم خصائص صياغية خاصة به ويعرف بها وقد لاحظ الدكتور أحمد هنداوي أن الفخر كان يكثر من عبارة (لا بد وأن) في كل تفسيره، وهذا يدل على أنه له.(٣)

فمثلاً يقول الفخر عند شرح معنى الاستعاذة في أول التفسير: (... إن قوله: "أعوذ بكلمات الله التامات" إنما يحسن ذكره إذا كان قد بقي في نظره التفات إلى غير الله، وأما إذا تغلغل في بحر التوحيد ... فلا جرم أن يقول: "أعوذ بالله" و: "أعوذ من الله بالله" كما قال عليه السلام: "أعوذ بك منك" واعلم أن في هذا المقام يكون العبد مشتغلاً أيضاً بغير الله، لأن الاستعاذة لا بد وأن تكون لطلب أو لهرب وذلك اشتغال بغير الله تعالى ..)(٤).

---

(١) المصدر السابق: ٢٦/٢٣٦ م١٣.

(٢) المصدر السابق: ٢٧/١٤١ م١٤.

(٣) ينظر المباحث البيانية في تفسير الفخر: ٤٢ ومابعدها.

(٤) التفسير: ١/٧٩ م١.

ويقول وهو يفسر قوله تعالى من سورة الأنبياء : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ (١) : (ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه ، لأن الولد لا بد وأن يكون شبيهاً بالوالد ، فلو كان لله ولد لأشبهه في بعض الوجوه ، ثم لا بد وأن يخالفه من وجه آخر ..) (٢) .

ويقول عند تفسير قوله تعالى في سورة الحاقة : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ (٣) : (ذكروا في حد الثواب أنه لا بد وأن يكون منفعة ، ولا بد وأن تكون خالصة من الشوائب ، ولا بد وأن تكون دائمة ، ولا بد وأن تكون مقرونة بالتعظيم) (٤) .

وتكرار مثل هذه الظاهرة تثبت أنه كتب التفسير كله ، وقد قال الدكتور أحمد الهنداوي : (وهذه الظاهرة ليست منتشرة في التفسير وحده ، بل إنها منتشرة في باقي كتبه) (٥) .

وقد لاحظت ظاهرة أخرى في أسلوبه تكثر في التفسير كله ، ذلك أنه دائماً يكرر عبارة : (وإذا عرفت هذا) ، (وإذا ثبت هذا) بعد شرحه للمقدمات .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ (٦) : في تقرير هذا القول القراءة الشاذة ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ فإن معناه

---

(١) آية : ٢٦ .

(٢) التفسير : ٢٢/١٥٩ م ١١ .

(٣) آية : ٢١ .

(٤) التفسير : ٣٠/١١٢ م ١٥ .

(٥) المباحث البيانية في تفسير الفخر : ٤٥ .

(٦) سورة البقرة : من الآية ١٨٤ .

: وعلى الذين يشجعونه ويكلفونه ، ومعلوم أن هذا لا يصح إلاّ في حق من قدر على الشيء مع ضرب من المشقة . إذا عرفت هذا فنقول : القائلون بهذا القول اختلفوا على قولين) .(١)

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾(٢) بعد أن يشرح معناها اللغوي : (إذا عرفت هذا فنقول : قيل هم الأختان ..) .(٣)

ويقول عند تفسير : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(٤) بعد ذكر الأحكام المشتملة عليها الآية : (... إنه تعالى إذا عفا فقد سقط الذم ، فعلى هذا ماهية الوجوب إنما تتقرر بسبب حصول الخوف من الذم ، وذلك حاصل بمحض العقل ، فثبت بهذه الوجوه أن الوجوب العقلي لا يمكن دفعه . وإذا ثبت هذا فنقول : في الآية قولان : ...) .(٥)

ويقول في قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾(٦) : (.. فثبت أن الأصل في الأغذية هو النبات ، والنبات إنما يتولد من امتزاج الأرض بالماء وهو الطين اللازب ، وإذا كان الأمر كذلك فقد ظهر أن كل الخلق متولدون من الطين اللازب ، وإذا ثبت هذا فنقول : إن هذه الأجزاء ... قابلة للحياة) .(٧)

---

(١) التفسير : ٨٥/٥ م٣ .

(٢) سورة النحل : من الآية ٧٢ .

(٣) التفسير : ٨٣/٢٠ م١٠ .

(٤) سورة الإسراء : من الآية ١٥ .

(٥) التفسير : ١٧٤/٢٠ م١٠ .

(٦) سورة الصافات : ١١ .

(٧) التفسير : ١٢٥/٢٦ م١٣ .

وتكثر هذه الظاهرة الأسلوبية في التفسير ،وسنصادف في ثنايا البحث العديد منها .

بعد هذا بقي أن أثبت أن تفسير سورة الواقعة هي من عمل الفخر؛ لأنني تأملت في السورة فوجدت فيها أدلة قاطعة تشير إلى ذلك . وجدت أن الفخر يحيل عند تفسيره لآيات منها إلى ما فسره قبلها أو إلى ما سيفسره بعدها من سور ، يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ (١) : (تقدم تفسيره في الصافات) (٢) .

ويقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٣) : (ما الفرق بين هذا الموضع وبين أول سورة تبارك حيث قال هناك : " خلق الموت والحياة " بتقديم ذكر الموت . . . وأما في سورة الملك فنذكر إن شاء الله تعالى فائدتها) (٤) .

والفخر هو الذى فسر سورة الملك بدليل إحالته في تفسيرها على سورة البقرة (٥) ،كذلك أحال وهو يفسر سورة الإنسان في قوله تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ (٦) على سورة الواقعة : (وقد تقدم تفسير هذين الوصفين في سورة الواقعة) (٧) .

---

(١) سورة الواقعة : من الآية ١٩ .

(٢) التفسير : ٢٩/١٥٣م١٥ .

(٣) سورة الواقعة : ٦٢ .

(٤) التفسير : ٢٩/١٧٨ م١٥ .

(٥) ينظر الإمام فخر الدين ،د . علي العماري : ١٨٠ .

(٦) آية : ١٩ .

(٧) التفسير : ٣٠/٢٥١ م١٥ .

كذلك في العبارة التي أوهمت أن تفسير سورة الواقعة ليست لـه دلالات على أنها له ،ففي قوله : (مصنف الكتاب) دلالة على أنه الفخـر ؛ لأنّ الذى يكتب تكملة لا يدعي أنه مصنف الكتاب .

قوله : (ختم الله له بالحسنى) توافق حال الفخر (١) الذى كان يكثر من الدعاء لنفسه ،وطلب الدعاء له ممن يقرأ التفسير .

كذلك طريقته في تفسيره لها يسير على نهج تفسيره لبقية السـور من تفصيله للمسائل ،والسؤال ثم الاجابة ،ومن ذكر النكات واللطائف البلاغية، واستعانته بأقوال الزمخشرى عند تفسير آياتها .

وبهذا رأينا أن التفسير كله للفخر الرازى ،وما حدث فيه مـن اضطراب كان من تدخل النساخ . خاصة وأنه قد صنف التفسير في آخرحياته ، وتمكن من إخراج بعض منه في تحريره النهائي ،وبقي منه شيء في المسودات والأمالي ،فلما مات قام بعض تلاميذه بتصنيف الباقي وتحريره والحاقه بالأوّل .(٢)

---

(١) ينظر الإمام فخر الدين : ١٧٧ - ١٧٨ .

(٢) ينظر التفسير ورجاله : ٨٧ - ٨٨ .

مكانته البلاغية :

لم يعرف الفخر بلاغياً إلّا من خلال كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) الذى يعد خلاصة لفكر عبد القاهر في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ، ولا نرى الفخر ملخصاً و ناقلاً منهما إنما محرراً ومنظماً وضابطاً، ومستعيناً بآراء علماء آخرين كالرماني ،والزمخشرى ،والوطواط في (حدائق السحر في دقائق الشعر)[1].

يقول في مقدمة كتابه : (ولما وفقني الله تعالى لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما ،ومقاصد فرائدهما ،وراعيت الترتيب مع التهذيب ،والتحرير مع التقرير ،وضبطت أوابد الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية ،وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية ، مع الإجناب عن الإطناب المُمِلّ ،والاحتراز عن الاختصار المُخِل)[2].

وقد اهتم كثير من الدارسين بهذا الكتاب وأولوه جلّ عنايتهم ، وبينوا أثره في الدراسات البلاغية[3].

ويعد هذا الكتاب حلقة الوصل بين بلاغة عبد القاهر والسكاكي[4]

---

(١) كتاب بالفارسية ترجمه إلى العربية : إبراهيم أمين الشواربى ،نقل عنه الفخر بعض الألوان البديعية مع أمثلتها العربية.

(٢) نهاية الإيجاز : ٧٥ .

(٣) ينظر البلاغة عند السكاكي ، د. أحمد مطلوب : ٢٤٨ ومابعدها ، البلاغة تطور و تاريخ،د.شوقي ضيف : ١٧٤ ومابعدها ،فخر الدين الرازي بلاغياً ،ماهر مهدى هلال : ٢٥٧ ومابعدها .

(٤) ينظر البلاغة عند السكاكي ، د . أحمد مطلوب : ٢٤٨ .

وتظهر أيضاً الروح البلاغية للفخر من خلال تفسيره ، فقد أودعه كثيراً من النكات البلاغية واللطائف ، ونقل جلّ ما قاله في النهاية من قوانين وأصول إلى حيز التطبيق والتحليل ، بل إنه وسّع القول فيها ، فأضاف وناقش وخالف ووافق بعقلية متميزة ، وهو في كل هذا يستمد ضوءه من مشكاة عبد القاهر والزمخشري وغيرهما .

وسأتناول - بإذن الله - مباحث علم المعاني في التفسير ، وهي كثيرة جداً ، وقد جمعت الكثير منها ، وحاولت أن أبين رأيه وطريقته في كل باب من أبواب المعاني .

وهذا أول بحث - على حسب علمي - يتناول مباحث علم المعاني في التفسير الكبير وقد سبقته دراسة لمباحث علم البيان في التفسير - بحث دكتوراه للدكتور أحمد هلال هنداوي ، كما علمت أن هناك دراسة تبحث في مباحث علم البديع في التفسير .

وهكذا فإن هذه البحوث حلقات تتواصل لتكشف عن البلاغة القرآنية كما يراها الفخر الرازي .

وأكثر الدراسات التي تناولت الفخر الرازي بلاغياً اتسمت بالشمول والعموم كدراسة الدكتور محمد جلال الذهبي (الفخر الرازي والبلاغة العربية)(١) و (فخر الدين الرازي بلاغياً) للأستاذ ماهر مهدي هلال(٢) .

حيث إنها ركزت على بلاغته في (نهاية الإيجاز) .

---

(١) رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر .

(٢) كتاب مطبوع من منشورات وزارة الإعلام بالعراق - بحث ماجستير .

وفاتـــه :

اختلف العلماء في يوم وفاته - كما اختلفوا في يوم مولده - على رأيين :

الأول : أنه توفي في غرة شوال يوم عيد الفطر يوم الاثنين سنة ٦٠٦ هـ.[١]

الثاني : أنه توفي في ذي الحجة سنة ٦٠٦ هـ.[٢]

وقيل في سبب وفاته إن الكرامية[٣] سموه ،وكان بينه وبينهم عـداء شديد[٤] ،وقد بالغ في سبّهم وتكفيرهم لسوء معتقداتهم ،وبادلوه السب والتكفير ،وآذوه كثيراً .

وله وصية أملاها في مرض موته على أحد تلامذته تدل على حسـن عقيدته[٥] وطلب منه المبالغة في إخفاء موته خوفاً على نفسه من هذه الفرقـة التي جادلها كثيراً ومن غيرها . رحمه الله وجعله من الصالحين ،وألحقنـا بهم كرامة نفس و قرة عين .

---

(١) وفيات الأعيان : ٢٥٢/٤ ،طبقات الشافعية : ٩٣/٨ ،الوافـي بالوفيات : ٢٥٠/٤ .

(٢) البداية والنهاية : ٥٥/١٣ ،النجوم الزاهرة : ١٩٧/٦ .

(٣) الكرامية فرقة تنسب إلى عبد الله محمد بن كرام ،كان ممن يثبت الصفات وينتهي بها إلى التجسيم والتشبيه ،وهم طوائف ،يبلغ عددهم اثني عشرة فرقة ولكل واحدة منها رأى . الملل والنحل ،للشهرستاني : ١٤٤/١ على هامش الفصل في الملل والاهواء والنحل ،لابن حزم .

(٤) شذرات الذهب : ٢١/٥ ،مفتاح السعادة : ١١٧/٢ .

(٥) ينظر الوافي بالوفيات : ٢٥٠/٤-٢٥١ .

الباب الأول

علم المعاني قبل الفخر الرازي

الفصل الأول : ما المراد بعلم المعاني ؟

الفصل الثاني : علم المعاني عند البلاغيين .

الفصل الثالث : علم المعاني عند المفسرين وعلماء الاعجاز

الفصل الأول

ما المراد بعلم المعاني ؟

ما المراد بعلم المعاني ؟

أهدف من هذه الدراسة إلى تتبع لفظة (المعاني) لنعرف معناها ومدلولاتها حتى غدت علماً من علوم البلاغة ، له معناه وأبوابه المستقلة به .

ينقل ابن منظور عن الأزهري معنى هذه الكلمة فيقول : (وروى الأزهري عن أحمد بن يحيى قال : المعنى والتفسير والتأويل واحد ، وعنيت بالقول كذا : أردت ، ومعنى كل كلام ومعناته ومعنته مقصده) .(١) ويقول الأزهري أيضاً : (ومعنى كل شيء محنته وحاله التي يصير إليها أمره) .(٢)

وكان الأوائل يطلقون (المعاني) على الكتب التي تبحث عن معاني ما يشكل من القرآن ، ويحتاج إلى بعض العناء في فهمه ، وهي كثيرة منها (معاني القرآن) للفراء ، و(معاني القرآن) للزجاج ، و (معاني القرآن) للأخفش . كما تطلق على الأبيات التي لا تفهم بيسر وسهولة بسبب ما يشوبها من غموض وإبهام ، إما بسبب غرابة المعنى المعبر عنه ، أو بسبب تركيب صورة وتداخلها في البيت ، أو غير ذلك من أنواع الغموض .

وقد جمع بعض العلماء هذه الأبيات في كتب مستقلة كابن قتيبة في (المعاني الكبير) ، وأبي هلال العسكري في (ديوان المعاني) . وتعني هذه التسميات تدقيق النظر والتأمل في الكلام لاستخراج معانيه التي لا تظهر واضحة .

ثم يطالعنا ابن فارس في كتابه الصاحبي بباب (معاني الكلام) فيذكر أن معاني الكلام عند أهل العلم عشرة : خبر ، واستخبار ، وأمر ، ونهي ، ودعاء ، وطلب ، وعرض ، وتحضيض ، وتمن ، وتعجب .(٣) ثم يتحدث عن خروج كل نوع من

---

(١) لسان العرب : ١٥/٦ .

(٢) تهذيب اللغة : ٢١٣/٣ .

(٣) الصاحبي : ٢٨٩ .

هذه الأنواع عن معناه إلى معاني أخرى . فالخبر يخرج إلى التعجب والتمني والنفي والأمر والنهي .

والاستخبار - أي الاستفهام - يخرج إلى التعجب والتوبيخ والتفجع وغير ذلك من المعاني ، ضارباً الأمثلة لكل نوع منها، وهكذا في بقية معاني الكلام الأخرى . فالمقصود بالمعاني هنا ليست المعاني المفهومة من الكلام مباشرة ، إنما المعاني التي هي مستتبع التركيب .

و يعد بعض من المحدثين كلام ابن فارس هذا هو الأساس الذي قامت عليه نشأة أبواب علم المعاني (١) . بل إن بعضهم قد قال إن ابن فارس ربما أوحى لعبد القاهر كثيراً من أفكاره في الدلائل (٢) ، ومن الأفضل عدم الجزم بمثل هذا التأثير ، لأنه يعني إغفالاً لدراسات أخرى أسهمت في نشأة هذا العلم . ثم إن معاني الكلام التي قال عنها ابن فارس قد عرفت عند غيره من العلماء . كذلك نجد خروج مثل هذه المعاني عن معانيها الأصلية عند كثير من العلماء كسيبويه والفراء ، وليس لابن فارس إلا أفضلية الجمع بين كلمة (معاني) وبين خروج الكلام عن ظاهره .

ثم يذكر عبد القاهر الجرجاني إمام البلاغيين (المعنى) و(معنى المعنى) و(معاني النحو) ، ويعرف المعنى بأنه المعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة . و معنى المعنى : (وهو أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر) (٣) . ويذكر عبد القاهر

---

(١) ينظر البيان العربي ، د . بدوي طبانة : ١٢٨-١٢٩ .
البلاغة عند السكاكي ، د . أحمد مطلوب : ٢٠٢-٢٠٣ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ، د . شوقي ضيف : ٦٣ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٢٦٣ .

أن معنى المعنى يكون في الكناية والاستعارة والتمثيل .

ويربط عبد القاهر بين معاني النحو والنظم ، ذلك أنه يعرف النظم بقوله : (اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه . . . وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه)[١] ثم يجعل بعد ذلك مباحث علم المعاني ، فقد ذكر الإسناد والمسند والمسند إليه وما يجريان فيه من صور كثيرة وأحوال مختلفة .

فالمسند يكون اسماً أو فعلاً ، ويكون معرفاً أو منكراً ، ويتقدم المسند إليه ويتأخر عنه ، وقد يفصل بينهما بضمير فصل ، ولكل ذلك أحواله المختلفة ، كما بحث في الشرط والجزاء على صوره المختلفة ، ودلالة كل صورة ، والحال حين يكون اسماً أو فعلاً مضارعاً أو ماضياً أو جملة اسمية ، ثم تحدث عن الحروف وخصائصها الدقيقة فى الكلام ، فالنفي (بما) غير النفي (بلا) ومواضع استخدام (إنْ) الشرطية غير موضع استخدام (إذا) ، كما ذكر مواضع الفصل والوصل بين الجمل بالواو أو الفاء أو ثم ، كما يرى أن النظم يتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإضمار والإظهار . وهذه هي مباحث علم المعاني التي انتهى إليها العلماء من بعده . وهي محصورة في أبواب ثمانية .

ويرجع عبد القاهر صحة النظم وفساده إلى معاني النحو وأبوابه التي ذكرها[٢] ، ثم يعقد فصولاً في أكثر أبواب المعاني يصور فيها المعاني الإضافية التي تفيدها هذه الأبواب .

---

(١) المصدر السابق : ٨١ .

(٢) ينظر المصدر السابق : ٨٢-٨٣ .

ثم يأتي الزمخشرى ويذكر (علم المعاني) مقروناً بعلم البيان في مقدمة تفسيره الكشاف دون تمييز أحدهما عن الآخر فهو يقول : (ولا يغوص على تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان)[1] وكرر هذين المصطلحين في ثنايا تفسيره دون تحديد دقيق لمعنييهما ، كما أشار إلى علماء المعاني ، وكان يعني بهم العلماء الذين يغوصون في بواطن الكلام لاستخراج المعاني[2] ، ولم يحدد خصائص هذا النوع من المعاني .

ويلخص الفخر الرازى من بعده كتابي عبد القاهر فيذكر علم المعاني والبيان قارناً بينهما دون تحديد لمعنييهما في كتابه (نهاية الإيجاز) .
ويقسم الكتاب إلى مقدمة وجملتين ، الجملة الأولى خاصة بالمفردات وأكثر ما فيها يتعلق بعلم البيان ، والجملة الثانية خاصة بالجملة ، تحدث فيها عن النظم ، وذكر أبواباً من علم المعاني ، متبعاً فيها طريقة عبد القاهر في الحديث عن معاني هذه الأبواب . ويتحدد المعنى الدقيق لعلم المعاني عند السكاكي ، فقد فصل بينه وبين علم البيان ، وعرف كلاً منهما تعريفاً دقيقاً يميزه ، ويحدد أبوابه ، فيقول في تعريف علم المعاني : (هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره)[3] .

فهذا العلم يبحث في أحوال مباني الكلام ، وكيف تقوم كل جملة على بناء خاص يدل على المراد ، ويؤدى المعنى المقصود على ما تقتضيه الأحوال

---

(١) الكشاف : ١/١٦ .
(٢) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى ، د . محمد أبو موسى : ٢٤٩ .
(٣) مفتاح العلوم ، ٧٠ .

التي قيلت فيه ، ويبني السكاكي هذا العلم على تراكيب البلغاء ممن يحسنون صنع الكلام ، ويحملونه أدق المعاني وألطفها ، لأنهم القادرون على ذلك لا العامة ، وكأنه يريد أنه يوجهنا إلى الغوص في أفضل المعاني والتراكيب ، ثم يقسمه إلى قانونين :

الأول : يتعلق بالخبر ، والثاني : بالطلب .

وقسم القانون الأول إلى أربعة فنون :

الفن الأول: في تفصيل اعتبارات الإسناد الخبري . والثاني : في اعتبارات المسند إليه . الثالث : في تفصيل اعتبارات المسند . الرابع : في تفصيل اعتبارات الفصل والوصل والإيجاز والإطناب.

وقسم القانون الثاني إلى خمسة أبواب هي : التمني ، الاستفهام ، الأمر ، النهي ، النداء .

وبهذا استطاع السكاكي أن يميز هذا العلم تمييزاً واضحاً ، استقر عليه حتى يومنا هذا .

ومن ثم فقد ألفت بعد المفتاح كتب كثيرة حوله أشهرها كتابا الخطيب القزويني (الإيضاح) و (التلخيص) وضح فيهما ما غمض من كلام السكاكي ، وناقشه في كثير من المسائل ، وترك بعض تعريفاته ووضع مكانها تعريفات أخرى أكثر دقة وضبطاً مستنيراً في ذلك بكتابي عبد القاهر ، وكشاف الزمخشري ، ويعرف علم المعاني تعريفاً جديداً تاركاً تعريف السكاكي إذ يقول : (وهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال) .(١)

---

(١) الإيضاح : ٨٤ .

فأحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال هي الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والإثبات والحذف وغير ذلك، فهو علم يبحث في تنوع بناء الجمل حسب الحالة التي تقتضيها أحوال النفس، وفي اختيار طريقة للتعبير عن ذلك، ثم حصر الخطيب هذا العلم في ثمانية أبواب وهي :

١ - أحوال الإسناد الخبري. ٢ - أحوال المسند إليه.

٣ - أحوال المسند. ٤ - أحوال متعلقات الفعل.

٥ - القصر. ٦ - الإنشاء.

٧ - الفصل والوصل. ٨ - الإيجاز والإطناب والمساواة.

وأرى أن تعريف السكاكي أشمل وأدق، لأن السكاكي ضبط المسألة وحددها فيما يفيد خواص التراكيب، والأبواب التي حددها السكاكي هي التي ذكرها الخطيب القزويني غير أنه قدم في ترتيبها وأخر، فقد جعل الإسناد الحكمي أو المجازي في باب الإسناد الخبري، بينما جعله السكاكي نوعاً من أنواع الاستعارة في علم البيان، وأرى أنه أشد رحماً بعلم البيان منه بعلم المعاني، فالأولى أن يجعل باباً فيه.

وهكذا فعلم المعاني يبحث في الخصوصيات الزائدة المفهومة من المعاني المباشرة، والتي حصرت في أبواب محدودة على حد ما رأينا.

ودراستي لعلم المعاني في تفسير الفخر لا يتعدى هذه الأبواب التي ذكرها السكاكي والخطيب.

وقد رأيت أن قيام البحث على مثل هذه التقسيمات سيكون له سلبياته، حيث إن الأبواب سوف تتكرر، ففي أحوال المسند إليه يذكر حذفه وذكره وتنكيره وتعريفه، وكذلك في أحوال المسند، وفي متعلقات الفعل، ولذلك فقد رأيت أن الأبر بالدراسة البلاغية القائمة على تذوق النصوص الأدبية وإظهار رونقها الخروج على مثل هذه القيود التي لا تؤثر فيها، فلذلك

جمعت كل ما له صلة بالتعريف فجعلته في باب ،وكل ماله صلة بالتنكير في باب آخر . . . وهكذا في سائر أبواب علم المعاني . ثم إني رتبت هذه الأبواب ترتيباً استضأت فيه بدراسة دكتورنا الفاضل محمد أبي موسى لعلم المعاني عند الزمخشري، فما تقتصر فيه النظرة البلاغية على مفرد واحد جمعته تحت فصل واحد وسميته باب المفرد .

وما تتعدى فيه النظرة البلاغية إلى أكثر من كلمة بأن تشمل جملة جعلته تحت اسم باب الجملة.

وما تمتد فيه النظرة البلاغية إلى غيره من جملة أوجملتين أو أكثر جعلته تحت باب الجمل .

الفصل الثاني

علم المعاني عند البلاغيين

علم المعاني عند البلاغيين

أهدف من هذا الفصل إلى تتبع أصول علم المعاني قبل الفخر الرازي ، وأبين كيف تضافرت جهود العلماء حتى مخضت علماً متكاملاً بمباحثه المعروفة ، وحتى أتبين مواقع نظرات الفخر في هذا العلم ، ومدى استفادته منه ، وهل كان امتداداً لهم؟ . وتتعدد طرق التأريخ لأي علم من علوم البلاغة ، فقد يؤرخ له من جهة مؤلفاته أو رجاله أو فنونه .
وبما أن دراستي تتناول البلاغة القرآنية ، فقد رأيت أن أبحث عن تطور قواعد وأصول علم المعاني من جهتين :

الأولى : من جهة علماء البلاغة ، الذين اعتنوا بإثبات القاعدة البلاغية ، والبحث عن شواهد محدودة لها من القرآن وكلام العرب ، ويسهم علماء اللغة مع البلاغيين في تطور هذا العلم ، لاهتمامهم بأحوال اللغة وكيفياتها المختلفة .

الثانية : عند المفسرين ومعهم دارسو الإعجاز البلاغي ، وهؤلاء اهتموا بالنظر إلى آيات القرآن ، والكشف عما تحتويه من مباحث تتعلق بعلم المعاني ، فهم محللون ومطبقون لما قيل في البلاغة على القرآن ، وقواعد البلاغة تتسع عندهم وتتشعب مسائلها لأنها في ظل التطبيق .

وسأتناول كل فن من فنون المعاني عند كل منهم ، وأتتبع تطوره حتى بدت معالمه قبل الفخر .

وسأتوخى في ذلك الإجمال والإيجاز ، ذلك لأن التتبع الدقيق لنشأة الفنون يحتاج إلى بحوث قائمة بذاتها ، تهدف إلى التوغل في المسائل ، واستبطان أولياتها ، وهذا ما لا أهدف إليه في هذا البحث .

النظر في المفردات :

اهتم العلماء منذ فترة مبكرة بالألفاظ ،فحددوا صفاتها ،ومواطن جمالها ،وحسن وقوعها في الكلام .

ينقل الرماني عن الخليل سبب تنافر وتلاؤم حروف الكلمة فيقول : (وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد ،أو القرب الشديد ،وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ،وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد) .(١)

ثم يذكر أن التلاؤم يكون : (في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد ،وذلك يظهر بسهولته على اللسان ،وحسنه في الأسماع ،وتقبله في الطباع) .(٢)

وواصل ابن جني اهتمامه بحروف الكلمة ،فرأى أن تجاور الحروف ذات القرب الشديد في المخرج هو سبب التنافر .(٣)

وأيده ابن سنان وشرح كلامه فقال : (إن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ،ولا شك أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في النظر أحسن من الألوان المتقاربة . . . وإذا كان هذا موجوداً على هذه الصفة ،لا يحسن النزاع فيه ،كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش) .(٤)

----

(١) ،(٢) النكت في اعجاز القرآن : ٨٩ .

(٣) ينظر الخصائص : ٢/٢٢٧ .

(٤) سر الفصاحة : ١٩ .

ويذهب عبد القاهر إلى أن اللفظة المفردة من حيث هي لفظة لا وزن لها في فصاحة أو في بيان أو بلاغة ، إنما يرجع حسنها إلى النظم وكيفيات الصياغة وخصائصها . يقول : (وهل تجد أحداً يقول هذه الكلمة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها) .(١) ويذكر أن من المزايا المتصلة بفصاحة اللفظ عذوبته وسلاسته وسهولة مخارجه في النطق ، وكل ذلك إنما هو من صفات الفصاحة التي لا تدخل في إثبات الإعجاز القرآني يقول : (واعلم أنا لا نأبى أن تكون حذاقة الحروف وسلاستها مما يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز ، وإنما الذى ننكره ونُفَيِّل رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به وحده ، ويجعله الأصل والعمدة) .(٢)

ويهتم عبد القاهر بالمفرد من حيث معناه ، فقد تحدث عن اللفظة التي تأتي في جمله فتحسن فيها وتؤنس ، ثم تأتي في جملة أخرى فتقبح كلفظ (الأخدع) فهي تحسن في قول الشاعر :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي وَجِعْتُ من الإِصْغَاءِ لِيتاً وأَخْدَعَا

وتقبح في قول أبي تمام :

يا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ(٣)

كذلك فرق عبد القاهر بين المفرد اسماً وفعلاً ، فالتعبير بالاسم يدل على الاستمرار والدوام ، والتعبير بالمضارع يدل على التجدد والحدوث يقول : (إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء ، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء) .(٤)

---

(١) دلائل الإعجاز : ٤٤ . تحقيق : محمود شاكر .

(٢) المصدر السابق : ٥٢٢ .

(٣) المصدر السابق : ٤٧ .

(٤) المصدر السابق : ١٧٤ .

وقد سبقه في إبراز هذا الفرق ابن فارس في كتابه (الصاحبي) في باب (الفصل بين الفعل والنعت) يقول فيه : (النعت يؤخذ من الفعل نحو قام فهو قائم . . . وهذا يسميه بعض النحويين الدائم ، وبعض يسميه اسم الفاعل، وتكون له رتبة زائدة على الفاعل ، قال جل ثناؤه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ (١) ولم يقل لا تغل يدك ، وذلك أن النعت ألزم ، ألا ترى أنا نقول : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (٢) ولا نقول : آدم عاصٍ وغاوٍ ، لأن النعوت لازمة ، وآدم وإن كان عصى في شيء ، فإنه لم يكن شأنه العصيان فيسمى به) (٣) .

واهتم العلماء كذلك بالكلمة وموقعها الملائم لها في الكلام فنقلوا لنا ملاحظات تُعزى إلى العصر الجاهلي ، تبين إحساسهم بقيمة الكلمة في أداء أدق المعاني التي يريد ونها .

من تلك الملاحظات نقد النابغة لحسان بن ثابت حين أنشد :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعْنَ في الضُّحَى
وأسيافُنا يَقْطُرنَ من نَجْدةٍ دمَا

وَلَدْنا بَني العَنْقاءِ وابْنَي مُحَرِّقٍ
فأكْرِم بِنا خالاً وأكْرِم بِنا ابنَمَا

قال له : لقد قللت جفانك فقلت (الجفنات) ولو قلت (الجفان) لكان أكثر ، وقلت : (يلمعن في الضحى) ، ولو قلت : (يبرقن بالدجى) لكان أبلغ في المديح ، وقلت : (يقطرن من نجدة دما) ولو قلت (يجرين) لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك) (٤) .

---

(١) سورة الإسراء : من الآية ٢٩ .

(٢) سورة طه : ١٢١ .

(٣) الصاحبي : ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٤) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ١٢٩ .

فالنابغة كان يعلم ما يريده حسان من المبالغة في الفخر ، فرأى أن بعض كلماته لا تؤدى المعنى الذى أراد ، لذلك وجه إليه هذا النقد ونبهه إلى كلمات تصف شعوره وتدل عليه .

كذلك لما سمع طرفة بن العبد قول المسيب بن علس :

وَقَدْ أَتَنَاسَى الهمَّ عِنْدَ احتِضَارِهِ

بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعَرِيةُ مُكْدَمِ

قال له : استنوقت الجمل ، أي أنك وصفت البعير بوصف الناقة ، وهذا عند البلاغيين وصف شيء بغير صفته ، ووضع اللفظ في غير موضعه ، فتفوت المطابقة بين ما يتطلبه الحال وبين اللفظ الدال .(١)

<u>التقديم :</u>

يرفض ابن طباطبا في كتابه (عيار الشعر) التقديم ، ويحيل فساد بعض أبيات من الشعر وسوء نظمها إلى ما فيها من تقديم وتأخير أبعدها عن الفصاحة .(٢)

وأكثر من درس مبحث التقديم في الكلام لم يلتفت إلى ما يفيده من معاني في الكلام .

وكان سيبويه - على حد ما وصل إلينا - أول من تحدث عن أسرار التقديم والتأخير في الكلام . ويعد كلامه الأساس الذى قام عليه مبحث التقديم عند أكثر علماء البلاغة كعبد القاهر ، فمن أهم أسراره عنده أنه يأتي للعناية والاهتمام ، وقد حرص على ذكره في أكثر صور التقديم ، يقول في تقديم الظرف : (والتقديم

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ، د . محمد أبو موسى : ١٥-١٦ .

(٢) ينظر عيار الشعر : ٤٤ .

ههنا والتأخير فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً في العناية والاهتمام ، مثله فيما ذكرت لك من باب الفاعل والمفعول ، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير ، والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير) (١).

ويقول في باب تقديم المفعول على الفعل : (وإن قدمت الاسم فهو عربي جيد ، كما كان عربياً جيداً ، وذلك قولك : زيداً ضربت ، والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء ، مثله في : ضرب زيد عمراً وضرب عمراً زيد) (٢).

وقد يكون التقديم من أجل عامل نفسي يطرأ على النفس . يقول في باب " ظن " : (فإن ألغيت قلت : عبد الله أظن ذاهب ، وهذا أخال أخوك ، وكلما أردت الإلغاء فالتأخير أقوى ، وكل عربي جيد ... وإنما كان التأخير أقوى ، لأنه إنما يجيء بالشك بعدما يمضي كلامه على اليقين ، أو بعد ما يبتدئ وهو يريد اليقين ثم يدركه الشك) (٣).

وقد يأتي التقديم لتنبيه المخاطب ، وتأكيد الكلام يقول : (فإذا بنيت الفعل على الاسم قلت : زيد ضربته ، فلزمته الهاء . وإنما تريد بقولك مبنى عليه الفعل أنه في موضع منطلق إذ قلت : عبد الله منطلق فهو في موضع هذا الذي بني على الأول وارتفع به ، فإنما قلت : عبد الله ، فنبهته له ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء) (٤).

---

(١) الكتاب : ٥٦/١.

(٢) المصدر السابق : ٨٠/١-٨١.

(٣) المصدر السابق : ١١٩/١.

(٤) المصدر السابق : ٨١/١.

ثم يرى ابن جني أن التقديم ليس له علة بلاغية في كتابه (الخصائص)؛ لأنه مذهب العرب، وطريقتهم، وأن المفعول إذا قدم صار الوضع له وكأنه لم يتقدم. يقول: (وذلك أن المفعول قد شاع عنهم واطرد من مذاهبهم كثرة تقدمه على الفاعل حتى دعا ذاك أبا علي إلى أن قال: إن تقدم المفعول على الفاعل قسم قائم برأسه، كما أن تقدم الفاعل قسم أيضاً قائم برأسه، وإن كان تقديم الفاعل أكثر ... والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر، فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له، حتى إنه إذا أخر فموضعه التقديم ...)(١) ويشعر ابن جني أن كلامه غريب وربما يستنكر فقال: (ولا تستنكر هذا الذي صورته لك ولا يجف عليك، فإنه مما تقبله هذه اللغة ولا تعافه ولا تتبشعه)(٢).

فالمفعول بمنزلة الفاعل، فإذا تقدم لم يخرج عن وضعه، بل يبقى في مكانه المعتاد، أي ليس لتقدمه سر بلاغي.

لكنه في (المحتسب) يعدل عن هذا الرأي، ويرى أن تقديم المفعول يكون للعناية بشأنه، ويظهر ذلك في أربع صور(٣).

ثم تتفجر ينابيع مبحث التقديم على يدي عبد القاهر، وتكتمل أصوله، فقد درس التقديم في النفي، والتقديم في الإثبات، والتقديم في الاستفهام، مستفيداً من الأسس التي ذكرها سيبويه في هذا الباب، سائراً على خطاه في تشقيق حقائق العلم.

---

(١)، (٢) الخصائص: ١/٢٩٧.

(٣) ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي، عبد القادر حسين: ٣٠٤ وما بعدها.

فقد ذكر أن للاسم موضعاً يحسن فيه تقديمه على الفعل ، وللفعل موضع يحسن فيه تقديمه على الاسم ، ثم يبين الفروق الدقيقة بين هذه الصياغات يقول : (... إنك إذا قلت : " أفعلت " فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده .. وإذا قلت : " أأنت فعلت ؟ " فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو ، وكان التردد فيه .. وتقول : " أأنت بنيت هذه الدار " ، " أأنت قلت هذا الشعر " فتبدأ في ذلك كله بالاسم ، ذاك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان)(١) .

ثم بين فساد بعض التراكيب التي لم تراع هذه القاعدة ، فخطأ أن تقول : " أأنت قلت شعراً قط ؟ " ، لأنه جمع فيه بين إثبات الفعل والشك في حدوثه ، ولأنه موجه إلى الفاعل لا إلى فعله(٢) ... وهكذا .

وقد انتفع عبد القاهر في هذا الأصل المهم بكلام سيبويه في " باب أم إذا كان الكلام بها بمنزلة أيهما وأيهم " فهو يقول : (وذلك قولك : أزيد عندك أم عمرو ، وأزيد لقيت أم بشراً ... فأنت مدع أن المسئول قد لقي أحدهما ، أو أن عنده أحدهما ... واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن ، لأنك لا تسأله عن اللقاء ، وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيهما هو ، فبدأت بالاسم لأنك تقصد أن يبين لك أي الاسمين في هذا الحال ، وجعلت الاسم الآخر عديلاً للأول ، فصار الذي لا تسأل عنه بينهما ولو قلت : ألقيت زيداً أم عمراً كان جائزاً حسناً ، أو قلت : أعندك زيد أم عمرو كان كذلك)(٣) .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١١١ .

(٢) ينظر دلائل الإعجاز : ١١٢ .

(٣) الكتاب : ٣/١٦٩ - ١٧٠ .

ونلاحظ هنا أن سيبويه يجيز صوراً يجوز فيها أن يتقدم المسئول بـه عنه في الكلام ،وأن يتأخر مثل قوله : (ألقيت زيداً أم عمراً) . و يلتقط عبد القاهر المعنى الأول في أن المسئول عنه لا بد أن يكون مقدماً سواء كان اسماً أو فعلاً ، وإذا تأخر فإن الكلام يصبح فاسداً فيقول : (إذا قلت أفعلت فبدأت بالفعـل كان الشك في الفعل نفسه . . وإذا قلت : أأنت فعلت فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو) . (١) ثم بين فساد بعض صور التقديم.

وهذا يعني أنه لم يأخذ كل ما وجد عند سيبويه من أصول ،وإنما كان يأخذ ما يرى أنه صواب ،ثم يرفض ما عداه ،وهكذا العلماء الأفذاذ الذيـن لا يهدفون إلا الى الـوصول إلى الحقائق الصحيحة بعيدين عن روح التعصب. وتحدث عبد القاهر عن التقديم والتأخير في النفي ،وذكر أمثلة كثيرة له وبيـن صحتها ،وما ترمي إليه من معاني . ومن النفي انتقل إلى التقديم في الإثبات ، وذكر أن تقديم المسند إليه الضمير يأتي لأحد غرضين :

الأول : تخصيص المسند إليه ،كقولك : (أنا كتبت في معنى فلان) .

الثاني : تقوية الحكم وتأكيده كقولك : (هو يعطي الجزيل) .

ثم يسوق أمثلة كثيرة على ذلك .

وفي هذا المبحث يذكر تأثره صراحـة بسيبويه ،وإفادته منه من نص لـه وهو الذي ذكرناه آنفاً : (إذا بنيت الفعل على الاسم . . .) من حيث إفـادة التقديم تنبيه السامع فيقول : (وهو الذي ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنبيه له ،وقد ذكره صاحب الكتاب في المفعول إذا قدم فرفع بالابتداء وبنى الفعل الناصب كان له عليه ،وعدى إلى ضميره فشغل به ،كقولنا فـي :

---

(١) دلائل الإعجاز : ١١١ .

(ضربت عبد الله) : (عبد الله ضربته) فقال : وإنما قلت : (عبد الله) فنبهته له ، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء) .(١) وقد ظلت هذه الأصول تتردد في أكثر كتب البلاغة التي بُحِث فيها عن التقديم والتأخير دون إضافات تذكر .

الاستفهام :

لسيبويه إشارات مهمة عن الاستفهام من الناحية البلاغية قامت عليها أكثر الدراسات بعده ، فهو يبين الفرق بين هل والهمزة ، فهل تستعمل في طلب التصديق دائماً ، والهمزة تستعمل لطلب التصور والتصديق ويذكر أن (هل) ليست بمنزلة همزة الاستفهام فهمزة الاستفهام أوسع في افادة المعاني يقول : (ومما يدلك على أن ألف الاستفهام ليست بمنزلة (هل) أنك تقول للرجل : أطربا ! وأنت تعلم أنه قد طرب ، لتوبخه وتقرره ، ولا تقول هذا بعد " هل ") .(٢) ويتحدث سيبويه عن خروج الاستفهام عن أصل معناه إلى معاني أخرى في عدة أبواب من كتابه . استفاد منها البلاغيون بعده في إقامة باب الاستفهام . فيذكر أن الاستفهام لا يكون للاسترشاد دائماً ، فقد يخرج عنه إلى معان أخرى يقول : (باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التي أخذت من الفعل) : (أتميمياً مرة وقيسياً أخرى) فأنت في هذه الحال تعمل على تثبيت هذا له ، وهو عندك في تلك الحال في تَلَوُّن وتنقّلٍ ، وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه ، ولكنه وبخ بذلك) .(٣)

---

(١) المصدر السابق : ١٣١ .

(٢) الكتاب : ١٧٦/٣ .

(٣) المصدر السابق : ٣٤٣/١ .

فالاستفهام ليس للاستخبار أو الاسترشاد ، لأنّ السائل أراد أن يوبخه فلذلك خرج عن أصل وضعه .

ويعرض علينا سيبويه معاني كثيرة للاستفهام ، فقد يستخدم للتقرير ، أي حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر .

يقول في : (أَطَرَبًا وَأَنتَ قِنَّسْرِيٌّ) : (وأنت تعلم أنه قد طرب ، لتوبخه وتقرره)(١) .

وقد يأتي الاستفهام للتعجب يقول : (فإنك تقول : سبحان الله من هو ؟ ، وما هو ؟ فهذا استفهام فيه معنى التعجب)(٢) .

وقد يأتي للتنبيه على ضلال ويستشهد لذلك بآية من القرآن وبكلام الناس ، كما يذكر دلالة الاستفهام على التسوية ، وهو يتحدث عن دلالة النداء على الاختصاص ، وقاس خروج النداء إلى الاختصاص على خروج الاستفهام إلى التسوية .

يقول : (... فالاختصاص أجرى هذا على حرف النداء ، كما أن التسوية أجرت ما ليس باستخبار ولا استفهام على حرف الاستفهام ، لأنك تسوى فيه كما تسوى في الاستفهام ، فالتسوية أجرته على حرف الاستفهام ، والاختصاص أجرى هذا على حرف النداء)(٣) .

فهناك صلة بين المعنى الأصلي للاستفهام والنداء ، وبين المعنى الذى دل عليه . ولا يستبعد أن يكون كلامه هذا أساس قول المتأخرين من أن هناك

---

(١) المصدر السابق : ٣ / ١٧٦ .
(٢) المصدر السابق : ٣ / ١٧٧ .
(٣) المصدر السابق : ٢ / ٢٣١-٢٣٢ .

علاقة مجازية بين المعنى الأصلي للاستفهام وبين ما خرج إليه من معان.(١)

ولابن جني حديث عن خروج الاستفهام إلى غير معناه الأصلي إلى صور أخرى ، في باب (إقرار الألفاظ على أوضاعها الأولى ما لم يدع داع إلى الترك والتحول) حيث تحدث عن خروج كثير من الأساليب عن معانيها الأصلية منها: الاستفهام فقد يفيد التقرير :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ راحِ

ويكشف ابن جني عن أثر همزة التقرير في تغيير المعنى ، فهي تحول النفي إلى إثبات والإثبات إلى نفي.(٢)

ويذكر أيضاً معنى الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾(٣) و : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ . . . ﴾.(٤)

يقول : (أي لم يأذن لكم ، ولم تقل للناس اتخذوني وأمي إلهين ، ولو كانت استفهاماً محضاً لأقرت الإثبات على إثباته ، والنفي على نفيه . .).(٥)

ويشير ابن جني إلى أن الاستفهام إذا خرج عن معناه يظل ملاحظاً لهذا المعنى ، فهو لا يفقد كل معنى الاستفهام حين يراد به غرض آخر .

يقول : (واعلم أنه ليس شيء يخرج عن بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان وهو على بابه ملاحظاً له ، وعلى صدد من الهجوم عليه).(٦)

---

(١) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، د . محمد أبو موسى : ١٤٤ .
(٢) الخصائص : ٢/٤٦٣ .
(٣) سورة يونس : من الآية ٥٩ .
(٤) سورة المائدة : من الآية ١١٦ .
(٥) الخصائص : ٢/٤٦٤ .
(٦) المصدر السابق : الجزء والصفحة .

وهذا ما حرص عبد القاهر على بيانه في باب الاستفهام.

ثم يبين لنا ابن جني الأسباب التي تدعو إلى خروج الاستفهام عن صورته الأصلية ،ونراه هنا يغور في أعماق النفس كاشفاً عن الدواعي . يقول : (وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه ،لكن غرضه الاستفهام عن أشياء . منها أن يرى المسئول أنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه . ومنها أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف بما السائل عارف به . ومنها أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد لما له في ذلك من الغرض ،ومنها أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه ،حتى إن حلف بعد أنه قد سأله عنه حلف صادقاً . .) (١)

فابن جني قد أسهم إسهاماً كبيراً في بناء أساسيات بحث الاستفهام البلاغي .

وتتكامل دراسة الاستفهام عند عبد القاهر الجرجاني ،وقد درسه تحت باب التقديم والتأخير ، لأن هذا الباب لم يهتد العلماء فيه إلى قول فصل ، لذلك تظهر معالمه في باب الاستفهام، فيقرر أولاً أن ما ولي الهمزة هو المسئول بها عنه إذ يقول : (إن ما ولي همزة الاستفهام يكون المسئول بها عنه : (. . . إذا قلت : أفعلت ؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ،وإذا قلت : أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو؟ وكان التردد فيه) . (٢)

ثم يبين صحة وخطأ بعض الأساليب المتداولة مطبّقاً ما قاله أولاً، ثم ينتقل بنا إلى ذكر أمثلة للاستفهام من القرآن الكريم والشعر فيذكر آية :

---

(١) الخصائص : ٢/٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١١٦ .

﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾[1] وتفصيل القول فيها في أن الاستفهام جاء للتقرير بفعل منه كان ، وإنكار له لم كان ، وتوبيخ لفاعله عليه)[2]؛ لأنّ ما ولي الهمزة الاسم لا الفعل .

ثم يتحدث عن الهمزة إذا وليها الفعل المضارع ، والمراد بها إنكار الفعل ، فإذا كان الفعل مضارعاً وأردت به الاستقبال كان المعنى إذا بدأت بالفعل على أنك تعمد بالإنكار إلى الفعل نفسه ، وتزعم أنه لا يكون أو أنه لا ينبغي أن يكون[3] ، ويضرب لذلك مثلاً بقوله تعالى : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾[4].

ويذكر عبد القاهر بأنه لا يقرر بهمزة الاستفهام للمحال وبما لا يكون إلا على سبيل التمثيل ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾[5] فالمعنى جاء على سبيل التمثيل والتشبيه ، وأن ينزل الذى يظن بهم أنهم يسمعون أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يسمع الصم ، ويهدى العمى .

ويقاس على إنكار الفعل هنا إنكار المفعول ، فإذا قدم المفعول اتجه الإنكار إلى أن يوقع به مثل ذلك الفعل ، كتقديم (غير) في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾[6]: (فالمعنى : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ، وأن يرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ، وأن يكون جهل أجهل[7] وعمى أعمى من ذلك ، ولا يكون هذا المعنى إذا قيل : أأتخذ غير الله ولياً).

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٦٢ .

(٢) ينظر دلائل الإعجاز : ١١٣ .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ١١٦ .

(٤) سورة هود : من الآية ٢٨ .

(٥) سورة الزخرف : من الآية ٤٠ .

(٦) سورة الأنعام : من الآية ١٤ .

(٧) الدلائل : ١٢٢ .

وحرص عبد القاهر على بيان أثر الاستفهام على النفس ، وما فيه من إيقاظ للنفس ، وإثارة لحركة الفكر والحس حتى يلتفت الحضور الواعي إلى السياق ، فيلتقط المعنى ، ويتحقق الأثر .

يقول : (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في هذا بالإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب ، أما لأنه قد أدعى القدرة على فعل لا يقدر عليه . . . وأما لأنه هَمَّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله . . . ، وأما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ..) (١) .

ولم يضف أحد شيئاً إلى ما قاله عبد القاهر في هذا المبحث ، ولا نجد له امتداداً إلا في كتب المفسرين على حد ما سنرى .

الأمر والنهي :

كانت الإشارة إلى خروج الأمر عن معناه الأصلي إشارة مبكرة من علماء النحو ، ذلك أن معنى الأمر والنهي يحدده سياق الجملة الواقع فيها .

فسيبويه ذكر بعض معاني صيغة الأمر . يقول : (واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي ، وإنما قيل (دعاء) لأنه استعظم أن يقال : أمر أو نهي وذلك قولك : اللهم زيداً فاغفر ذنبه ، وزيداً فأصلح شأنه ، وعمراً ليجزه الله خيراً ، وتقول زيداً قطع الله يده ، وزيداً أمَرّ الله عليه العيش ، لأن معناه الحقيقي : زيداً ليقطع الله يده) (٢) .

ثم تتسع معاني الأمر عند ابن فارس الذى ذكر أن معاني الكلام عند أهل العلم عشرة ، منها الأمر والنهي ، ثم مضى يتحدث عن خروج كل نوع من هذه الأنواع إلى دلالات عارضة . (٣)

---

(١) دلائل الإعجاز : ٩١١-١٢٠ .

(٢) الكتاب : ١/١٤٢ .

(٣) الصاحبي : ٢٨٩ .

وكانت صيغ الأمر والنهي موضع عناية من الأصوليين والفقهاء ولذلك أهتموا بدلالتيهما على التحريم والوجوب والإباحة،وطبقوها على آيات كثيرة من القرآن ،بل تداخلت في كتب النحو، فابن الشجري في أماليه يعرف الأمر، ويحدد صيغته ،ودلالتها يقول : (وأقول حد الأمر استدعاء الفعل بصيغة مخصوصة مع علو الرتبة . . . فأما علو الرتبة فإن أصحاب المعاني قالوا : الأمر لمن دونك والطلب والمسألة لمن فوقك، كقولك للخليفة : أجرني ،وسموا هذه الصيغة إذا وجهت إلى الله تعالى : دعاء) .(١)

ثم يعدد المعاني التي يخرج إليها الأمر ،فقد يراد بها الندب والاستحباب.والندب كل ما في فعله ثواب وليس في تركه عقاب كقوله تعالى : * اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * .(٢)

وقد يراد بها الإباحة كقوله تعالى : * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ * .(٣)

ويكون بمعنى الوعيد كقوله تعالى : * اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ * .(٤)

وقد يأتي تأديباً وإرشاداً إلى أصلح الأمور كقوله : * وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ *.(٥)

كما يأتي تحدياً في قوله تعالى : * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ * .(٦)

وغيرها من المعاني التي حرص ابن الشجري على الإحاطة بها .

---

(١) أمالي ابن الشجري : ١/ ٢٦٨ .

(٢) المصدر السابق : ١/ ٢٦٩ - سورة الأحزاب : من الآية : ٤١ .

(٣) سورة الجمعة : من الآية ١٠ .

(٤) سورة فصلت : من الآية ٤٠ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٨٢ .

(٦) سورة هود : من الآية ١٣ .

كذلك تناول النهي وعرفه وذكر معانيه التي يخرج إليها . يقول :

(النهي هو المنع من المفعول بقول مخصوص مع علو الرتبة ...) .(١)

ومن المعاني التي يخرج إليها : التنزيه كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾.(٢)

وقد يرد النهي بغير صيغته كما في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾.(٣)

وقد يأتي بلفظ النفي كقوله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾(٤)

أى لا تكرهوا في الدين .

وقد يأتي بلفظ الخبر كما في قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾(٥)

أى لا يلهكم التكاثر وغيرها .

وتعد هذه الدراسات أوفى دراسات نظرية تناولت هذين المبحثين،

وإن كنا نجد لابن جني قبله دراسة في الأمر يراد به الخبر ،والخبر يراد به

الأمر ،لم يهتم فيها بإبراز الأسرار البلاغية .(٦)

الحذف :

يعد الحذف طريقا هاما من طرق التعبير التي تعتمد على الإيجاز

في أكثر تراكيبها ،اهتم به العلماء على اختلاف وجهاتهم في دراسة العربية .

---

(١) أمالي ابن الشجري : ١/ ٢٧١ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٣٧ .

(٣) سورة النساء : من الآية ٢٣ .

(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٥٦ .

(٥) سورة التكاثر : ١ .

(٦) ينظر المحتسب : ٢/ ٣٠٩ .

وقد كثر حديث سيبويه عن الحذف، وبيان المحذوف، وذكر السبب الذى ألجأ العرب إليه، فرأى أن الذى دفعهم إليه، إما طلب الخفة على اللسان أو اتساع الكلام والاختصار، ولا بد أن يكون المحذوف معلوماً لدى السامع، وأنه سيفطن إليه لدلالة الكلام عليه. يقول في (باب ما يكون فيه المصدر محذوفا حيناً لسعة الكلام والاختصار) : (وذلك قولك : متى سير عليه ؟ فيقول مقدم الحاج، وخفوق النجم . . . فإنما هو زمن مقدم الحاج، وحين خفوق النجم، ولكنه على سعة الكلام والاختصار)[1].

ويقول : (وإنما أضمروا ما كان يقع مظهراً استخفافاً، ولأن المخاطب يعلم ما يعني، فجرى بمنزلة المثل، كما تقول : لا عليك وقد عرف المخاطب ما تعني، أنه لا بأس عليك . .)[2].

ثم يدخل في تفصيل الحذف، فيتحدث عن حذف حرف الجر، والمضاف والصفة، والمبتدأ، والفعل. ويذكر أبياتاً في الحذف ذكرها عبد القاهر في بداية باب الحذف وهي :

اعْتَادَ قَلْبَكَ مِنْ لَيْلَى عَوَائِدُهُ ... وَهَاجَ أَهْوَاءَكَ الْمَكْنُونَةَ الطَّلَلُ

رَبْعٌ قَوَاءٌ أَذَاعَ الْمُعْصِرَاتُ بِهِ ... وَكُلُّ حَيْرَانَ سَارٍ مَاؤُهُ خَضِلُ[3]

وقول الشاعر :

هَلْ تَعْرِفُ الْيَوْمَ رَسْمَ الدَّارِ وَالطَّلَلَا ... كَمَا عَرَفْتَ بِجَفْنِ الصَّيْقَلِ الْخِلَلَا

دَارٌ لِمَرْوَةَ إِذْ أَهْلِي وَأَهْلُهُمُ ... بِالْكَانِسِيَّةِ نَرْعَى اللَّهْوَ وَالْغَزَلَا[4]

أراد هو ربع قواء، وتلك دار المروة.

---

(١) الكتاب : ٢٢٢/١ .

(٢) المصدر السابق : ٢٢٤/١ .

(٣) الكتاب : ٢٨١/١ . البيتان ينسبان لعمر بن أبي ربيعة .

(٤) المصدر السابق : ٢٨٢/١ .

ويذكر سيبويه أن حذف حرف الجر كثير في كلام العرب فيقول : (وهذا أكثر من أن يحصى)[1] ، وكذلك حذف المضاف ، ويمثل بقوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ و (يطؤهم الطريق) ، وإنما تريد أهل القرية وأهل الطريق .

ونرى عبد القاهر يأخذ هذا الكلام ويعقد فصلاً في الحذف والزيادة ، وهل هما من المجاز ، ويبدو فيه أنه يعترض على ما فهم من سيبويه من أن الحذف مجاز ، فقال : إن الحذف لا يجرى فيه نقل الكلمة من معناها الأصلي إلى معنى جديد ، بل ما يحدث هو تغير الحكم الإعرابي فقط .
وعرض لأمثلة سيبويه السابقة .[2]

ويسمي ابن جني الحذف (شجاعة العربية) فيقول : (إن العرب قد حذفت الجملة والمفرد والحرف والحركة ، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه ، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته) .[3] ويضرب الأمثلة لحذف الجملة ، وحذف المبتدأ والخبر ، والمضاف مفرداً أو مكرراً والمضاف إليه ، كما تحدث عن حذف المفعول . ويعجب ابن جني ببلاغة الحذف لما فيه من فصاحة وبلاغة ، وأنه لا يقتدر عليه إلا من ملك ناصية اللغة ، ورأيت ابن جني في هذا الباب يعبر عن إعجابه الدائم بالحذف يقول : (وعلى ذكر حذف المفعول فما أغربه وأعذبه في الكلام ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾[4] تذودان إبلهما ، ولو نطق بالمفعول لما كان في عذوبة حذفه ولا في علوه) .[5]

---

(١) المصدر السابق : ١/١٠٩ .
(٢) ينظر أثر النحاة في البحث البلاغي ، عبد القادر حسين : ٧٣ .
(٣) الخصائص : ٢/٣٦٠ .
(٤) سورة القصص : من الآية ٢٣ .
(٥) المحتسب : ١/٣٣٣ .

ويقول : (... وهو في المفعول كثير وفصيح وعذب ، ولا يركبه إلا من قوى طبعه وعذب وضعه) .[١] كما تحدث عن حذف الظرف ، والمعطوف ، والمعطوف عليه ، والمستثنى وخبر إنّ ، وخبر كان ، والمنادى وغيرها مما يحذف في أبواب النحو .

وظل البلاغيون قبل عبد القاهر يتبعون طريقة النحاة في ذكر الحذف وموضعه دون البحث عن سره . فأبو هلال العسكري يجعل الحذف من أنواع الإيجاز ، ويذكر له وجوهاً منها: أن يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه ، ويضرب لذلك أمثلة من القرآن والشعر ، ويقدر المحذوف دون بيان سره .

ومنها: أن يوقع الفعل بين شيئين وهو لأحدهما، ويضمر للآخر فعله كقوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾[٢] معناه وادعوا شركاءكم .

ومنها: أن يأتي الكلام على أن له جواباً فيحذف للاختصار لعلم المخاطب به ، ولا تخرج شواهد أبي هلال عما ذكره العلماء قبله فهو ناقل عنهم .

ويشير قدامة بن جعفر قبلهما إلى فساد الشعر الذى يكون فيه دليل الحذف غامضاً ، ويسميه الإخلال ، ويذكر له شواهد شعرية ، ويقدر المحذوف .[٣]

ويأتي عبد القاهر وأمامه هذا التراث الزاخر من الدراسات في هذا الباب فينفث فيها الروح البلاغية ، فيذكر بدءاً قيمة هذا الباب ، ويصف ما يجده في نفسه حين يكون في الكلام حذف .

يقول : (هذا باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن) .[٤]

---

(١) المحتسب : ٢/ ٣٣٥ .

(٢) سورة يونس : من الآية ٧١ .

(٣) ينظر نقد الشعر : ٢٠٤ .

(٤) دلائل الإعجاز : ١٤٦ .

ثم يذكر أبياتاً شعرية ، يقدر فيها المحذوف على طريقة النحـاة ، مبيناً ما اعتاده القوم في الحذف والقطع . ثم يقول بعد أن يذكر الأمثلة مرشداً إلى طريقة تعين على إدراك أثر الحذف (فتأمل الآن هذه الأبيات كلها ، واستقرها واحداً واحداً ، وانظر إلى موقعها في نفسك ، وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ، ثم قلبت النفس عما تجد ، وألطفت النظر فيما تحس به ، ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر . . وتوقعه في سمعك ، فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلت ، وأن رب حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد) .(١) فهو يحيل في معرفة سر الحذف إلى النفس وإحساسها ببلاغته وقيمته ، وهذه طريقة فذة في فهم تراكيب اللغة من هذا العالم .

ثم عقد فصلاً في تقديم المفعول به ، فذكر أن الحاجة إليه أمس ، واللطائف فيه أكثر ، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر ، وقسمه إلى قسمين :

الأول : أن يذكر الفعل متعدياً والمراد إثبات المعاني للفاعلين من غير أن يتعرض فيه لذكر المفعولين مثل : (فلان يحل ويعقد) ، و(ينهى ويأمر) .

القسم الثاني : أن يكون للفعل مفعول مقصود ، ولكنه يحذف لدليل الحال عليه ، وهذا النوع ينقسم إلى قسمين :

١ - جلي لا صنعة فيه كقولهم : (أصغيت إليه) وهم يريدون أذنى .

٢ - خفي تدخله الصنعة وهو أنواع :

فنوع منه أن يذكر الفعل ، وفي النفس له مفعول مخصوص قد علم مكانه ، إما لجرى ذكر أو دليل حال ، مثاله قول البحتري :

شَجْوُ حسادِهِ وَغَيْظُ عِداهُ　　　أَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

---

(١) المصدر السابق : ١٥١ .

يقول عبد القاهر : (المعنى لا محالة أن يرى مبصر محاسنه ، ويسمع واع أخباره وأوصافه ، ولكنك تعلم على ذلك أنه كأنه يسرق علم ذلك من نفسه ، ويدفع صورته عن وهمه ، ليحصل له معنى شريف) .(١)

ونوع آخر منه : وهو أن يكون معك مفعول معلوم مقصود ، قد علم أنه ليس للفعل الذى ذكرت مفعول سواه بدليل الحال ، أو ما سبق من الكلام ، إلا أنك تطرحه وتتناساه ، ثم ساق عبد القاهر أمثلة على ذلك منها قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ .(٢)

يقول فيها عبد القاهر : (إنه لا يخفى على ذى بصر أنه ليس في ذلك كله إلا أن يترك ذكره ، ويؤتى بالفعل مطلقاً ، وما ذاك إلا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى ، فأما ما كان المسقى غنماً أو إبلاً أم غير ذلك فخارج عن الغرض) .(٣)

ونوع آخر من حذف المفعول : وهو ما يسمى بالإضمار على شريطة التفسير وخاصة بعد فعل المشيئة كقول البحترى :

لَوْ شِئْتَ لَمْ تُفْسِدْ سَمَاحَةَ حَاتِمٍ ... كَرَماً وَلَمْ تَهْدِمْ مَآثِرَ خَالِدِ

يقول عبد القاهر فيه : (الأصل لا محالة : لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ، ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته في الثاني عليه ،

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٥٦ .

(٢) سورة القصص : ٢٣-٢٤ .

(٣) دلائل الإعجاز : ١٦١ .

ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة، وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب في حكم البلاغة أن لا ينطق بالمحذوف ... فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت : " لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها " صرت إلى كلام غث ، وإلى شيء يمجه السمع ، وتعافه النفس). (١) ويذكر الشيخ أنه قد يتفق في بعضه أن يكون إظهار المفعول هو الأحسن وذلك نحو قول الشاعر :

وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلٰكِنَّ سَاحَةَ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

وسبب حسن إظهار المفعول به أنه كأنه بِدْعٌ عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دماً ، فلما كان كذلك كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره في نفس السامع.

وهكذا كان لعبد القاهر الفضل الأكبر في الكشف عن أسرار الحذف على هذه الطريقة .

الإيجاز :

يعود الحديث عن الإيجاز إلى مرحلة متقدمة ، ذلك لأن الإيجاز أساس لغة العرب ، ومفخرة من مفاخرها .

وقد نقل إلينا الجاحظ تعريفات عدة للإيجاز يقول : (قيل للمفضل : ما الإيجاز عندك ؟ قال : حذف الفضول ، وتقريب البعيد) (٢) ، ثم يرى أن الإيجاز لا بد أن يراعي مقتضى الحال ، وأن يكون السامع على علم به يقول : (والإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له

---

(١) المصدر السابق : ١٦٣ .

(٢) البيان والتبيين : ٩٧/١ .

أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً لاغلاقه ،ولا يردد وهو يكتفي في الإفهام بشطره ،فما فضل عن المقدار فهو الخطل) (١) . وله باب في الكلام المحذوف ، ذكر فيه أمثلة عن الحذف في الكلام ،دون أن يشير إلى أنه من الإيجاز. (٢)

وقد عرض أبو هلال العسكري للإيجاز في كتابه الصناعتين مستفيداً من دراسة الجاحظ وابن قتيبة والرماني . بدأه بأقوال أهل البلاغة فيه ،في بيان فضله ،وإرجاع البلاغة إليه ، جمع أكثرها من البيان والتبيين ، ثم يقسمه إلى نوعين : قصر وحذف ،ويعرف الأول بأنه : (تقليل الألفاظ وتكثير المعاني) ويمثل له بالآية : ﴿ وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ويبين فضلها على قول العرب: (القتل أنفى للقتل) ,سائراً في ذلك على نهج الرماني الذى عقد الموازنة بينهما . (٣) ثم يسوق لهذا القسم أمثلة كثيرة من القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم وأقوال الأعراب ،وقبل أن ينتهى منه ،يدخل تحته باب المساواة (وهو ما تكون المعاني بقدر الألفاظ والألفاظ بقدر المعاني) (٤) ناقلاً ذلك من قدامة ابن جعفر في كتابه (نقد الشعر) (٥) . ثم يعود ثانية ليتحدث عن إيجاز الحذف ، فيذكر أنواع الحذف في الكلام ،وقد نقل أكثر هذه الشواهد والتعليقات عليها عن ابن قتيبة مع إسقاط لبعض الآيات من ناحية ،وزيادة بعض الأمثلة من كلام العرب من ناحية أخرى .

وهكذا نجده قد اعتمد في دراسته على من سبقه فجمعها ثم صنفها ورتبها تحت باب الإيجاز .

---

(١) الحيوان : ١/ ٩١.

(٢) ينظر المصدر السابق: ٢/ ٢٧٨.
(٣) ينظر النكت : ٧٢.
(٤) الصناعتين : ١٩٣-١٩٥.
(٥) ينظر نقد الشعر : ١٥٣.

ثم يطالعنا الخفاجي في كتابه (سر الفصاحة) بدراسة متميزة للإيجاز ،فقد جعله من شروط الفصاحة والبلاغة ،حيث يعبر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ،ثم أشار إلى دوره في التعبير الفني ،ولا يوافق على ما يقال إن من الكلام ما يحسن فيه الإسهاب والإطالة ،كالخطب والكتب التي يحتاج أن يفهمها العوام ،وأصحاب الأذهان البعيدة ،فإن الألفاظ إذا طالت فيها وترددت في إيضاح المعنى أثر ذلك عندهم فيه ،ولو اقتصر بهم على وحي الألفاظ ، لم يقع لأكثرهم ،ويلزم من ذهب إلى هذا أن يختار الألفاظ العامية المبتذلة على الألفاظ الفصيحة ،لأن علته في اختيار الطويل لأجل فهمهم له قائمة في الألفاظ المبتذلة ،ولا خلاف أنهم إلى فهمها أقرب من فهم ما يقل ابتذالهم له وهذا مما لا يذهب إليه أحد.[(١)] ثم يذكر أنهم قسموا دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام : المساواة ،والتذييل ، والإشارة . والمختار عنده أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة لا غموض فيها . وهو الإيجاز، ثم يمثل له بقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ وقال إن بين الآية وبين قول العرب : (القتل أنفى للقتل) تفاوتاً في البلاغة ،ثم تابع الرماني في بيان وجه الفرق بينهما ،كذلك تابعه في تقسيم الإيجاز إلى حذف و قصر ومثّل له بأمثلة متنوعة.[(٢)]

ويبين الخفاجي السر في مدح الإيجاز ،فيرجعه إلى أن الألفاظ غير مقصودة في أنفسها ، وإنما المقصود هو المعاني والأغراض التي احتيج إلى العبارة عنها بالكلام ،فاللفظ طريق إلى المعنى ،وإذا كان هناك طريقان يوصلان إلى المعنى أحدهما أخصر من الآخر ،فالمحمود هو الأخصر والموجز للمراد[(٣)]

---

(١) ينظر سر الفصاحة : ٢٠٥ ومابعدها .

(٢) ينظر المصدر السابق : ٢٠٩ .

(٣) ينظر المصدر السابق : ٢١٤ .

وهكذا فدراسته تمتاز بالتحليل و بالبحث عن العلل والأسباب .

ولم يتناول عبد القاهر الايجاز في باب مستقل ،كشأنه في بقية أبواب المعاني ،لأنه كما عرفنا لا يقف عند الفنون التي اكتملت دراستها ،واتضح طريقها ،لكنه ذكر آية : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ في معرض الحديث عن أن الكلامين اللذين يكونان في غرض واحد لا يؤدي كل واحد منهما معنى الثاني بعينه ،وما قاله الناس من تساوي الآية بالمثل "قتل البعض أحياء للجميع"خطأ ظاهر ،يقول : (فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل هذا : "إنهما عبارتان مُعَبَّرُهُما واحد " فليس هذا القول قولاً يمكن الأخذ بظاهره ،أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من الآخر) .(١)

الفصل والوصل :

تطالعنا بعض كتب الأدب والبلاغة بأحاديث كثيرة عن أهمية الفصل والوصل في الكلام، فيروي الجاحظ قول الفارسي : (قيل للفارسي ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل (٢) كما ذكر حادثة الرجل الذي مر به أبو بكر فقال له : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا عافاك الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : لقد علمتم لو كنتم تعلمون قل : "لا ،وعافاك الله ".(٣)

وقد عُدَّ هذا موطناً من مواطن الوصل وهو كمال الانقطاع مع الإبهام مع اختلافهما خبراً وانشاءً .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٦١ .

(٢) البيان والتبيين : ١/ ٨٨ .

(٣) المصدر السابق : ١/ ٢٦١ .

وينقل أبوهلال العسكرى روايات البلغاء وأصحاب الفصاحة في فضل الفصل والوصل في الكلام تحت فصل أسماه : (في ذكر المقاطع والقول في الفصل والوصل) ينقل قول الأحنف : (ما رأيت رجلاً تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ،ولا عرف حدوده ،إلا عمرو بن العاص رضي الله عنه، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام ،وأعطى حق المقام ،وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج ...) [1] ، وينقل إلينا قول معاوية : (يا أشدق قم عند قروم العرب وجحاجحها فَسُلَّ لسانك وَجُل في ميادين البلاغة ،وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال ، فإني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عَلَى عَلِيّ ابن أبي طالب رضي الله عنه كتاباً ،وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صريمته) [2] : (وكان يزيد بن معاوية يقول : إياكم أن تجعلوا الفصل وصلاً ، فإنه أشد وأعيب من اللحن) [3].

ثم بدت أصول هذا الباب في كتب النحو ، فقد درس النحويون جملة التأكيد والعطف والبدل والاستئناف ،ولكن دون ربطها بالمعنى .

على أن هناك من اهتم بإبراز معاني وصل وفصل الكلام كالمبرد، فقد ذكر في أثناء حديثه عن واو الابتداء أن الجملة إذا وقعت بعد نكرة أو معرفة وفيها ضمير يتصل بالكلام استغنى عن الواو اكتفاء بالضمير الذى يربط الكلام بعضه ببعض ،فتقول : (مررت برجل زيد خير منه) و (جاءنى عبد الله أبوه يكلمه) بغير الواو ،وإن شئت قلت : (وزيد خير منه) ، (وأبوه يكلمه) بالواو ،فإذا قلت : (مررت بزيد وعمرو في الدار) فهو محال إلا على قطع

---

(١) الصناعتين : ٤٩٧ .

(٢) المصدر السابق : ٤٩٨ .

(٣) المصدر السابق : ٤٩٩ .

خبر واستئناف آخر. فإن جعلته كلاماً واحداً قلت : (مررت بزيد وعمرو في الدار)[١] وقد سمي هذا فيما بعد كمال الانقطاع مع الإيهام، والتوسط بين الكمالين فقوله : (مررت بزيد عمرو في الدار) بغير ذكر الواو ، يعني أنه ليس هناك صلة بين مرور زيد وبين وجود عمرو في الدار، وهذا يسمى عند البلاغيين (كمال الانقطاع) ،وفي ذكر الواو : (مررت بزيد وعمرو في الدار) إيذانا بوجود صلة بينهما، وهذا يسمى عند البلاغيين (التوسط بين الكمالين).

ثم نرى أصول هذا الباب ظاهرة جلية عند عبد القاهر ، فقد أشار إلى أن هذا الباب لا يدركه إلا من أوتي فناً من المعرفة في الكلام ،ثم أخذ يفجر الحقائق من بين يديه. فقد بدأ بالحديث عن عطف المفرد ،فذكر أنه يكون للإشراك في الحكم ، ومثله الجملة التي لها محل من الإعراب ،إذا أريد التشريك عطفت وإذا لم يرد التشريك فصلت ،وهذا أمره سهل ،والذي يشكل أمره (هو الضرب الثاني، وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى كقولك : زيد قائم وعمرو قاعد ،والعلم حسن والجهل قبيح)[٢] ثم قرر أن الإشكال يقع في العطف بالواو دون غيرها من أدوات العطف ؛ وذلك لأنَّ هذه الأدوات لها معان ،أما الواو فلا تفيد إلا التشريك في الحكم ،فإذا لم يكن هناك حكم إعرابي عرض الإشكال.

ثم أخذ يتحدث عن العطف في الجملة التي لا محل لها من الإعراب. ويقول : إنا لا نقول : زيد قائم ،وعمرو قاعد حتى يكون عمرو بسبب من زيد وحتى يكونا كالنظيرين والشريكين ،وبحيث إذا عرف السامع حال الأوّل عناه أن يعرف

---

(١) المقتضب : ٤/١٢٥.

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٢٣.

حال الثاني ، ومن هنا عابوا قول أبي تمام :

لَا وَالَّذِى هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى ... صَبِرٌ وَأَنَّ أَبَا الحُسَيْنِ كَرِيــمُ

وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى .

ثم يتحدث عن المخبر عنه إذا كان واحداً في الجملتين كقولنا : هو يقول ويفعل ، ويضر وينفع وأشباه ذلك ، فإن معنى الجمع يزداد قوة وظهوراً مثل قولك : العجب من أني أحسنت وأسأت ، وأيحسن أن تنه عن شيء وتأتي مثله ، حيث أن المعنى على جعل الفعلين في حكم فعل واحد ، وواضح أن الجمل هنا ذات محل من الإعراب ، فهي من النوع الذى لا يعرض الإشكال فيه لكن عبد القاهر سكت عن هذا .

ثم أخذ يدرس دواعي الفصل في الجمل ، وقاسها على المفرد ، فكما أن الصفة لا تحتاج إلى واصل يصل معناها بالذى قبله لاتصالها به من ذات نفسها ، فكذلك الجمل منها ما يتصل بما قبله اتصال الصفة بالموصوف من غير واصل يصله ، وذكر آيات قرآنية كثيرة حللها تحليلاً بصيراً واعياً ، كقوله تعالى : * الٓمٓ ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ * (١) ، فقوله : * لَا رَيْبَ فِيهِ * بيان وتوكيد وتحقيق لقوله : * ذَلِكَ الكِتَابُ * ، وقوله تعالى : * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * (٢) ، فقوله تعالى : * لَا يُؤْمِنُونَ * تأكيد لما قبلها ، وقوله : * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ * توكيد ثانٍ أبلغ من الأول .

ويواصل عبد القاهر استقصاء الوصل في آيات البقرة الأولى فيذكر قوله تعالى : * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِاليَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ * (٣) فقوله : * يُخَادِعُونَ * توكيد * آمنا * .

---

(١) سورة البقرة : ١ ، ومن الآية ٢ .

(٢) سورة البقرة : ٦-٧ .

(٣) سورة البقرة : ٨ ومن الآية ٩ .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مستهزئون ﴾ (١) ، فقوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مستهزئون ﴾ توكيد لقوله : ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ ، وهكذا ظل عبد القاهر يدلل من القرآن الكريم وكأنه يفتح الباب لهذا الفن في رحاب التطبيق .

ثم يتحدث عن ترك العطف في الجملة التي يكون حالها مع التي قبلها حال ما يعطف و يقرن إلى ما قبله ، وإنما وجب فيها ترك العطف لأنه قد عرض ما يوجب ذلك ، فذكر قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) ، والظاهر أن يعطف على قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مستهزئون ﴾ وإنما ترك العطف لأن قوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مستهزئون ﴾ (٣) حكاية عنهم والأخرى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ هنا خبر عن الله . ومثله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . (٤) وقد سُمّي هذا عند المتأخرين كمال الانقطاع .

ثم يذكر عبد القاهر وجهاً ثانياً من وجوه الانقطاع والاستئناف وهو وقوع الكلام جواباً لسؤال مقدر ، ونراه هنا ينتقل إلى الشعر ليضرب الأمثلة به فيذكر قول الشاعر :

زَعَمَ العَوَاذِلُ أَنَّنِي فِي غَمْـرَةٍ ... صَدَقُوا وَلَكِنْ غَمْرَتِي لَا تَنْجَلِـي

---

(١) سورة البقرة : ١٤ .
(٢) سورة البقرة : ١٥ .
(٣) سورة البقرة : من الآية ١٤ .
(٤) سورة البقرة : ١١-١٢ .

وقول الآخر :

زَعَمَ العَوَاذِلُ أَنَّ نَاقَةَ جُنْدَبٍ بِجُنُوبِ خَبْتٍ عُرِّيَتْ وَأُجِمَّتِ

كَذَبَ العَوَاذِلُ لَوْ رَأَيْنَ مُنَاخَنَا بِالقَادِسِيَّةِ قُلْنَ لَجَّ وَذَلَّتِ

وقد لحظ أن في البيتين الأخيرين معنى زائداً، ذلك أنه وضع الظاهر موضع المضمر ليتأكد أمر القطع فلا يحتاج إلى ما قبله، ويذكر شواهد أخرى وفي كل شاهد له لحظ.(١)

ثم يتحدث عن الفصل في أساليب المقاولة وذكر لذلك أمثلة كثيرة من القرآن الكريم.

كقوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾(٢) ،
ويحللها تحليلاً نفسياً يبين سر مجيئها مفصولة وما يقدر فيها من كلام يجعله مسبوكاً سبكاً واحداً .

وظلت هذه الأصول كما هي لم يزد عليها أحد شيئاً ، وما نجده عند المتأخرين ليس إلا تقسيماً وتفريعاً عنها .

---

(١) الدلائل : ٢٣٦ ومابعدها .

(٢) سورة الذاريات : ٢٤ - ٢٨ .

التكرار :

أكثر المشتغلين بالدراسة الأدبية من البلاغيين والأدباء لم يبسطوا القول في التكرار وأغراضه - كما فعل دارسو القرآن - .

كما أن كتب اللغويين والنحويين تكلمت عن التكرار من وجهة نحوية ، تخلو من الروح البلاغية ، ذلك أن هذا المبحث قد نشأ وترعرع في ظل الدراسات القرآنية - كما سنرى إن شاء الله - .

وسأشير إلى بعض الدراسات التي تحدثت عن التكرار - وهي قليلة فللجاحظ مثلاً - الذي امتازت كتاباته بالتكرار - (١) أحاديث عن فضل التطويل في الكلام إذا اقتضى الحال ، وسمى التكرار ترديداً ، فقد ذكر في معرض حديثه عن التلقي والقبول قصة ابن السّمّاك مع جاريته ، فقد تكلم يوماً فقال لجاريته : كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه ، لولا أنك تكثر ترداده . قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه قد ملّه من فهمه) (٢) .

ويقول الجاحظ في الترديد : (وجملة القول في الترداد ، أنه ليس فيه حد ينتهى إليه ، ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص . . . وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود ، وهارون وشعيب ، وإبراهيم ولوط ، وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأموراً كثيرة ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب . أما أحاديث القصص والرقة فإني لم أر أحداً يعيب ذلك) (٣) ، إذن فحسن التكرار نسبي على حسب

---

(١) ينظر التكرار - مظاهره وأسراره - عبد الرحمن الشهراني : ٣٤٥ ومابعدها رسالة ماجستير مخطوطة - جامعة أم القرى .

(٢) البيان والتبيين : ١/١٠٤ .

(٣) المصدر السابق : ١/١٠٥ .

المستمعين ويبدو حسنه ظاهراً في القرآن الكريم ، وهكذا تتنوع دواعي التكرار عنده .

ويتجه ابن جني وجهة أخرى في دراسة التكرار لا علاقة للمخاطب وأحواله بها ، فيستحسن التكرار إذا كان اللفظ الثاني مخالفاً للفظ الأول ،أما التكرار بلفظ الأول فلا يقبله جملة ،ولا يستحسنه في كل موضع ،بل يجيزه إذا كان الموضع للتفخيم والتعظيم مثل : ﴿ القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ ﴾ (١) ، ﴿ الحَاقَّةُ ما الحَاقَّةُ ﴾ (٢) ويستحسن المخالفة بين الألفاظ في قوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدا ﴾ (٣) إذ عبر أولاً بلفظ (مهل) ثم : ﴿ رُوَيْدا ﴾ وهي ثلاث كلمات بمعنى واحد ،لأن (رويدا) فيها معنى الإمهال .

يقول : (فلما تجشم إعادة اللفظ مع تكارهه إياه انحرف عن الأول بعض الانحراف بتغييره المثال ،فانتقل عن فَعّلَ إلى أَفْعَلَ ،فقال : ﴿ أَمْهِلْهُمْ ﴾ فلما تجشم التثليث (٤) جاء بالمعنى ،وترك اللفظ البتة ، فقال : ﴿ رُوَيْدا ﴾ وأما في قراءة ابن عباس : ﴿ فَمَهِّلِ الكفرين مَهِّلهم رُوَيْدا ﴾ بغير ألف (فإنه كرر اللفظ والمثال جميعاً . . . فجعل ما تكلفه من تكرير اللفظ والمثال جميعاً عنواناً لقوة معنى توكيده) (٥) . فالتكرار يقوى المعنى ويؤكده .

وعرض ابن رشيق للتكرار ،وأسهب في الحديث عنه في الشعر ،ووضح أن له مواضع يحسن فيها ،ومواضع يقبح فيها ،ويرى أن أكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني ،ويكون في المعاني أقل ، وإذا تكرر اللفظ والمعنى جميعاً فهو معيب، ولا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشويق والاستعذاب ،في غزل أو نسيب . . . أو على سبيل التنويه به أو الإشارة إليه

---

(١) سورة القارعة : ١-٢ .
(٢) سورة الحاقة : ١-٢ .
(٣) سورة الطارق : ١٧ .
(٤) يريد بالتثليث ذكر (رُوَيْداً) و (مَهّلَ) و(أَمْهِلْهُمْ) .
(٥) المحتسب ٢: ٣٥٤/ ٣٥٥ .

بذكر إن كان في مدح ،أوعلى سبيل التعظيم ، أوعلى وجه التوجع . . . وغير ذلك من الأغراض التي ذكرها . . وقد استشهد من الشعر على كل غرض ذكره. ثم ذكر التكرار في المعاني، وذكر أمثلة لـه ،وقابل بين المعاني المكررة ،دون أن يشير إلى أغراضها التي جاءت من أجله، وأرى أن دراسته غير وافية بكل دقائق مبحث التكرار.(١)

ولم يتناول عبد القاهر باب التكرار لأن من قبله قد أشبع القول فيه.

الالتفات :

تعد التفاتات جرير التى أشار إليها الأصمعي من أقدم ما عرف من هذا الفن ،وقد ذُكرت في كثير من الكتب ،فعن محمد بن يحيى الصولى قال : قال الأصمعي : أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا ،فما هي ؟ قال :

أَتنسى إذْ تُوَدِّعُنا سُليمى   بعودِ بَشَامَةٍ سُقِيَ البَشَامُ

ألا تراه مقبلاً على شعره ثم التفت إلى البشام فدعا له ،وقوله :

طَرِبَ الحمام بذى الأراكِ فشاقني   لا زلتَ في غَللٍ وأيْكٍ نَاضِرِ

فالتفت إلى الحمام فدعا له).(٢)

وهكذا فإن صور الالتفات قد عرفت في مرحلة متقدمة دون تحديد لتعريفه الاصطلاحي . ويعد ابن المعتز الالتفات مما يحسن به الكلام والشعر فيذكر اسمه ويعرفه تعريفاً شاع في كتب البلاغة من بعده.

---

(١) ينظر العمدة : ٧٣ ومابعدها.

(٢) الصناعتين : ٤٣٨ ، إعجاز القرآن : ٨٩ ، العمدة لابن رشيق : ٢/ ٤٦.

يقول : (هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك) [1] ومثل له بقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ [2] ثم مثل بالتفاتات جرير ، وأبيات أخرى عُـدَّت من باب الاعتراض كقوله :

لَوْ أَنَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتِ مِنْهُمْ ... رَأَوْكِ تَعَلَّمُوا مِنْك الْمِطَالَا

فجملة (وَأَنْتِ مِنْهُمْ) معترضة بين لو واسمها ، وقول النابغة :

ألا زَعَمَتْ بنو سعدٍ بأنـي ... ألا كَذَبُوا كبيرُ السِّنِّ فانِ

وجملة الاعتراض (ألا كذبوا) .

ويذكر قدامة الالتفات نعتاً من نعوت المعاني ، ويعرفه تعريفاً يقرب من تعريف الاعتراض يقول : (وهو أن يكون الشاعر آخذاً في معنى فكأنه يعترضه إما شك فيه أو ظن بأن راداً يرد عليه قوله ، أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعاً إلى ما قدمه ..) [3] ، ثم يسوق أمثلة تدل على أنها من الاعتراض الذى ذكره ابن المعتز ، وهكذا تداخلت أمثلة الالتفات مع أمثلة الاعتراض .

وكل هذه الدراسات لم تهتم ببيان القيمة البلاغية لهذا الأسلوب فقط بل ركزت على الاستشهاد من القرآن وكلام العرب .

---

(١) البديع : ٥٩ - ٦٠ .

(٢) سورة يونس : من الآية ٢٢ .

(٣) نقد الشعر : ١٥٠ .

على أن لابن جني ملاحظات جيدة في الالتفات ذكرها في كتابه (المحتسب) منها أنه يقول في قراءة الحسن : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً يُرْجَعُونَ فِيهِ ﴾ (١) بياء مضمومة أنه ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُم فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وكأنه - والله أعلم - إنما عدل فيه عن الخطاب إلى الغيبة ، فقال (يُرْجَعُونَ) بالياء رفقاً من الله سبحانه بصالحي عباده المطيعين لأمره ... فصار كأنه قال : فاتقوا أنتم يا مطيعون يوماً يعذب فيه العاصون) (٢).

ثم يؤكد ابن جني أن الالتفات لا يكون إلا لغرض بلاغي ، ويأخذ على البلاغيين إهمالهم لذلك ، وإرجاعهم السر فيه إلى الاتساع في اللغة يقول : (فليس ينبغي أن يقتصر في ذكره على الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى الخطاب بما ألف أصحاب البلاغة أن يردده وهو قولهم إنَّ فيه ضرباً من الاتساع ... وهذا ينبغي أن يقال : إذا عرى الموضع من غرض متعمد وسر على مثله تنعقد اليد) (٣).

على أن دارسي القرآن هم الذين اهتموا بالكشف عن الأسرار البلاغية والبحث عما وراء الانتقال من المعاني .

وهكذا رأينا كيف اهتم هؤلاء العلماء ، من أهل البلاغة واللغة بإقامة الشاهد على القاعدة بعد ذكرها ، دون الاهتمام باستقصائها .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨١ .

(٢)،(٣) المحتسب : ١/١٤٥ .

الاعتراض :

تحدث عنه ابن جني في مرحلة مبكرة ، وبين قيمته البلاغية ، وكيف أنه يمثل جزءاً من هذه اللغة الشريفة ، ويكثر في القرآن والشعر والنثر وهو دليل على قوة النفس ، والتمكن من الفصاحة.

يقول : (والاعتراض في شعر العرب ومنثورها كثير حسن ، ودال على فصاحة المتكلم وقوة نَفْسِه ، وامتداد نَفَسِه ، وقد رأيته في أشعار المحدثين ..)(١).

ويقول : (اعلم أن هذا القبيل من هذا العلم كثير قد جاء في القرآن وفصيح الشعر ومنثور الكلام ، وهو جار عند العرب مجرى التأكيد ، فلذلك لا يشنع عليهم ولا يستنكر عندهم أن يعترض بين الفعل وفاعله والمبتدأ وخبره وغير ذلك مما لا يجوز فيه الفصل)(٢).

ثم يستشهد بآية قرآنية وبأقوال كثير من الشعراء ، يذكر قوله تعالى :

* فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ *(٣).

ذكر أن فيه اعتراضين : الأول : * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * اعتراض بين القسم وجوابه : * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * و * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ *.

وفي هذا الاعتراض اعتراض آخر ، بين الموصوف الذى هو (قسم) وبين صفته * عَظِيمٌ * وهو قوله : * لَوْ تَعْلَمُونَ * ، وعلى كثرته في القرآن فقد اكتفى ابن جني بهذه الآية ، وأكثر من الشواهد الشعرية ، دون أن يبين سر هذين الاعتراضين ، وتسبقه دراسة كل من ابن المعتز وأبي هلال العسكري له ، فقد أدخله ابن المعتز تحت (محاسن الكلام والشعر).

---

(١) ، (٢) الخصائص : ٣٣٥/١.

(٣) سورة الواقعة : ٧٥-٧٦-٧٧.

وعرفه بقوله : (ومن محاسن الكلام أيضاً والشعر اعتراض كلام في كلام لم يتمم معناه ثم يعود إليه فيتممه في بيت واحد)[١] ومَثَّل له بقول كُثَيِّر :

لَوَانَّ الباخِلِينَ -وَأَنتِ مِنْهُمْ- رَأَوْكِ تَعَلَّمُوا مِنْكِ المِطَالا

ودرسه أبو هلال في فصل خاص ولم يزد على أن نقل تعريف ابن المعتز وأمثلته، مع إضافة بعض الشواهد القليلة.

ويأتي ابن رشيق فيشير إلى أن الاعتراض عند قوم هو الالتفات[٢] يعني بذلك قدامة الذي عرفه بقوله : (وسبيله أن يكون الشاعر آخذاً في معنى، ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثاني فيأتي به، ثم يعود إلى الأول)[٣].

ثم ذكر أن سائر الناس يجمع بين الالتفات والاعتراض، ولا أدري من يقصد بسائر الناس.

وقد أشار عبد القاهر إليه إشارة بسيطة، فذكر أن الحشو قد يكون مفيداً، وربما لا يكون مفيداً، ويعني بالمفيد منه الاعتراض، يقول : (وأما الحشو فإنما كره وذم، وأُنكر ورد، لأنه خلا من الفائدة، ولم يحل منه بعائدة، ولو أفاد لم يكن حشواً، ولم يُدْعَ لغواً)[٤].

---

(١) البديع : ٥٩.
(٢) العمدة : ٢/٤٥.
(٣) نقد الشعر : ١٥٠.
(٤) أسرار البلاغة : ١٤.

الفصل الثالث

علم المعاني عند المفسرين وعلماء الإعجاز

علم المعاني عند المفسرين وعلماء الإعجاز

تتسع مباحث علم المعاني في رحاب تطبيقها على القرآن الكريم ، ذلك أن المسائل البلاغية عند البلاغيين بدت ضيقة محدودة ،لكنها تتسع وتتعدد وجوهها عندما تنطلق في رحاب القرآن ،وذلك في كل باب من أبواب المعاني كما سنرى .

النظر في المفردات :

اهتم الخطابي بمؤدى الكلمة وهو يبحث عن وجه إعجاز القرآن ، وما تختص به من معنى ،مما لا يلتبس معناها مع معنى رديفاتها في اللغة، ومما يُظن أنهما بمعنى واحد ،كالحمد والشكر والعلم والمعرفة ،يقول : (إن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني ، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب ،كالعلم والمعرفة ،والحمد والشكر ،والبخل والشح،وكالنعت والصفة ،وكقولك : اقعد واجلس ،وبلى ونعم ،وذلك وذاك ، ومن وعن ، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات) (١).

وقد بين الفروق بين كل هذه الكلمات والأدوات مستشهداً على ذلك بآيات من القرآن وأحاديث وأقوال العرب . وغاية الخطاب من هذا كله تحقيق أن هذه الفروق لم تتوفر في كلام كما توفرت في القرآن الكريم ، ودارس الكلام يجب أن يكون متبحراً في معرفة هذه الفروق ،ولهذا أمسك كثير من الأئمة عن القول في التفسير (٢) ،ويحكي الخطابي عن الأصمعي أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ فسكت وقال : هذا في القرآن ،ثم ذكر قول بعض العرب في جارية لقوم أرادوا بيعها : أتبيعونها وهي لكم شغاف ؟

---

(١) بيان اعجاز القرآن ،للخطابي : ٢٦ .

(٢) ينظر الإعجاز البلاغي ، د . محمد أبو موسى : ٥٩ .

ويرد على من زعم أن في القرآن كلمات ليست واقعة موقعها من ذلك أنهم قالوا إن كلمة : * أَكَلَهُ * غير واقعة موقعها في قوله تعالى : * فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ * لأنّ العرب تستعمل في هذا الموضع (الافتراس) فيقال افترسه السبع ، فيقول : (إن الافتراس معناه في فعل السبع القتل فحسب ، وأصل الفرس دق العنق ، والقوم إنما ادعوا على الذئب أنه أكله أكلاً ، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه . . . وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إياهم بأثر . . . فادعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة) .(١) ثم أخذ الخطابي يبين خصوصيات كل كلمة جاءت في التعبير القرآني دون غيرها في بعض الآيات .

وظل أكثر دارسي القرآن يؤكدون على أهمية الكلمة القرآنية في بناء الآية ، فقد لفت الباقلاني إلى حسن اختيار ألفاظ القرآن ، وجعلها من أوجه إعجاز القرآن ، يقول : (إنه سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر ، عن الصنعة المتكلفة ، وجعله قريباً إلى الإفهام ، يبادر معناه لفظه إلى القلب) (٢) ، ويبين الباقلاني منزلة العلم بمعاني هذه الألفاظ ودقائقها . فيقول : (واعلم أن هذا علم شريف المحل ، عظيم المكان ، قليل الطلاب ضعيف الأصحاب . . . وهو أدق من السحر ، وأهول من البحر ، وأعجب من الشعر . وكيف لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع (الصبح) في موضع (الفجر) يَحْسُن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أوسجعاً وليس كذلك ، فإن إحدى اللفظتين قد تَنْفِرُ في موضع ، وَتزِلّ عن مكان لا تَزِلُّ عنه اللفظة الأخرى ، بل تتمكن فيه . . . وتجد الأخرى لو وضعت موضعها في محل نِفَار ومرمى شِراد ، ونابيةً عن استقرار) .(٣)

---

(١) البيان : ٣٧ .

(٢) إعجاز القرآن : ٧٠ .

(٣) المصدر السابق : ١٩٧ .

ثم يكشف عن قيمة بعض الكلمات في أداء التعبير القرآني ، فكلمة: ﴿ ليأخذوه ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾[1] لا يؤدي غيرها مؤداها، ولا تقوم مقامها كلمة أخرى تشبه معناها مثل يقتلوه أو يرجموه أو ينفوه .[2]

وأدرك ابن عطية في تفسيره قيمة الكلمة القرآنية فقال : (وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد ، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة) .[3] ومع قوله هذا لا نراه يهتم في تفسيره ببيان قيمة المفردات القرآنية (لأنه لم يتجه إلى أسرار البلاغة القرآنية ، ولم يكثر من إيراد وجوه الإعجاز البياني) .[4]

لكن الزمخشري في تفسيره بحث عن أسرار المفردات من حيث كونها اسماً أو فعلاً ، نكرة أو معرفة ، أو حرف عطف أو جر أو شرط ، متخذاً في ذلك دراسة عبد القاهر أساساً لكثير مما ذكره .

---

(١) سورة غافر : من الآية ٥ .

(٢) ينظر إعجاز القرآن : ٢١٠ .

(٣) المحرر الوجيز : ١/ ٦١ .

(٤) ينظر مقدمة التفسير : ١/ ١٠ .
تحقيق : الرحالي الفاروق - السيد عبد العال السيد ، عبدالله الأنصاري ، محمد الشافعي صادق ، طبعة قطر .

التقديم :

لم تسهم الدراسات القرآنية المتقدمة بعد سيبويه في دفع مبحث التقديم إلى الأمام. فأبو عبيدة في كتابه يقف عند أسلوب التقديم والتأخير، دون أن يكشف عن علته، لكنه ينص على أنه مذهب من مذاهب العرب في كلامها، يقول في قوله تعالى : ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (١) مجازه أحسن خلق كل شيء، والعرب تفعل هذا يقدمون ويؤخرون) (٢).

كذلك الفراء في (معاني القرآن) لم ينتفع بدراسة سيبويه في التقديم وكان يكتفي في بعض آيات التقديم بأن يقول إن في الآية تقديماً وتأخيراً، دون أن يبين سره، المهم أن يبين آيات التقديم. يقول في قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ ﴾ (٣) : (يقال إنه مقدم ومؤخر معناه "حتى إذا تنازعتم في الأمر فشلتم" فهذه الواو معناها السقوط) (٤).
ويقول في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ (٥) : (كأنك حفيّ عنها مقدم ومؤخر معناه يسألونك عنها كأنك حفي بها) (٦).

ثم نجد العناية بأسرار التقديم واضحة جلية في تفسير الزمخشري مستفيداً من بحوث البلاغيين فيه، فشملت التقديم بين جزأى الجملة، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم المبتدأ على الخبر، والتقديم في المتعلقات، كما اهتم بسر تقديم جملة على جملة مطبقاً في أكثر ذلك كلام عبد القاهر وأصوله.

---

(١) سورة السجدة : من الآية ٧.
(٢) مجاز القرآن : ٢/١٣٠.
(٣) سورة آل عمران : من الآية ١٥٢.
(٤) معاني القرآن : ١/٢٣٨.
(٥) سورة الأعراف : من الآية ١٨٧.
(٦) معاني القرآن : ١/٣٦٩.

وأكثر ما يفيد التقديم عنده الاختصاص ،كتقديم الخبر ، يقول في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (١) : (تقديم الجار والمجرور يدل على الاختصاص ، يعني لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن) (٢).

وقد يضاف إليه معاني أخرى كالتأكيد والتفخيم والتفرد ، كما في تقديم الاسم على الفعل ، وقد أشار إليه في مواطن كثيرة،منها أنه يقول في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾ (٣) : (وإيقاع اسم : ﴿ اللَّهُ ﴾ مبتدأ وبناء : ﴿ نَزَّلَ ﴾ عليه فيه تفخيم لـ: ﴿ أَحْسَنَ الحَدِيثِ ﴾ وتأكيد لاستناده إلى ﴿ اللَّهِ ﴾ وأنه من عنده ، وأن مثله لا تجوز أن يصدر إلا عنه) (٤).

وتناول التقديم في المتعلقات ويشمل تقديم المتعلقات على العامل وتقديم بعض المتعلقات عن بعض ،والأول كثيراً ما يفيد الاختصاص كما في قوله تعالى:﴿ وَعَلَامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٥) يقول : (فإن قلت قوله : ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ خرج عن سنن الخطاب مقدم فيه " النجم " مقحم فيه " هم " كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون) (٦).

ومثله كثير في القرآن ذكره الزمخشري .

أما تقديم بعض المعمولات على بعض فليس لها قاعدة تضبط بها ، وتأتي أسرارها على حسب سياق الكلام ،فمثلاً يقول في سر تقديم بعض الأقرباء على بعض في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ (٧) (وبدأ بالأخ ثم بالأبوين لأنهما أقرب منه ،ثم الصاحبة والبنين لأنهم أقرب منه وأحب) (٨).

---

(١) سورة ق : من الآية ٤٤ .
(٢) الكشاف : ٤/ ١٢ .
(٣) سورة الزمر : من الآية ٢٣ .
(٤) الكشاف : ٣/ ٣٩٤ .
(٥) سورة النحل : ١٦ .
(٦) الكشاف : ٢/ ٤٠٥ .
(٧) سورة عبس : ٣٤ - ٣٦ .
(٨) الكشاف : ٤/ ٢٢٠ .

الاستفهام :

بدأت تباشير هذا البحث في الدراسات القرآنية عند أبي عبيدة ، فقد بين أن الاستفهام في كثير من آيات القرآن لم يرد به معناه الحقيقي . وقاس ذلك على الشعر . يقول في قوله تعالى : * أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا *(١) : (جاءت على لفظ الاستفهام ، والملائكة لم تستفهم ربها ، وقد قال تبارك وتعالى : * إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً * ولكن معناها معنى الإيجاب ، أى أنك ستفعل ، وقال جرير : فأوجب ولم يستفهم - لعبد الملك بن مروان - :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ)(٢)

ويقول في قوله تعالى : * أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ الهين * يقول : هذا باب تفهيم ، وليس استفهاما عن جهل ليعلمه ، وهو يخرج مخرج الاستفهام وإنما يراد به النهي عن ذلك ، ويتهدد به)(٣) .

ونحا في غير هذه الآيات هذا النحو .

والفراء في (معاني القرآن) ذكر معاني للاستفهام بـ (هل) في بعض آيات القرآن الكريم ، فقد تفيد الأمر كما في قوله تعالى : * فَهَلْ أَنْتُم مُنتَهُونَ *(٤) فهو استفهام وتأويله : انتهوا ، وكذلك قوله : * هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ *(٥) ، وهذا يخالف ما ذهب إليه سيبويه من أن (هل) لا تستعمل إلا في الاستفهام ، ولا تخرج عن معناها إلى أى معنى آخر ، بخلاف الهمزة التي تخرج عن معناها ، يقول : (فـ " هل " ليست بمنزلة ألف الاستفهام ،

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٣٠ .

(٢) مجاز القرآن : ١/٣٥-٣٦ .

(٣) المصدر السابق : ١/١٨٤ .

(٤) سورة المائدة : من الآية ٩١ .

(٥) سورة المائدة : من الآية ١١٢ .

لأنك إذا قلت : هل تضرب زيداً ؟ فلا يكون أن تدعى أن الضرب واقع ، وقد تقول : أتضرب زيداً ؟ فأنت تدعى أن الضرب واقع)(١) فالقاعدة قد تختلف حين تطبق على آيات القرآن الكريم ، كما يذكر معاني بقية أدوات الاستفهام في آيات أخرى ،فكيف تفيد التعجب والتوبيخ في قوله تعالى : * كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً *(٢) ، وقد تفيد الهمزة الأمر كما في قوله تعالى : * وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ *(٣) .

ويضع ابن قتيبة الاستفهام الذى يخرج عن حقيقته تحت باب : (مخالفة ظاهر اللفظ معناه) فيكون للتقرير يقول : (ومنه أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير ،كقوله سبحانه : * أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ *(٤) .

وقد يكون للتعجب : (ومنه أن يأتي على مذهب الاستفهام وهو تعجب كقوله : * عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ *(٥) كأنه قال : عم يتساءلون يا محمد ؟ ثم قال عن النبإ العظيم يتساءلون . وقد يكون للتوبيخ كقوله تعالى : * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ *(٦) .

وقد اتسع مبحث الاستفهام عند مفسرى القرآن . كابن عطية والزمخشرى حيث يظهر التطبيق الحي لمنهج عبد القاهر عند الزمخشرى ،فقد تجاوز المعاني المشهورة عند البلاغيين قبله ،وذكر له أغراضاً أخرى .

---

(١) الكتاب : ٣/١٧٥-١٧٦ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨ .

(٣) سورة آل عمران : من الآية ٢٠ .

(٤) سورة المائدة : من الآية ١١٦ ،تأويل مشكل القرآن : ٢٧٩ .

(٥) سورة النبإ : ١-٢ ، المصدر السابق والصفحة .

(٦) سورة الشعراء : ١٦٥ ،المصدر السابق : ٢٨٠ .

فيأتي للتفخيم [١] كما في قوله تعالى : * عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * ، ويأتي للتبكيت كما في قوله تعالى : * وَقَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُم تَعْمَلُونَ * [٢] ، والاستبعاد كما في قوله تعالى : * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ * [٣] ، والاستبطاء كما في قوله تعالى : * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * [٤].

الأمر والنهي :

تعرض مفسرو القرآن لآيات الأمر والنهي ، وبينوا معانيها من خلال النص القرآني .

فأبو عبيدة أشار إلى أن الأمر له ظاهر وله باطن ، وباطنه هو المعنى الذى يخرج إليه ، فيقول في قوله تعالى : * اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ * ، وقوله : * وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ * [٥] : (إنّ هذا ظاهره الأمر وباطنه الزجر ، وهو من سنن العرب ، تقول : إذا لم تستح فافعل ما شئت) [٦].

ويشير ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن إلى بعض صور الأمر ويجعله من باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه يقول : (ومنه أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد كقوله تعالى * اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ * ، وأن يأتي على لفظ الأمر وهو تأديب

---

(١) الكشاف : ٢٠٦/٤ .

(٢) سورة النمل : من الآية ٨٤ - الكشاف : ١٦١/٣ .

(٣) سورة هود : من الآية ٧٢ + الكشاف : ٢٨١/٢ .

(٤) سورة الشعراء : ٣٩ - الكشاف : ١١٢/٣ .

(٥) سورة الكهف : من الآية ٢٩ .

(٦) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ١٤٩ .

كقوله : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ ﴾ [١] ... على لفظ الأمر وهو إباحة كقوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ﴾ ...) [٢].

وكل هذه تعد إشارات بسيطة إلى معاني بعض صور الأمر، نراها تتسع عند المفسرين، الذين حرصوا على بيان معنى الأمر والنهي كما عند الزمخشري، فقد عرف الأمر وذكر إفادته لمعاني مختلفة، يقول في تعريفه له: (فإن قلت : ما الأمر ؟ قلت : هو طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه، وبه سمي الأمر الذي هو واحد الأمور، لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه، شبه بآمر يأمره به، فقيل له (أمر) تسمية للمفعول به بالمصدر، كأنه مأمور به) [٣].

ويذكر معاني للأمر مثل الإباحة والوجوب والندب، بالإضافة إلى اهتمامه بالمعاني البلاغية له. فقد يأتي ويراد به التهكم كما في قوله: ﴿ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [٤] أو الاستهزاء كما في قوله : ﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ ﴾ [٥]، أو طلب الثبات على فعل من الأفعال كما في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ [٦] وغيرها كثير من المعاني، حرص الزمخشري على ذكرها وهو يفسر الأمر في الآيات، كما تناول صيغ النهي في آيات من القرآن وبين معناها. فقد يراد به الاستمرار على الحال التي عليها المخاطب كما في

---

(١) سورة الطلاق : من الآية ٢.
(٢) تأويل مشكل القرآن : ٢٨٠ ـ سورة النور : من الآية ٣٣.
(٣) الكشاف : ١/ ٢٦٩.
عند تفسير : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ البقرة : من الآية ٢٧.
(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٣.
(٥) سورة آل عمران : من الآية ١٦٨.
(٦) سورة البقرة : من الآية ٢١.

قوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ (١) أو لتقبيح الفعل كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾ (٢).

وتتسع معاني النهي وتتعدد عند الفخر وهو يفسر الآيات على حد ما سنرى -إن شاء الله- مستفيداً مما ذكره عبد القاهر.

الحذف :

يرى الفراء عند تفسيره لبعض آيات الحذف، أن من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكلام، فيحذفون من الكلام قصداً للتخفيف، لكنه يشترط أن يكون السامع على علم به. فيقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ... ﴾ (٣) : (فافعل، مضمرة بذلك جاء التفسير، وذلك معناه، وإنما تفعله العرب في كل موضع يعرف فيه معنى الجواب) (٤). ويمر على أكثر آيات الحذف، فيقدر المحذوف، ثم يرجع سببه إلى علم السامع به.

والفراء يسير في ذلك على نهج أبي عبيدة قبله الذي كان يرجع الحذف إلى هذا السبب، فيقول : (العرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه) (٥). وبذلك لم تكن للفراء في هذا الباب طريقة مميزة

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٦.
(٢) سورة النساء : من الآية ٢.
(٣) سورة الأنعام : من الآية ٣٥.
(٤) معاني القرآن : ١/٣٣٢.
(٥) مجاز القرآن : ١/١١١.

ويتحدث ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن عن الحذف تحت باب (الحذف والاختصار) ويمثل له بكثير من الأمثلة من القرآن وكلام العرب ويذكر أنواعاً له ، فمن أنواعه :

أن تحذف المضاف وتقيم المضاف إليه مقامه ، كقوله تعالى : * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا * (١) ، أي : سل أهلها . وكقوله تعالى : * الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ * (٢) ، أي : وقت الحج .

ومن ذلك أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما وتضمر للآخر فعله كقوله تعالى : * فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ * (٣) ، أي : ادعوا شركاءكم .

ومن أنواعه أن تأتي بالكلام مبنياً على أنّ له جواباً فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب به كقوله تعالى : * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * (٤) ، أي : لعذبكم (٥) . وغير ذلك ، وكانت طريقته لا تخرج عن تقديره للمحذوف فقط .

أما دراسة الرماني للحذف فكانت تحت باب الإيجاز ، وقد نفث فيها الروح البلاغية ، كما نفث عبد القاهر الروح البلاغية في الناحية النظرية فقد ذكر السر البلاغي للحذف بعد أن كان العلماء يكتفون بالقول بأن الحذف للإيجاز ولا يزيدون ، فيقول وهو يعرض لحذف الجواب في قوله تعالى :

---

(١) سورة يوسف : من الآية ٨٢ .
(٢) سورة البقرة : من الآية ١٩٧ .
(٣) سورة يونس : من الآية ٧١ .
(٤) سورة النور : ٢٠ .
(٥) ينظر تأويل مشكل القرآن : ٢١٠ وما بعدها .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾(1) : (وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان)(2) .

ويشترط في الحذف عدم الإخلال بالمعنى ، وأن يكون في الكلام ما يدل عليه . ويعتبر الرماني إيجاز الحذف محاطاً بشيء من الغموض للحاجة إلى العلم بالمواضع التي يصلح فيها الحذف من المواضع التي لا يصلح فيها .

وأظن أن عبد القاهر قد استفاد من الرماني وهو يقيم أصول هذا الباب .

وبالتالي فقد تأثر الزمخشري بدراسة عبد القاهر للحذف ، فلم يكتف بذكر المحذوف ، بل كشف عن السر البلاغي للحذف ، وقد ظهرت في دراسته جوانب لم تظهر في الناحية النظرية لهذا البحث ، وهكذا المسألة تبدو محدودة في الدراسات النظرية، ثم تتسع حين تنتقل إلى المجال التطبيقي .

فالخبر يحذف ليفيد حذفه التوكيد والتقوية. يقول في قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾(3) : (فأنّ لله : مبتدأ خبره محذوف تقديره : فحق أوفواجب أن لله خمسه ، وروى الجعفي عن أبي عمرو : فإنّ لله - بالكسر - وتقوية قراءة النخعي ، فلله خمسه والمشهور آكد وأثبت للإيجاب)(4) .

كما ذكر لحذف المفعول أسراراً جليلة متنوعة ، فقد يحذف للدلالة على عظمة المحذوف كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن

---

(1) سورة الزمر : من الآية ٧٣ .
(2) النكت : ٧٠-٧١ .
(3) سورة الأنفال : من الآية ٤١ .
(4) الكشاف : ٢/١٥٨ .

نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ *[١] حذف مفعول "نبين" للدلالة على عظمة قدرته وعلمه، وهو ما لا يكتنهه ذكر و يحيط به وصف.[٢]

وقد يحذف المفعول للدلالة على التعميم، فيدخل فيه كل ما يصح أن يدخل تحت الفعل كقوله تعالى : * اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ *[٣] وقوله تعالى : * يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ *.[٤]

و يشيع حذف مفعول المشيئة، ويذكر الزمخشري أنه يحذف لدلالة الجواب عليه، ويكثر في "شاء" و "أراد".

كما في قوله تعالى : *وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ *[٥]
والمعنى : (ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها)[٦]
ويظهر هنا تأثره الظاهر بعبد القاهر.

ويظهر امتداد هذا الباب عند الفخر في تفسيره، لأنه ذكر للحذف أسراراً متنوعة.

---

(١) سورة الحج : من الآية ٥.
(٢) ينظر الكشاف : ٣٠/٥.
(٣) سورة العلق : ١.
(٤) سورة الحجرات : من الآية ١.

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٠.
(٦) الكشاف : ٢٢١/١.

الايجـــــاز :

عرف أصحاب الدراسات القرآنية الإيجاز منذ مرحلة متقدمة، فهـــو من أهم سمات كلام العرب ، وقد بدا في القرآن واضحاً جلياً .

فأبوعبيدة ذكر أنه مذهب من مذاهب العرب في كلامها ، يفعلونه قصد التخفيف ، ويشترط فيه علم السامع به . وذكر آيات فيها حذف فقدره وألحقه بطريقة العرب في كلامها ، فمثلاً يذكر قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنـــاً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ (١) ويقول : (مجازه مجاز المكفوف عن خبره ، ثم استؤنف ، فقال : ﴿ بَل لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ فمجازه لو سيرت به الجبال لسارت ، أو قطعت به الأرض لتقطعت ، ولو كلم به الموتى لنشرت ، والعرب قد تفعل مثل هذا لعلم المستمع به استغناء عنه ، واستخفافاً في كلامهم) (٢) .

كذلك يقدر المحذوف في قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ (٣) ثم يلحقه بطريقة العرب في كلامهم ، ويذكر قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ فيقدر مجازها : " أهل القرية .

---

(١) سورة الرعد : من الآية ٣١ .

(٢) مجاز القرآن : ١/ ٣٣١ .

(٣) سورة آل عمران : من الآية ١٩١ .

ويتبع الفراء أبا عبيدة في طريقة تناول الإيجاز ، فيذكر آيات كثيرة من القرآن، ويقدر المحذوف ، ويرد كل ذلك إلى مذاهب العرب في كلامها فيرى أن من شأن العرب الإيجاز ، وتقليل الكلام ، فيحذفون من الكلام قصداً للتخفيف ، ولكنه يشترط أن يكون السامع على علم به ، لئلا يؤدي إلى لبس وغموض (١) ، وهو في هذا متفق مع أبي عبيدة .

ويذكر آيات فيما عُرف بعد ذلك بإيجاز الحذف، ويقدر المحذوف فيها ، ويلحقه بطريقة العرب في كلامها .

ثم يأتي ابن قتيبة ويعرف نوعاً من الإيجاز في القرآن من خلال آياته ويعده سمة من سماته وهو (جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه) ثم يقول : (وإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم ، لأن في "أخذ العفو" صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين . وفي "الأمر بالعرف" تقوى الله ، وصلة الأرحام ، وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن الحرمات . . . وفي "الإعراض عن الجاهلين" الصبر ، والحلم ، وتنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج) (٣) .

فابن قتيبة على علم بما تحمله كل كلمة من معاني ، وهذا ما عرف فيما بعد بإيجاز القصر ، واستمر في ذكر الآيات وبيان فيوضاتها المعنوية فيذكر قوله تعالى : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ (٤) ثم يقول : (كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجرة والحب والتمر والحطب ، والعصف واللباس والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان ، والملح من الماء) (٥) .

---

(١) معاني القرآن : ١/ ٣٣١- ٣٣٢ .

(٢) سورة الأعراف : ١٩٩ .

(٣) تأويل مشكل القرآن : ٤-٥ .

(٤) سورة النازعات : ٣١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن : ٥ .

كما تناول آية : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (١) وقال فيها : (يريد أن سافك الدم إذا أُقِيد منه ارتدع من كان يَهُمّ بالقتل، فكان في القصاص لـه حياة وهو قتل) (٢). وهذه الآية تعد من أساسيات باب إيجاز القصر، وأكثر من يتحدث عنها يذكرها ويبين فضلها على كلام العرب، وكل عالـم يستخرج منها من المعاني ما يلوح له .

كما تناول ابن قتيبة آيات أخر، وكان أحياناً يقارن بينها وبين أقوال العرب، ليبين قصورهم عن أداء المعنى، وكماله في القرآن . يقول : (وهذا في القرآن أكثر من أن نستقصيه) (٣) فهو يفتح الباب لمن أراد أن يستقصي هذا الأسلوب في القرآن .

كما تعرض لإيجاز الحذف في (باب الحذف والاختصار) وذكر له أنواعاً كثيرة تناولت حذف الحرف والاسم والفعل، وحذف الكلمة والكلمتين والجملة، ودعمها بكثير من الأمثلة من القرآن الكريم، ويشترط في الحذف أن يكون معلوماً لدى السامع، وألا يخل الحذف بالمعنى، وهذا ما قاله الفراء وأبوعبيدة قبله ، لكن ابن قتيبة رأى أن المحذوف ربما لا يكون معلوماً ظاهراً في بعض آيات القرآن، فهو قد يدق ويخفى بعض الخفاء، فيحتاج إلى حسن تأت يقول : (وقد يشكل الكلام ويغمض بالاختصار والإضمار كقوله : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ (٤) والمعنى : أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً، ذهبت نفسك حسرة عليه ؟ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) (٥). وهكذا تعد

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٧٩.

(٢) تأويل مشكل القرآن : ٦.

(٣) المصدر السابق : ٩.

(٤) سورة فاطر : من الآية ٨ (٥) تأويل مشكل القرآن : ٢١٩.

دراسته للإيجاز من أوسع الدراسات المتقدمة ،المدعمة بكثير من الآيات القرآنية.

وكانت دراسة الرماني للإيجاز تحت باب مستقل تعد أول دراسة منظمة - على حد ما وصل إلينا - فقد قسمه إلى قسمين :

إيجاز قصر ،وإيجاز حذف . وقد عرف كلاً منهما فقال : (فالحذف إسقاط كلمة للإجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام ، والقصر بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف) (١).

ثم ساق لكل قسم أمثلة من القرآن الكريم دون أن يحدد موضع الإيجاز أو يقدره كما فعل ابن قتيبة والفراء ،لكنه عقد مقارنة بين بلاغة القرآن وبلاغة الناس في الإيجاز من خلال عرضه لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ ومقارنتها بقول العرب : (القتل أنفى للقتل) . وقد أشار إلى وجه الفرق بينهما من أربعة أوجه - وسنرى كيف تناول الفخر هذه الآية وهذا المثل ،واستفاد مما قاله الرماني فيهما بل أضاف إليه.

ويعود الفضل إلى الرماني في أنه كشف عن القيمة البلاغية لإيجاز الحذف حيث يقول : (وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر ، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ،ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان) (٢).

وإيجاز القصر عنده أغمض من إيجاز الحذف ،وسبب ذلك هو أنه يعني القدرة على إلباس المعنى الكثير بنية لفظية قليلة ذات إيحاءات ودلالات على المعنى المراد ،وهو أصعب من إيجاز الحذف وأدق وأغمض ،لأن هذه تعني إقامة العبارة على قدر المعنى ،ثم إسقاط جزء منها ،ولا شك أن الأولى أصعب وأدق ، وفي أثناء حديثه عن الإيجاز أخذ يقارن بينه وبين الإطناب

---

(١) النكت : ٧٠.

(٢) المصدر السابق : ٧١.

والتطويل ليبين مزيته وفضله في القرآن فيقول : (وإذا عرفت فضيلته على سائر الكلام ، وهو علوه على غيره من سائر الكلام ، وعلوه على غيره من أنواع البيان) (١) .

ويجعل الباقلاني الإيجاز من أقسام البلاغة العشرة في فصل عقده بعنوان : (وصف وجوه من البلاغة) ويقسمه إلى إيجاز حذف وإيجاز قصر ، ويبدو هنا تأثره بالرماني واضحاً ، حتى في الأمثلة التي نقلها منه ، وهكذا كان القرآن مجالاً رحباً لمعرفة الإيجاز وأقسامه .

الفصل والوصل :

ظهرت تباشير هذا الباب في إشارات بسيطة من العلماء تتحسس علاقات الكلمات والآيات في بعض سور القرآن .

من ذلك أن الفراء قد ذكر وجوهاً لصلة : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ يقول : (فإنه رفع من وجهين ونصب من وجهين ، إذا أردت بالكتاب أن يكون نعتاً لذلك كان الهدى في موضع رفع ، لأنه خبر لذلك كأنك قلت : ذلك هدى لا شك فيه ، وإن جعلت : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ خبره رفعت أيضاً : ﴿ هُدًى ﴾ تجعله تابعاً لموضع : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ... كأنه قال : وهذا كتاب ، وهذا مبارك ، وهذا من صفته كذا وكذا ، وفيه وجه ثالث من الرفع إن شئت رفعته على الاستئناف لتمام ما قبله ... فأما النصب في أحد الوجهين ، فأن تجعل : ﴿ الْكِتَابُ ﴾ خبراً (لذلك) فتنصب ﴿ هُدًى ﴾ على القطع ، لأن ﴿ هُدًى ﴾ نكرة اتصلت بمعرفة قد تم خبرها فنصبتها ... وإن شئت نصبت : ﴿ هُدًى ﴾ على القطع) (٢) وهذه الإشارات وإن راعت جانب المعنى إلا أنها أقرب إلى النحو .

---

(١) المصدر السابق : ٧٣ .

(٢) معاني القرآن : ١ / ١١-١٢ .

ثم نجد دراسة للباقلاني يبحث فيها عن علاقات المعاني الجزئية وعن علاقات الأغراض في الآيات القرآنية ، فقد تناول كثيراً من الآيات وبين وجه ارتباطها ومناسبتها لما قبلها ، وتتبع وجه انتقالها من معنى إلى معنى .

يقول : (والقرآن على اختلاف فنونه ، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة يجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد ، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة ، وتظهر به البلاغة ..) (١) .

وكان كثيراً ما يشير إلى تلاحم الآيات بعد ما يفرد كل جملة ، وكل آية وينظر إلى طبيعة معناها وما يميزها ، ثم ينظر إلى التي تليها ، ثم يشير إلى ما بينهما من التآلف أو التخالف ، ثم يرشد إلى براعة النظم فيها (٢) فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (٣) : (فانظر إلى هذه الكلمات فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان وقوله : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ كلمة منفصلة مباينة للأولى قد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافاً من الكلام المؤتلف ، وألطف انتظاماً من الحديث الملائم) (٤) . ومثل هذا كثير في كتابه ، ثم يتناول هذا الترابط في نطاق السورة كاملة ، فقد عرض لسورة النمل وسورة غافر ، ووقف عند مواطن التخلص والترابط .

ثم جاء الزمخشري وبحث في علاقات الجمل القرآنية واضعاً نصب عينيه ما قاله عبد القاهر في باب الفصل والوصل ، إلا أنني لاحظت أن هذا الباب قد اتسع بين يديه ، وهكذا الحال في المسائل البلاغية حين تخرج إلى المجال

---

(١) إعجاز القرآن : ٦٢ .

(٢) ينظر الإعجاز البلاغي ، للدكتور محمد أبو موسى : ٢٠٩ .

(٣) سورة الشورى : من الآية ٥٢ والآية ٥٣ .

(٤) إعجاز القرآن : ٢٠٠ .

التطبيقي ،فالفصل عنده قد يكون وصلاً تقديرياً وهو أقوى من الوصل الظاهر يقول في قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ (١) : (فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها في : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ،ونزعها وصل خفي تقديري بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر) (٢).

وقد تقع الواو بين جملتين فتفصل بين معنييهما ،وقد تسقط الواو في آية أخرى فيكون الكلام كلاماً واحداً يؤكد بعضه بعضاً يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ (٣) : (فإن قلت : هل اختلف المعنى بإدخال الواو هنا ،وتركها في قصة ثمود ؟ قلت : إذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم . . . وإذا تركت فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ،ثم قرر بكونه بشراً مثلهم) (٤).

ويتابع الزمخشرى آيات كثيرة تتكرر في القرآن في مواضع مختلفة مقترنة بالعاطف تارة ،وغير مقترنة به أخرى ،ويختلف هذا العاطف الذى قد يكون واواً وقد يكون فاءً ،ويفسر ما وراء هذا العاطف من أسرار ،وهو كثير في القرآن .

ويبحث في الآيات التي تتواصل فيها الجمل ويقرر بعضها بعضاً بنظام وتناسق داخلي كما في أول سورة البقرة فيقول : (إن قوله ﴿ الم ﴾

---

(١) سورة هود : من الآية ٩٣.

(٢) الكشاف : ٢٨٩/٢.

(٣) سورة الشعراء : ١٨٥ ومن الآية ١٨٦.

(٤) يشير إلى قوله تعالى في قصة ثمود : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ سورة الشعراء : ١٥٣-١٥٤.
الكشاف : ١٢٧/٣.

جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ جملة ثانية ، و ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ جملة ثالثة ، و ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حتى جيء بها متناسقة هكذا من غير نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض) [١].

كما اهتم بجمل الاستئناف ولاحظ ما فيها من قوة وفخامة حين تضيف معنى مميزاً للآية ، ويبحث الزمخشري عن معنى حرف العطف الذي يستلزم أن يكون بين الجملتين قدراً من الاتفاق ليكون الربط ، ولكنه حين يسقط فإنه ينبيء عن الاتصال والاتحاد الشديد بين الجملتين، أو الانفصال بينهما ، فالعطف للتوسط بين الحالتين ، ويتناول آيات في ذلك كأن يبين السر في العطف في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٢] يقول : (فإن قلت : لم جاء مع العاطف وما الفرق بينه وبين قوله : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [٣] قلت : قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمة ، فإنهما متفقان ، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد) [٤]. وهكذا وجدنا الزمخشري يولد المسائل من مثل هذه التطبيقات ، ويوضح أسرارا ودقائق هذا الباب، ويتبعه الفخر كما سنرى في دراسته لها .

التكـرار :

نما هذا الفن في ظل الدراسات القرآنية ، لأن الطاعنين في القرآن وجدوا في التكرار منفذاً للطعن فيه ، فكان من الضروري أن ينهض العلماء للرد عليهم ولبيان أسراره البلاغية في القرآن الكريم .

---

(١) المصدر السابق : ١/ ١٢١ .

(٢) سورة البقرة : ٥ .

(٣) سورة الأعراف : من الآية ١٧٩ .

(٤) الكشاف : ١/ ١٤٥ .

تحدث عنه الفراء في كتابه (معاني القرآن) وحديثه فيه يغلب عليه الطابع النحوي ، فقد تحدث عن تكرار الحروف ، فأجاز الجمع بين الحرفين إذا اختلف المعنى ، ومنعه إذا اتحد ، ومعنى هذا أنه لا يجيز التكرار في المعنى واللفظ إلا ما كان لتشديد المعنى ومثّل له بقول الشاعر :

إلَى النَّفَرِ اللاء الَّذِينَ إذا هُمُ تهاب اللئامُ حَلْقَةَ الباب قعقعوا (١)

أجاز جمع (اللاء) و (الذين) لاختلاف لفظهما وقال : لو اتفقا لم يجز (٢) أما في الأسماء والظروف المتحدة لفظاً وشكلاً ، فيشترط اختلاف المعنى ، فإذا قال القائل : لم أره منذ يوم يوم ، فإنه ينوي بالثاني غير اليوم الأول . (٣)

كما يجيز الفراء تكرار الجمل إذا كان هناك غرض بلاغي كالتغليظ مثلاً في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) يقول : (والكلمة قد تكررها العرب على التغليظ والتخويف فهذا من ذاك) (٥) وهو هنا يتراجع أمام النص القرآني عما قرره سابقاً في تكرار الحرف ، ويشترط اتحاد اللفظ ، كما أنه لا يقبل قراءة من قرأ : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ بضم التاء الأولى وفتح الثانية لأن (الأولى أشبه بكلام العرب ، لأنه تغليظ ، فلا ينبغي أن يختلف لفظه) . (٦)

واهتم ابن قتيبة بالحديث عن التكرار في القرآن ، وعقد باباً تحت عنوان (باب تكرار الكلام والزيادة فيه) ، ذكر فيه أن التكرار موجود في القرآن ،

---

(١) البيت لأبي الربيس ، أحد اللصوص ، أنشده ابن منظور في لسان العرب في مادة (لوى) ، وقال إنه لأبي الربيس عبّادة بن طهفة المازني لسان العرب : ١٥/٢٦٧ .
(٢) ينظر معاني القرآن : ١٧٦/١ .
(٣) المصدر السابق : ١٧٧/١ .
(٤) سورة التكاثر : ٣-٤ .
(٥) معاني القرآن : ٢٨٧/٣ .
(٦) المصدر السابق : ٢٨٨/٣ .

لأنه نزل بلغة العرب ،وعلى مذاهبهم ،وذكر نوعين للتكرار : تكرار الأنباء والقصص ،وتكرار الكلام من جنس واحد ،ووضح أن تكرار الأنباء والقصص جاء نتيجة أغراض دينية اقتضاها نشر الدعوة الاسلامية ،ففيه تيسير على العباد ، وتدريج لهم ،ووعظ بعد وعظ من سنة الغفلة والنسيان ،وغير ذلك من الأسباب التي اقتضاها المقام وطلبه الحال (١) ، أما تكرار المعنى فهو على نوعين :

١ - تكرار المعنى والكلام من جنس واحد وبعضه يجزئ عن بعض ،كتكراره في : * قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * (٢) وفي سورة الرحمن : * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فهو لإرادة التوكيد والإفهام.

وقد يأتي للتوكيد وحسم الأطماع ،كما في قوله تعالى : * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * (٣).

أما النوع الثاني : فهو تكرار المعنى بلفظين مختلفين ،ويكون لأغراض منها : إشباع المعنى والاتساع في الألفاظ ،ولم يستشهد على هذا بآية قرآنية ،بل قال كقول القائل : آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر ، فالأمر بالوفاء هو نهي عن الغدر .

ويأتي لبيان فضل المكرر وعظم فائدته ،كما في قوله تعالى : * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * (٤) والنخل والرمان من الفاكهة ،أفردهما لفضلهما .
وقد يأتي للترغيب في المكرر كقوله تعالى : * حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى * (٥) ، أفردها بالذكر ترغيباً فيها وتشديداً لأمرها. (٦)

---

(١) ينظر تأويل مشكل القرآن : ٢٣٢ ومابعدها .
(٢) سورة الكافرون : ١ .
(٣) سورة التكاثر : ٣-٤ .
(٤) سورة الرحمن : ٦٨ .
(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٣٨ .
(٦) ينظر تأويل مشكل القرآن : ٢٤٠ .

وللخطابي دراسة في التكرار جاءت للرد على من طعن في القرآن ، فقسم التكرار الى قسمين :

الأول : مذموم مستغنى عنه لا يزيد في المعنى ، وهذا يكون فضلاً في القول ولغواً ،وليس في القرآن منه شيء.

الثاني : وهو الذى يأتي في الأمور المهمة ،التي قد تعظم العناية بها ،ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها ،والاستهانة بقدرها ،كتكرار الأقاصيص والأخبار ،فقد جاءت للذكرى ،وكالتكرار في سورة الرحمن ،حيث ذكر علته فقال : (وأما سورة الرحمن فإن الله سبحانه خاطب بها الثقلين من الإنس والجن ،وعدد عليهم أنواع نعمه التي خلقها لهم ،فكلما ذكر فضلاً من فضول النعم جدد إقرارهم به ، واقتضاءهم الشكر عليه ،وهي أنواع مختلفة وفنون شتى).(١) ثم بين السبب في مجيئه بعد ذكر الوعيد في قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾(٢) يقول : (وأي موضع نعمة هاهنا ؟ وهو إنما يتوعدهم بلهب السعير والدخان يستطير ،قيل إن نعمة الله تعالى فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه ليحذروها فيرتدعوا عنها بازاء نعمه على ما وعد وبشر من ثوابه على طاعتهم ليرغبوا فيها).(٣)

ويجعل الباقلاني التكرار من وجوه البديع في فصل يعقده يتحدث فيه عن وجوه البديع ،ليرى هل يمكن تعليل الإعجاز القرآني بها أو لا يمكن ؟ وبعد أن عددها انتهى إلى القول بأنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن عن طريقها، وذلك لأنه ليس فيها ما يخرق العادة . ودراسته للتكرار مبسطة جداً

---

(١) بيان إعجاز القرآن : ٤٨.

(٢) سورة الرحمن : ٣٥.

(٣) بيان إعجاز القرآن : ٤٩.

فقد ذكـر بيتين من الشعر ،ثم دلل عليه بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) دون أن يخوض في أسرار التكرار (٣) ، ويذكر في موضع آخر أن تكرار القصص في القرآن نوع من أنواع التحدى القرآني ،ثم دعا إلى النظر والتأمل في سورة كاملة للتعرف على التصرف في قصصها، ثم عرض لسورة النمل ، فقد لاحظ تكرار جزء من قصة موسى في عدة سور وذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٤) وقال في سورة طـه في هذه القصة : ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ (٥) وفي موضع : ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ (٦): (وقد تصرف في وجوه وأتى بذكر القصة على ضروب ،ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك) (٧).

وأسهم القاضي عبد الجبار في الدفاع عن التكرار في القرآن فذكر أنواعاً كثيرة له ، وذكر أن عادة الفصحاء جارية بأنهم قد يكررون القصة الواحـدة في مواطن متفرقة بألفاظ مختلفة لأغراض تتجدد في المواطن وفي الأحوال ، وذلك من دلالة المفاخر والفضائل ، ثم يذكر رأى شيخه في تكرار قصص الأنبياء ، وأن ذلك لنزول القرآن مفرقاً ،ولتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسـلم ،

---

(١) سورة الشرح : ٥-٦ .
(٢) سورة الكافرون : ١ .
(٣) ينظر إعجاز القرآن : ١٢٧ .
(٤) سورة النمل : من الآية ٧ .
(٥) سورة طه : من الآية ١٠ .
(٦) سورة القصص : من الآية ٢٩ .
(٧) إعجاز القرآن : ٢٠٢ .

كما أنها تتكرر بتكرار المواقف ، وثمة فرض آخر ، وهو أن يعرف أرباب الفصاحة منزلة القرآن من الفصاحة، كذلك فيه حاجة المسلمين إلى تكرار المواعظ . ولا يرى في سورة الرحمن تكراراً : (لأنه ذكر نعماً بعد نعم وعطف كل نعمة من ذلك بهذا القول . . . وعنى بكل قول غير ما عناه بالقول الأول وإن كان اللفظ متماثلاً) (١).

ثم كان تفسير الزمخشري امتداداً لبيان أسرار التكرار ، فوقف عند كثير من صوره ليظهر أثره البلاغي في مواقعه المختلفة ، وتمتاز دراسته بصلتها المباشرة بنفس السامع أو المتكلم ، يقول في فائدة التكرار : (النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة ، فإن لم يكرر عليها عوداً على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ، ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به ، وينصح ثلاث مرات وسبعاً ، ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم) (٢) وغير هذا كثير ، كذلك أشار إلى نوع من التكرير في القصص القرآني ، كتكرير آية أو آيتين في كل قصة من قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم كما في سورة الشعراء ، حيث تختم كل قصة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) يقول في سر التكرار : (كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتتح بما افتتحت بها صاحبتها ، وأن تختتم بما اختتمت به ، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس ، وتثبيتاً لها في الصدور . . .) (٤).

---

(١) المغني : ٣٩٩/١٦.
(٢) الكشاف : ٣٩٥/٣.
(٣) سورة الشعراء : ٨ - ٩.
(٤) الكشاف : ١٢٧/٣.

الالتفــــات :

يعد أبو عبيدة من أوائل من التفت إلى اختلاف الضمائر في الخطاب في القرآن وسماه مجازاً فيقول في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[١] : (﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ معناه هذا القرآن ، وقد تخاطب العرب الشاهد فتظهر له مخاطبة الغائب)[٢] ، ويقول : (ومن مجاز ما جاءت مخاطبة الغائب قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ أي بكم)[٣] . ولا يقصد بالمجاز المشهور عند البلاغيين إنما يقصد بيان المعنى .

وذكره الفراء وهو يفسر آية يونس لكنه لم يسمه يقول في : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ : (يعني الفلك فقال جاءتها ، وقد قال في أول الكلام : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ ولم يقل " وجرت " ، وكل صواب ، تقول : النساء قد ذهبت وذهبن)[٤] .

ويجعل ابن قتيبة هذه الآية تحت باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، ويقول : (ومنه أن يخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[٥] .

واهتم المفسرون للقرآن بمثل هذه الانتقالات في الضمائر فالطبري تناول الحديث عنه دون تسميته في سورة الفاتحة ، يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٦] : (فنصب ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ليكون

---

(١) سورة البقرة : ١-٢ .

(٢) مجاز القرآن : ٢٨/١ .

(٣) المصدر السابق : ١١/١ ، سورة يونس : من الآية ٢٢ .

(٤) معاني القرآن : ٤٦٠/١ .

(٥) تأويل مشكل القرآن : ٢٨٩ .

(٦) سورة الفاتحة : ٤ .

إياك نعبد له خطاباً كأنه أراد : يا مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، وعن ابن عباس أن جبريل قال للنبي -صلى الله عليه وسلم -عن الله ،قل يامحمد : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ،مالك يوم الدين ،وقل أيضاً : يا محمد إياك نعبد وإياك نستعين . وكان عقل عن العرب أن من شأنها إذا حكت أو أمرت بحكاية خبر يتلو القول أن تخاطب ،ثم تخبر عن غائب ،وتخبر عن الغائب، ثم تعود إلى الخطاب لما في الحكاية بالقول من معنى الغائب)[1] ثم يضرب لذلك أمثلة من الشعر فيذكر قول أبي كبير الهذلي :

يَا لَهْفَ نَفْسِي كَانَ جِلْدَةُ خَالِدٍ ... وَبَيَاضُ وَجْهِكَ لِلتُّرَابِ الأَعْفَرِ

(فرجع إلى الخطاب بقوله : وبياض وجهك ،بعد ما قد مضى الخبر عن خالد ... ومنه قول لبيد بن ربيعة :

بَاتَتْ تَشَكَّى إِلَيَّ النَّفْسَ مُجْهِشَةً ... وَقَدْ حَمَلْتُكَ سَبْعاً بعد سَبْعِينَا

فرجع إلى مخاطبة نفسه ...)[2].

و يقف الزمخشري في تفسيره عند كثير من صوره ،ويبين قيمته البلاغية وأثره في إيقاظ النفس وتحريكها ،ودراسته قد جرت في كتب المتأخرين بأمثلتها . يقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : (فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ... قلت هذا يسمى الالتفات في علم البيان ،قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ،ومن الخطاب إلى الغيبة ،ومن الغيبة إلى التكلم ،كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ ﴾[3] وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالأَثْمُدِ ... وباتَ الخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ

وباتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ ... كَلَيْلَةِ ذِي العَائِرِ الأَرْمَدِ

وَذلكَ مِنْ نبأٍ جاءَني ... وخبرتُهُ عن أبي الأَسْوَدِ

---

(١)(٢) جامع البيان : ٦٧/١ .
(٣) سورة فاطر : من الآية ٩ .

وذلك من عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ؛ ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ...)[١]. وقد تتبع كثيراً من الآيات وبين الالتفات فيها ، وذكر وجوهه المختلفة.

الفواصل القرآنية :

يعد الفراء من أوائل الذين تحدثوا عن الفواصل في القرآن الكريم في كتابه (معاني القرآن) ، وقد اتخذ من النسق القرآني مقياساً للمفاضلة بين القراءات، فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾[٢] : (ذكروا أنها ليلة المزدلفة ، وقد قرأ القراء يسرى - بإثبات الياء - ويسر - بحذفها - وحذفها أحب إليّ لمشاكلتها لرؤوس الآيات ، ولأنّ العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها)[٣] فهو قد فضل قراءة على قراءة مراعاة للفاصلة.

وذكر ذلك في أكثر من موضع ، وسوّى ما بين ما يجوز في الشعر العربي وبين ما في القرآن الكريم، ولذلك فقد كان موضع إنكار شديد من ابن قتيبة[٤] خاصة عندما فسر الجنتين بجنة واحدة مراعاة للفاصلة في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾[٥] يقول الفراء : (أراد جنة كقوله : ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾[٦] فثنى لأجل الفاصلة)[٧].

---

(١) الكشاف : ١/٦٢-٦٣-٦٤.
(٢) سورة الفجر : ٤.
(٣) معاني القرآن : ٣/٢٦٠.
(٤) ينظر البرهان في علوم القرآن ، للزركشي : ٢/١٢٨.
(٥) سورة الرحمن : ٤٦.
(٦) سورة النازعات : ٤١.
(٧) نقلاً من البرهان في علوم القرآن : ٢/١٢٨.

ويقول ابن قتيبة راداً عليه : (إنما يجوز في رؤوس الآى زيادة هاء السكت أو الألف أوحذف همزة أو حرف ، فأما أن يكون الله وعد جنتين فنجعلهما جنة واحدة من أجل رؤوس الآى فمعاذ الله ،وكيف هذا وهو يصفهما بصفات الأثنين قال : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ ثم قال فيهما : ﴿ فِيهِمَا ﴾ ولو أن قائلاً قال في خزنة النار إنهم عشرون ،وإنما جعلهم الله تسعة عشر لرأس الآية ، ما كان هذا القول إلا كقول الفراء)(١) .

فابن قتيبة لا ينكر مراعاة الفاصلة ،بل أجازها إذا كانت زيادة هاء أو حذف حرف مثلاً ،ولكنه رفض صنيع الفراء في آية الرحمن .

وجاء الرماني بعد ذلك وتحدث عن الفواصل تحت أوجه بلاغة القرآن الكريم، وعرفها بقوله : (الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن الإفهام)(٢) . وفرق بينها وبين الأسجاع ،وذكر أنواع الفواصل في القرآن يقول : (والفواصل على وجهين أحدهما على الحروف المتجانسة ،والآخر على الحروف المتقاربة)(٣) وضرب أمثلة على ذلك من القرآن الكريم ،وهو بهذا لم يتجاوز حد التعريف والتقسيم دون مدارسة الآيات .

ويأتي الباقلاني ويعرض لقضية تغيير النظم من أجل مراعاة الفواصل فيوافق ابن قتيبة ،ويرفض قول الفراء ،فكان مما قاله : (وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليهما السلام ولمكان السجع قيل في موضع: ﴿ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾(٤) ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل ﴿ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾(٥) .

---

(١) نقلاً من البرهان في علوم القرآن : ٦٥/١ .

(٢) النكت : ٨٩ .

(٣) المصدر السابق : ٩٠ .

(٤) سورة طه : من آية ٧٠ .

(٥) سورة الأعراف : من آية ١٢٢ ،إعجاز القرآن : ٨٣ .

ثم يذكر أن الفائدة في هذا التنوع إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً ، فبه تظهر الفصاحة وتتبين البلاغة وينكر أن يتغير النظم لأجل الفاصلة.

ويوافق ابن عطية الفراء ، ويرجح سبب التقديم والتأخير إلى مرعاة الفواصل في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾(١) فيرى أن قوله : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ معطوف على : ﴿ كَلِمَةٌ ﴾ ولهذا رفع ، والمعنى : (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ) في التأخير : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ لكان العذاب لزاما لكنه قدم وأخر لتشتبك رؤوس الآى(٢).

ويأتي الزمخشري فيهتم كثيراً بالفواصل القرآنية ، وقد نقل صاحب البرهان عنه أنه كان يرفض ما رآه الفراء وغيره فيقول : (ذكر الزمخشري في كشافه القديم لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سردها على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ، فأما أن يهمل المعاني ويهتم بتحسين الألفاظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه فليس من قبيل البلاغة)(٣).

لكنني رأيته في كشافه الذي بين أيدينا يذكر أن القرآن قد يزيد حرفاً أو يعدل من لفظ إلى لفظ مراعاة لحق الفاصلة ، فيقول في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾(٤) : (وزيادة الألف لإطلاق الصوت ، جعلت فواصل الآى كقوافي الشعر ، وفائدتها الوقوف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف)(٥).

---

(١) سورة طه : ١٢٩ .

(٢) ينظر البحر المحيط ، لأبي حيان : ٦/ ٢٨٩ ، البرهان في علوم القرآن/ للزركشي : ١/ ٦٣ .

(٣) نقلاً عن الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي : ٢/ ١٣٤ .

(٤) سورة الأحزاب : ٦٧ .

(٥) الكشاف : ٣/ ٢٧٥ .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾ [١] : (وانقطع إليه فإن قلت : كيف قيل : ﴿ تَبْتِيلاً ﴾ مكان " تبتلاً " ؟ قلت : لأن معنى " تبتل " بتل نفسه فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل) [٢] .

وهكذا نلاحظ أن من قال بمراعاة رؤوس الآيات هم العلماء الذين درسوا آيات القرآن ، وتعمقوا في معرفة أسرارها ، وعرفوا قيمة البناء الصوتي في التأثير .

ووقف الزمخشري عند كثير من الآيات ليبين وجه الملاءمة بين مدلول الفاصلة القرآنية ومدلول الآيات السابقة ، لكنه لم يهتم بها اهتماماً بيناً كما فعل في سائر الأبواب [٣] . وسوف نجد هذا الباب متسعاً عند الفخر - إن شاء الله - .

وهكذا رأينا أن كثيراً من الحقائق والدقائق في علم المعاني قد تفجرت على أيدي علماء التفسير وإعجاز القرآن الذين انطلقوا بقواعد البلاغيين في رحاب التطبيق على آيات القرآن فكشفوا عما فيه من حقائق ولطائف.

---

(١) سورة المزمل : من آية ٨ .

(٢) الكشاف : ٤/١٧٧.

(٣) ينظر البلاغة القرآنية ، د . محمد أبو موسى : ٤٤٠ ومابعدها .

الباب الثاني
علم المعاني في تفسير الإمام فخر الدين الرازي

الفصل الأول : النظم في التفسير

الفصل الثاني : النظر في المفردات

الفصل الثالث : النظر في بناء الجملة

الفصل الرابع : النظر في الجمل

الفصل الخامس : الإعجاز القرآني في التفسير

الفصل الأول
النظم في التفسير

النظم في التفسير الكبير

يبحث هذا الفصل عن معنى النظم عند الفخر في تفسيره، ذلك أن هذه الكلمة قد ترددت كثيراً بين ثنايا التفسير، وسوف أتتبعها لنعرف، ما هو مدلولها، وهل هي امتداد للنظم عند عبد القاهر أم أنها خرجت عما قاله.

وقد تحدث عن النظم في نهاية الإيجاز فقال: (ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله)[(١)].

ثم نظر في وجوه الخبر، وفي الشرط والجزاء، وفي الحال، وفي اشتراك الحروف في معنى، وانفراد كل منها بخصوصية فى ذلك المعنى، وفى أحوال الجمل، وموضع فصلها ووصلها، وانصراف الكلام إلى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والإضمار والإظهار، ثم يقول: (وإذا استقريت لم تجد شيئاً من الخطأ أو الصواب في النظم إلا لأن معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، أو أزيل عن موضعه، أو استُعمل في غير ما ينبغي له)[(٢)].

والفخر في كل هذا يتابع عبد القاهر في تعريفه، وفي تحديده للنظم متابعة دقيقة، بل إنه ينقل عنه نقلاً.

أما في التفسير فكلمة النظم تعني في أكثر مواقعها المناسبة القائمة بين كل آية وآية، أو بين آخر الآية وما بعدها، أو العلاقة بين مقطع ومقطع آخر من الآيات يقول في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ... ﴾[(٣)]:

---

(١) (٢) نهاية الإيجاز: ٢٧٧ - ٢٧٩.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٢١٤.

: (في النظم وجهان : أنه تعالى قال في الآية السالفة : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

والمراد أنه يهدى من يشاء إلى الحق ، وطلب الجنة ، فبين في هذه الآية أن ذلك الطلب لا يتم ولا يكمل إلا باحتمال الشدائد في التكليف .

الثاني : أنه في الآية السالفة لما بين أنه هداهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه (٢) ، بين في هذه الآية أنهم بعد تلك الهداية احتملوا الشدائد ... فكذا أنتم يا أصحاب محمد لا تستحقون الفضيلة في الدين الا بتحمل هذه المحن من اقامة الحق) . (٣)

فالآية إما أن تتصل بآخر ما قبلها . فيكون الخطاب لكل المؤمنين ، أو أنها تتصل بكل الآية التي تسبقها فيختص الخطاب بالرسول وصحابته ، وبكلا الوجهين يستقيم ترابط المعنى فى الآية أو ترابط النظم .

فالنظم هو الترابط بين الآيات وإيجاد المناسبة بين كل آية وآية .

ويهتم النظم عنده أيضاً ببيان وجه الارتباط بين ما قبل جملة الاعتراض ومابعدها ، مما تخفى فيه الصلة بينهما .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ (٤) :

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢١٣ .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ... ﴾ البقرة : من الآية ٢١٣ .

(٣) التفسير : ١٩/٦ م٣ .

(٤) سورة النساء : ٦١-٦٢ .

:(إن قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كلام وقع في البين ، وما قبل هذه الآية متصل بما بعدها هكذا : وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ثم جاءوك يحلفون إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقاً ، يعني أنهم من أول الأمر يصدون عنك أشد الصدود ، ثم بعد ذلك يجيئونك ويحلفون بالله كذباً على أنهم ما أرادوا بذلك الصد إلا الإحسان والتوفيق ، وعلى هذا التقدير يكون النظم متصلاً)[١].

فالموافقة بين المعاني و ترتيبها ترتيباً صحيحاً حسب منازلها هو نظم عند الفخر .

فالنظم يوهم أن (جاءوك) عطف على أصابتهم ، وليس المراد من المعنى ذلك بل إن (جاءوك) عطف على (يصدون) ، وفهم الآية على وجهها الصحيح يمنع هذا التوهم ويجعل النظم مستقيماً .

وقد لاحظت أنه في كثير من المواضع يقرن النظم بالترتيب والمناسبة ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن المراد بالنظم هنا الترابط والمناسبة بين الآيات ، كأن يقول في مناسبة قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[٢] بما قبلها : (اعلم أنه تعالى لما بين في هذه الآية المتقدمة[٣] أن سبب إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم هو حب الدنيا ، بين في هذه الآية أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان ، بل كان حاصلاً في الأزمنة

---

(١) التفسير : ١٠/ ١٦١ ، م٥ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢١٣ .

(٣) أي قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ سورة البقرة : ٢١٢ .

المتقادمة ... فهذا هو الكلام في ترتيب النظم) (١) أو يقول : (حمل كلام الله عليه يفيد قوة المعنى ، وجزالة اللفظ ، واستقامة الترتيب والنظم) (٢) .

وقد لا يقصد بالنظم المناسبات المعنوية بين الآية بل يعني بها الروابط والعلاقات النحوية بين كلمات الآية ، التي يتحقق بها المعنى ، فقد كان ينقل آراء النحاة في الآية ومواقعها الإعرابية ، ثم يختار منها ما يستقيم به المعنى ويسميه نظماً ، يقول في قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٣) .

بعد أن ينقل آراء النحويين في إعراب (شهر) وما يترتب عليه من معنى ذكر قولاً لأبي علي يناسب نظم الكلام قال : (.. قال أبو علي : إن شئت جعلته مبتدأ محذوف الخبر كأنه لما تقدم ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ قيل فيما كتب عليكم من الصيام شهر رمضان أي صيامه ... والأشبه أن يكون (الذى) وصفاً ليكون لفظ القرآن نصاً في الأمر بصوم الشهر ، لأنك إن جعلته خبراً لم يكن شهر رمضان منصوصاً على صومه بهذا اللفظ ، إنما يكون مخبراً عنه بإنزال القرآن فيه ، وأيضاً إذا جعلت (الذى) وصفاً كان حق النظم أن يكفى عن الشهر لا أن يظهر كقولك شهر رمضان المبارك من شهده فليصمه) (٤) .

---

(١) التفسير : ٦/ ١١ م ٣ .

(٢) التفسير : ٧/ ١٧٤ م ٤ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ١٨٥ .

(٤) المقصود به أبو علي الفارسي ، وقد ذكر هذا الكلام في كتابه (الحجة في علل القراءات السبع) : ١/ ٣٦ - ٣٧ ، التفسير ٥/ ٩٠ م ٣ .

فمراعاة الوجه الإعرابي الملائم للآية يدل على المعنى الأقرب للمراد من الآية ، لأن بعض الوجوه الإعرابية وإن كانت صحيحة إلا أنها تبعد بالمعنى وقد تفسده ، والنظم هو الذي يدلنا على كل ذلك .

والزمخشري قبله كان كثيراً ما يرجع النظم إلى الناحية الإعرابية في الجمل ليكشف عما وراء النحو من ترابط المعاني .(١)

وقد تختلف وجوه الإعراب ، فتتعدد الأسرار المعنوية التي تكمن وراء هذا الارتباط .

يقول في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾(٢) : (في كيفية النظم من قرأ (أنَّ الدين) بفتح (أنَّ) كان التقدير شهد الله لأجل أنه لا إله إلا هو أن الدين عند الله الاسلام ...

ومن قرأ (إنَّ الدين) بكسر الهمزة فوجه الاتصال هو أنه تعالى بين أن التوحيد أمر شهد الله بصحته وشهد به الملائكة وأولو العلم ...) .(٣)

---

(١) ينظر الكشاف : ١/ ٥٠١ - ٥٠٢ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ سورة النساء : ٦ .
وعند تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ سورة الأحقاف : ١٠ ، الكشاف : ٣/ ١٥٨ - ١٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٨ ومن الآية ١٩ .

(٣) التفسير : ٧/ ٢٢٤ - ٢٢٥ م٤ .

فمعنى النظم هنا هي تلك الفروق الدقيقة بين خصوصيات التراكيب وهي ما اعتنى بها عبد القاهر الجرجاني وبنى عليها نظرية النظم .

وكما يرى الفخر أن اتصال النظم هو الارتباط المناسب بين الكلمات في الآية ،كذلك يرى أن تفكك النظم هو عدم فهم الظاهرة النحوية على وجهها الصحيح ،وذلك يؤدى بالتالي إلى اختلال معنى الآية.

فمن المفسرين من قال إن المخاطب في جملة الشرط بركنيها الفعل والجواب ليس واحداً في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ (١)

وقد اعترض الفخر على هذا بقوله : (اختلف المفسرون في أن قوله : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ خطاب لمن ؟ فقال الأكثرون إنه خطاب للأولياء ، وقال بعضهم إنه خطاب للأزواج، وهذا هو المختار،الذى يدل عليه - أن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ... ﴾ جملة واحدة مركبة من شرط وجزاء . . . ولا شك أن الشرط وهو قوله : ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ خطاب مع الأزواج ،فوجب أن يكون الجزاء وهو قوله : ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ خطاباً معهم أيضاً ،إذ لو لم يكن كذلك لصار تقدير الآية : إذا طلقتم النساء أيها الأزواج فلا تعضلوهن أيها الأولياء ،وحينئذ لا يكون بين الشرط وبين الجزاء مناسبة أصلاً ،وذلك يوجب تفكك نظم الكلام).(٢)

ويذكر الفخر هذا التعبير (تفكك النظم) في مواضع متعددة من

---

(١) سورة البقرة : من الآية : ٢٣٢ .

(٢) التفسير : ٦/ ١٢٠ م٣ .

تفسيره (١) وذلك حين تحمل العلاقات النحوية على وجه يختل معها معنى الآية .

ويذكر الفخر أن القرآن قد يخرج عن رعاية النظم الذى يعنى به التوافق والتلاؤم بين بناء الآية وذلك لسر بلاغي أراده القرآن .

يقول في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (٢) : (فإن قيل كان الواجب بحسب رعاية النظم أن يقال هوالذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار لتبصروا فيه ، أو فجعل لكم الليل ساكناً ، ولكنه لم يقل كذلك . . . فما الفائدة فيه ؟ . . . إن الليل والنوم في الحقيقة طبعية عدمية فهو غير مقصود بالذات ، أما اليقظة فأمور وجودية وهي مقصودة بالذات ، وقد بين الشيخ عبد القاهر النحوي في دلائل الإعجاز أن دلالة صيغة الاسم على التمام والكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليهما ، فهذا هو السبب في هذا الفرق والله أعلم) (٣) .

فالعدول عن الفعل إلى الاسم في الجملة بين أهمية النهار لحصول اليقظة فيه ، وهي المقصودة من الوجود .

ويستعين الفخر في فهم هذا المعنى بما قاله عبد القاهر في الفرق بين دلالة الاسم ودلالة الفعل ، فالنظم عنده يتمثل في الفروق بين أحوال اللفظ ، فقولنا لتبصروا فيه يختلف عن (مبصراً) ، ومراعاة التقابل في الاسمية والفعلية من شروط حسن الجمل المتضادة .

---

(١) ينظر التفسير : ٩٦/٤ م ٢ ، ٣٢/١٤ م ٧ .

(٢) سورة غافر : ٦١ .

(٣) التفسير : ٨٣/٢٧ م ١٤ .

ويؤيد هذا ما ذهب إليه في (نهاية الإيجاز) من أن حسن المطابقة لا تتحقق إلا بالتناسب بين الاسم والاسم والفعل والفعل ، ثم إنه يجعل هذه المطابقة قسماً من أقسام النظم ويعرفها بقوله : (هو الجمع بين المتضادين من الكلام مع مراعاة التقابل حتى لا يضم الاسم إلى الفعل)(١) ولكنه إذا ورد في القرآن متخالفاً قصد إلى التنبيه عن علة بلاغية.

ويلطف النظم ويحسن وذلك حين يكون مطلع الكلام دالاً على ما سيأتي، وفي هذا إشارة إلى ما تحمله الكلمات من طاقات خفية ترمي بالمعنى المراد . يقول في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴾(٢) : (اعلم أن مطلع هذه السورة له نظم لطيف عجيب ، وذلك لأن أولئك النصارى الذين نازعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل لهم : إما أن تنازعوه في معرفة الإله أو في النبوة ، فإن كان النزاع في معرفة الإله وهو أنكم تثبتون له ولداً ، وأن محمداً لا يثبت له ولداً فالحق معه بالدلائل العقلية والقطعية ، فإنه قد ثبت بالبرهان أنه حي قيوم ، والحي القيوم يستحيل عقلاً أن يكون له ولد ، وإن كان النزاع في النبوة فهذا أيضاً باطل ، لأن بالطريق الذى عرفتم أن الله تعالى أنزل التوراة والانجيل على موسى وعيسى فهو بعينه قائم في محمد صلى الله عليه وسلم ... فكيف يمكن منازعته في صحة النبوة ، فهذا هو وجه النظم ، وهو مضبوط حسن جداً)(٣) .

فالنظم قد جاء موافقاً لما هو حاصل ، ومراعياً لمقتضى الحال .

---

(١) نهاية الإيجاز : ٢٨٥ .

(٢) سورة آل عمران : ١-٢-٣ .

(٣) التفسير : ١٦٨/٧ م٤ .

ولاهتمام الفخر بالنظم الذى يعنى المناسبة والترابط في الآيات ، فإنه يجعله من أسباب إعجاز القرآن ، مع فصاحة لفظه وشرف معانيه يقول : في آخر تفسيره لسورة البقرة : (ومن يتأمل في نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه ، وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)(١).

ويقصد بفصاحة اللفظ وشرف المعنى البلاغة القائمة في القرآن ، والتي يسميها دائماً الفصاحة ، ويرجع إليها إعجاز القرآن في كثير من المواضع - كما سنرى في مبحث إعجاز القرآن - وهو غير النظم عند عبد القاهر ، وهذا الرأى نقله من القاضي عبد الجبار عن شيخه أبي هاشم : (إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه وحسن معناه ولا بد من اعتبار الأمرين)(٢).

وربما لا يكون النظم عنده ترتيباً ولا انتظام إعراب ولا رعاية سياق ، وإنما يعنى به المعنى القريب الموافق للآية .

يقول في قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ۘ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٣).

: (... إذا حملنا الآية على ما يعطى في الدنيا أصناف عباده من المؤمنين والكافرين ففيه وجوه :

أحدها : وهو أليق بنظم الآية أن الكفار إنما كانوا يسخرون من فقراء المسلمين ، لأنهم كانوا يستدلون بحصول السعادات الدنيوية على أنهم على الحق ،

---

(١) التفسير : ٧/١٣٩ م٤.

(٢) المغنى : ١٦/١٩٩.

(٣) سورة البقرة : ٢١٢.

ويحرمون فقراء المسلمين ... فالله تعالى أبطل هذه المقدمة بقوله : ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.(١)

فالنظم هنا يبحث عن المعنى المباشر الذى يفهم من سياق الآيات نتيجة ترابطه ويكون قريباً من نظمه الذى أتى عليه ، دون الإبعاد والحيف على القرآن .

وقد يذكر الفخر عدة معانٍ للآية ، ثم يختار أقربها لنظم الآية يقول في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾(٢) : (في تفسير : ﴿فَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ إذا صار والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل ، وقيل يظهر الظلم حتى يمنع الله بشؤم ظلمه القطر ، فيهلك الحرث والنسل ، والقول الأول أقرب إلى نظم الآية ؛ لأن المقصود بيان نفاقه ، وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن ، ويظهر المحبة ، وعند الغيبة يسعى في إيقاع الفتنة والفساد)(٣) فهو يختار المعنى الذى تستوعبه ألفاظ الآية وتؤديه مباشرة .

وسأقف الآن عند مصطلح (علم المعاني) وأتتبعه في تفسيره ، لنرى هل ذكره الفخر ؛ وإن ذكره فما مفهومه لديه ؟ ، وما موضوعاته ؟ ، وهل توصل إلى أبوابه التي يشتمل عليها عند المتأخرين من علماء البلاغة .

أقول: إن الفخر لم يذكر مصطلح (علم المعاني) في تفسيره أبداً ، وإنما كان يذكر كثيراً (أهل المعاني) .

---

(١) التفسير : ٦/١٠ م٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٠٥ .

(٣) التفسير : ٥/٢١٧ م٣ .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (١) : (قال أهل المعاني قوله (أَلَمْ تَعْلَمْ) خطاب لمن حاول الإنسان تعليمه مدة وبالغ في ذلك التعليم) (٢).

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣) : (اعلم أن أكثر أصحاب المعاني على أن قوله ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر) (٤).

وأظن أنه كان يريد بأهل المعاني العلماء الذين يبحثون في دقائق معاني القرآن ، ويتعمقون في الكشف عنها ، وليس المقصود بهم علماء البلاغة.

وقد وجدت الزركشي يذكر أن أصحاب المعاني هم مصنفو الكتب في معاني القرآن كالزجاج والفراء. (٥)

ويبدو لي أن الفخر لا يقصد بأهل المعاني هؤلاء ، لأنه كان إذا أشار إلى أقوالهم ذكرهم صراحة فيقول : قال الزجاج ، وقال الفراء.

وذكر الفخر في تفسيره كذلك (علم البيان) و (علماء البيان) وقد تتبعت هذين المصطلحين فوجدته يريد بهما علم البلاغة وعلماء البلاغة ، وهو في هذه التسمية متابع لعبد القاهر ، فقد سمى عبد القاهر علم البلاغة

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٦٣ .

(٢) التفسير : ١٦/١٢٢ م٨ .

(٣) سورة الأعراف : ٤٢ .

(٤) التفسير : ١٤/٨٣ م٧ .

(٥) ينظر البرهان في علوم القرآن : ٢/١٤٧ .

علم البيان ، يقول في مقدمة كتابه (الدلائل) : (ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً ، وأبسق فرعاً ، وأحلى جنى ... من علم البيان الذى لولاه لم تر لساناً يحوك الوشى ، ويصوغ الحلى) .(١)

وقد ذكر الفخر في مقدمة كتابه (النهاية) : أن أرسخ العلوم أصلاً وأبسقها فرعاً هو (علم البيان) وأن عبد القاهر الجرجاني استخرج أصول هذا العلم وقوانينه.(٢) ثم إن الفخر يقرن بين علم المعاني والبيان في (النهاية) ويعتبرهما علماً واحداً .

يقول : (... لكن الخبر هو الذى يتصور بالصور الكثيرة وتظهر فيها الدقائق العجيبة ، والأسرار الغريبة من علم المعاني والبيان) .(٣)

فعلم المعاني والبيان علم واحد عنده ، وهو علم البلاغة كما يفهم من كلامه .

وذكر الفخر كذلك (علم البيان) مفرداً في مواضع عدة من تفسيره ، من ذلك أنه بعد أن يذكر السبب في تعدية الفعل (يُغْنِي) بالحرف (عن) في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾(٤) ، يقول : (... وهو مما لا يطلع عليه إلا من يكون عنده من علم البيان طرف ، ويتفكر بقريحة وقادة في آيات الله ووفقه الله) .(٥)

---

(١) دلائل الإعجاز : ٥ - ٦ .

(٢) ينظر نهاية الإيجاز : ٤، ٥ .

(٣) المصدر السابق : ١٤٧ .

(٤) سورة الطور : ٤٦ .

(٥) التفسير : ٢٨ / ٢٧٢ م ١٤ .

ومن الواضح أنه يقصد بعلم البيان هنا علم البلاغة ؛ لأنه هو العلم الذى يبحث في خبايا أسرار الكلام ، ولا يقصد به علم البيان الذى يعد علماً من علوم البلاغة عند المتأخرين ؛ ولأن البحث في الحرف ومعناه يعد من أبواب علم المعاني عندهم .

ويشير الفخر إلى علم البيان أيضاً في الآية نفسها وهو يبين سر تقديم الجار والمجرور (عنهم) على الفاعل (كَيْدُهُمْ) يقول : (فيه فائدة مستفادة من علم البيان ، وهو أن تقديم الأهم أولى)[١] وهذه القاعدة التي ذكرها هي الأساس الذى قام عليه بحث التقديم ، وهو من أبواب علم المعاني ، إذن فهو لم يكن يميز بين العلمين ، وحيثما ذكر علم البيان قصد به علم البلاغة بعامة .

ويذكر (علماء البيان) في تفسيره مرات عدة ، فيذكرهم وهو يبين الإيجاز في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[٢] : (اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعاني باللغة بالغة إلى أعلى الدرجات)[٣] .

ويذكرهم وهو يتحدث عن التشبيه في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ .. ﴾[٤] فيقول : (لعلماء البيان هنا قولان)[٥] :

---

(١) التفسير : ٢٨/٢٢٢ م١٤ .
(٢) سورة البقرة : من الآية ١٧٩ .
(٣) التفسير : ٥/٦٠-٦١ م٣ .
(٤) سورة البقرة : من الآية ١٩ .
(٥) التفسير : ٢/٨٦ م١ .

ويريد بهم علماء البلاغة. وبهذا أستطيع أن أقول : إن الفخر قد ذكر علماء البيان وأراد بهم علماء البلاغة ، وذكر علم البيان وأراد به علم البلاغة الذى يشمل علم المعاني كما هو مشهور عند المتأخرين من علماء البلاغة كالسكاكي . ويسمى الفخر جميع فنون البلاغة علم البيان ؛ لأن معنى البيان في اللغة الظهور، وعلم البلاغة يُظْهِر ما هي مخفى ومستور من الدلالات ، وهو فى ذلك كما رأينا متبع لكثير من أهل هذا العلم.

ويذكر الفخر أيضاً الفصاحة في كثير من المواضع في التفسير ، خاصة وهو يتحدث عن إعجاز القرآن . فماذا يريد بالفصاحة ؟ وهل هي مرادفة للبلاغة ؟ أم أنها شيء آخر ؟ سأتتبع هذا المصطلح في التفسير لأحدد المعنى الذى أراده . لقد رأيت أنه يذكر الفصاحة ويريد بها معنيين :

الأول : أنه يريد بالفصاحة البلاغة مطلقاً ، وذلك أنه يرجع إعجاز القرآن للفصاحة كأن يقول : (والمختار عندى وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة)(١).

ويقول : (﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ - أى القرآن الكريم - لبلوغه فى الفصاحة أى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز...)(٢).

وأجده أيضاً في (نهاية الإيجاز) يرجع الإعجاز إلى الفصاحة يقول : (إن الوجه في كون القرآن معجزاً هو الفصاحة)(٣) وله فصل بين فيه شرف

---

(١) التفسير : ٢٠٣/١٧ م٩.

(٢) التفسير : ٢١٦/٢٤ م١٢.

(٣) ص : ٨٢.

علم الفصاحة قال فيه : (ثم إن الفصاحة إما أن تكون عائدة إلى مفردات الكلام أوإلى جملته)[١] ، وقد قيل : إن الفصاحة العائدة إلى مفردات الكلام أسماها السكاكي علم البيان ،والفصاحة العائدة إلى الجمل أسماها علم المعاني،[٢] وهوفي ذلك متبع لكثير من العلماء فالقاضي عبد الجبار يسمى البلاغة فصاحة يقول : (اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ،وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة)[٣] ولا يزال يردد كلمة (الفصاحة) قاصداً بها البلاغة ،كذلك عبد القاهر يجمع بين الفصاحة والبلاغة والبراعة.[٤]

ويذكر الزمخشري الفصاحة مرادفة للبلاغة يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ : (كلام فصيح لما فيه من الغرابة)[٥] فقوله : (كلام فصيح معناه كلام بليغ وكلام حسن).[٦]

الثاني : أنه يجعل الفصاحة صفة للألفاظ :

يقول في أواخر سورة البقرة وهو يتحدث عن حسن نظمها : (ومن يتأمل في لطائف نظم هذه السورة علم أن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهوأيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)[٧] . والفخر هنا يقصر الفصاحة على الألفاظ ،ولذلك يقول : فصاحة اللفظ ، شرف المعنى ، الترتيب في بيانه لوجه الإعجاز .

---

(١) المصدر السابق : ٨٤ .

(٢) ينظر البلاغة تطور وتاريخ ،شوقي ضيف : ٣٠ ،مفتاح العلوم للسكاكي : ٧٠ - ١٤٠ .

(٣) المغني : ١٦/١٩٩ .

(٤) ينظر دلائل الإعجاز : ٣٤ .

(٥) الكشاف : ١/٣٣٣ .

(٦) ينظرالبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٢٥٥ .

(٧) التفسير : ٧/١٣٩م٤ .

ولو جُعلت الفصاحة والبلاغة والبراعة شيئاً واحداً كما قال عبد القاهر لكان الترتيب جزءاً من الفصاحة لا مقابلاً لها .

ويقول أيضاً عند تفسير قوله تعالى : ﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (١) بعد أن بين السر في تنوع الجمل : (هذا مع ما في اللفظين من الفصاحة والجزالة للتنويع) (٢) .

ولكن ما هي فصاحة اللفظ كما يتصورها الفخر ؟ .

لقد رجعت إلى نهاية الإيجاز ، لعلي أجده يذكر في أمرها شيئاً ، فوجدته في موضع يفرق بين البلاغة والفصاحة .

فيقول : (وأما الفصاحة فهي خلوص الكلام من التعقيد ، وأصله من الفصيح وهو اللبن الذى أخذت عنه الرغوة) (٣) ، وله مبحث عن الدلالة اللفظية تحدث فيه عن الألفاظ وقال إنها لا توصف بالفصاحة من أجل دلالاتها عن مسمياتها ، إنما من أجل إفادتها المعاني عند التركيب (٤) .

ثم ذكر صفات فصاحة اللفظ ، وجعلها من أربعة وجوه :

الأول : أن تكون الكلمة عربية أصلية ليست مما أحدثها المولدون .

الثاني : أن تجرى على مقاييس اللغة وقوانينها .

الثالث : المحافظة على قوانين النحو والاعراب .

---

(١) سورة الذاريات : ٥٧ .

(٢) التفسير : ٢٣٥/٢٨ م١٤ .

(٣) نهاية الإيجاز : ٨٩ .

(٤) ينظر المصدر السابق : ٩٥ ومابعدها .

الرابع : الاحتراز عن الألفاظ الغريبة الوحشية ، والدليل على كون ذلك معتبراً أن تقرأ سورة من السور الطوال فلا تجد فيها من الغريب شيئاً كثيراً).[١]

ولا شك أنه كان يقصد بفصاحة ألفاظ القرآن توفر هذه الشروط فيها ، وإن لم يذكر ذلك صراحة.

ويسير الفخر في حديثه عن شروط فصاحة الكلمة على هدى السابقين كالجاحظ ، وابن سنان الخفاجي الذى رد فصاحة الكلمة إلى ثمانية أشياء : هي أن تؤلف من حروف متباعدة المخارج حتى لا تثقل على اللسان ، وأن تحسن في السمع ، وأن لا تكون وحشية ، ولا ساقطة عامية ، وأن تكون جارية على العرف العربي في التصريف والاستعمال ، وألا تكون غريبة مهجورة ، وألا تكون كثيرة الحروف.[٢]

---

(١) نهاية الإيجاز : ٤٥١٠.

(٢) ينظر سر الفصاحة : ٦٤ ومابعدها.

الفصل الثاني

النظر في المفردات

النظر في المفـــردات

يهتم هذا الفصل بالنظر في المفردات عند الفخر الرازي سواء كانت اسماً أو فعلاً أو حرفاً ،وهي كثيرة جداً في التفسير، فقد اهتم بالكلمة القرآنية من حيث مادتها وهيئتها وإيحاءاتها ،ومن حيث مجيئها في أشكال مختلفة ، تعريفاً وتنكيراً ،إفراداً وجمعاً .

كذلك اهتم بالفعل ودلالته الزمنية ،والفرق بينه وبين الاسم في السياق الواحد أو المختلف .

تناول أيضاً حروف المعاني ،وأدوات الربط ،وأدوات العطف، وحروف النفي والدقائق التي تؤديها .

وقد حاولت أن أتتبع ذوقه الأدبي وحسه البلاغي وطريقته في تناول كل هذا ،ومناقشة آرائه بقدر المستطاع ،فأرجو من الله التوفيق في ذلك .

الكلمة القرآنيـــة

اهتم الإمام الفخر بالكلمة القرآنية اهتماماً بيناً ،ودرسها من نواحي متعددة ،فهو لم يقتصر على البحث في معناها اللغوى بل تعدى ذلك إلـى الكشف عما توحي به الكلمة ،وماتبعثه من ظلال .

كما بحث عن ملاءمة الكلمة لسياقها وما تؤديه من معنى ،وتتبع كذلك استعمالات الكلمة القرآنية والمجالات التي تأتي فيها .

واهتم أيضاً ببيان الفروق بين الكلمات التي يظن أن معناها واحد ... وغيرها من المباحث التي تتعلق بالكلمة والتي سأعرض لها -إن شاء الله تعالـى-.

سأعرض أولاً : لإيحاءات الكلمة القرآنية كما يراها الفخر.فكلمة الروغان تدل على معنى السرعة.

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ (١) :

(قوله هنا (فراغ) فإنّ الروغان يدل على السرعة ،والروغ الذى بمعنـى النظر الخفي أو الرواح المخفى أيضاً) (٢) فالفخر هنا يذكر دلالة الكلمة ثم معناها ،والمعنى كما نعرف يسبق الدلالة المفهومة من ذلك المعنى .

وأكثر العلماء فهموا معنى الخفاء من الروغان ،فالفراء يقـــول : (والروغ وإن كان على هذا المعنى فإنه لا ينطق به حتى يكون صاحبه مخفيـاً لذهابه ومجيئه). (٣)

---

(١) سورة الذاريات : ٢٦.

(٢) التفسير : ٢١٣/٢٨ م١٤.

(٣) معاني القرآن : ٨٦/٣.

ويقول الزمخشري : (ولا يقال راغ عن كذا إلا إذا كان عدوله عنه في خفية) .(١)

ولم يتنبه الراغب الأصفهاني إلى معنى الخفاء في الروغ حيث يقول : (روغ : الميل على سبيل الاحتيال، ومنه راغ الثعلب يروغ روغاناً) .(٢)

ومن الممكن استنباط معنى السرعة من (راغ) في هذه الآية والسياق هو الذي دل عليه .

وقد يستدل الفخر على معنى الكلمة من حروفها وتقلباتها في اللغة يقول في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾(٣) : (والويل ينبئ عن الشدة وتركيب حروف الواو والياء واللام لا ينفك عن نوع شدة ، منه لوى إذا دفع ، ولوى يلوى إذا كان قوياً ، وألوى فيه القوة على المولى عليه ..)(٤) ويكتفي في أكثر الأحايين بذكر بعض هذه التقلبات .

وهكذا .. أكثر الفخر في تفسيره من هذا الباب ، فهو يذكر الفعل واشتقاقاته وما تدل عليه تلك المشتقات من معنى يتناسب مع اللفظ .

وهذا الربط بين الألفاظ ذات الأصوات المتماثلة والمعاني المتشابهة تحدث عنه ابن جني وسماه طريقاً غريباً ومسلكاً عجيباً في هذه اللغة . ذلك أنه يقول - وهو يفرق بين الكلام والقول - : (ولنقدم أمام القول على فرق ما بينهما

---

(١) أساس البلاغة : ١٨٤ .

(٢) مفردات القرآن : ٢٠٨ .

(٣) سورة الطور : ١١ .

(٤) التفسير : ٢٨/٢٤٥ م١٤ .

طرفاً من ذكر أحوال تصاريفهما واشتقاقهما ،مع تقلب حروفهما ،فإن هذا موضع يتجاوز قدر الاشتقاق، ويعلوه إلى ما فوقه ،وستراه فتجده طريقاً غريباً ومسلكاً من هذه اللغة الشريفة عجباً ،فأقول إن معنى (ق و ل) أين وجدت وكيف وقعت مع تقدم بعض حروفها على بعض ،وتأخره عنه إنما هو للخفوف والحركة)[١] .

واشتهر ابن فارس في مقاييس اللغة ،برد كل مادة من مواد اللغة إلى أصولها المعنوية المشتركة .

وقد علق واعترض الدكتور ابراهيم أنيس على ابن جني وغيره وذكر أن اتفاق المعنى بين تقلبات كل كلمة في اللغة فيه تكلف وتعسف ،يقول : (ويمثل له ابن جني بعدة مجموعات لا يخلو معظمها من التكلف والتعسف وتلمس العلاقة مهما كانت تافهة أو غامضة)[٢] ثم يضرب أمثلة على ذلك لا داعي لعرضها هنا . وأقول إن إيجاد أصول معنوية للمادة الواحدة كثيراً ما تتضح ،وإذا غامت فلا بد أن نجد خيطاً رفيعاً يجمع بينها . ومن يتأمل المعاجم التي تعتني بالاشتقاق يلحظ ذلك ، ثم إن الاشتقاق قديم العهد يرجع إلى زمان الأصمعي وقطرب والأخفش كما قال السيوطي[٣] ، وقد اهتم الفخر به كثيراً وطبقه على كلمات القرآن .

وتختلف كلمة (الظل) عن كلمة (المغفرة) في معناها اللغوي ، إلا أنهما عند الفخر تشتركان في دلالتهما على معنى الستر،أحدهما حسي والآخر معنوي، وذلك حين يقارن بين نعيم الجنة في قوله تعالى :

---

(١) الخصائص : ٥ .

(٢) من أسرار اللغة : ٦٦ .

(٣) ينظر المزهر : ١/٢٠٤ .

* مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا *(١)

وقوله تعالى : * وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ *(٢) يقول الإمام : (وههنا لطيفة وهي أنه تعالى قال فيها : * وَظِلُّهَا * ولم يقل ههنا ذلك ، نقول قال ههنا . * وَمَغْفِرَةٌ * والظل فيه معنى الستر والمغفرة كذلك ، لأن المغفور تحت نظر من رحمة الغافر ، يقال : نحن تحت ظل الأمير ، وظلها هو رحمة الله ومغفرته حيث لا يمسهم حر ولا برد)(٣) .

وقد رجعت إلى ابن فارس فوجدته يقول في مادة (ظل) : (الظاء واللام أصل واحد ، يدل على ستر شيء لشيء)(٤) ويقول في مادة (غفر) : (الغين والفاء والراء عُظْمُ بابه الستر)(٥) فالفخر قد اعتمد على كتب اللغة في معرفة دلالة الكلمة القرآنية .

ولم تهتم الدراسة البلاغية بإيحاءات الكلمة ، ولم تضعها في اعتبارها عند دراسة النصوص الأدبية ، لذلك فقد ظلت من مباحث علم اللغة .

على أننا نجد الدراسات الأسلوبية الحديثة تهتم بها كثيراً ، وتركز في معالجتها للنصوص الأدبية على القيم التعبيرية والجمالية لأصوات اللغة في الكلمة(٦) وقد سبق الفخر إلى العناية بها في النص القرآني ، ونهدف في

---

(١) سورة الرعد : من الآية ٣٥ .

(٢) سورة محمد : من الآية ١٥ .

(٣) التفسير : ٢٨/٥٥م١٤ .

(٤) مقاييس اللغة : ٣/ ٤٦١ .

(٥) المصدر السابق : ٤/٣٨٥ .

(٦) ينظر المدخل إلى علم الأسلوب ، د . شكري محمد عياد : ٧٣ وما بعدها وهو يحلل القصائد .

مثل هذه الدراسات إلى الانتفاع بمثل هذه الإشارات والأصول في مجال دراسة الكلام من الناحية التطبيقية، لأنه من الأفضل لنا أن نتكئ على عقول علمائنا في إثراء تراثنا ،حتى لا نحتاج إلى كل ما هو دخيل على فكرنا وتراثنا الإسلامي .

أعود فأقول : إن المعنى الدلالي للكلمة يفهم بعد بيان المعنى اللغوي ،وهذا ما كان يذكره الفخر في أكثر الكلمات.

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ﴾(١) : (﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً ﴾ : هي الملائكة الذين ينزعون نفوس بني آدم ، فإذا نزعوا نفس الكافر نزعوها بشدة ،وهو مأخوذ من قولهم نزع في القوس فأغرق يقال : أغرق النازع في القوس إذا بلغ غاية المدى حتى ينتهي إلى النصل . . . والنشط هو الجذب يقال : نشطت الدلو أنشطها نشطاً نزعتها برفق ،والمراد هي الملائكة التي تنشط روح المؤمن فتقبضها ،وإنما خصصنا(٢) هذا بالمؤمن ، والأول بالكافر لما بين النزع والنشط من الفرق ، فالنزاع جذب بشدة، والنشط جذب برفق ولين)(٣).

ويوافقه الألوسي في هاتين الدلالتين للنزع والنشط فيقول : (ومال بعضهم إلى تخصيص النزع بأرواح الكفار والنشط والسبح بأرواح المؤمنين ؛ لأن النزع جذب بشدة . . . والنشط الإخراج برفق وسهولة وهو أنسب بالمؤمنين)(٤)

---

(١) سورة النازعات : ١-٢ .

(٢) كان الأفضل أن يقول : (وإنما خص الله هذا)بدلاً من (إنما خصصنا) .

(٣) التفسير : م١٦ ٣١/٢٨ .

(٤) روح المعاني : ٣٠/٢٣ .

فهذه المعاني هي التي دلت على اختصاص كل فئة بما يناسبها .
ويربط الفخر بين المنحى الصوتي وبين المعنى اللغوي للكلمة ، فالصوت له أثر في تحديد المعنى ، فمعنى الإقناء فوق معنى الإغناء ، لأن مخرج القاف فوق مخرج الغين .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ (١) : (قوله تعالى ﴿ أَقْنَى ﴾ معناه وزاد عليه الإقناء فوق الإغناء ، والذي عندي أن الحروف متناسبة في المعنى فنقول : لما كان مخرج القاف فوق مخرج الغين جعل الإقناء لحالة فوق الإغناء ، وعلى هذا فالإغناء هو ما آتاه الله من العين واللسان ، وهداه إلى الارتضاع في صباه ، أو على ما أعطاه الله تعالى من القوت واللباس المحتاج إليهما ، وفي الجملة كل ما دفع الله به الحاجة فهو إغناء ، وكل ما زاد عليه فهو إقناء) (٢) فاختلاف النغم يولد معنى دقيقاً للكلمة .

والفخر كان يعرف أهمية مخارج الحروف وصفاتها في المعنى ، لكنه لم يتحدث عن اللفظ القرآني في نظامه الصوتي - حسب علمي - إلا في الموضع السابق ، على أن له دراسة عن مخارج الحروف في (نهاية الإيجاز) (٣) أخذها من علي بن عيسى الرماني . كذلك له في التفسير حديث عن فضل اللغة العربية على سائر اللغات عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ... قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ذكر فيه أن الكلمة لها مادة وهي الحروف ، ولها صورة وهي الهيئة الحاصلة عند التركيب ، ثم ذكر أن للكلمة ثلاث مراتب تكمل بها فهي إما متقاربة المخرج ،

---

(١) سورة النجم : ٤٨ .
(٢) التفسير : ٢٣/٢٩ ص١٥ .
(٣) ص : ١١٨ ، ١٢١ .
(٤) سورة فصلت : من الآية ٣ .

أو متباعدة المخرج ، وما كان متقارب المخرج فهو كمشي المقيد وهو قليل في اللغة العربية ،كما أن لبعض جنس الحروف لذة وطيباً في السمع ،وكل كلمة يحصل فيها حرف من هذا الجنس كان سماعها أطيب ،وآخر مراتبها ما يتعلق بوزنها ،فأعدلها ما بلغ ثلاثة حروف ،وبذلك يحصل كمالها.(١)

وكنت أتمنى أن أقف على تطبيق لهذا التحديد على بعض الآيات، وأنا أتتبع مسائل المعاني في التفسير لكني لم أجد فيه ما يشفي الغلة.

ولأن للصوت أثره الجاد في التأثير من حيث أنواع الحروف وصفاتها المختلفة فقد اهتم به - كما ذكرنا - بعض المتقدمين ،كما نجده متناثراً في كتب المتأخرين.(٢)

وقد يفاضل الفخر بين كلمتين من جهتين : من جهة جرسهما وإيحائهما ،ومن جهة معناهما اللغوي المجرد .

يقول في تفسيره لقوله تعالى : * القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ *(٣) : (نظير هذه الآية قوله تعالى : * الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحَاقَّةُ *(٤) ثم قال المحققون قوله : * القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ * أشد من قوله * الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ * لأن النازل آخراً لابد وأن يكون أبلغ ،لأن المقصود منه زيادة التنبيه ، وهذه الزيادة لا تحصل إلا إذا كانت أقوى ،وأما بالنظر إلى المعنى فـ(الحاقة) أشد لكونه راجعاً إلى معنى العدل ،و (القارعة) أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل).(٥)

---

(١) ينظر التفسير : ٢٧/٩٥ م١٤.

(٢) ينظر النبأ العظيم ،د. محمد عبد الله دراز : ١٠٣ ومابعدها - من أسرار التعبير القرآني ،د. محمد أبو موسى : ٢٢٣ ،من الإعجاز البلاغي للقرآن ،د. صبّاح دراز : ٧ ومابعدها .

(٣) سورة القارعة : ١-٢ .

(٤) سورة الحاقة : ١-٣ .

(٥) التفسير : ٣٢/٧١ م١٦.

فالتفضيل الأوّل للقارعة على الحاقة روعي فيه معنى الكلمة بحروفها التي تصور الحدث بدقة ،فالقاف فيها قوة وشدة وقرع مزعج يثير الخوف والرعب ،وهي أقل قوة من الحاء ،ولما كان المراد التنبيه كان ما هو أشد أدل على المعنى والتفضيل الثاني للحاقة ناظر إلى المعنى مجرداً ،ففي يوم القيامة يتحقق العدل وثبوت أمر الله.

وقول الفخر : (لأنّ النازل آخراً لابد وأن يكون أبلغ) فيه نظر وتساؤل : هل في القرآن بليغ وأبلغ ،أو أنه على درجة واحدة من البلاغة ؟ تعددت آراء العلماء في ذلك.

فقد أجاب الباقلاني فذكر أن القرآن تناول ضروباً مختلفة من المعاني على درجة واحدة من البلاغة فقال : (إن عجيب نظمه ،وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه)(١) فكل كلمة منه في الذروة العليا من البلاغة.

لكن ابن سنان الخفاجي لا يرى مانعاً من أن يكون بعضه أفصح من بعض فيقول : إن بعض القرآن أفصح من بعض ،ويقدم أمثلة من آيات القرآن تؤيد رأيه(٢) ، وهكذا اختلف العلماء في تفاوت القرآن في مراتب الفصاحة.(٣)

ولا وجه لقول الفخر إن النازل آخراً يكون أبلغ.

---

(١) إعجاز القرآن : ٦.

(٢) سر الفصاحة : ٢٢٥.

(٣) ينظر الإتقان في علوم القرآن ،للسيوطي : ٢/١٥٧.

وفي موضع آخر من التفسير يذكر أن لا تفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة في القرآن وذلك حين فسر قوله تعالى : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ (١) يقول : (إنه تعالى حكى من قول الكفار قولهم : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ أى قوله : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ وكل ذلك كلام القوم وإنا لا نجد بين تلك الكلمات وبين سائر آيات القرآن تفاوتاً في النظم ، فصح بهذا صحة ما قاله الكفار لو نشاء لقلنا مثل هذا ، والجواب : أن هذا القرآن قليل لا يظهر فيه التفاوت بين مراتب الفصاحة والبلاغة فزال هذا السؤال) (٢) .

---

(١) سورة الإسراء : ٩٠ .

(٢) التفسير : ٥٩/٢١ م١١ .

ملاءمة الكلمة لسياقها :

عنى الفخر بالكلمة القرآنية من جهة وضعها الملائم لسياقها ، وعلة اختيارها حيث لا تؤدى معناها أى كلمة أخرى .

وقد ورد هذا كثيراً في تفسيره ، وسوف أذكر بعضاً منه ، ما يوفى بالغرض، ويوضح الفكرة ، فليس هدفي من هذه الدراسة الاستقصاء الشامل لكل ما ورد في الباب الواحد من مباحث المعاني ، بل معرفة منهجه وطريقته . أقول : إن الفخر كان عظيم الإحساس بالكلمة القرآنية وله عبارات في التفسير تدل على ذلك كقوله : (إنّ كل لفظ في القرآن فيه فائدة وإن كنا لا نعلمها)(١).

ويقول في موضع آخر : (كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن)(٢) ولنتأمل قوله : (وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن) أى أن أى كلمة لا تستطيع أن تفي بالمعنى الذى أراده القرآن، فلا يفي بهذا المعنى المراد إلا الكلمة التي أوردها الله تعالى في الآية ، وهذا هو الأساس الذى اتفق عليه كل العلماء الذين درسوا النظم في القرآن الكريم ، والفخر من هؤلاء العلماء الذين أدركوا عظمة الكلمة ، فقد كان يكشف عن قيمتها بمقارنتها برديفاتها من الكلمات ، فمثلاً تحمل كلمة (يحيق) من المعاني ما يناسب سياقها .

---

(١) التفسير : ٢٨/٢٦٤ م١٤ ذكر هذا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ سورة الطور : ٤٠ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٣١ م١٣ ذكر هذا عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ سورة الروم : ٤٥ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ (١)

: (قوله ﴿ يَحِيقُ ﴾ تنبئ عن الإحاطة التي هي فوق اللحوق ، وفيه من التحذير ما ليس في قوله ولا يلحق أو لا يصل) (٢) .

وهذه الآية جاءت في سياق الرد على المشركين الذين أقسموا بالله إنْ جاءهم رسول ليتبعونه ، فلما جاءهم كفروا به وحاكوا له المكر (٣) ، فرد عليهم تعالى أنه من أراد أن يحيك الكيد بالرسول ، فإنَّ مكره سيعود عليه و يحيط به من جميع النواحي حتى لا يكاد يفلت منه أبداً ، فمكره مهلكه لا محالة ، وهذا المعنى لا يعبر عنه إلا كلمة (يحيق) .

وفي : ﴿ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ معنى لا يوجد في (استمع) ويبين الفخر الفرق .وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (٤) إذ يقول : (... ﴿ أو أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ حيث لم يقل أو استمع ، لأنّ الاستماع ينبئ عن طلب زائد ، وأما إلقاء السمع فمعناه أن الذكرى حاصلة لمن لا يمسك سمعه بل يرسله إرسالاً ، وإنّ لم يقصد السماع كالسامع في الصوت الهائل) (٥) .

---

(١) سورة فاطر : من الآية ٤٣ .

(٢) التفسير : ٢٦/٣٤ م ١٣ .

(٣) هذا المفهوم من سياق قوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ... ﴾ سورة فاطر : ٤٢ - ٤٣ .

(٤) سورة ق : ٣٧ .

(٥) التفسير : ٢٨/١٨٣ م ١٤ (كان الأفضل أن يقول كالسامع للصوت الهائل .

وقد حسن هذا الفعل * أَلْقَى السَّمْعَ * لأن المراد بيان أن الذكرى حاصلة لمن لم يقصد السمع بل أرسل سمعه ، وذلك لقوة الذكرى ووضوحها يتنبه إليها من له أدنى سمع * وَهُوَ شَهِيدٌ * أى شاهد ليس بغائب.(١)

ثم يقول الفخر : (فنقول الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها فإن لم تحصل فلمن له أذن غير مسدودة كيف كان حاله سواء استمع باجتهاده أو لم يجتهد في سماعه)(٢) و يفسر الزمخشرى إلقاء السمع بالإصغاء(٣) واتبعه أكثر المفسرين كالبيضاوى وأبي حيان والآلوسي(٤) وانفرد الفخر -على حسب علمي - بهذا الرأى الذى أرى أنه أقرب إلى معنى الآية .

ويكشف الفخر عن سر اختيار (أصحاب) دون أرباب في قوله تعالى : * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ *(٥) يقول بعد أن تساءل عن سر العدول : (... لأن الصاحب يكون من الجنس فقوله : * أَصْحَابِ الْفِيلِ * يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل من البهيمية ، وعدم الفهم والعقل ، بل فيه دقيقه ، وهي أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين فيقال للأدون أنه صاحب الأعلى ، ولا يقال للأعلى إنه صاحب الأدون ، ولذلك يقال لمن صحب رسول الله أنهم أصحابه ، فقوله : * أَصْحَابِ الْفِيلِ * يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حالا وأدون منزلة من الفيل)(٦).

---

(١) ينظر معاني القرآن ، للفراء : ٣ / ٨٠.

(٢) التفسير : ٢٨ / ١٨٣ م ١٤.

(٣) ينظر الكشاف : ٤ / ١١.

(٤) ينظر أنوار التنزيل : ٤ / ٩٤ ، البحر المحيط : ٨ / ١٢٩ ، روح المعاني : ٢٦ / ١٩٢ .

(٥) سورة الفيل : ١.

(٦) التفسير : ٣٢ / ٩٨ م ١٦.

وقد بنى الفخر على كون المصاحبة تقتضي الجنسية أن هؤلاء الأصحاب كانوا من جنس الفيل في البهيمية ، وهذا مما يوحي به المعنى ولا يدل عليه دلالة واضحة .

ويذكر الفخر أن كلمة (الرب) في القرآن الكريم تأتي في مقام التربية والشفقة ، وكلمة (الله) تأتي في مقام الألوهية والجبروت ، ويكرر ذلك في مواضع عدة من تفسيره يقول في قوله تعالى : * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * (١) يقول : (قال : * وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ * ولم يقل من الله مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله : * أُوذِيَ فِي اللَّهِ * وقوله : * كَعَذَابِ اللَّهِ * ، وذلك لأن الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة ، والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة ، فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعاطفة (٢) ، وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة) . (٣)

ويقول في قوله تعالى : * وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً ... * (٤) : (... ولم يقل واذكر إلهك ولا سائر الأسماء وإنما سماه في هذا المقام باسم كونه رباً ، وأضاف نفسه إليه ، وكل ذلك يدل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والإحسان ... لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل) . (٥)

---

(١) سورة العنكبوت : ١٠ .

(٢) كان الأفضل أن يقول (الدال على الرحمة والعطف) .

(٣) التفسير : ٢٥/ ٤٠ م ١٣ .

(٤) سورة الأعراف : من الآية : ٢٠٥ .

(٥) التفسير : ١٥/ ١١١ م ٨ .

ويفرق السيوطي بينهما نقلاً عن الطيبي فيقول : (الفرق بين قوله : اعبدوا الله وبين قوله : اعبدوا ربكم ، أن في الثاني إيجاب العبادة بواسطة النعمة التي بها قوامهم ،وفي اعبدوا إيجاب عبادته لمراعاته عز وجل من غير واسطة)[١]. وذلك لأن في كلمة (ر ب) التربية والعناية وهذا داعٍ للشفقة والرحمة.

ويعدل القرآن عن اللفظ الأشهر إلى خلافه لدلالة الثاني على المعنى المراد من الآية يقول في قوله تعالى:﴿ اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾[٢] : (إنَّ القعيد بمعنى الجليس والنديم ،ثم إذا عرفت هذا ،وقيل للمفسرين الظاهرين فما الفائدة في اختيار لفظ القعيد بدل لفظ الجليس مع أن الجليس أشهر ؟ يكون جوابهم أن آخر الآيات من قوله : ﴿ حَبْلِ الْوَرِيد ﴾ ﴿ وَلَدَيَّ عَتِيد ﴾ وقوله: ﴿ بِجَبَّارٍ عَنِيد ﴾ يناسب القعيد لا[٣] الجليس وإعجاز القرآن ليس في السجع ،وإذا نظرت إلى ما ذكر تبين لك فائدة جليلة معنوية وحكمية . . . لأن القعيد دل على أنهما لا يفارقانه ويداومان الجلوس معه ، وهذا هو المعجز ؛وذلك لأن الشاعر يختار اللفظ الفاسد لضرورة الشعر والسجع ويجعل المعنى تبعاً للفظ ،والله تعالى بين الحكمة على ما ينبغي وجاء باللفظ على أحسن ما ينبغي)[٤].

واختيار اللفظ المناسب للمعنى يعد سراً من أسرار إعجاز القرآن كما أشار الفخر ،وكما أدرك العلماء قبله ،كابن عطية الذى ذكر في مقدمة

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن : ٢/١١٥.

(٢) سورة ق : ١٧.

(٣) في النسخة التي بين يدى (ولا الجليس) والصحيح ما أثبته ولعله خطأ مطبعي .

(٤) التفسير : ٢٩/٨٢م١٥.

تفسيره ذلك وهو يتحدث عن إعجاز القرآن يقول : (وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد)(١) .

وهناك غير الظاهريين عجزوا عن معرفة سر مجيء اللفظ القرآني ، فها هو ذا ابن الأثير في القرن السابع يقف أمام الكلمة القرآنية فلا يعرف سر مجيئها ، فيرجعها إلى ملاءمة أخواتها .

يذكر أن رجلاً متفلسفاً حضر عنده يوماً فجرى ذكر القرآن الكريم ، فأخذ ابن الأثير يصف فصاحة القرآن وبلاغته ، فقال الرجل : وأى فصاحة وهو يقول : ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ فهل في لفظة (ضِيزَىٰ) من الحسن ما يوصف ، فأجابه ابن الأثير إن هذه الكلمة لا يسد غيرها مسدها ، وذلك أن فواصل سورة (النجم) على حرف الياء فكان لا بد أن تجيء اللفظة على هذا الحرف لتلائم أخواتها)(٢) .

وأقول : ليس هذا بالقول ، لأن ألفاظ القرآن تأتي لمعنى ، وليس لمراعاة الفواصل فقط ، وقد جاءت هنا لتصف جور قسمتهم وغرابة تفكيرهم بهذه القوة في الكلمة ، وهذه الضخامة في اللفظ ، كما أن فيها سخرية وتهكماً لما يتفوهون به ، ولم يذكر الفخر تخريجاً لهذه الكلمة هو وأكثر المفسرين .

وهكذا وجدنا الفخر قد فطن إلى ما في اللفظ القرآني من معنى يتناسب مع الآية ، واهتمامه باللفظ جعله يهتم بالفروق بين الكلمات المتشابهة في المعنى ، المختلفة في اللفظ ، وسأبين لاحقاً - إن شاء الله - مدى اهتمامه بها ، وما هي الطرق التى يسلكها لمعرفة اختصاص كل كلمة بما يناسبها من معنى .

---

(١) المحرر الوجيز : ١/٧٢ .

(٢) المثل السائر : ١/٢٢٩ .

وقد يثبت القرآن المعنى بنفي ضده للإشارة إلى معان أراد السياق إثباتها ، وذكر الفخر بعض منها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ (١) : (لما قال : ﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ علم أنها غير أحياء فما الفائدة في قوله ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ ؟ والجواب من وجهين :

الأول : أن الإله هو الحي الذى لا يحصل عقيب حياته موت وهذه الأصنام أموات لا يحصل عقيب موتها الحياة .

والثاني : أن هذا الكلام مع الكفار ... ومن تكلم مع الجاهل الغر الغبى فقد يحسن أن يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة ، وغرضه منه الإعلام بكون ذلك المخاطب في غاية الغباوة ..) (٢) .

وقد اقتصر الزمخشرى في حديثه عن هذه الآية على الوجه الأول يقول : (أموات جمادات لا حياة فيها ، غير أحياء : يعنى أن من الأموات ما يعقب موته حياة كالنطف التي ينشئها الله حيواناً وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها ، وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة وذلك أعرق فى موتها) (٣) ولم يذكر الوجه الثاني مع أنه أقوى من الناحية البلاغية .

وقد كرر الفخر هذا المعنى فى موضع آخر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (٤) يقول : (فإن قيل :

---

(١) سورة النحل : ٢١ .

(٢) التفسير : ٢٠ / ١٦ م ١٠ .

(٣) الكشاف : ٢ / ٤٠٦ .

(٤) سورة المدثر : ٩-١٠ .

فما فائدة قوله : ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وعسير مغن عنه ؟ الجواب : أما على القول الأول فالتكرير للتأكيد كما تقول : أنا لك محب غير مبغض ، وولي غير عدو. وأما على القول الثاني فقوله : ﴿ عَسِيرٌ ﴾ يفيد أصل العسر الشامل للمؤمنين والكافرين ،وقوله : ﴿ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ يفيد الزيادة التي يختص بها الكافر)(١).

والوجه الثاني قد ذكره الزمخشري قبله ،وأضاف إليه قوله : (ويجوز أن يُراد أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيراً كما يرجى تيسر العسير من أمور الدنيا)(٢).

وما يحسب للفخر ويحمد عليه استعانته بالأمثلة البسيطة ،الدائرة على ألسنة العامة ، حتى يوضح المعنى ،ويكسب القارئ معرفة التفريق بين الأساليب المختلفة ،وهي طريقة تعليمية جيدة.

---

(١) التفسير : ٣٠/ ١٩٧-١٩٨ م١٥.

(٢) الكشاف : ٤/ ١٨١.

مجالات استخدام اللفظة القرآنية :

وقف الفخر عند بعض ألفاظ القرآن ، وبين مجالات استخدامها ، وطريقة جريانها في معانيها ، فقد رأى أن كلمة (الخطب) لا تستخدم إلا فيما عظم أمره وعلا شأنه من المعاني .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (١) :

(هل في الخطب فائدة لا توجد في غيره من الألفاظ ؟ نقول : نعم ، وذلك من حيث إن الألفاظ المفردة التي يقرب منها الشغل والأمر والفعل وأمثالها ، وكل ذلك لا يدل على عظم الأمر ، وأما الخطب فهو الأمر العظيم ، وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضي فقال : (ما خَطْبُكُمْ) أي لعظمتكم لا ترسلون إلا في عظيم ، ولو قال بلفظ مركب بأن يقول شغلكم الخطير ، وأمركم العظيم ، لزم التطويل ، فالخطب أفاد التعظيم مع الإيجاز) (٢) .

وحاولت التثبت من قوله فرجعت إلى القرآن واستقصيت الآيات التي ورد فيها الخطب ، فوجدتها في خمسة مواضع :

قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (٣)

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الذاريات : ٣١ .

(٢) التفسير : ٢١٦/٢٨ م ١٤ .

(٣) سورة طه : ٩٥ .

(٤) سورة الحجر : ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ .

* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ .. * (١)

* قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * (٢)

* قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ * . (٣)

فكل هذه الأمور التي جاءت في الآيات أمور عظام شداد ، فما فعله السامري من صنع العجل كان أمراً عظيماً ، وما جاء به المرسلون من الملائكة لإبراهيم كان أمراً عظيماً ، وما كانت عليه ابنتا شعيب من رغبة في سقي غنمهما وتسابق الرعاء إلى السقي أشعر موسى بأنهما في أمر شديد ، وما كانت عليه النسوة اللاتي كدن ليوسف أمر عظيم أيضاً .

و قد تنبه ابن عطية إلى هذا المعنى للخطب فقال : ("الخطب" لفظة إنما تستعمل في الأمور الشداد) (٤).

وقول الفخر : (وعظم الشأن يدل على عظم من على يده ينقضي) أمر قد يتخلف ، فالسامري لم يكن عظيماً إنما كان كافرا ، وكذلك صواحب يوسف عرفن بالكيد والمكر في مراودتهن له ورغبتهن فيه .

---

(١) سورة الذاريات : ٣١-٣٢-٣٣ .

(٢) سورة القصص : من الآية ٢٣ .

(٣) سورة يوسف : من الآية : ٥١ .

(٤) المحرر الوجيز : ٨/٣٢٨ قالها وهو يفسر * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * سورة الحجر : ٥٧ .

ويذكر الفخر أن كلمة (الخوض) لا تستخدم في القرآن إلا في الاندفاع في الأباطيل . يقول في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾(١) : (والخوض نفسه خص في استعمال القرآن بالاندفاع في الأباطيل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا ﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾(٣).

وقد تتبعت آيات (الخوض) في القرآن الكريم ، فوجدتها كما قال جاءت كلها في الأباطيل .

ثم إنني وجدت كلاماً للراغب الأصفهاني يذكر فيه أن أكثر ما ورد في القرآن بهذا اللفظ ورد فيما يذم يقول : (الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ، ويستعار في الأمور ، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه)(٤).

وأظن أنه يقصد بذلك تلك الآيات التي جاء فيها الخوض على سبيل المشاكلة في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾(٥).

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾(٦).

---

(١) سورة الطور : ١٢.
(٢) سورة التوبة : من الآية ٦٩.
(٣) سورة المدثر : ٤٥ ، التفسير : ٢٨/ ٢٤٥ م ١٤.
(٤) المفردات في غريب القرآن : ١٦١.
(٥) سورة النساء : من الآية ١٤٠.
(٦) سورة الأنعام : من الآية ٦٨.

فالمشاكلة[(١)] في الآية الأولى تقديرية ؛ لأنه لم يسبق لفظ الخوض وإنما ذكر مرة واحدة ،فيمكن أن يفهم الخوض من قوله تعالى : ﴿ يُكْفَرُ بِهَا ﴾ ، ولا شك أن الحديث الآخر الذي لم يُنه أن يخوضوا فيه حديث غير مذموم فلذلك جاء فيه لفظ الخوض للمشاكلة ويؤيد هذا قول الألوسي : (والمراد بالخوض هنا التفاوض لا بقيد التكذيب والاستهزاء ،وادعى بعضهم أن المعنى حتى يشتغلوا بحديث غيره ،وأنّ ذكر ﴿ يَخُوضُوا ﴾ للمشاكلة)[(٢)].

ولهذا قال الراغب : (وأكثر ما ورد في القرآن) أما الفخر فقد اعتمد في حكمه على ما قاله أكثر العلماء من أن الخوض لا يكون إلا في الباطل فهو ينقل في تفسيره قول الواحدي : (أصل الخوض الدخول في مائع من الماء والطين ، ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى)[(٣)].

ويقول ابن منظور أيضاً : (والخوض اللبس في الأمر ،والخوض من الكلام ما فيه الكذب والباطل)[(٤)].

---

(١) المشاكلة : نوع من أنواع البديع وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً : الأول كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ المائدة : ١١٦.

والثاني : كقوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾ سورة البقرة من آية ١٣٨ .

ينظر الإتقان في علوم القرآن ،للسيوطي : ٢/١٢٠.

(٢) روح المعاني : ٧/١٨٢.

(٣) التفسير : ١٦/١٢٥ م٨.

(٤) لسان العرب : ٧/١٤٧.

ويشير الفخر إلى أن كلمة (المسارعة) في القرآن تأتي في سياق الخير في أكثر الأمر . يقول في قوله تعالى : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ (١) : (إنَّ لفظ المسارعة إنما يستعمل في أكثر الأمر في الخير ،قال تعالى : ﴿ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ (٣) فكان اللائق بهذا الموضع لفظ العجلة ،إلا أنه تعالى ذكر لفظ المسارعة لفائدة ،وهي أنهم يقدمون على هذه المنكرات كأنهم محقون فيه) (٤).

وإذا صرفنا النظر عن المسارعة في (سريع الحساب) و (سريع العقاب) رأينا أن القرآن يذكر خمس آيات فيها المسارعة في الخير ،وأربع آيات فيها المسارعة في الشر ،فالتفاوت ليس كبيراً .

قال تعالى في الأولى :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ (٥)

﴿ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٦)

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (٧)

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٦٢ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١١٤ .

(٣) سورة المؤمنون : من الآية ٥٦ .

(٤) التفسير : ٤٢/١٢ م٦ ، كان الواجب أن يقول (محقون فيها) لأنّ الضمير يعود على المنكرات فهي جمع مؤنث سالم ،والظاهر أنه خطأ مطبعي .

(٥) سورة الأنبياء : من الآية ٩٠ .

(٦) سورة المؤمنون : ٦١ .

(٧) سورة آل عمران : من الآية ١٣٣ .

بالإضافة إلى الآيتين اللتين ذكرهما الفخر في حديثه السابق .

أما آيات المسارعة في الشر :

﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ (١)

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ (٢)

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ (٣)

بالإضافة إلى الآية التي ضربها في كلامه السابق ، وقد عدت إلى بعض المعاجم في هذه اللفظة فلم أجدهم يذكرون اختصاص هذا اللفظ بالخير أو بالشر ، وبهذا أقول إنّ المسارعة أكثر ما جاءت في الشر ، فكأن العصاة يتعجلون الإثم والعدوان لمحبتهم لهما فجيء بـ (يسارعون) .

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ١٧٦ .

(٢) سورة المائدة : من الآية ٤١ .

(٣) سورة المائدة : من الآية ٥٢ .

الفروق بين الكلمات :

الفروق بين الكلمات المتشابهة في المعنى في اللغة العربية من أجل مباحث البلاغة ،ولكن لم يهتم بها البلاغيون وأهل اللغة ، ولم يخصصوا لها أبواباً في كتبهم ،ولا نجد فيها إلا شذرات يسيرة متناثرة في بعض الكتب ، وقد تناول الفخر الكثير من هذه الكلمات ،وفرق بينهما ، وكان على إدراك تام بصعوبة هذا الباب ،وأنه لا يتأتى لكل أحد ،لذلك قال : (لا يظهر هذا الفرق إلا للبارع) .

يقول وهو يفرق بين جلس وقعد : (... قعد وجلس ليسا على ما يظن أنهما بمعنى واحد لا فرق بينهما بل بينهما فرق ولكن لا يظهر إلا للبارع) .(١)

وقد وجدت له طريقة في بيان معنى الكلمة ،واستنباط خصوصياتها ، فهو يكشف عن معنى الكلمة بأن يذكر أولاً معناها عند العرب واستخداماتهم لها ، ثم ينظر في مشتقات الكلمة وتقلباتها في اللغة لمعرفة المعنى المشترك بين هذه المشتقات ،ثم يبحث عن استعمالاتها في القرآن الكريم ،ومعرفة المواضع التي ترد فيها ،فمثلاً يقول وهو يفرق بين (قعد) و (جلس) : (والفرق هو أنّ القعود جلوس فيه مكث حقيقة واقتضاءً ويدل عليه وجوه :

---

(١) التفسير : ٢٩/ ٨١م٥ قالها عند تفسير قوله تعالى : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ سورة القمر : ٥٥ .

الأول : هو أن الزّمن يسمى مقعداً ولا يسمى مجلساً لطول المكث حقيقة ومنه سمى قواعد البيت ، والقواعد من النساء قواعد ، ولا يقال لهن جوالس لعدم دلالة الجلوس على المكث الطويل ... ويقال للركوب من الإبل قعود لدوام اقتضاء ...

الثاني : النظر إلى تقاليب الحروف ، فإنك إذا نظرت إلى (ق.ع.د) وقلبتها تجد معنى المكث في الكل ، فإذا قدمت القاف رأيت (قعد) و (قدع) بمعنى ، ومنه تقادع الفراش بمعنى تهافت ، وإذا قدمت العين رأيت (عقد) و (عدق) بمعنى المكث ...

الوجه الثالث : الاستعمالات في القعود إذا اعتبرت ظهر ما ذكرنا ، قال تعالى : * لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم *(١) والمراد الذى لا يكون بعده اتباع ، قال تعالى : * مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ *(٢) ...

ونستطيع من طريقته هذه أن نستنبط منهجاً في كيفية معرفة أدق المميزات الخاصة بالكلمة في القرآن الكريم ، وفي النصوص الأدبية .

وقد فرق الخطابي قبله بين القعود والجلوس اعتماداً على رواية النضر ابن شميل يقول : (حُكي لنا عن النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فمثل بين يديه وسلم ، فقال له المأمون : اجلس ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا بمضطجع فأجلس ، قال : فكيف أقول ؟ قال : قل اقعد ، فأمر له بجائزة قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل إنما يصح إذا اعتبرت

---

(١) سورة النساء : من الآية ٩٥ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١٢١ . التفسير : ٢٩/ ٨١م ١٥ .

إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ،فنقول : القيام والقعود كما تقول الحركة والسكون ، ولا تسمعهم يقولون القيام والجلوس ،وإنما يقال قعد الرجل عن قيام وجلس عن ضجعة واستلقاء) .[١]

وقد يذكر أن معنى الكلمتين واحد في اللغة ،لكن هناك فرق بينهما من حيث ما يدل عليه تركيب كل كلمة في تقلباتها المختلفة ،ثم يتتبع استعمالها القرآني .

يقول وهو يفرق بين الخشية والخوف عند تفسير قوله تعالى : ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾[٢] : (الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة ،لكن بينهما فرق، وهو أن الخشية من عظمة المخشي ؛ وذلك لأن تركيب حروف (خ . ش . ى) في تقاليبها يلزمه معنى الهيبة، يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن، وهما جميعا مهيبان ،والخوف خشية من ضعف الخاشي ،وذلك لأن تركيب (خ . و . ف) في تقاليبها يدل على الضعف ،ويدل عليه الخيفة والخفية . . .) .[٣]

وقد رجعت إلى ابن فارس الذى كان يحرص على بيان دلالة كل كلمة فوجدته لا يفرق بينهما فكلاهما يدل على الذعر والفزع يقول في مادة (خشى) : (الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر)[٤] ويقول في مادة (خوف) : (الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع) .[٥]

---

(١) بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الاعجاز) : ٢٨ .

(٢) سورة ق : ٣٣ .

(٣) التفسير : ١٧٧/٢٨ م١٤ .

(٤) مقاييس اللغة : ١٨٤/٢ .

(٥) المصدر السابق : ٢٣٠/٢ .

ويواصل الفخر كلامه في استخدامات الكلمتين في القرآن الكريم فيقول : (... إنَّ الله تعالى في كثير من المواضع ،ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشى ،قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) وقال : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (٢) فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه ،وإنما الله عظيم يخشاه كل قوى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ (٣) مع أن الملائكة أقوياء .... ، وقال تعالى : ﴿ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ (٤) أى لا تخف ضعفاً فإنهم لا عظمة لهم ،وقال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً ﴾ (٥) حيث كان عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة ..... وحاصل الكلام أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشى ، وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملاً لخشية من ضعف الخائف ، وهذا في الأكثر ،وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية) (٦).

وهكذا نرى أن الفخر لم يلتزم بذكر الاستعمال اللغوى ،لأنَّ أهل اللغة يساوون بين المعنيين كما رأينا عند ابن فارس ،أما هو فقد رأى أن القرآن يفرق بينهما .

---

(١) سورة فاطر : من الآية ٢٨ .

(٢) سورة الحشر : من الآية ٢١ .

(٣) سورة المؤمنون : ٥٧ في النسخة (وهم من خشية ربهم مشفقون) ولا شك في أنه خطأ مطبعي لزيادة الواو.

(٤) سورة العنكبوت : من الآية ٣٣ .

(٥) سورة النور : من الآية ٣٧ .

(٦) التفسير : ٢٨/١٧٧ - ١٧٨ م١٤ .

وفرق أبوهلال العسكري بين الكلمتين فقال : (إنّ الخوف يتعلق بالمكروه ، وبترك المكروه تقول خفت زيداً . . . والخشية تتعلق بمنزل المكروه ، ولا يسمى الخوف من نفس المكروه خشية . . . وقال بعض العلماء : يقال خشيت زيداً ولا يقال : خشيت ذهاب زيد ، فإن قيل ذلك فليس على الأصل ولكن على وضع الخشية مكان الخوف ، وقد يوضع الشيء مكان الشيء إذا قرب منه).(١)

ويبدو لي أن هناك توافقا كبيراً بين عبارات أبي هلال وبين كلام الفخر ، فكلاهما يقرر أن الخشية تستخدم فيمن عظم أمره يقول الفخر : (الخشية مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي) ويقول أبوهلال : (الخشية تتعلق بمنزل المكروه) وكلاهما يقرر أن ذلك غير مطرد في اللغة - وقد يكون هذا هو السبب في عدم تفريق أهل اللغة بينهما - يقول الفخر : (وهذا في الأكثر وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية) ويقول أبوهلال : (وقد يوضع الشيء مكان الشيء إذا قرب منه).

وكذلك الراغب الأصفهاني يرى أن الخشية تكون عند الشعور بعظمة المخشي يقول : (الخشية خوف يشوبه تعظيم)(٢) وأضاف : (وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه).(٣)

وأستطيع أن أقول : إن هذه التفرقة عند الفخر لا تقوم على ملاحظة كلام العرب ، إنما على ما هو شائع في القرآن الكريم ، هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

---

(١) الفروق اللغوية : ٢٠٠ .

(٢) (٣) المفردات في غريب القرآن : ١٤٩ .

ويفرق بين اللعب واللهو ، وهما من الكلمات التي تتداخل معانيهما ، وتستخدمان بمعنى واحد عند أكثر الناس ، فيوضح معنى كل كلمة ، وهو هنا لا يلجأ إلى مشتقات الكلمة ولا إلى الاستعمال القرآني لها كما في السابق .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ (١) : (ما الفرق بين اللهو واللعب حتى يصح عطف أحدهما على الآخر ، فنقول الفرق من وجهين :

أحدهما : إنّ كل شغل يفرض فإن المكلف إذا أقبل عليه لزمه الإعراض عن غيره ، . . . فالإقبال على الباطل لعب ، والإعراض عن الحق لهو) .

الثاني : هو أنّ المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لا محالة حتى يشتغل به ، فإما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم . . . أو يكون على وجه الاستغراق لقلبه والإعراض عن غيره بالكلية ، فالأول لعب والثاني لهو ، والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى الآت الملاهي في العرف ، والعود وغيره من الأوتار تسمى آلات الملاهي لأنها تلهي الإنسان . . .) (٢) .

وقد توارد على هذين اللفظين معان عديدة ، واختلفت أقوال العلماء في الفرق بينهما يقول الخليل بن أحمد : (اللهو ما شغل الإنسان من هوى وطرب) (٣) .

---

(١) سورة العنكبوت : من الآية ٦٤ .

(٢) التفسير : ٢٥/ ٩٢ م١٣ .

(٣) العين : ٤/ ٨٧ .

ويقول الرماني : (اللعب عمل يشغل عما ينتفع به إلى ما لا ينتفع به ، واللهو صرف النفس من الجد إلى الهزل) .(١)

ويقول الراغب : (اللهو هو كل شيء شغلك عن شيء)(٢) ، (ولعب فلان إذا كان فعله غير قاصد به مقصداً صحيحاً) .(٣)

والفخر يتفق معهما في معنى اللهو فهو كل ما يشغل ويصرف النفس من هوى وطرب .

ويفرق بين الخاطيء والمخطيء ، حيث إنَّ الفرق بينهما دقيق جداً .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾(٤) : (قيل : الخاطيء هو الذى أتى بالخطيئة عمداً ، وفرق بين الخاطيء والمخطيء ، فلهذا الفرق يقال لمن يجتهد في الأحكام فلا يصيب إنه مخطيء ، ولا يقال إنه خاطيء) .(٥)

وهذا المعنى الذى قاله هو السائد في كتب اللغة فمثلاً يقول ابن فارس : (الخطأ مجاوزة حد الصواب يقال أخطأ إذا تعدى الصواب ، وخطِيء يخطأ إذا أذنب) .(٦)

فمعنى قوله مجاوزة حد الصواب أى الخطأ دون تعمد .

---

(١) نقلاً من أبي حيان في البحر المحيط ١٠٨/٤ .

(٢)، (٣) المفردات : ٤٥٠ - ٤٥٥ .

(٤) سورة يوسف : ٩١ .

(٥) التفسير : ٢٠٩/١٨ م٩ .

(٦) مقاييس اللغة : ١٩٨/٢ .

ويوضح الزمخشري المعنى فيقول : (أخطأ في المسألة وفي الرأي ، وخطئ خطأً عظيماً إذا تعمد الذنب : ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾.(١)

ولا أريد أن أطيل في هذا المبحث مع أن الفخر قد ذكر منه كثرة كاثرة .

وهذا المبحث وإن كان شديد الصلة باللغة إلا أنه يمت إلى البلاغة بطرف ظاهر جداً، وهو اختيار الكلمة ذات المدلول المناسب للسياق مما تختص به دون غيرها .

---

(١) أساس البلاغة : ١١٤ ، سورة يوسف : من الآية ٩٧ - في النسخة التي نقلت منها (وما كنا خاطئين) ولا يوجد آية بهذا اللفظ وقد صححت الآية وأثبتها .

الإفـراد والجمـــع

للفخر الرازى حس دقيق في بيان سر إفراد الكلمة ، وسر جمعها على صيغة دون صيغة أخرى في القرآن الكريم .

فقد نظر إلى قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (١) والعذاب مفرد ، والنذر جمع فرأى أن الجمع يشير إلى تعدد رحماته ، والمفرد يشير إلى أنّ عذابه واحد يقول : (فما الحكمة في توحيد العذاب حيث لم يقل فكيف كان أنواع عذابي ، ووبال إنذارى ؟ نقول فيه إشارة إلى غلبة الرحمة والغضب ، وذلك لأنّ الإنذار إشفاق ورحمة ، فقال : الإنذارات التي هي نعم ورحمة تواترت ، فلمّا لم تنفع وقع العذاب دفعة واحدة ، فكانت النعم كثيرة ، والنقمة واحدة) (٢) .

ولم يهتم كثير من المفسرين ببيان سر الجمع والإفراد في هذه الآية كالزمخشرى وأبي السعود وأبي حيان والآلوسي ، ولذلك فقد تفرد الفخر بذكره لهذا السر .

وتأتي النعمة مفردة في مقام الكثرة ، وتعني جنس النعم أى كامل النعم ، لا يخرج منها شيء .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ ... ﴾ (٣) : (إنما قال : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم ﴾ ولم يقل :

---

(١) سورة القمر : ٢١ .

(٢) التفسير الكبير : ٢٩/٤٩ م ١٥ .

(٣) سورة المائدة من الآية : ٧ .

نعم الله عليكم ،لأنه ليس المقصود منه التأمل في أعداد نعم الله ،بل المقصود منه التأمل في جنس نعم الله ،لأن هذا الجنس جنس لا يقدر غير الله عليه ، فمن الذى يقدر على إعطاء نعمة الحياة والصحة والعقل والهداية والصون من الآفات ،والإيصال إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة)[١] فجنس نعم الله كثيرة ،ولذلك كانت صيغة المفرد الدالة على الشمول أكثر مناسبة من صيغة الجمع .

وقد اكتفى أكثر العلماء بالقول بأنها اسم جنس دون ذكر الغرض من هذا الإفراد ، فمثلاً يقول ابن عطية : (ونعمة الله اسم جنس يجمع الإسلام وجمع الكلمة وعزة الحياة وغنى المال وحسن المثال)[٢] .

وفي مقام آخر من القرآن تأتي (النعمة) بجمع القلة للتنبيه بالأدنى عن الأعلى ،كما في قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾[٣] يقول : (ههنا سؤال وهو أن الأنعم جمع قلة ، فكان المعنى أن أهل تلك القرية كفرت بأنواع قليلة من النعم فعذبها الله ،وكان اللائق أن يقال : إنهم كفروا بنعم عظيمة لله فاستوجبوا العذاب ،فما السبب في ذكر جمع القلة ؟ والجواب المقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى ، يعني أن كفران النعم القليلة لما أوجب العذاب فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب)[٤] .

---

(١) التفسير : ١٨٣/١١ م ٦ .
(٢) المحرر الوجيز : ٥٢/٥ .
(٣) سورة النحل : من الآية ١١٢ .
(٤) التفسير : ١٣٠/٢٠ م ١٠ .

وتنوع الكلمة الواحدة في القرآن بين الإفراد والجمع قلة كان أو كثرة، ومعرفة ما وراء ها من معاني مقصودة وصور ملحوظة ،من أجل البحوث وأد قهـــا في القرآن الكريم وقد اهتم الفخر بهذا النوع .

من ذلك أنه بيّن الفرق بين الريح بالفرد والرياح بالجمـــع في القرآن الكريم فيقول : إنّ الريح تأتي في مقام ذكر العذاب ،والريـــاح في مقام ذكر الرحمة.

يقول : (ما روى في الحديث من أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا هبت الريح قال : " اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً " فإنه يدل على أن مواضع الرحمة بالجمع أولى قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِـلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّراتٍ ﴾ (١) وإنما يبشر بالرحمة ، وقال في موضع الإفراد : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ (٢) وقد يختص اللفظ في القرآن بشيء فيكون إمارة له . .) (٣).

ثم نراه في موضع آخر يبين سبب إفراد الريح وجمع الرياح يقول : (سمى النافعة رياحاً والضارة ريحاً لوجوه :

أحدها : النافعة كثيرة الأنواع ،كثيرة الأفراد فجمعها ، فـإنّ كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ،ولا تهب الريح الضارة فـــي أعوام . . .

---

(١) سورة الروم : من الآية ٤٦ .

(٢) سورة الذاريات : ٤١ .

(٣) التفسير : ٤/٢٢٣ م٢ .

الثاني : وهو أن النافعة لا تكون إلا رياحاً، فإنّ ما يهب مرة واحدة لا يُصلح الهواء ، ولا يُنشيء السحاب ، ولا يُجرى السفن ، وأما الضارة بنفحة واحدة تقتل كريح السموم .

الثالث : هو أنّ الريح المضرة إما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها ..) .[1]

وقد سار الفخر على هدى غيره من المفسرين في التفرقة بين جمعها وإفرادها ، وزاد عليها في بيان العلة والسبب .

وممن فرق بينهما الزمخشري يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾[2] : (الرياح هي الجنوب والشمال والصبا وهي رياح الرحمة ، وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) .[3]

ويقول أيضاً ابن عطية عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ﴾[4] : (وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب ، إلا في يونس في قوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[5] وهذا أغلب وقوعها في الكلام ، وفي الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا هبت الريح يقول : اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) .[6]

---

(١) التفسير : ١٣٥/٢٥ م١٣ .
(٢) سورة الروم : من الآية ٤٦ .
(٣) الكشاف : ٢٢٥/٣ .
(٤) سورة البقرة : من الآية ١٦٤ .
(٥) من الآية : ٢٢ .
(٦) المحرر الوجيز : ٥١/٢ .

ولأستاذي الدكتور علي العماري دراسة موسعة في الفرق بين الريح والرياح، أثبت فيها أنه لا أساس لما قاله العلماء من وجود فرق بينهما وأن الريح استعملت في العذاب وفي الرحمة في القرآن الكريم، وكذلك الرياح استعملت في العذاب وفي الرحمة. ولا صحة للحديث المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم بإجماع رجال الحديث، وأقل ما قيل فيه إنه ضعيف.(١)

والعجيب أن الطحاوي قد ذكر في كتابه (مشكل الآثار)(٢) أن لا فرق بينهما وأنكر الحديث، ولم يتنبه إلى ذلك جميع المفسرين الذين قالوا بالفرق، مع أنه سابق لهم.

وقد يأتي جمع القلة تنبيهاً على أن ثمار الدنيا مهما كثُرت وتنوعت فهي قليلة قياساً على ثمار الآخرة يقول في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ... ﴾(٣): (الثمر المخرج بماء السماء كثير، فلم قيل الثمرات دون الثمر أو الثمار؟ الجواب تنبيهاً على قلة ثمار الدنيا، وإشعاراً بتعظيم أمر الآخرة والله أعلم).(٤)

---

(١) ينظر البحث في الريح والرياح في القرآن الكريم وفي كلام العرب - مخطوط -.

(٢) هو أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي، ولد ونشأ بمصر، تفقه على مذهب الشافعي، ثم تحول حنفياً، من تصانيفه: شرح معاني الآثار - بيان السنة - مشكل الآثار. توفي بالقاهرة سنة ٣٢١هـ الأعلام، للزركلي: ٢٠٦/١.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٢٢.

(٤) التفسير: ١٢٢/٢ م١.

وقد يأتي الجمع ويراد به الواحد لتعظيمه وبيان منزلته .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنكُمْ والسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي القُرْبَى وَالمَسَاكِينَ ﴾ (١) : (اعلم أن الله تعالى وصف أبا بكر في هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شأنه في الدين :

أحدها : أنه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع ، والواحد إذا كُني عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ﴾ : فانظر إلى الشخص الذى كناه الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون شأنه) (٢) .

ويقيس الفخر هذا التعظيم لأبي بكر بتعظيم الله لنفسه في الآيتين .

وأقول : إنَّ ذكر الله في كثير من المواضع في القرآن جاء على صيغة الجمع لعظمته سبحانه وتعالى . ومثله في مجيء الجمع للتعظيم قوله تعالى حكاية عن قصة موسى مع فرعون : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ ﴾ (٣) يقول : (إنما قال ﴿ وَمَلَائِهِمْ ﴾ مع أن فرعون واحد لوجوه : الأول : أنه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع والمراد التعظيم) (٤) .

فالتعظيم في الآية الأولى من الله لأبي بكر ، وفي الثانية حكاية لما كان عليه فرعون من تعظيمه لنفسه ولملئه ، وقد جرت العادة أن الملك يعظم نفسه وأعوانه فيقول : نحن فلان ابن فلان .

---

(١) سورة النور : من الآية ٢٢ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٩٩ - ٢٠٠ م١٣ .

(٣) سورة يونس : من الآية ٨٣ .

(٤) التفسير : ١٧/١٥١ م٩ .

وقد يأتي المصدر مفرداً بين صيغ جمع جاءت أسماء ، فيبين الفخر سر ذلك مستنداً إلى تعليل علمي .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (١) : (ذكر في السمع المصدر ، وفي البصر والفؤاد الاسم ، ولهذا جمع الأبصار والأفئدة ولم يجمع السمع ؛ لأن المصدر لا يجمع ، وذلك لحكمة ، وهو أن السمع قوة واحدة ، ولها فعل واحد ، فإنّ الانسان لا يضبط في زمان واحد كلامين والأذن محله ، ولا اختيار لها فيه ، فإنّ الصوت من أي جانب كان يصل إليه ، ولا قدرة لها على تخصيص القوة بإدراك البعض دون البعض ، وأما الإبصار فمحله الأبصار ولها فيه شبه اختيار، فإنها تتحرك إلى جانب مرئي دون آخر ، وكذلك الفؤاد محل الإدراك ، وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره) (٢) .

وقد لاحظت أن الفخر قد انفرد بمثل هذه التعليلات العلمية وسيرد لاحقاً أمثال أخرى - إن شاء الله - .

وكما ذكر الفخر السر في إفراد المصدر ، ذكر كذلك السر في جمعه وإن كان ذلك يخالف القاعدة النحوية .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (٣) : (فإنّ قال قائل المصدر لا يجمع ، فما الفائدة في جمع الظنون ؟ فنقول لا شك في أنه

---

(١) سورة السجدة : من الآية ٩ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٧٥ - ١٧٦ م١٣ .

(٣) سورة الأحزاب : من الآية ١٠ .

منصوب على المصدر ، ولكن الاسم قد يجعل مصدراً كما يقال : ضربته سياطاً ... فالفائدة هي أن الله تعالى لو قال تظنون ظناً جاز أن يكونوا مصيبين ، فإذا قال ظنوناً تبين أن فيهم من كان ظنه كاذباً ، لأن الظنون قد تكذب كلها ، وقد يكذب بعضها إذا كانت في أمر واحد) (١) .

فالجمع جاء ليبين كثرة الهواجس والأوهام وتعدد أنواعها والجزم بأن أحدهما كاذب .

وتتنوع أحياناً كلمات الآية الواحدة ما بين جمع وإفراد ، فيقف الفخر ليبين سر ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ (٢) : (في جمع الجواري وتوحيد البحر ، وجمع الأعلام فائدة عظيمة ، وهي أن ذلك إشارة إلى عظمة البحر ، ولو قال في البحار لكانت كل جارية في بحر ، فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجواري التي هي كالجبال ، وأما إذا كان البحر واحداً وفيه الجواري التي هي كالجبال ، يكون ذلك بحراً عظيماً وساحله بعيداً ، فيكون الإنجاء بقدرة كاملة) (٣) .

وقد يجمع ما لا يعقل جمعاً مذكراً سالماً بناءً على ما يعتقده المشركون من أن أصنامهم تعقل وتميز .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (٤) : (إنَّ الجمع بالواو والنون في غير من يعقل كيف يجوز ؟ فنقول لما اعتقد عابدوها أنها تعقل وتميز ، فورد هذا اللفظ بناءً على ما يعتقدونه ، ويتصورونه ،

---

(١) التفسير : ٢٥/١٩٩ م١٣ .
(٢) سورة الرحمن : ٢٤ .
(٣) التفسير : ٢٩/١٠٥ م١٥ .
(٤) سورة الأعراف : ١٩١ .

ونظيره : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٢).

والتنظير هنا ليس في سر الجمع ، إنما في مجيء جمع المذكر غير العاقل على صيغة جمع المذكر العاقل ، وفي قليل من الأحيان كان الفخر يساوي بين مجيء الكلمة مفردة وبين مجيئها جمعاً فلا يرى فرقاً بينهما ، يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (٣) : (وإنما قال : ﴿ عَدُوًّا ﴾ ولم يقل : أعداء ، لأن العدو يستوي فيه الواحد والجمع) (٤).

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٣٣.

(٢) سورة يوسف : من الآية ٤.

التفسير : ١٥ / ٩٥ م٨.

(٣) سورة النساء : من الآية ١٠١.

(٤) التفسير : ١١/٢٢ م٦.

الأفعال والمشتقات

اهتم الفخر في تفسيره بدلالة الأفعال والمشتقات، وكان كثيراً ما يقارن بين الفعل والمشتق، ويبين دلالة كل منهما على المعنى الذى ورد فيه :

١ - وسأبدأ أولا بنظره في الأفعال ثم بنظره في المشتقات .

لقد لحظ الفخر المعاني التي تكمن وراء زيادة الفعل ، كما لحظ ما في صيغ الأفعال في أزمانها المختلفة من معان أدبية تبثها في المعنى المراد .

فهو يعلل سبب مجيء أحد الفعلين مبنياً للمجهول، والآخر مبنياً للمعلوم في آية واحدة ، معتمداً في ذلك على ما تلوح به من معاني . يقول في قوله تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ (١) : (فإن قيل ما السبب في أنه تعالى قال في الحلى ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ على فعل ما لم يسم فاعله ، وقال في السندس والإستبرق ﴿ وَيَلْبَسُونَ ﴾ فأضاف اللبس إليهم ؟ قلنا : يحتمل أن يكون اللبس إشارة إلى ما استوجبوه بعملهم ، وأن يكون الحلى إشارة إلى ما تفضل الله عليهم ابتداء من زوائد الكرم) (٢) .

وتُعطف صيغة تَفَاعَلَ على صيغة تَفْعِل فيبين سر تحول الفعل إلى هذه الصيغة في سياق النهي .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ (٣)

---

(١) سورة الكهف : من الآية ٣١ .

(٢) التفسير : ١٢٣/٢١ م١١ .

(٣) سورة الحجرات : من الآية ١١ .

: (قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَنَابَزُوا ﴾ ولم يقل : ولا تَنْبِزوا ،وذلك لأنّ اللماز إذا لمز فالملموز قد لا يجد فيه في الحال عيباً يلمزه به ،وإنما يبحث ويتبعه ليطّلع فيه على عيب فيوجد اللمز من جانب ،وأما النبز فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به ، فإنَّ من نبز غيره بالحمار وهو ينبزه بالثور وغيره ،فالظاهر أنَّ النبز يفضي في الحال إلى التنابز ولا كذلك اللمز) [١] وهذا سر جيد لطيف كشف عنه الفخر.

ويأتي الفعل مخاطباً به الله تعالى على صيغة المفاعلة ، استجابة لإحساس النفس المذنبة .

يقول في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. ﴾ [٢]

: (لا تؤاخذنا أى لا تعاقبنا ،وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد ؛ لأنّ الناسى قد أمكن من نفسه ،وطرق السبيل إليها بفعله ،فصار من يعاقبه بذنبه كالمعين لنفسه في إيذاء نفسه ،وعندى فيه وجه آخر وهو أن الله يأخذ المذنب بالعقوبة ،فالمذنب كأنه يأخذ ربه بالمطالبة بالعفو والكرم ، فإنه لا يجد من يخلصه من عذابه إلا هو ،فلهذا يتمسك العبد عند الخوف منه به ، فلما كان كل واحد منهما يأخذ الآخر عبر عنه بلفظ المؤاخذة) [٣].

ويعبر القرآن عن شدة الاهتمام والمبالغة بالفعل الذى يأتي على وزن (تَفَعَّل) ،لأنّ هذه الصيغة تضيف إلى الفعل معنى زائداً.

---

(١) التفسير : ١٣٢/٢٨.

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨٦.

(٣) التفسير : ١٥٥/٧-١٥٦ م٤.

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ (١) : (إنَّ ما كان من باب التفعل فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتبصر والتجلد ونحوهما ، فإنهما يفيدان الجد في إظهار الصبر والجلادة ، فكذا ههنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول) (٢) .

وقد تختلف أزمنة الأفعال في الآية الواحدة فتنتقل من الماضي إلى المضارع ، أو من المضارع إلى الماضي لمعان ، منها أن الفعل الماضي يدل على انقطاع الفعل ، والمضارع يدل على التجدد والتكرار وذلك في الجمل الشرطية كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ (٣) .

يقول : (قال في الشكر : ومن يشكر بصيغة المستقبل ، وفي الكفران : ومن كفر فإنَّ الله غني ، وإن كان الشرط يجعل الماضي والمستقبل في معنى واحد كقول القائل : من دخل داري فهو حر ، ومن يدخل داري فهو حر ، فنقول فيه إشارة إلى معنى وإرشاد إلى أمر ، وهو أن الشكر ينبغي أن يتكرر في كل وقت بتكرر النعمة ، فمن شكر ينبغي أن يكرر ، والكفر ينبغي أن ينقطع ، فمن كفر ينبغي أن يترك الكفران ؛ لأن الشكر من الشاكر لا يقع بكماله بل أبداً يكون منه شيء في العدم ، يريد الشاكر إدخاله في الوجود ...

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٣٧ .

(٢) التفسير : ٨/ ٣٠ م ٤ .

(٣) سورة لقمان : ١٢ .

فأشار إليه بصيغة المستقبل تنبيهاً على أنّ الشكر بكماله لم يوجد ، وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام فقال بصيغة الماضي) [١].

وقد يأتي الفعل الماضي دالاً على بُعد الزمن ، والمضارع دالاً على قرب زمن وقوع الفعل .

كما في قوله تعالى : * فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ * [٢] يقول : (ذكر التكذيب بلفظ الماضي هنا إشارة إلى معاملتهم مع موسى عليه السلام ، لأنه قد انقضى من ذلك الزمان أدوار كثيرة ، وذكر القتل بلفظ المضارع إشارة إلى معاملتهم مع زكريا ويحيى ، لكون ذلك الزمان قريباً فكان كالحاضر) [٣].

وقد ذكر الزمخشري وجهاً لهذا الاختلاف ، أراه أقرب إلى المعنى شائع في كتب البلاغة والتفسير يقول : (لم جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً ؟ قلت : جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية استفظاعاً للقتل ، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجيب منها) [٤].

ويستعمل الماضي في موضع ، والمضارع في موضع آخر في آية واحدة لمعاني ، وذلك في ذكر إيلاج الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر . يقول في قوله تعالى : * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ * [٥] : (قال : * يُولِجُ * بصيغة

---

(١) التفسير : ٢٥/١٤٦م١٣ .

(٢) سورة المائدة : من الآية ٧٠ .

(٣) التفسير : ١٢/٥٩ م٦ .

(٤) الكشاف : ١/٦٣٣ .

(٥) سورة لقمان : من آية ٢٩ .

المستقبل ، وقال في الشمس والقمر * سَخَّرَ * بصيغة الماضي ؛ لأن إيلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم ، وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى : * حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ * (١).

وقد يجتمع الفعل الماضي مع المضارع فيدلان على الاستمرار كما في قوله تعالى : * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ * (٢) يقول : (قوله تعالى : * وَكَانُوا يُصِرُّونَ * هو آكد من قول القائل إنهم قبل ذلك أصروا ؛ لأن اجتماع لفظي الماضي والمستقبل يدل على الاستمرار ؛ لأن قولنا : فلان كان يحسن إلى الناس يفيد كون ذلك عادة له) (٣).

وقد ألحق بعض الدارسين هذا النوع من الانتقال في أزمنة الأفعال بباب الالتفات أشار إلى ذلك ابن الأثير والعلوي (٤) وعداه نوعاً من أنواعه ، ولم أجد للفخر موضعاً في التفسير يشير إلى ذلك ، بل إنه كثيراً ما ينصرف إلى بيان دلالة انتقال فعل واحد في الآية دون الالتفات إلى الآخر .

ويتتبع الفخر الرازي المواضع التي تأتي فيها الأفعال الماضية دالة على أحداث تقع في المستقبل ، فيبين أسرار هذا العدول ، ونلاحظ تنوع أغراضه على حسب السياق الواردة فيه .

---

(١) سورة يس : من الآية ٣٩ ، التفسير : ٦١/٢٥ م ١٣ .
(٢) سورة الواقعة : ٤٦ .
(٣) التفسير : ١٧١/٢٩ م ١٥ .
(٤) ينظر المثل السائر : ١٨١/٢ ، الطراز : ١٣٧/٢ .

فقد يأتي الفعل الماضي بدل المضارع ليقطع ظن الدوام والاستمرار الذى يبثه الفعل المضارع الدال على ذلك ، فلما كان مراده تعالى إغلاق باب الفتنة والقتال بين الفئات المؤمنة على مر الزمان عبّر عن ذلك بقوله * اقْتَتَلُوا * في قوله تعالى : * وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا *(١) يقول الفخر : (لم يقل «يقتتلون» لأنّ صيغة الاستقبال تنبيء عن الدوام والاستمرار ، فيفهم منه أن طائفتين من المؤمنين إنْ تمادى الاقتتال بينهما فأصلحوا ، وهذا لأنّ صيغة المستقبل تنبيء عن ذلك يقال فلان يتهجد ويصوم) .(٢)

ويأتي الماضي ويُراد به المستقبل للحث على السعي والجد في العمل الصالح يقول في قوله تعالى : * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ *(٣) : («إِلَّا مَا سَعَىٰ» بصيغة الماضي دون المستقبل لزيادة الحث على السعى فى العمل الصالح ، وتقريره هو أنه تعالى لو قال : ليس للإنسان إلا ما يسعى ، تقول النفس : إني أصلي غداً كذا ركعة ، وأتصدق بكذا درهماً ، ثم يجعل مثبتاً في صحيفتي الآن أمر يسعى له ، وله فيه ما يسعى فيه ، فقال : ليس له إلا ما قد سعى وحصل وفرغ منه ، وأما تسويلات الشيطان وعداوته فلا اعتماد عليها) .(٤)

ويقع الماضي موقع المضارع للمدح والرغبة في الثبات عليه في المستقبل يقول في قوله تعالى : * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *(٥) : (إنما قال : * وَتَوَاصَوْا * ولم يقل يتواصون

---

(١) سورة الحجرات : من الآية ٩ .

(٢) التفسير : ٢٨/١٢ م١٤ .

(٣) سورة النجم : ٣٩ .

(٤) التفسير : ٢٩ / ١٦-١٧ م١٥

(٥) سورة العصر : ٣ .

لئلا يقع أمراً بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي ،وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل) .(١)

ويعبر بالماضي عن المستقبل لمن كان عزيز الجانب ، ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق عبر عما يعطى له يوم القيامة بصيغة الماضي يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾(٢) : (يقول : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ ولم يقل : سنعطيك ، لأن قوله : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ يدل على أن الإعطاء كان حاصلاً في الماضي وهذا فيه من الفوائد :

(أحدها) : أن من كان في الزمان الماضي أبداً عزيزاً مرعي الجانب مقضى الحاجة أشرف ممن سيصير كذلك ...

(وثانيها) : أنها إشارة إلى أن حكم الله بالإسعاد والإشقاء والإغناء والإفقار ،ليس أمراً يحدث الآن ، بل كان حاصلاً في الأزل ...) .(٣)

ويأتي المضارع بصيغة الماضي للإخبار عن جدهم في تقرير شبهة قد يقع فيها المؤمنون كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ... ﴾(٤) يقول : (وإنما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي لفائدتين :

إحداهما : أن الشيء الذى يكون لازم الحصول في المستقبل

---

(١) التفسير : ٣٢/٩٠ م١٦ .

(٢) سورة الكوثر : ١ .

(٣) التفسير : ٣٢/١٣٢ م١٦ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٥٦ .

فقد يعبر عنه بأنه حدث أو هو حادث قال تعالى : * أَتَى أَمْرُ اللَّهِ * ... فهنا لو قال التعبير عنه بلفظ المستقبل لم يكن فيه مبالغة ، أما لما وقع التعبير عنه بلفظ الماضي دل ذلك على أن جدهم واجتهادهم في تقرير الشبهه قد بلغ الغاية ...

الفائدة الثانية : أنه تعالى لما عبر عن المستقبل بلفظ الماضي دل ذلك على أنه ليس المقصود الإخبار عن صدور هذا الكلام ، بل المقصود الإخبار عن جدهم واجتهادهم في تقرير هذه الشبهة)(١).

وبين الفائدتين وإن تشابهتا فرق أدق مما عليه الفرق ، فأحدهما يفيد المبالغة في تقرير الشبهة ، والثاني الإخبار عن جدهم في تقرير الشبهة. وفي هذا تظهر قدرة الفخر على استنباط دقائق المعاني .

وقد يدل الفعل الماضي على قرب وقوع الحدث وعلى حكايته وكأنه يقع الآن . يقول في قوله تعالى : * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى بنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ *(٢) : (خرج قوله : * إِذْ قَالَ اللَّهُ * على لفظ الماضي دون المستقبل وفيه وجوه :

الأول : الدلالة على قرب القيامة حتى كأنها قد قامت ووقعت وكل آت قريب ، ويقال : الجيش قد أتى إذا قرب إتيانهم قال تعالى : * أَتَى أَمْرُ اللَّهِ *(٣).

---

(١) التفسير : ٩/٥٦ م٥.

(٢) سورة المائدة : من الآية ١١٠.

(٣) سورة النحل : من الآية ١.

الثاني : أنه ورد على حكاية الحال ونظيره قول الرجل لصاحبه كأنك بنا وقد رحلنا إلى بلدة كذا ، وصنعنا فيها كذا ، إذ صاح صائح فتركتني واجيته ، ونظيره في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ .. ﴾ (١).

وكثيراً ما يقع الماضي موقع المضارع في القرآن الكريم في أمور الآخرة لتحقق وقوعها ، وتقرير حدوثها .

وقد ذكر الفخر ذلك في مواضع من تفسيره من ذلك ما جاء في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٢) يقول : (لم قال : ﴿ وَحَاقَ ﴾ على لفظ الماضي مع أن ذلك لم يقع ؟ والجواب : قد مرّ في هذا الكتاب آيات كثيرة من هذا الجنس ، والضابط فيها أنه تعالى أخبر عن أحوال القيامة بلفظ الماضي مبالغة في التأكيد والتقرير) (٣).

ومن كلامه هذا نلاحظ أنه كان يهتم أحياناً باستقصاء الظواهر التي تتكرر دائما في كتاب الله تعالى . والتي أرى أنها تحتاج إلى دراسة مستقلة تبين أهم خصائص مثل هذه الظواهر .

وقد صرح العز بن عبد السلام بأن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي من مجاز المشابهة ، أي الاستعارة فقال : (وأما الأفعال فالتجوز فيها أنواع : أحدها : التجوز بالماضي في المستقبل تشبيهاً له في التحقيق) (٤).

---

(١) سورة سبأ : من الآية ٥١ . التفسير : ١٣٢/١٢ م٦ .

(٢) سورة هود : من الآية ٨ .

(٣) التفسير : ١٩٧/١٧ م٩ .

(٤) الإشارة إلى الإيجاز : ٢٦ - ٢٧ .

ثم يقول : (وهذا من مجاز التشبيه شبه المستقبل في تحققه وثبوته بالماضي الذي دخل في الوجود بحيث لا يمكن رفعه)[١].

ووضع المتأخرون هذا المبحث تحت خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.[٢]

وقد ظفرت بموضع واحد في التفسير - حسب استقصائي - ذكر فيه الفخر أن التعبير عن المستقبل بالماضي من المجاز ، قال عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾[٣] : (﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ معناه : ويقضى الأمر ، والتقدير : إلا أن يأتيهم الله ويقضي الأمر ، فوضع الماضي موضع المستقبل ، وهذا كثير في القرآن ، وخصوصاً في أمور الآخرة ، فإنّ الإخبار عنها يقع كثيراً بالماضي ... والسبب في اختيار هذا المجاز أمران :

أحدهما : التنبيه على قرب أمر الآخرة ، فكأن الساعة قد أتت ووقع ما يريد الله إيقاعه.

الثاني : المبالغة في تأكيد أنه لا بد من وقوعه لتجزى كل نفس بما تسعى ، فصار بحصول القطع والجزم بوقوعه كأنه قد وقع وحصل).[٤]

---

(١) الإشارة إلى الإيجاز : ٢٦ - ٢٧.

(٢) ينظر شروح التلخيص : ١/ ٤٨٤ ومابعدها.

(٣) سورة البقرة : ٢١٠.

(٤) التفسير : ٥/ ٢٣٥ م٣.

٢ - سأتناول ثانياً نظرته في المشتقات ومعانيها ، وأجده هنا يقارن في أكثر الأحوال بين المشتق والفعل في الآية الواحدة ودلالتهما على المعنى . من ذلك أنه يقارن بين دلالة الفعل ، ودلالة اسم الفاعل في قوله تعالى :
* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * (١)
يقول : (في قوله : * الَّذِينَ صَدَقُوا * بصيغة الفعل ، وقوله : * الْكَاذِبِينَ * باسم الفاعل فائدة مع أن الاختلاف في اللفظ أدل على الفصاحة ، وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه ، والفعل الماضي لا يدل عليه ، كما يقال : فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر ، وفلان نفذ أمره وفلان نافذ أمره ، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك . وإذا ثبت هذا فنقول : وقت نزول هذه الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكاليف ، وعن قوم مستديمين للكفر ، مستمرين عليه ، فقال في حق المؤمنين : * الَّذِينَ صَدَقُوا * بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق ، وقال في حق الكافر : * الْكَاذِبِينَ * بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام) (٢) .

وقد شاع في تفسير الفخر شرحه القاعدة البلاغية ودعمها بالأمثلة ثم تطبيقها على الآية الواردة فيها ، وهذه طريقة جيدة تلفت الأنظار إلى أهمية مثل هذه الدراسات البلاغية التي تكشف عن أدق خصوصيات المعاني في الآية ، مما لا يهتم به أكثر الناس، خاصة أن التفسير يجمع أشتات كثير من المعارف من نحوية ولغوية وأصولية وطبيعية وغير ذلك .

---

(١) سورة العنكبوت : من الآية ٣ .
(٢) التفسير : ٢٥/٣٠-٣١ م١٣ .

ودلالة الفعل الماضي هنا لا يدل على الحدوث في الماضي ،إنما يشير إلى حدوثه بعد إذ لم يكن .

وقد أشار إلى ذلك أيضاً في قوله تعالى : * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا * (١) .

يقول : (لم ذكر * كَفَرُوا * بلفظ الفعل و * الْمُشْرِكِينَ * باسم الفاعل ؟ والجواب تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين في أول الأمر ؛ لأنهم كانوا مصدقين بالتوراة والإنجيل ، ومقرين بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام . بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان وإنكار الحشر والقيامة)(٢) .

ويذكر الفخر أن اسم الفاعل يطلق على من رسخت فيه الصفة ، أما الفعل فيطلق على من صدر منه الفعل مرة أو أكثر .

يظهر ذلك وهو يفرق بين * يَجْزِي * و * جَازٍ * في قوله تعالى : * يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً * (٣)

يقول : (إنَّ الفعل يتأتى وإن كان ممن لا ينبغي ، ولا يكون من شأنه ، لأنَّ الملك إذا كان يخيط شيئاً يقال إنه يخيط ، ولا يقال هو خياط ، وكذلك من يحيك شيئاً ، ولا يكون ذلك صفته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك ...

---

(١) سورة البينة : من الآية ٦ .

(٢) التفسير : ٣٢ / ٤٩ م١٦ .

(٣) سورة لقمان : من الآية ٣٣ .

إذا علمت هذا فنقول : الابن من شأنه أن يكون جازياً عن والده لما له عليه من الحقوق ، والوالد يجزى لما فيه من الشفقة ، وليس بواجب عليه ذلك ، فقال في الوالد : لا يجزى ، وقال في الولد : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ ﴾ (١) .

وفرق بين الدوام والاستمرار في اسم الفاعل ، وبين ما ذكره من الدوام والاستمرار في الفعل المضارع في قوله سابقاً : (لم يقل «يقتتلون» لأن صيغة الاستقبال تنبيء عن الدوام والاستمرار) .

لأنه في الفعل المضارع يعني ثبوت التجدد واستمراره .

ويأتي الفعل المضارع ليدل على التجدد والحدوث مع اسم الفاعل الذى يدل على الاستمرار والدوام متأثراً في ذلك بعبد القاهر ، يقول في قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ (٢) : (﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أى غافلون ، وذكر اسم الفاعل ؛ لأن الغفلة دائمة ، والضحك والعجب بهما أمران يتجددان ويعدمان) (٣) .

ويجيء المصدر على وزن دون آخر للابتعاد عن التكلف الذى قد يحمله ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ (٤) : (فإن قيل : فلم لم يقل : فتقبلها ربها بتقبل حسن حتى صارت المبالغة أكمل ؟ والجواب : أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا ، إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف الطبع ، وأما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع ، فذكر

---

(١) التفسير : ٢٥/١٦٤ م١٣ .

(٢) سورة النجم : ٥٩ - ٦٠ .

(٣) التفسير : ٢٩/٢٨ م١٥ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ٣٧ .

التقبل ليفيد الجد والمبالغة ،ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع ،بل على وفق الطبع).[١]

ويذكر المصدر مفعولاً مطلقاً بعد فعله لبيان قيمة الفعل وأهميته يقول في قوله تعالى : * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثاً *[٢] : (إنه يفيد أن الفعل كان قولاً معتبراً ،ولم يكن شيئاً لا يلتفت إليه ،ويقال فيه إنه ليس بشيء ، فإذا قال القائل : ضربته ضرباً معتبراً ، يقول القائل فيه ليس بضرب محتقراً له ،كما يقال هذا ليس بشيء).[٣]

ويبين الفخر سبب مجيء * الغَفُورُ * على صيغة المبالغة دون * ذُو الرَّحْمَةِ * المعطوف عليها .

يقول في قوله تعالى : * وَرَبُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ *[٤] :
(* الغَفُورُ * البليغ المغفرة ، وهو إشارة إلى دفع المضار ،و * ذُو الرَّحْمَةِ * الموصوف بالرحمة ،وإنما ذكر لفظ المبالغة في المغفرة لا في الرحمة ،لأن المغفرة ترك الإضرار ،وهو تعالى قد ترك مضار لا نهاية لها مع كونه قادراً عليها ، أما فعل الرحمة فهو متناه ،لأن ترك ما لا نهاية له ممكن ،أما فعل ما لا نهاية له فمحال).[٥]

ومثله في مخالفة صيغة المعطوف عن المعطوف عليه ، حيث يعدل عن اسم الفاعل وذلك لتحقيق معنى في قوله تعالى : * أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن

---

(١) التفسير : ٣٠/٨ م ٤ .
(٢) سورة الواقعة : ٦ .
(٣) التفسير : ١٤٢/٢٩ م ١٥ .
(٤) سورة الكهف : من الآية ٥٨ .
(٥) التفسير : ١٤٣/٢١ م ١١ .

كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْعَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِن أَيَّامٍ أُخَرَ * [١] يقول : (لقائل أن يقول رعاية اللفظ تقتضي أن يقال : فمن كان منكم مريضاً أو مسافراً ولم يقل هكذا بل قال : * فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْعَلَى سَفَرٍ * ؟ وجوابه : أن الفرق هو أن المرض صفة قائمة بالذات ، فإن حصلت حصلت وإلا فلا ، وأما السفر فليس كذلك ؛ لأن الانسان إذا نزل في منزل فإن عدم الإقامة كان سكونه هناك إقامة لا سفراً ، وإن عدم السفر كان هو في ذلك الكون مسافراً ، فإذن كونه مسافراً أمر يتعلق بقصده واختياره ، فقوله : * عَلَى سَفَرٍ * معناه كونه على قصد السفر) [٢].

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٨٤ .

(٢) التفسير : ٥/ ٨١ م٣ .

التعريف

عنى الفخر الرازي بالملاحظات البلاغية حول التعريف وأنواعه ، فقد تحدث عن التعريف بأل وما تفيده ، وعن التعريف بالإضافة ومعانيها ، وله إشارات بسيطة عن الاسم الموصول واسم الإشارة .

التعريف بأل :

تعرض الفخر (لأل) حين تدخل على الاسم مفرداً أو جمعاً ، وذكر ما تدل عليه ، فقد تدل على المعهود السابق ، ويتكرر هذا في مواضع كثيرة من التفسير ، يقول في قوله تعالى : * ... مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * (١) : (إن المراد منه القرآن ، وهو الأظهر ، لأن الألف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق ، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن ، فوجب أن يكون المراد من الكتاب في هذه الآية القرآن) (٢) .

وقد تدخل على المفرد وتفيد حصول فرد من الجنس ، يقول في قوله تعالى : * مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * (٣) الحسنة لفظة مفردة معرفة ، وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفي في تحققها حصول فرد ، وإذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأناً وأعلاها درجة وهو الإيمان) (٤) .

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ٣٨ .

(٢) التفسير : ٢٢٦/١٢ م٦ .

(٣) سورة النمل : ٨٩ .

(٤) التفسير : ٢٢/٢٤ م ١٢ .

وتأتي اللام مع الجمع ويُراد بها الاستغراق مبالغة في المعنى .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (١) : (الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة ، يعني تظنون كل ظن ،لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً) (٢) .

فـ(أل) عند الفخر إذا دخلت على الجمع أفادت استغراق كل أفراده .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (٣) : (واعلم أن المرأة لا تكون صالحة إلا إذا كانت مطيعة لزوجها ،لأن الله تعالى قال : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ ﴾ والألف واللام في الجمع يفيد الاستغراق ،فهذا يقتضي أن كل امرأة تكون صالحة ،فهي لا بد وأن تكون قانتة مطيعة) (٤) .

وتدخل (أل) على المفرد فتفيد الاستغراق أيضاً .

يقول في قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٥) : (إن الألف واللام في لفظ المعروف ولفظ المنكر يفيدان الاستغراق وهذا يقتضي كونهم آمرين بكل معروف ،وناهين عن كل منكر ،ومتى كانوا كذلك كان إجماعهم حقاً وصدقاً لا محالة له فكان حجة) (٦) .

---

(١) سورة الأحزاب : من الآية ١٠ .

(٢) التفسير : ١٩٩/٢٥ م١٣ .

(٣) سورة النساء : من الآية ٣٤ .

(٤) التفسير : ١٠/ ٩١ - ٩٢ م٥ .

(٥) سورة آل عمران : من الآية ١١٠ .

(٦) التفسير : ١٩٥/٨ م٤ .

فالفخر يرى أن (أل) تفيد الاستغراق سواء دخلت على المفرد أو الجمع .

ومذهب الفخر هنا يخالف ما ذهب إليه في كتابه المحصول ،فقد ذكر أن الجمع المعرف بلام الجنس إذا لم يكن للمعهود فهو للاستغراق ، أما الواحد المعرف بلام الجنس فلا يفيد العموم ، ثم دعم أقواله بأدلة منطقية أصولية. (١)

واعترض الزركشي على رأى الفخر هذا ،وهو يتحدث عن (أل) الاستغراقية وقال : إن أثرها يظهر في الاستثناء منه ،مع كونه بلفظ المفرد نحو : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ثم يقول : (خلافاً للإمام فخر الدين ومن تبعه في قولهم إن المفرد المحلى بالألف واللام لا يعم ولنا الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ أَوِالطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا ﴾ . (٢)

ومثل هذه المناقشات الأصولية عند الفخر لا جدوى منها في الدراسة البلاغية التذوقية.

إلا أنه تطرق (لأل) وهي تحمل معاني بلاغية ،من ذلك أن لام الجنس تفيد معنى الكمال في الصفة ،يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) : (أى هم الكاملون في الظلم البالغون المبلغ العظيم فيه كما يقال العلماء هم المتكلمون ، أى هم الكاملون في العلم ،فكذا ههنا). (٤)

---

(١) ينظر المحصول في علم أصول الفقه : ١/٥٨٤ - ٥٩٩ القسم التحقيقي .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٤/٨٩ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٥٤ .

(٤) التفسير : ٦/٢٢٤ م٣ .

وقد يعرف الظاهر المعلوم الذى لا ينبغي أن ينكر كما في قولـه تعالى : ﴿ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ (١) : (عرفوا الذكر ولم يقولوا ألقي عليه ذكر ؛ وذلك لأن الله تعالى حكى إنكارهم لِمَا لا ينبغي أن يُنكر ، فقال : أنكروا الذكر الظاهر المبين الذى لا ينبغي أن ينكر، فهو كقول القائل : أنكروا المعلوم). (٢)

ومثله في التعريف لظهوره قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (٣) يقول : (قوله : ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ آكد من قول القائل الذى أوحينا إليك حق من وجهين :

أحدهما : ان تعريف الخبر يدل على أن الأمر في غاية الظهور ؛ لأن الخبر في الأكثر يكون نكرة ، لأن الأخبار في الغالب تكون إعلاماً بثبوت أمر لا معرفة للسامع به لأمر يعرفه السامع ، كقولنا : (زيد قام) فإن السامع ينبغي أن يكون عارفاً بزيد ، ولا يعلم قيامه فيخبر به ، فإذا كان الخبر أيضاً معلوماً ، فيكون الإخبار للتنبيه ، فيعرفان باللام ، كقولنا : زيد العالم في هذه المدينة ، إذا كان علمه مشهوراً). (٤)

ولم يذكر الوجه الثاني وأظن أنه قد سها عنه .

ويرى الفخر أن تعريف الطرفين قد يكون لقصد الحصر وكمال الصفة كما ذكر في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٥)

---

(١) سورة القمر : ٢٥ .

(٢) التفسير : ١٣٢/١٣ م٧ .

(٣) سورة فاطر : من الآية ٣١ .

(٤) التفسير : ٢٣/٢٦ م١٣ .

(٥) سورة الجاثية : ٣٧ .

: (﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ يفيد الحصر فهذا يفيد أن الكامل في القدرة وفي الحكمة وفي الرحمة ليس إلا هو ، وهذا يدل على أنه لا إله للخلق إلا هو..)[١]

ومثله قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٢] يقول في : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ : (يفيد الحصر فما معنى هذا الحصر مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين؟ فنقول : السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال)[٣].

وقد ذكر المتأخرون[٤] أن تعريف الطرفين إما أن يفيد القصر على وجه الحقيقة ، أو يفيده على وجه المبالغة لكماله فيه.

والفخر هنا جمع بين الاثنين فتعريف الطرفين أفاد القصر والكمال في الصفة حين لاحظ أن لا وجه للقصر الحقيقي.

وهذا ما ذكره عبد القاهر عند حديثه عن تعريف الطرفين ، فهو يفيد القصر والكمال في الصفة.

يقول : (أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة، وذلك قولك " زيد هو الجواد " و " عمرو هو الشجاع " تريد أنه الكامل)[٥].

ويبدو تأثره بعبد القاهر في هذه المسألة واضحاً.

---

(١) التفسير : ٢٧/٢٧٦ م١٤.

(٢) سورة الشورى : من الآية ١١.

(٣) التفسير : ٢٧/١٥٠ م١٤.

(٤) ينظر شروح التلخيص : ١٠٠ ، المطول : ١٧٧.

(٥) دلائل الإعجاز : ١٧٩.

التعريف بالموصولية :

ويأتي الاسم الموصول للإشارة إلى ما يجرى مجرى المعلوم وإن لم يكن معلوماً ، كتنزول القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لقوة ظهوره ، يقول في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾(١) : (قال أهل اللغة : كلمة الذى موضوعه للإشارة إلى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة ، وعند هذا يتوجه الإشكال ، وهو أن القوم ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذى نزل الفرقان ، فكيف حسن ههنا لفظ الذى ؟ وجوابه : أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزاً ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله فلقوة الدليل وظهوره ، أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم)(٢).

ويعدل القرآن الكريم إلى (مَنْ) دون (مَا) لاختصاص العقلاء بالتخويف ، يقول في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾(٣) : (مَنْ للعقلاء ، وكل ما على وجه الأرض مع الأرض فان ، فما فائدة الاختصاص بالعقلاء ؟ نقول : المنتفع بالتخويف هو العاقل فخصه تعالى بالذكر)(٤).

ويعدل إلى (مَا) دون (مَنْ) ، لأن الغلبة فيه حاصلة لغير العقلاء ، يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾(٥) : (وإنما جاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة " ما " ، لأن الغلبة لما حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة " ما " فيه ، لأن العبرة بالأغلب أيضاً ، ويدخل فيه شرور الأطعمة الممرضة ، وشرور الماء)(٦).

---

(١) سورة الفرقان : ١.

(٢) التفسير : ٢٤/ ٤٥ م١٢.

(٣) سورة الرحمن : ٢٦.

(٤) التفسير : ٢٩/ ١٠٥ م١٥.

(٥) سورة الفلق : ١ - ٢.

(٦) التفسير : ٣٢/ ١٩٢ م١٦.

وتأتي (مَا) في موضع (مَنْ) للدلالة على قدرته تعالى وقهره وتسخيره حتى كأن كل المخلوقات جمادات لا قدرة لها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) : (... لم يقل ومن فيهن فغلب غير العقلاء على العقلاء ، والسبب فيه التنبيه على أن كل المخلوقات مسخرون في قبضة قهره ، وقدرته وقضائه وقدره ، وهم في ذلك التسخير كالجمادات التي لا قدرة لها ، وكالبهائم التي لا عقل لها .) (٢) ويرجح الزمخشري سبب العدول إلى أن (ما) تتناول الأجناس كلها تناولاً عاماً ، وضرب على ذلك مثلاً فقال : إنك إذا رأيت شبحاً من بعيد فإنك قبل أن تعرف أعاقل هو أم غير عاقل تقول ما هو ؟ فكانت (ما) أولى بإرادة العموم. (٣)

وما قاله الزمخشري بعيد عن السر البلاغي ، وأرى الفخر هنا أكثر إدراكاً للمعنى البلاغي ووصولاً لسره .

---

(١) سورة المائدة : ١٢٠ .

(٢) التفسير : ١٢/١٤٧ م٦ .

(٣) ينظر الكشاف : ١/٦٥٨ .

التعريف بالإضافة :

تأتي الإضافة فتفيد ما لا يفيده غيرها من ألوان التعبير، فإضافة المكان إلى ما يقع فيه يفيد اختصاصه بهذا الشيء، أي اختصاص المضاف إليه بالمضاف .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾[(١)] : (إضافة الجنة إلى النعيم من أي الأنواع ؟ نقول : إضافة المكان إلى ما يقع في المكان . يقال : دار الضيافة، ودار الدعوة، ودار العدل، فكذلك جنة النعيم، وفائدتها أن الجنة في الدنيا قد تكون للنعم، وقد تكون للاشتغال والتعيش بأثمان ثمارها، بخلاف الجنة في الآخرة فإنها للنعيم لا غير)[(٢)] .

وتضاف الأقوات إلى الأرض فتفيد اختصاصها بهذا النوع من الأقوات، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾[(٣)] : (إنَّ المراد من إضافة الأقوات إلى الأرض كونها متولدة من تلك الأرض وحادثة فيها، لأنَّ النحويين قالوا يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فالشيء قد يضاف إلى فاعله، وتارة إلى محلة أخرى ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ : أي قدر الأقوات التي يختص حدوثها بها، وذلك لأنه تعالى جعل كل بلدة معدناً لنوع آخر من الأشياء المطلوبة، حتى إنَّ أهل هذه البلدة يحتاجون إلى الأشياء المتولدة في تلك البلدة وبالعكس)[(٤)] وقوله : (لأنَّ النحويين قالوا ..) دلالة على أن كلام النحاة

---

(١) سورة الواقعة : ١١-١٢ .

(٢) التفسير : ١٤٨/٢٩ م١٥

(٣) سورة فصلت : ١٠ .

(٤) التفسير : ١٠٤/٢٧ م١٤ .

هو المدخل لبيان أسرار الكلام .

وقد تدل الإضافة على الكمال في الصفة .

يقول في قوله تعالى : * غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ *(١) : (قوله ههنا * غُفْرَانَكَ * يعني أطلب الغفران منك وأنت الكامل في هذه الصفة ، والمطموع من الكامل في صفة أن يعطى عطية كاملة ، فقوله * غُفْرَانَكَ * طلب لغفران كامل ، وما ذاك إلا بأن يغفر جميع الذنوب بفضله ورحمته ، ويبدلها بالحسنات كما قال * فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ *)(٢) .

وتدخل الجنة على الخلد فتفيد الكمال في صفتها بالخلد ، أو تفيد تميزها عن غيرها من الجنات .

يقول في قوله تعالى : * قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً *(٣) : (فإن قيل : الجنة اسم لدار الثواب ، وهي مخلدة ، فأى فائدة في قوله * جَنَّةُ الْخُلْدِ * ؟ قلنا : الإضافة قد تكون للتمييز ، وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال : الله الخالق البارى)(٤) .

وتفيد الإضافة معاني معروفة وشائعة عند المفسرين والبلاغيين كأن تفيد المدح والتعظيم .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨٥ .

(٢) التفسير : ٧/ ١٤٩ م٤ .
سورة الفرقان : من الآية ٧٠ .

(٣) سورة الفرقان : ١٥ .

(٤) التفسير : ٢٤/ ٥٨ م١٢ .

يقول في قوله تعالى حين تأتي للمدح : (قال تعالى : * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا * [١] : (ومعنى إضافة المدخل والمخرج إلى الصدق مدحهما ، كأنه سأل الله تعالى إدخالا حسناً وإخراجاً حسناً لا يرى فيهما ما يكره) [٢].

وتأتي للتعظيم والتشريف يقول في قوله تعالى : * بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * [٣] : (قوله : * رَبِّهِمْ * يفيد تعظيماً للملائكة وتحقيراً للعصاة، كأنه تعالى قال : كانوا لي فكنت لهم) [٤].

ويقول في قوله تعالى : * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ * [٥] : (قوله : * وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ * إضافة الروح إلى نفسه كإضافة البيت إليه للتشريف) [٦] ، وغير ذلك من الأسرار المنتشرة في التفسير كله.

---

(١) سورة الإسراء : ٨٠ .

(٢) التفسير : ٣٤/٢ م١١ .

(٣) سورة القدر : ٥ .

(٤) التفسير : ٣٥/٣٢ م١٦ .

(٥) سورة السجدة : من الآية ٩ .

(٦) التفسير : ١٧٥/٢٥ م١٣ .

التنكيـــــــــــر

كما اهتم الفخر الرازى بالتعريف في الكلمة القرآنية ،اهتم كذلك بمعانيها حين تكون نكرة ،وما تفيده من معنى أو معانى متعددة.

فالنكرة تفيد في الأصل الجنسية والوحدة ،وكان الفخر يحيل إليهما أحياناً معنى التنكير في الآية.

من ذلك أنه يقول في قوله تعالى : * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ * (١) : (وتنكير الحظ في الآية يدل على أن المراد به حظ واحد ،وهو الذى ذكرناه من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم) (٢).

ومثلها تنكير * حَسَنَة * للدلالة على أنها حسنة واحدة يقول في قوله تعالى : * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * (٣) : (لما ذكر على سبيل التنكير فقال : أعطنى في الدنيا حسنة كان المراد منه حسنة واحدة ،وهي الحسنة التي تكون موافقة لقضائه وقدره ورضاه وحكمته ،فكان ذلك أقرب إلى رعاية الأدب والمحافظة على أصول اليقين) (٤).

---

(١) سورة المائدة : من الآية ١٤.

(٢) التفسير : ١٩٣/١١ م٦.

(٣) سورة البقرة : ٢٠١.

(٤) التفسير : ٢٠٥/٥ م٣.

وقد حمل الزمخشري معنى التنكير في (حظ) على الكمال فقال :

(تركوا نصيبا جزيلاً وقسطاً وافياً) .(١)

كذلك الألوسي رأى أن تنكير (حسنة) يفيد الكمال يقول : (وإن كانت نكرة في الإثبات وهي لا تعم إلا أنها مطلقة فتنصرف إلى الكامل، والحسنة الكاملة في الدنيا ما يشمل جميع حسناتها)(٢) وهذا القول أدل على معنى الآية مما قاله الفخر .

ولا يقال إن دلالة النكرة على المفرد أمر لغوى يخرجها من باب البلاغة ، لأنه قد ينشأ عن الإفراد غرض آخر يناسب المقام يتضح عند الاستعمال .(٣)

وللتهويل أثره في معرض الوعيد والتهديد ، فمن شأنه مضاعفة عناصره لذلك يقول في تنكير (الويل) في قوله تعالى : * وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ *(٤) : (وههنا نُكر لأنه لا يعلم كنهه إلا الله) .(٥)

وقد يجمع الفخر بين دلالة التعظيم ودلالة التكثير ، فيجعل النكرة تفيدهما معا يقول في تنكير (فاكهة) في قوله تعالى : * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ *(٦) : (التنكير للتكثير أى كثيره ، كما يقال لفلان مال أى عظيم ، وقد ذكرنا وجه دلالة التنكير على التعظيم ، وهو أن القائل كأنه يشير إلى أنه عظيم لا يحيط به معرفة كل واحد ، فتنكيره إشارة إلى أنه خارج عن أن يعرف كنهه) .(٧)

---

(١) الكشاف : ١/٦٠٠ .

(٢) روح المعاني : ٢/٩١ .

(٣) ينظر مواهب الفتاح ، لابن يعقوب المغربي : ١/٣٤٨ (ضمن شروح التلخيص) .

(٤) سورة الهمزة : ١ .

(٥) التفسير : ٣٢/٩١ م١٦ .

(٦) سورة الرحمن : ١١ .

(٧) التفسير : ٢٩/٩٣-٩٤ م١٥ .

وقد جمع السكاكي بعده بين هذين المعنيين في دلالة النكرة الواحدة فتنكير * رُسُلٌ * في قوله تعالى : * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ * (١) يفيد التعظيم والتكثير يقول : (المعنى رسل أى رسل ذووعدد كثير ، وأولوآيات ونذر ، وأهل أعمار طوال ، وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك) (٢).

ويفرق التفتازاني بين التعظيم والتكثير : (فالتعظيم بحسب ارتفاع الشأن وعلو الطبقة ، والتكثير بحسب اعتبار الكمية تحقيقاً أو تقديراً كما في المعدودات والموزونات والمشبهات بهما) (٣).

ويفيد التنكير معنى الكمال ، أى أن المعنى بلغ الغاية حتى وصل إلى درجة الكمال ، وقد ذكر الفخر كثيراً من الآيات في هذا المعنى اذكر بعضاً منها .

(فالعذاب) ينكر للدلالة على كماله وشدته ، يقول في قوله تعالى : * إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً * (٤) : (التنكير في قوله : * وَعَذَاباً * يدل على أن هذا العذاب أشد مما تقدم وأكمل) (٥).

وينكر * عَبْداً * للدلالة على كماله في العبودية ، يقول في قوله تعالى : * أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى * (٦) : (إنَّ التنكير في * عَبْداً * يدل على كونه كاملاً في العبودية ، كأنه قال : إنه عبد لا يفي العالم بشرح بيانه ، ووصف إخلاصه في العبودية) (٧).

---

(١) سورة فاطر : ٤ .

(٢) المفتاح : ٨٤ .

(٣) المطول : ٨٩ .

(٤) سورة المزمل : ١٢-١٣ .

(٥) التفسير : ٣٠/ ١٨١ م١٥ .

(٦) سورة العلق : ٩-١٠ .

(٧) التفسير : ٣٢/ ٢٠-٢١ م١٦ .

وينكر (المقام المحمود) للدلالة على كماله في الرفعة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ (١) : (والتنكير في قوله : ﴿ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ يدل على أنه يحصل للنبي عليه السلام في ذلك المقام حمد بالغ عظيم كامل) (٢) .

ويأتي التنكير للكمال والتمام كذلك في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (٣) : (إن قوله ﴿ صَبْراً ﴾ مذكور بصيغة التنكير ، وذلك يدل على الكمال والتمام ، أى صبراً كاملاً تاماً كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ (٤) أى حياة كاملة تامة) (٥) .

ويرى الزمخشرى أن معنى تنكير صبراً : (أى هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا) (٦) .

وأما تنكير حياة فيعني بها : (حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة) (٧) وهذه الآية من الشواهد البلاغية عند عبد القاهر (٨) وغيره من البلاغيين والزمخشرى أخذ منه هذا المعنى الذى ذكره ، ثم شاع في كتب المفسرين والبلاغيين .

لكن الفخر يجمع بينها وبين آية : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً ﴾ في دلالتهما على معنى الكمال .

---

(١) سورة الإسراء : ٧٩ .

(٢) التفسير : ٢١/٣٢ م ١١ .

(٣) سورة الأعراف : من الآية ١٢٦ .

(٤) سورة البقرة : من الآية ٩٦ .

(٥) التفسير : ٢١٨/١٤ م٧ .

(٦) الكشاف : ١٠٤/١ .

(٧) الكشاف : ٢٩٨/٢ .

(٨) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٨٨ .

وإذا عدنا إلى فقه المعنى نجد توافقاً وتقارباً بين ما قاله الفخر وما قاله الزمخشري في تنكير (صبراً) ، فالصبر التام الكامل هو صبر واسع. وهذا الاختلاف في المعاني عند البلاغيين لا يعني خطأ أحد منهم ،لأن كل عالم يفهم من النص ما لا يفهمه غيره ،وعلى كل حال فللرازي شخصيته المتميزة التي من خصائصها الفهم الواعي المتذوق .

كذلك تفيد النكرة التعظيم في آيات كثيرة ، ذكرها الفخر في تفسيره فتنكير (الروح) تدل على عظمتها ومنزلتها العالية في قوله تعالى : * إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ *(١) يقول : (أدخل التنكير في لفظ روح وذلك يفيد التعظيم ،فكأن المعنى روح من الأرواح الشريفة أو القدسية العالية)(٢) .

وتنكر (الآية) التي تأتي من الله لعظمتها ،يقول في قوله تعالى : * وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ *(٣) : (والتنكير في الآية للتعظيم ،أي إن يروا آية قوية أو عظيمة يعرضوا)(٤) .

ويتكرر هذا في مواضع كثيرة ،فالتنكير في (صَرْصَر) يفيد التعظيم في قوله تعالى : * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ *(٥) وكذلك تنكير الأعناب في قوله تعالى : * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً *(٦) وغيره كثير .

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٧١ .

(٢) التفسير : ١١/١١٨ م٦ .

(٣) سورة القمر : ٢ .

(٤) التفسير : ٢٩/ ٣١ م١٥ .

(٥) سورة القمر : ١٩ .التفسير : ٢٩/ ٤٧ م١٥ .

(٦) سورة النبأ : ٣٢ . التفسير : ٣١/ ٢١ م١٦ .

وتأتي النكرة لتفيد معنى التكثير كما في قوله تعالى : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١) يقول : (أي هذا وقت الحسرة فاحضري يا حسرة ، والتنكير للتكثير) (٢) .

وكما تأتي النكرة للتكثير تأتي كذلك للتقليل .

يقول في قوله تعالى : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ معلومات ﴾ (٣) : (أشهر جمع تقليل على سبيل التنكير ، فلا يتناول الكل وإنما أكثره إلى عشرة ، وأدناه ثلاثة ، وعند التنكير ينصرف إلى الأدنى ، فثبت أن المراد أن أشهر الحج ثلاثة) (٤) . فالتقليل يفهم من النكرة ومن جمع القلة معاً .

ويأتي التنكير ليفيد التحقير وقلة الشأن في قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (٥) يقول : (نكروه حيث قالوا : ﴿ أبشراً ﴾ ولم يقولوا : أنتبع صالحاً ، أو الرجل المدعي النبوة أو غير ذلك من المعرفات والتنكير تحقير) (٦) .

وقد يرى الفخر أن النكرة في الآية تحتمل أكثر من وجه ، وأحياناً كان يرجح وجهاً على وجه ، من ذلك أن التنكير يفيد التهويل تارة والتحقير تارة أخرى ، وفي هذا تظهر قدرته على تقليب معاني النص القرآني الواحد .

---

(١) سورة يس : ٣٠ .
(٢) التفسير : ٢٦/٦٢ م١٣ .
(٣) سورة البقرة : من الآية ١٩٧ .
(٤) التفسير : ٥/١٧٤ م٣ .
(٥) سورة القمر : ٢٤ .
(٦) التفسير : ٢٩/٥٠ م١٥ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالعَصْرِ إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ (١) :

(إنما قال ﴿ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ولم يقل : لفي الخسر ،لأن التنكير يفيد التهويل تارة والتحقير تارة أخرى ،فإن حملنا على الأول كان المعنى أن الإنسان لفي خسر عظيم ،لا يعلم كنهه إلا الله ،وتقريره أن الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب ،أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة ... وإن حملنا على الثاني كان المعنى أن خسران الإنسان دون خسران الشيطان) (٢).

وقد تحتمل النكرة التحقير والتفخيم يقول في قوله تعالى :
﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ (٣) : (لم قال : ﴿ طَيْرًا ﴾ على التنكير ؟ والجواب : أما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم كأنه يقول طيراً وأى طير ترمي بحجارة صغيرة) (٤).

ومثله في إفادة التحقير والتعظيم قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ (٥) : (قوله : ﴿ مَالاً ﴾ التنكير فيه يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يقال المال اسم لكل ما في الدنيا كما قال : ﴿ المَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فمال الإنسان الواحد بالنسبة إلى مال كل الدنيا حقير ،فكيف يليق به أن يفتخر بذلك القليل .

والثاني : أن يكون المراد منه التعظيم أى مال بلغ في الخبث والفساد أقصى الغايات ،فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به ؟) (٦).

---

(١) سورة العصر : ١-٢ .
(٢) التفسير : ٣٢/٨٧ م١٦ .
(٣) سورة الفيل : ٣ .
(٤) التفسير : ٣٢/٩٩ م١٦ .
(٥) سورة الهمزة : ٢ .
(٦) التفسير : ٣٢/٩٢-٩٣ م١٦ .

وقد تنكر (النفس) للاختصاص أو للتكثير في قوله تعالى :

* وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * [1] يقول : (فإن قيل لم نكرت نفس ؟ قلنا فيه وجهان :

أحدهما : أن يريد به نفساً خاصة من بين النفوس وهي النفس القدسية النبوية...

الثاني : أن يريد كل نفس ، ويكون المراد من التنكير التكثير على الوجه المذكور في قوله : * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ *. [2]

وفي كلام الفخر تناقض حيث قال : (يريد كل نفس) ، ثم قال : (المراد من التنكير التكثير) لأن (كل) تفيد العموم لا التكثير فقط ، ونفس في قوله تعالى : * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ * تفيد العموم لا التكثير أيضاً .

وأرى أن التنكير في : * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * تعظيم وتفخيم لجنس النفس التي خلقها الله ، وهذا يناسب الأوصاف التي بعدها .

وقد شاعت هذه المعاني التي تفيد النكرة في كل تفسيره كما شاعت في كتب متأخرى علماء البلاغة .

على أن له نظرات أخرى تنبئ عن قدرته المتفردة على استنباط المعاني الخفية في النكرة . فقد تذكر النكرة مرتين في آية واحدة ، فتخفى وراءها سراً لا يظهر .

---

(١) سورة الشمس : ٧ .

(٢) سورة التكوير : ١٤ . التفسير : ١٩٣/٣١ م١٦ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (١) : (فإن قيل : لم نكر القتال في قوله تعالى : ﴿ قِتَالٌ فِيهِ ﴾ ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجيء باللام حتى يكون المذكور الثاني هو الأول ، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثاني غير الأول كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ .
قلنا : نعم ما ذكرتم أن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد بالثاني إذن غير الأول ، والقوم أرادوا بقولهم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ ذلك القتال المعين الذى أقدم عليه عبد الله بن جحش فقال تعالى : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وفيه تنبيه على أن القتال الذى يكون كبيراً ليس هو هذا القتال الذى سألتم عنه ، بل هو قتال آخر ، لأن هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام ، وإذلال الكفر ، فكيف يكون هذا من الكبائر ، واختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة ، إلا أنه تعالى ما صرح بهذا الكلام لئلا تضيق قلوبهم ، بل أبهم الكلام بحيث يكون ظاهره كالموهم لما أرادوه ، وباطنه يكون موافقاً للحق ، وهذا إنما حصل بأن ذكر هذين اللفظين على سبيل التنكير ، ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ التعريف لبطلت هذه الفائدة الجليلة) (٢) .

فالنكرة الأولى يقصد بها القتال الذى عز به الاسلام ، والنكرة الثانية قصد بها القتال الذى يكون كبيراً وفيه معصية لله ، فبالتنكير تميزت الأولى عن الثانية .

وقول الفخر : (واختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة ، إلا أنه تعالى ما صرح بهذا الكلام لئلا تضيق قلوبهم) بيان لقيمة النكرة في أداء المعنى .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢١٧ .

(٢) التفسير : ٦/ ٣٢-٣٣ م ٣ .

وقد نظّر لها بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ لأن اليسر الثاني غير الأول ، بإتفاق أكثر العلماء كالفراء والزجاج وقبلهما قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لن يغلب عسر يسرين " وقول ابن عباس (١) رضي الله عنه .

وقد ذكر ابن السبكي أن قتال الثانية هي الأولى : (إلا أن يقال أحدهما محكي من كلام السائل ، والثاني محكي من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما الكلام في وقوعهما من متكلم واحد) (٢) والمناسب لمعنى الآية ما رآه الفخر .

وتأتي النكرة مفردة ويُراد بها الجمع اختصاراً للمعنى واشتهاراً له يقول في قوله تعالى : ﴿ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (٣) : (فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَعِدَّةٌ ﴾ على التنكير ، ولم يقل فعدتها أي فعدة الأيام المعدودات ؟ قلنا : لأنا بينا أن العدة بمعنى المعدود ، فأمر بأن يصوم أياماً معدودة مكانها ، والظاهر أنه لا يأتي إلا بمثل ذلك العدد فأغنى ذلك عن التعريف بالإضافة) (٤) .

ويبين الفخر قيمة النكرة في الكلام في موضع آخر ، وأن لها أثراً في تغيير مفهوم الآية فليس هناك ما يؤدي معناها ، وفي هذا التنكير أداء للمعنى ولد قائقه .

---

(١) ينظر التفسير : ٦/٣٢ م١٦ .

(٢) شروح التلخيص (عروس الأفراح) : ٣٥٧/١ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ١٨٤ .

(٤) التفسير : ٨٢/٥ م٣ .

فتنكير (الشيء) في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾(١)
يدل على أن العفو عن الجزء كالعفو عن كله في سقوط الدم يقول : (إنّ تنكير الشيء يفيد فائدة عظيمة ؛ لأنه يجوز أن يتوهم أن العفو لا يؤثر في سقوط القود إلا أن يكون عفواً عن جميعه ، فبين تعالى أن العفو عن جزئه كالعفو عن كله في سقوط القود ، وعفو بعض الأولياء من حقه كعفو جميعهم عن حقهم ، فلو عرف الشيء كان لا يفهم منه ذلك ، فلما نكّره صار هذا المعنى مفهوماً منه)(٢).

وهكذا حرص الفخر على بيان قيمة النكرة في أداء المعنى ، والمعاني التي أفادتها في سياقها .

ويخالف المرحوم أحمد أحمد بدوي هذا الكلام ، فقد ذكر أن ما يذكره علماء البلاغة من معانٍ للتنكير ، لم تفهم من طبيعة النكرة بل من السياق ، يقول : (... ما يذكره علماء البلاغة من معانٍ استيفدت من النكرة ، فإنها لم تفدها بطبيعتها ، وإنما استفادتها من المقام الذى وردت فيه ، فكأنما المقام هو الذى يصف النكرة ، ويحدد معناها)(٣).

أقول : صحيح أن المقام أو السياق هو الذى يبرز معنى النكرة ويكشفه ، لكن دون إلغاء لخصوصية النكرة ؛ لأن ذلك يعني إهمال الخصوصيات البلاغية في سائر أبواب البلاغة ، فيكون التعريف كالتنكير ، والذكر كالحذف والتقديم كالتأخير .

ويذكر المرحوم أحمد بدوي أدلة تؤيد قوله فيقول في قوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٧٨ .

(٢) التفسير : ٥٨/٥ م٣ .

(٣) من بلاغة القرآن : ١٢٨ .

* فإن لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ * (١) : (فكلمة * حرب * منكره لا تدل على أكثر من حقيقتها ، وإذا كان ثمة تعظيم لهذه الحروب فمنشوء ه وصفها بأنها من الله ورسوله ، وأنّ حرباً يثيرها الله جديرة أن تبعث في النفس أشد ألوان الفزع والرعب) (٢) .

وقد كان علماء البلاغة يعرفون خصوصيات النكرة بمقارنتها بغيرها من أحوال اللفظ الأخرى كالتعريف ، ثم يتبينون ما يفقده السياق حين تلغى هذه الخصوصية ، ثم ما يحمله من معاني أن اعتبر في الكلام .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٧٩ .

(٢) من بلاغة القرآن : ١٢٩ .

التعريف والتنكير :

للفخر الرازي نظرات دقيقة ، يقارن فيها بين التعريف والتنكير في آية واحدة أو في آيتين متشابهتين ، فيبين سبب مجيء التعريف والتنكير ، وما وراء كل كلمة من معنى ، له أثر في السياق الواردة فيه ، ويشع ذلك في كل تفسيره.

من ذلك أنه يبين سبب تنكير الأناث وتعريف الذكور في قوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (١) : (إنه ذكر الإناث على سبيل التنكير ... وذكر الذكور بلفظ التعريف ... فما السبب في هذا الفرق ؟ فجوابه : أن المقصود منه التنبيه على كون الذكر أفضل من الأنثى) (٢).

فترك التعريف عن (إناث) في الآية تنبيه على تأخير مكانتها.

ويذكر الزمخشري أن الذكور عرفوا لشهرتهم والتنويه بهم (٣).

ويذكر النيسابوري أن التعريف جاء لاستدراك تأخيرهم في الآية ، وفيه رعاية للفاصلة وتنويه وتشهير بهم ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام (٤). وفرق بين الشهرة عند الزمخشري والأفضلية عند الفخر ، لأن الشهرة لا تلزم وجود فاضل ومفضول.

وتأتي الكلمة الواحدة منكرة مرة ، ومعرفة أخرى في آية واحدة ، فيكشف الفخر عن أكثر من سر لهما ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ (٥) : (وفي تعريف الخلق الأول وتنكير

---

(١) سورة الشورى : من الآية ٤٩.

(٢) التفسير : ٢٧/١٨٥-١٨٦ م١٤.

(٣) ينظر الكشاف : ٣/٤٧٥.

(٤) ينظر غرائب القرآن : ٢٥/٣٧.

(٥) سورة ق : ١٥.

خلق جديد وجهان :

أحدهما : ما عليه الأمران ؛لأن الأول عرفه كل واحد ،وعلم لنفسه ، والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ،ولم يعرفه كل واحد ؛ولأن الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد .

الوجه الثاني : أن ذلك لبيان إنكارهم للخلق الثاني من كل وجه ، كأنهم قالوا : أيكون لنا خلق ما على وجه الإنكار له بالكلية) .(١)

وتنكر الكلمة بين معارف في آيات متتالية لشهرتها كما في قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾.(٢) يقول : (ما الحكمة في تنكير الكتاب ،وتعريف باقي الأشياء ؟ نقول : ما يحتمل الخفاء من الأمور الملتبسة بأمثالها من الأجناس يعرف باللام ،فيقال : رأيت الأمير ، دخلت على الوزير ، فإذا بلغ الأمير الشهرة بحيث يؤمن من الالتباس مع شهرته ،ويريد الواصف وصفه بالعظمة يقول : اليوم رأيت أميراً ما له نظير جالساً وعليه سيما الملوك ،وأنت تريد ذلك الأمير المعلوم ،والسبب فيه أنك بالتنكير تشير إلى أنه خرج عن أن يعلم ويعرف بكنه عظمته ،فيكون كقوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ فاللام وان كانت معرفة لكن أخرجها عن المعرفة كون شدة هولها غير معروف فكذلك ههنا ،والطور ليس في الشهرة بحيث يؤمن من اللبس عند التنكير ،وكذلك البيت المعمور ، وأما الكتاب الكريم فقد تميز عن سائر الكتب بحيث لا يسبق إلى أفهام السامعين من النبي صلى الله عليه وسلم ولفظ الكتاب إلا ذلك ، فلما أمن اللبس وحصلت فائدة

---

(١) التفسير : ٢٨/١٦٢ م١٤ .

(٢) سورة الطور : ١-٥ .

التعريف سواء ذكر باللام أو لم يذكر قصداً للفائدة الأخرى وهي في تلك الأشياء لما لم تحصل فائدة التعريف إلا بآلة التعريف استعملها).[١]

والنص على طوله يحمل فائدة جديدة ذكرها الفخر وهي أن التعريف قد يفيد ما يفيده التنكير ،والتنكير يفيد ما يفيده التعرف، وذلك إن أمن اللبس، فينكر المعلوم لشهرته ،ويعرف المنكر لعظمته ،فلما كان الكتاب لا يخفى حسن تنكيره.

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن تنكير كتاب لاختصاصه من بين جنس الكتب[٢] وما ذهب اليه الفخر أنسب لسياق الكلام.

ويفرق بين (الريح) منكرة و معرفة في آيتي ذكر عذاب قوم عاد في سورتين مختلفتين .

يقول : (قال تعالى ههنا : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً ﴾[٣] وقال في الذاريات : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾[٤] فعرف الريح هناك ونكرها هاهنا ،لأن العقم في الريح أظهر من البرد الذي يضر النبات ،أو الشدة التي تعصف الأشجار ،لأن الريح العقيم التي لا تنشئ سحاباً ولا تلقح شجراً وهي كثيرة الوقوع ،وأما الريح المهلكة فقلما توجد ،فقال الريح العقيم أي من الجنس المعروف).[٥]

وأرى أن هذه المعاني للتنكير والتعريف تكمن في النكرة والسياق هو الذي أخرجها وكشف عنها .

---

(١) التفسير : ٢٨/٢٤٠ م١٤.

(٢) ينظر غرائب القرآن ،للنيسابوري : ٢٧/١٨.

(٣) سورة القمر : ١٩.

(٤) ذكر أن الآية في الطور والصحيح ما أثبته - الذاريات : ٤١.

(٥) التفسير : ٢٩/٤٠٦ م١٥.

كذلك بيّن الفرق بين تعريف (البلد) وتنكيرها في قوله تعالى : * رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا * (١) ، وقوله تعالى : * رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا * (٢) وأرجع ذلك إلى وجهين :

الأول : أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً ، كأنه قال : اجعل هذا الوادي بلداً آمنا ... والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً ، فكأنه قال : اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً ذا أمن وسلامة ...

الثاني : أن تكون الدعوتان وقعتا بعدما صار المكان بلداً فقوله : * اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا * تقديره : اجعل هذا البلد بلداً آمناً كقولك : كان اليوم يوماً حاراً ، وهذا إنما تذكره للمبالغة في وصفه بالحرارة ؛ لأن التنكير يدل على المبالغة ... أما قوله : * رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا * فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة) (٣) .

وقد وجدت الخطيب الإسكافي يذكر هذا الوجه للتعريف والتنكير ، وهو - كما نعرف - سابق للفخر . (٤)

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٢٦ .

(٢) سورة إبراهيم : من الآية ٣٥ .

(٣) التفسير : ٤/ ٦٠ م٢ .

(٤) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل : ٢٩ - ٣٠ .

أدوات الربط

حروف الجر :

لم يدرج البلاغيون الحديث عن معاني حروف الجر ضمن الحديث عن متعلقات الفعل، ولم يهتموا بمعانيها الأدبية،وهذا البحث يتناول أسرار مجيء حروف الجر في الكلام وما يؤديه من معنى ، وقد اهتم المفسرون بهذه الحروف، والتفتوا إلى معانيها الأدبية.

وللفخر الرازي نظرات أدبية في هذه الحروف ،تنبيء عن ذوقه الأدبي في معرفة الفروق بين الأساليب .

(اللام) :

تأتي اللام لعود المنافع ،و (على) لعود المضار ، فأقول هذا لي وهذا عليّ .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾(١) : (المراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة ... والظاهر أنه لبيان الخيرات ،يدل على اللام في قوله تعالى : ﴿ للإنسان ﴾ فإن (اللام)لعود المنافع ، و(على) لعود المضار ، تقول هذا له وهذا عليه ،و يشهد له و يشهد عليه في المنافع والمضار)(٢) .

وقد ذكر الزمخشري من قبل هذا القاعدة في دلالة(اللام)و دلالة (على) حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ ... وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾(٣) :

---

(١) سورة النجم : ٣٩ .

(٢) التفسير : ٢٩/١٦ م١٥ .

(٣) سورة هود : من الآية ٤٠ .

(جيء بـ " على " مع سبق الضار كما جيء بـ " اللام " مع سبق النافع) .

وقد أحسن الفخر في تطبيقها على آيات أخر من القرآن الكريم ، فهو لم يكن ناقلاً لما يقوله الزمخشري ، بل كان متمثلاً لكل ما يقوله .

ويستشف الفخر معنى أدبياً لـ(اللام) وآخر لـ(مع) ، حين يضاف أحدهما لـ(سليمان) والآخر لـ(داود) عليهما السلام .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١) : (فإن قيل قال في داود : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ ﴾ وقال في حق سليمان : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ ﴾ فذكره في حق داود عليه السلام بكلمة " مع " وفي حق سليمان عليه السلام بـ " اللام " وراعى هذا الترتيب أيضاً في قوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ (٢) وقال : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تجري بِأَمْرِهِ ﴾ (٣) فما الفائدة في تخصيص داود عليه السلام بلفظ " مع " وسليمان بـ " اللام " ؟ قلنا : يحتمل أن الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف ، فما أضيف إليه بـ " لام " التمليك ، أما الريح فلم يصدر عنه إلاّ ما يجري مجرى الخدمة فلا جرم أضيف إلى سليمان بـ " لام " التمليك وهذا اقناعي) (٤) .

(على) :

ذكر الفخر أن (على) تدل على الاستعلاء والتمكن ، وقد طبق هذا على آيات كثيرة في تفسيره .

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٧٩ .

(٢) سورة سبأ : من الآية ١٠ .

(٣) سورة ص : من الآية ٣٦ .

(٤) التفسير : ٢٢/٢١٠ م١١ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١)
: (إنه تعالى ذكر كلمة " على " حتى يدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم، فيفيد أن كونهم أذلة ليس لأجل كونهم ذليلين في أنفسهم ،بل ذلك التذلل إنما كان لأجل أنهم أرادوا أن يضموا إلى علو منصبهم فضيلة التواضع) (٢).

ويضيف الزمخشري معنى آخراً لهذا المعنى وهو أن في "على" معنى الحنو والعطف (٣).

ويرد الفخر على الواحدي حين جعل حرف الجر "على" صلة لا معنى له في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾ (٤) ، يقول : (قال الواحدي: ويشبه أن يكون " على " ههنا صلة ،والمعنى : وليربط قلوبكم بالنصر ،وما وقع في تفسيره يشبه أن لا يكون صلة ،لأن كلمة " على " تفيد الاستعلاء ، فالمعنى : أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها ،وارتفع فوقها) (٥).

وأراه في موضع آخر يجعل الحرف " على " جارياً على طريقة الاستعارة يقول في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦)
: (معنى الاستعلاء في قوله ﴿ عَلَى هُدًى ﴾ بيان لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه حيث شبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه ،ونظيره : (فلان على الحق أو على الباطل) (٧) وهو هنا متبع للزمخشري أيضاً ،لأنه من أوائل من أبرزوا في دراستهم هذه الأسرار (٨).

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٥٤.
(٢) التفسير : ٢٦/١٢ م٦.
(٣) ينظر الكشاف : ٦٢٣/١.
(٤) سورة الأنفال : من الآية ١١.
(٥) التفسير : ١٣٨/١٥-١٣٩ م٨.
(٦) سورة البقرة : ٥.
(٧) التفسير : ٣٧/٢ م١.
(٨) ينظر الكشاف : ١٤٢/١-١٤٣ ،البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٥٠٠.

وقد ظهر هذا الاتجاه بعد الزمخشري والرازي عند بعض البلاغيين، واعتبروا معنى حرف الجر قائماً على طريق الاستعارة .

يقول العلامة سعد الدين التفتازاني في هذه الآية : (استعارة تمثيلية فشبه حال المهتدى في ثباته على الحق بهيئة الكائن على جواد متمكن منه و مستعل عليه ، واستعيرت الهيئة الأولى للثانية) [١] فاكتفى بكلمة " على "؛ لأنها لقوة دلالتها استطاعت أن تشير إشارة واضحة إلى باقي الصورة وهذا الكلام ذكره دكتورنا الفاضل محمد أبوموسى عن محاورة بين سعد الدين والسيد الشريف نقلاً عن مخطوطه ضمن مجاميع دارالكتب .

(في) :

كذلك لهذا الحرف معنى لا يؤديه أي حرف آخر ، وقد تناول الفخر معناه في آيات عدة .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ [٢] : (وإنما قال " فيها " ولم يقل " منها " لئلا يكون ذلك أمراً بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقاً لهم ، بل أمرهم أن يجعلوا أموالهم مكاناً لرزقهم بأن يتجروا فيها ويثمروها فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لا من أصول الأموال) [٣] .

وتأتي " في " في مقام الحديث عن إحاطته سبحانه وتعالى بكل شيء ، لكن الفخر يصرفها إلى معنى آخر يبعد عن الآية ، وذلك في قوله تعالى :

---

(١) التصوير البياني : ٢٣٦ .

(٢) سورة النساء : من الآية ٥ .

(٣) التفسير : ١٩٣/٩ ط ٥ .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ (١)

يقول : (قال : ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ ولم يقل إليها إشارة إلى قبول الأعمال الصالحة ، ومرتبة النفوس الزكية ، وهذا لأن كلمة " إلى " للغاية ، فلو قال : (وما يعرج إليها) لفهم الوقوف عند السموات فقال : ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ ليفهم نفوذها وصعودها فيها) (٢) ، والفخر هنا يستلهم مذهب الصوفية في ذوقهم الأدبي وطريقتهم في فهم النص الأدبي ، مما لا يفهمه العامة ، وهذا يبعد المعنى عما تقتضيه اللغة .

وأحيانًا كان الفخر يسوّي بين (في) و (اللام) في المعنى ، ثم يستدرك ويبين الفرق فيرى أن في (في) الإحاطة والظرفية ، و (اللام) لا تحمل ذلك .

يقول في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (٣) : (حرف " في " و " اللام " متقاربان ، تقول إنما أنت للعناء والنصب ، وإنما أنت في العناء والنصب ، وفيه وجه آخر وهو أن قوله : ﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ يدل على أن الكبد قد أحاط به إحاطة الظرف بالمظروف ، وفيه إشارة إلى ما ذكرنا أنه ليس في الدنيا إلاّ الكد والمحنة) (٤) .

وفي موضع آخر يقارن بين (اللام) و (في) حين تأتيان في آية واحدة ، وما تحمله كل من معنى .

يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (٥)

---

(١) سورة سبأ : ٢ .
(٢) التفسير : ٢٥/ ٢٤٤ م ١٣ .
(٣) سورة البلد : ٤ .
(٤) التفسير : ٣١ / ١٨٣ م ١٦ .
(٥) سورة التوبة : ٦٠ .

: (إنه تعالى أثبت الصدقات للأصناف الأربعة الذين تقدم ذكرهم بلام التمليك ... ولا بد لهذا الفرق من فائدة ، وتلك الفائدة هي أن تلك الأصناف الأربعة المتقدمة يُدفع إليهم نصيبهم من الصدقات حتى يتصرفوا فيها كما شاءوا ، وأما ﴿ فِى الرِّقَابِ ﴾ فيوضع نصيبهم في تخليص رقبتهم من الرق ، ولا يدفع اليهم ... وكذلك القول في الغارمين يصرف المال في قضاء ديونهم ، وفي الغزاة يصرف المال إلى إعداد ما يحتاجون إليه في الغزو وابن السبيل كذلك) .(١)

والدكتور عبد الفتاح لاشين في كتابه (من أسرار التعبير في القرآن) ينسب هذا القول لابن المنير في حاشيته على الكشاف ،والأصل أنها للفخر الرازي، نقلها منه ابن المنير.(٢)

(البـــاء) :

(زوّج) من الأفعال التى تتعدى إلى مفعولين ،لكنه ورد فـي القرآن الكريم متعدياً بحرف الباء ،ويبين الفخر سبب ذلك .

يقول في قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾(٣)

: (قال : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ولم يقل (وزوجناهم حوراً) مع أن لفظ التزويج يتعدى فعله إلى مفعولين بغير حرف ،يقال : زوجتكها ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾(٤) وذلك إشارة إلى أن المنفعة

---

(١) التفسير : ١١٥/١٦ م٨ .
(٢) ص : ٩٩ .
(٣) سورة الطور : ٢٠ .
(٤) سورة الأحزاب : من الآية ٣٧ .

في التزويج لهم ، وإنما زوجوا للذتهم بالحور لا للذة الحور بهم ، وذلك لأن المفعول بغير حرف يعلق الفعل به ، كذلك التزويج تعلق بهم ثم بالحور ، لأن ذلك بمعنى جعلنا أزواجهم بهذا الطريق وهو الحور) .(١)

وتفيد الباء معنى لا تفيده (في) إنْ دخلتا على الظرف الزماني أو المكاني ، لأن الباء تدل على احتواش الزمان بالفعل .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(٢) : (أي استغفاراً متصلاً بالأسحار مقترناً بها ، لأن الكائن فيها مقترن بها ، فإن قيل : فهل يكون بينهما في المعنى تفاوت ؟ نقول : نعم وذلك لأن من قال : قمت بالليل ، واستغفرت بالأسحار أخبر عن الأمرين ، وذلك أدل على وجود الفعل مع أول جزء من أجزاء الوقت من قوله : (قمت في الليل) ، لأنه يستدعي احتواش الزمان بالفعل ... فقوله تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ إشارة إلى أنهم لا يخلون وقتاً عن العبادة ، فإنهم بالليل لا يهجعون ، ومع أول جزء من السحر يستغفرون ، فيكون فيه بيان كونهم مستغفرين من غير أن يسبق منهم ذنب ..) .(٣)

---

(١) التفسير : ٢٨/٢٤٩ م١٤ .

(٢) سورة الذاريات : ١٨ .

(٣) التفسير : ٢٨/٢٠٤ م١٤ .

أدوات الشـــرط

(إنْ - إذا): يتفق الفخر مع غيره في أن (إنْ) تأتي في الشرط الذى لا يكون مقطوعاً بوقوعه، و(إذا) في الشرط المقطوع بوقوعه، إلا أنه يسمى خروج كل منهما عن هذا الأصل مجازاً.

من ذلك أنه لما كان وقوع أهوال يوم القيامة من الأمور المتوقعـــة المقطوع بها فقد عبر عنها القرآن بـ (إذا).

يقول في قوله تعالى: * إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * (١):

(قالوا كلمة "إنْ" في المجوز، و"إذا" في المقطوع به، نقول إنْ دخلتِ الدار فأنتِ طالق، لأن الدخول يجوز، أما إذا أردت التعليق بما يوجد قطعاً لا تقول "إنْ" بل تقول "إذا" نحو: إذا جاء غد فأنت طالق، لأنه يوجد لا محالة، هذا هو الأصل فإنْ اشتمل على خلافه فمجاز، فلما كان الزلزال مقطوعاً به قال: * إِذَا زُلْزِلَتِ *) (٢).

فأكثر ما تستخدم (إذا) في الشرط المقطوع به، و(إنْ) في المشكوك فيه، لكنهما يتبادلان كثيراً في القرآن الكريم وفي الشعر العربي، ولم ينوه أحد من البلاغيين، بأن هذا التبادل من المجاز، إنما قالـــوا إنه خروج عن معناه الأصلي (٣)، وقول الفخر هنا بأنه مجاز فيه نوع من المبالغة فاستخدام المعنى في غيره لا يعد مجازاً في كل الأحوال.

وقد اهتم الفخر بهما حين يخرجان عن معناها الأصلي، فقد تأتي (إنْ) للإشارة إلى أن الفعل ينبغي ألَّا يحصل إلَّا نادراً.

كقوله في قوله تعالى: * وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا * (٤): (قوله تعالى * وإنْ * إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين، فإن قيل فنحن نرى أكثر الاقتتال بين طوائفهـــم،

---

(١) سورة الزلزلة: ١.

(٢) التفسير: ٣٢/٥٧ م١٦.

(٣) ينظر شروح التلخيص: ١/٤٣-٤٤.

(٤) سورة الحجرات: من الآية ٩.

نقول في قوله تعالى : * وإنْ * إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يقع إلاّ نادراً) .(١)

وجاءت " إنْ " كذلك في قوله تعالى : * فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ *(٢) بدلاً من إذا مع أن البغي متوقع بين الفئتين وذلك إشارة إلى ندرة البغي بعد وضوح الأمر واستبانته. يقول : (ثم قال تعالى : * فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا * إشارة إلى نادرة أخرى وهي البغي ،لأنه غير متوقع ، فإن قيل : كيف يصح في هذا الموضع كلمة " إنْ " مع أنها تستعمل في الشرط الذي لا يتوقع وقوعه ،وبغي إحداهما عند الاقتتال لا بد منه إذ كل واحد منهما لا يكون محسناً ، فقوله " وإنْ " تكون من قبيل قول القائل " إنْ طلعت الشمس "، نقول فيه معنى لطيف ، وهو أن الله تعالى يقول : الاقتتال بين طائفتين لا يكون إلاّ نادر الوقوع ،وهو كما تظن كل طائفة أن الأخرى فيها الكفر والفساد ،فالقتال واجب كما سبق في الليالي المظلمة ،أو يقع لكل واحد أن القتال جائز بالاجتهاد ،وهو خطأ ، فقال تعالى : الاقتتال لا يقع إلاّ كذا،فإنْ بان لهما أو لأحدهما الخطأ واستمر عليه فهو نادر ،وعند ذلك يكون قد بغى فقال : * فإنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى * يعني بعد استبانة الأمر، وحينئذ فقوله : * فإنْ بَغَتْ * في غاية الحسن،لأنه يفيد الندرة وقلة الوقوع) .(٣)

وتستمر الآية في التعبير (بإنْ) في مواقع (إذا) ، فقد تفيء الطائفة الباغية إلى أمر الله بعد قتالها ، ولما كان ذلك لا يكون إلاّ جبراً فقد عبر عنها (بإنْ) للدلالة على ذلك .

---

(١) التفسير : ١٢٨/٢٨ م١٤ .

(٢) سورة الحجرات : من الآية ٩ .

(٣) التفسير : ١٢٨/٢٨ م١٤ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) : (... لما كان الواقع فيئتهم من تلقاء أنفسهم فلما لم يقع دل على تأكيد الأخذ بينهم فقال تعالى : ﴿ فإِنْ فَاءَتْ ﴾ لقتالكم إياهم بعد اشتداد الأمر والتحام الحرب فأصلحوا ، وفيه معنى لطيف وهو أنه تعالى أشار إلى أن من لم يخف الله وبغى لا يكون رجوعه بقتالكم إلا جبراً) . (٢)

ويعترض الفخر على الزمخشري حين يقول إنَّ (إذا) لا بد أن تكون (إنْ) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ (٣) حيث يقول الزمخشري : (وحقه أن يجيء بـ (إنْ) لا بـ (إذَا) كقوله : ﴿ وإنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ . (٤)

ويرد الفخر عليه قائلا : (واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن وهو ضعيف ، لأن كل واحد من (إنْ) و (إذَا) حرف الشرط ، إلا أن حرف (إنْ) لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ، فلا يقال : إنْ طلعت الشمس أكرمتك ، أما حرف (إذَا) فإنه يستعمل فيما كان معلوم الوقوع ، تقول : آتيك إذا طلعت الشمس ، فهاهنا لما كان الله تعالى عالماً بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة ، لا جرم حسن استعمال (إذا)) . (٦) وهكذا نجد أن الفخر قد اهتم بـ(إنْ) و (إذا) إذا خرجتا عن معنييهما الأصليين .

---

(١) سورة الحجرات : من الآية ٩ .

(٢) التفسير : ٢٨/١٢٨ م١٤ .

(٣) سورة الإنسان : ٢٨ .

(٤) سورة محمد : من الآية ٣٨ .

(٥) الكشاف : ٢/٢٠١ .

(٦) التفسير : ٣٠/٢٦١ م١٥ .

صيغ العمـــــوم

(كـــل) :

يذكر الفخر أن (كل) حين تقع في حيز النفي وتتقدم عليه وترفع فإنها تفيد أن النفي شامل لجميع الأفراد ،وإذا نُصبت (كل) أفادت أن النفي يعم أكثر الأفراد وهو ما يسمى (نفي العموم) .

ثم طبق هذه القاعدة على (كل) في حالة الإثبات ، ورأى موافقة بعض آيات القرآن لهذه القاعدة .

وينقل الفخر دلالة (كـل) في النفي من عبد القاهر بعد أن يذكر اختلاف قراءة (كـل) في قوله تعالى : ﴿ وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١) بالنصب والرفع يقول : (القراءة المشهورة "كلاً" بالنصب ،لأنه بمنزلة " زيداً وعدت خيراً " فهو مفعول وعد ، وقـــــرأ ابن عامر : وكل بالرفع، وحجته أن الفعل إذا تأخر عن مفعوله لم يقع عمله فيه ،والدليل عليه أنهم قالوا : زيد ضربت ،وكقوله في الشعر :

قَدْ أَصْبَحَتْ أم الخِيَـارِ تَدّعِي ... عليَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَـــعِ (٢)

روى كله بالرفع لتأخر الفعل عنه لموجب آخر . واعلم أن للشيخ عبد القاهـر في هذا الباب كلاماً حسناً ، قال : إنَّ المعنى في هذا البيت يتفاوت بسبب النصب والرفع ، وذلك لأن النصب يفيد أنه ما فعل كل الذنوب ،وهذا لا ينافي كونه فاعلاً لبعض الذنوب ، فإنه إذا قال : ما فعلت كل الذنوب ، أفاد أنه ما فعل الكل ،ويبقى احتمال أنه فعل البعض ، بل عند من يقول بأن دليـــل

---

(١) سورة الحديد : ١٠ .

(٢) البيت لأبي النجم العجلي ،وهو من شواهد سيبويه في كتابه في مواضع عدة : ١/٨٥ - ١٢٧ - ١٣٧ .

الخطاب حجة يكون ذلك اعترافاً بأنه فعل بعض الذنوب.

أما رواية الرفع، وهي قوله : كلُّه لم أصنع فمعناه أن كل واحد واحد من الذنوب محكوم عليه بأنه غير مصنوع، فيكون معناه أنه ما أتى بشيء من الذنوب البتة، وغرض الشاعر أن يدعي البراءة عن جميع الذنوب، فعلمنا أن المعنى يتفاوت بالرفع والنصب).(١)

وعبد القاهر ذكر هذا الكلام في دلائل الاعجاز(٢)، وتحدث عنها الفخر بطريقة أصولية فهو يذكر دليل الخطاب(٣)، وهو مصطلح شائع عند الاصوليين. ثم يطبق الفخر كلام عبد القاهر في هذه القاعدة على (كل) في حالة الإثبات وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾(٤) فيرى أن معناها يختلف باختلاف الإعراب.

فيقول : (ومما يتفاوت فيه المعنى بسبب تفاوت الإعراب في هذا الباب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ فمن قرأ "كُلَّ شَيْءٍ" بالنصب أفاد أنه تعالى خلق الكل بقدر، ومن قرأ "كُلُّ" بالرفع لم يفد أنه تعالى خلق الكل، بل يفيد أن كل ما كان مخلوقاً له فهو إنما خلقه بقدر).(٥)

---

(١) التفسير : ٢٩/٢٢١ م ١٥.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٧٨.

(٣) دليل الخطاب : يعرف بمفهوم المخالفة، ويعرف بأنه دلالة اللفظ على ثبوت حكم للمسكوت عنه، مخالف لما دل عليه المنطوق، لانتفاء قيد من القيود المعتبرة في الحكم ـ تفسير النصوص في الفقه الاسلامي، د. محمد أديب الصالح : ١/٦٠٩.
ولمفهوم المخالفة أنواع كثيرة قد تصل إلى عشرة أنواع، تحدث الفخر عن بعضها في كتابه المحصول : ١/٢٠٥-٢٥٠ القسم الثاني.

(٤) سورة القمر : ٤٩.

(٥) التفسير : ٢٩/٢٢١ م ١٥.

فالمعنى قد اختلف في حالة الرفع عنه في حالة النصب.

ثم يذكر الفخر أن هذه القاعدة غير مطردة في القرآن الكريم ، فربما لا يختلف المعنى باختلاف الرفع والنصب ، كما في الآية الأولى.

يقول : (وقد يكون تفاوت الإعراب في هذا الباب بحيث لا يوجب تفاوت المعنى كقوله : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ ﴾ (١) فإنك سواء قرأت " والقمر " بالرفع أو بالنصب فإن المعنى واحد، فكذا في هذه الآية سواء قرأت ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ أو قرأت ﴿ وَكُلٌّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ فإنَّ المعنى واحد غير متفاوت .

ويتناول الفخر تقديم حرف السلب على صيغة العموم وتأخيره عنها في نهاية الإيجاز ، ويرى أن ما جزم به الشيخ عبد القاهر لا يكون إلاّ عند من يقول بدليل الخطاب ، فهو غير مطرد في كل دلالة (كل) يقول : (واعلم أن الشيخ الإمام جزم بأن نفي العموم يقتضي خصوص الإثبات فقوله : لم فعله كله يقتضي أن يكون فاعلاً لبعضه ، وليس الأمر كذلك إلاّ عند من يقول بدليل الخطاب ، بل الحق أن نفي العموم كما لا يقتضي عموم النفي لا يقتضي خصوص الإثبات) (٢).

ولم يتنبه أكثر البلاغيين بعد الفخر لهذا التعميم في قاعدة عبد القاهر حتى جاء العلامة سعد الدين التفتازاني وذكر أن هذا الحكم أكثري لا كلي فقال : (وقال الشيخ إذا تأملنا وجدنا إدخال كل في حيز النفي لا يصلح إلا حيث يُراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن ، وفيه نظر ، لأنا نجده حيث

---

(١) سورة يس : من الآية ٣٩ .

(٢) نهاية الإيجاز : ٣١٤ .

لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى : * وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * (١) . * وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * (٢) . * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * (٣) : فالحق أن هذا الحكم أكثرى لا كلى) (٤) .

فالقاعدة غالبة لا لازمة ، لأن في هذه الآيات تقدم النفي على الكل فنصبت ، ولو طبقنا القاعدة لكان المعنى أن الله لا يكره كل مختال بل البعض ، ولا يحب كل كفّار بل البعض ، ولا يأمرنا بطاعة كل حلّاف بل البعض منهم ، وكل هذه المعاني تنافي المراد من الآيات .

وعلى هذا يعد الفخر - كما أظن - أول من تنبه إلى هذا الخروج على قاعدة عبد القاهر .

*

حروف العطف

(ثم) :

تنبه الفخر في تفسيره إلى معاني عدة لـ (ثم) ، فقد تأتي لاستبعاد حصول مابعدها .

من ذلك استبعاد الإتيان بعمل قبيح بعد توالي النعم كما في قوله تعالى : * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * (٥) يقول : (إنما ذكر لفظة " ثم " لأنه تعالى لما وعد موسى حضور الميقات لإنزال التوراة عليه بحضرة السبعين ، وأظهر في ذلك درجة موسى عليه السلام ، وفضيلة بني إسرائيل ليكون ذلك تنبيهاً للحاضرين على علو درجتهم ، وتعريفاً للغائبين ، وتكملة للدين ، كان ذلك من أعظم النعم ،

---

(١) سورة الحديد : من الآية ٢٣ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٧٦ .

(٣) سورة القلم : ١٠ .

(٤) المطول : ١٢٥ .

(٥) سورة البقرة : ٥١ .

فلما أتوا عقيب ذلك بأقبح أنواع الجهل والكفر كان ذلك في محل التعجب فهو كمن يقول : إنني أحسنت إليك وفعلت كذا وكذا ، ثم إنك تقصدني بالسوء والإيذاء) (١).

وهذا المعنى لـ (ثم) قد ذكره الزمخشري قبله ، والفخر أخذه منه وطبقه على آيات من القرآن ، وهذا يدل على أن الفخر لم يكن آخذاً منه ، ناقلاً عنه ، إنما كان متمثلاً واعياً لنظراته البلاغية - كما قلت سابقاً - وقد يسمى الفخر هذا المعنى التعجب والإنكار من فعلهم يقول في قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ (٢) : (لفظ " ثم " هاهنا معناه التعجب كما تقول لصاحبك : أنزلتك داري وأطعمتك وأسقيتك ثم أنت تشتمني ، ونظيره : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (٣) ، فمعنى " ثم " ههنا للإنكار والتعجب) (٤).

وهذا المعنى ذكره ابن عطية وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ : (" ثم " دالة على قبح فعل الذين كفروا ، لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرهما قد تقرر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبين ، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم ، فهذا كما تقول : يا فلان ، أعطيتك وأكرمتك وأحسنت اليك ثم تشتمني ، أي بعد مهلة من وقوع هذا كله ، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ " ثم ") (٥).

---

(١) التفسير : ٧٩/٢ م ٢.

(٢) سورة المدثر : ١١-١٥.

(٣) سورة الأنعام : ١.

(٤) التفسير : ١٩٩/٣٠ م ١٥.

(٥) المحرر الوجيز : ١٢٢/٥.

ويظهر تشابهاً بين ما قاله الفخر وما قاله ابن عطية.

وقد اعترض أبوحيان على إفادة " ثم " هذه المعاني وقال : إنّ هذه المعاني لا تفهم إلا من السياق ، ولم يقل بها أحد من النحاة [١] ، وأقول إنّ إفادة " ثم " هذه المعاني لا تكون من مفهومها اللغوى المجرد من السياق ، إنما تفيدها وهي في سياق الكلام .

وتأتي " ثم " لترتيب خبر على خبر ، دون مراعاة للترتيب الزمني ، من ذلك أنه يأتي الإخبار عن موسى بعد الإخبار عن المؤمنين عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٢] يقول : (والتقدير : ثم إني أخبركم بعد تعديد المحرمات وغيرها من الأحكام أنّا آتينا موسى الكتاب ، فذكرت كلمة " ثم " لتأخير الخبر عن الخبر لا لتأخير الواقعة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [٣] " ثم " الثانية هي التي تفيد ترتيب الخبر على الخبر ، لأنّ خلق الأرواح وتصويرها في الأرحام بعد أمر الله تعالى للملائكة .

ومثله ترتيب خبر على خبر قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [٤] يقول : (فإنّ قيل : كيف جاز أن يقول : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ والزوج مخلوق قبل خلقهم ؟ أجابوا عنه من وجوه :

---

(١) ينظر البحر المحيط : ٤/٦٩ .

(٢) سورة الأنعام : ١٥٣ - ١٥٤ .

(٣) سورة الأعراف : من الآية ١١ ، التفسير : ١٤/٤ م٧ .

(٤) سورة الزمر : من الآية ٦ .

الأول : أن كلمة "ثم" كما تجيء لبيان كون إحدى الواقعتين متأخرة عن الثانية ، فكذلك تجيء لبيان تأخر أحد الكلامين عن الآخر ، كقول القائل : (بلغني ما صنعت اليوم ثم ما صنعت أمس كان أعجب ، ويقول أيضاً : قد أعطيتك اليوم شيئاً ثم الذى أعطيتك أمس أكثر).(١)

فالفخر يخالف الزمخشرى الذى يرى أن "ثم" هنا لبيان البعد بين الأمرين ، فما بعد ثم أعلى مرتبة مما قبلها يقول : (فعطفها بـ "ثم" على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود).(٢)

وأرى أن قول الزمخشرى أكثر إصابة ، ذلك أن الفخر نظر إليها من منظور يقرب من معناها الحقيقي الموضوع لها في اللغة .

وتأتي "ثم" لبيان عظمة ما هو واقع بعدها ، وهذا المعنى لـ "ثم" قد ذكره الزمخشرى في مواضع مختلفة من التفسير ، والفخر نقلها عنه من ذلك أنه يقول في قوله تعالى : * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ *(٣) : (فإن قيل : ما الفائدة من كلمة "ثم" في قوله : * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ * ؟ قلنا فيه وجهان :

---

(١) التفسير : ٢٦/٢٤٤ م١٣ .

(٢) الكشاف : ٣/٣٨٨ .

(٣) سورة الصافات : ٦٦ - ٦٨ .

الأوّل : أنهم يملأون بطونهم من شجرة الزقوم ، وهو حار يحرق بطونهم فيعظم عطشهم ، ثم إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب .

الثاني : أنه تعالى ذكر الطعام بتلك البشاعة والكراهة ، ثم وصف الشراب بما هو أبشع منه فكان المقصود من كلمة " ثم " بيان أن حال المشروب من البشاعة أعظم من حال المأكول)[1].

---

(١) التفسير : ١٤٣/٢٦ م١٣ ، ينظر الكشاف : ٣٤٣/٣ .

حروف النفــــي

(لَنْ - لا) :

عرض الفخر لحروف النفي من ناحية ما تفيده من معان في مواضع قليلة من التفسير.

فهو يفرق بين (لَنْ) و (لا) ، فيرى أن (لن) أكثر تأكيداً للنفي من (لا) . يظهر ذلك وهو يفرق بينهما في قوله تعالى :

* قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ *.(١)

وقوله تعالى : * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ *.(٢)

يقول : (... فلم ذكر ههنا "لَنْ" وفي سورة الجمعة "لا" ؟ قلنا: إنهم في هذه السورة - أي سورة البقرة - ادعوا أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وادعوا في سورة الجمعة أنهم أولياء لله من دون الناس والله تعالى أبطل هذين الأمرين، بأنه لو كان كذلك لوجب أن يتمنوا الموت، والدعوى الأولى أعظم من الثانية ، إذ السعادة القصوى هي الحصول في دار الثواب ، وأما مرتبة الولاية فهي وإن كانت شريفة إلا أنها إنما تراد ليتوسل بها إلى الجنة ، فلما كانت الدعوى الأولى أعظم لا جرم بين تعالى فساد

---

(١) سورة البقرة : ٩٤ - ٩٥ .

(٢) سورة الجمعة : ٦ - ٧ .

قولهم بلفظ (لَنْ) لأنه أقوى الألفاظ النافية ،ولما كانت الدعوى الثانية ليست في غاية العظمة لا جرم اكتفى في إبطالها بلفظ (لَا) لأنه ليس في نهاية القوة في إفادة معنى النفي والله أعلم) .(١)

ف (لَنْ) أفادت التوكيد هنا ،لأن هؤلاء الذين ادعوا اختصاصهم بأن لهم الدار الآخرة خالصة لا بد أن يرغبوا في الموت رغبة مؤكدة ، ولما لم يحصل ذلك بين تعالى فساد قولهم ب (لَنْ) .

ويذكر الدكتور عبد الفتاح لاشين أن (لَا) أقوى في دلالة النفي لأنها تدل على دوامه.

ثم علل مجيء (لَا) في آية الجمعة ، ومجيء (لَنْ) في آية البقرة ،فذكر أن (لَا) جاءت في موضع اقترن به حرف الشرط بالفعل فصار من صيغ العموم ، فانسحب النفي عن جميع الأزمنة ،وكأنه يقول : (متى زعموا ذلك في وقت من الأوقات ،أو في زمن من الأزمان ، وقيل لهم تمنوا الموت فلا يتمنونه أبداً ، وحرف الشرط (إنْ) دل على هذا المعنى ،وجاء حرف (لَا) في الجواب ، بجانب صيغة العموم ، لاتساع معنى النفي فيها ،وجاءت الآية الثانية ب (لَنْ) التي تنفي ما قرب ،وما قبلها (إن ،وكان) وهما ليستا من صيغ العموم ، ف (كان) لا تدل على حدث ،إنما تدل على مضى الزمان الذى كان فيه الحدث ،فكأن المعنى : (إن كان قد وجبت لكم الدار الآخرة ،وثبتت لكم في علم الله ،فتمنوا الموت الآن ، ثم قال في الجواب :ولن يتمنوه أبداً ،فناسب الجواب الخطاب في كلا الآيتين) .(٢)

---

(١) التفسير : ٣/٢٠٧م ٢.

(٢) ينظر من أسرار التعبير في القرآن : ١٣٧.

والدكتور عبد الفتاح اعتمد في تفسيره هذا على قول الإمام ابن القيم في أن : (من خواصها " لَنْ " أنها تنفي ما قرب ، ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداد معنى النفي في حرف " لا ") ، وعلى تفريقه بينهما في الآيتين[1] .

والفخر الرازي في تفسيره للآية أخذ برأي الزمخشري الذي يرى أن (لَنْ) و (لَا) أختان في نفي المستقبل ، إلا أن في (لَنْ) توكيداً وتشديداً[2] ويزيد في الكشاف على معنى (لَنْ) أنها تفيد تأبيد النفي[3] .

وينكر الفخر أن تفيد (لن) التأبيد فيقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي ﴾[4] : (إنّ " لَنْ " لتأكيد نفي ما وقع السؤال عنه ، والسؤال إنما وقع عن تحصيل الرؤية في الحال ، فكان قوله : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ نفياً لذلك المطلوب ، فأما أن تفيد النفي الدائم فلا)[5] .

وقول الفخر : (فأما أن تفيد النفي الدائم فلا) رد على قول الزمخشري الذي يقول بتأبيد النفي في هذه الآية ، وهو في هذا يخضع لمذهبه الاعتزالي الذي يرى نفي الرؤية عن الله سبحانه .

وهكذا فإن الفخر رأى بأن (لَنْ) تفيد التأكيد فقط .

وقد نفى ابن هشام إفادة (لن) التأكيد والتأبيد فيقول : (ولا تفيد " لن " تأكيد النفي ، خلافاً للزمخشري ولا تأبيده خلافا له في أنموذجه[6] ، وكلاهما دعوى بلا دليل)[7] .

---

(١) بدائع الفوائد : ١/ ٩٥ - ٩٦ .

(٢) ينظر المفصل : ٣٠٧ .

(٣) ينظر الكشاف : ٢/ ٩٠ .

(٤) سورة الأعراف : من الآية ١٤٣ .

(٥) التفسير : ١٤/ ٢٤٢-٢٤٣ م٧ .

(٦) كتاب الزمخشري اسمه الانموذج .

(٧) مغني اللبيب : ١/ ٢٨٤ .

(لَمْ - لَمّا) :

ويفرق الفخر بين (لَمْ) و (لمّا) وهما أداتا نفي وجزم ؛ لأن (لما) تفيد معنى لا تفيده (لم) في قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾.(١)

يقول : (إنه تعالى عند فعلهم قال ﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ بحرف ليس فيه معنى الانتظار لقصور نظرهم ، وفتور فكرهم ، وعند فعل الإيمان قال ﴿ لَمَّا يَدْخُلِ ﴾ بحرف فيه معنى التوقع لظهور قوة الإيمان ، كأنه يكاد يغشى القلوب بأسرها).(٢)

فـ(لمّا) دلت على توقع إيمانهم فيما بعد لظهوره عليهم . وقد لمح الفخر هنا معنى قوة الإيمان من (لمّا) ، وهو في كل هذا يطبق ما قاله النحويون في (لَمْ) و (لمّا) تطبيقاً بلاغياً ، فابن جني يعلل كيف كانت (لمّا) أشد توكيداً من (لَمْ) تعليلاً منطقياً يقول : (أصل " لمّا " لم زيدت عليها " ما " فصارت نفياً لقوله قد كان كذا ، و " لَمْ " نفي فعل تقول : قام زيد ، فيقول المجيب بالنفي : " لم يقم " ، فإنْ قال : قد قام ، قلت : " لمّا يقم " لما زاد في الإثبات " قد " زاد في النفي " ما ").(٣)

---

(١) سورة الحجرات : من الآية ١٤ .

(٢) التفسير : ٢٨/١٤٢م١٤ .

(٣) المحتسب : ٢/٣١٢ .

الفصل الثالث :
بناء الجملة

بنـــاء الجملـــــة

يهدف هذا الفصل إلى دراسة نظرات الفخرفي نظم الجملة من حيث صورها المختلفة المتعلقة بتنظيم مواقعها ،فيشمل التقديم ،وجملة الإنشاء من استفهام وأمر ونهي ،والحذف ،والإيجاز ،وتأكيد الجملة وأنواع المؤكدات ودواعي التوكيد ،وجملة القصر ،وقيود الجملة وصفاً وغير وصف ، والإضمار والإظهار .

ويبدو ظاهراً امتزاج هذه المباحث بالنحو ،وفرق بين علم النحو وعلم المعاني ،فالأول يبحث في علاقة الكلمات على أصول قوانين العربية ، والثاني يبحث عن موافقة هذه العلاقة لمقتضى الحال ، فهو بحث عن مزايا تركيب الجملة ،فإذن تقوم الدراسة البلاغية على الدراسة النحوية ،وسنرى كيف استطاع الفخر الربط بينهما .

التقديـــــــم

إنَّ تقديم أى ركن من أركان الجملة في الكلام البليغ لا يكون إلاَّ لتحقيق معنى يُفهم من وراء رصف الألفاظ .

والتقديم في التفسير إما أن يكون تقديم أحد جزءى الجملة على الآخر المسند أو المسند إليه ،أو تقديم المتعلقات ،أو تقديم كلمة على كلمة ، أو جملة على جملة ،وهذا ما يعرف بالتقديم غير الاصطلاحي ويمثل الجزء الأكبر من الباب ،حيث تنوعت أسرار التقديم فيه .

تقديم المسند إليه :

ويشمل تقديم الاسم على الفعل ،وتقديم الاسم على المشتق ،ويذكر الفخر أن تقديم الاسم على الفعل يفيد إما التخصيص أو التأكيد راداً ذلك إلى الشيخ عبد القاهر فيقول عند بيانه لسبب تقديم الفاعل في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (١) : (قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتاب دلائل الإعجاز إنك إذا قدمت الاسم فقلت : زيد فعل فهذا يفيد من التأكيد ما لا يفيده قولك : فعل زيد ،وذلك لأن قولك (زيد فعل) يستعمل في أمرين :

أحدهما : أن يكون لتخصيص ذلك الفاعل بذلك الفعل كقولك : أنا كتبت في المهم الفلاني ..

الثاني : أن لا يكون المقصود ذلك ،بل المقصود أن تقديم ذكر المحدث عنه بحديث كذا لإثبات ذلك الفعل ،كقولهم هو يعطى الجزيل ،

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ .

لا يريد الحصر، بل أن تحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبه ...) (١).

والذى يترجح عندى أن عبد القاهر لم يقل إن مثل (زيد فعل) يفيد القصر بدليل أنه لما مثّل اقتصر على المسند إليه الذى يفيد القصر ما كان ضميراً، ولم يأت بمثال واحد للاسم الظاهر المقدم على الفعل لإفادة القصر، بل كل أمثلته من هذا النوع، مثل بها لما يفيد التقوية والتوكيد، مع أن عبد القاهر حينما ابتدأ باب تقديم الخبر المثبت ذكر النوعين الاسم الظاهر والضمير، ثم بنى على ذلك أن التقديم يفيد القصر والتقوية، وهو إنما ذكر هذا على سبيل الإجمال. يقول: (فإذا عمدت إلى الذى أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت ذكره، ثم بنيت الفعل عليه فقلت: "زيد قد فعل" و"أنا فعلت" اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل) (٢).

وتقديم الاسم الظاهر لا يفيد الاختصاص إلا عند الزمخشرى فيقول في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ (٣): (وإيقاع اسم "الله" مبتدأ وبناء "نزل" عليه فيه تفخيم لـ "أَحْسَنَ الْحَدِيثِ" وتأكيد لاستناده إلى الله، وأنه من عنده، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه) (٤).

والزمخشرى هنا يسوى بين ما يفيده تقديم الضمير على الفعل، وتقديم الاسم الظاهر على الفعل، فالتقديم في كليهما إما للاختصاص أو للتوكيد، وقد يجمع بينهما في دلالة معنى الآية كما في هذه الآية (٥).

---

(١) التفسير: ٦/٩٣ م٣.

(٢) دلائل الإعجاز: ١٢٨.

(٣) سورة الزمر: من الآية ٢٣.

(٤) الكشاف: ٣/٣٩٤.

(٥) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى، د. محمد أبو موسى: ٣٣١.

وقد لاحظت أن التقديم في التفسير عند الفخر لا يخرج عن إفادة هذين الغرضين ، فهو إما أن يفيد الاختصاص أو التوكيد .

فمن دلالة التقديم على الاختصاص قوله تعالى : * ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ * (١) يقول الفخر : (إن علمه سبحانه وتعالى صفة قديمة أزلية واجبة الوجود ، وما كان كذلك امتنع أن يكون مخصوصاً بالبعض دون البعض ، فوجب كونه متعلقاً بجميع المعلومات ، وإذا كان كذلك كان الله سبحانه عالماً بجميع المعلومات) . (٢)

ويتقدم الضمير على فعله فيفيد الاختصاص أيضاً في قوله تعالى : * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ * (٣) يقول : (في هذا التخصيص هو أن قبول التوبة ليس إلى رسول الله ، إنما إلى الله الذى هو يقبل التوبة تارة ويردها أخرى ، فاقصدوا الله بها ووجهوها إليه) (٤) ومعنى الاختصاص هنا قصر المسند على المسند إليه المقدم .

وذكر بعض المفسرين أن التقديم هنا يفيد التخصيص والتأكيد ، وأن الله من شأنه قبول توبة من تاب ، فكأنه قيل : أما علموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم أنه تعالى يقبل التوبة الصحيحة ، ويقبل الصدقات الخالصة لله تعالى . (٥)

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٩٧ .

(٢) التفسير : ١٢/١٠٨ م٦ .

(٣) سورة التوبة : من الآية ١٠٤ .

(٤) التفسير : ٨/١٨٧ م٤ .

(٥) ينظر البحر المحيط ، لأبي حيان : ٥/٩٦ .

والفخر في هذه الآية لم يتبع الزمخشري الذي قال إن التقديم هنا يفيد الاختصاص والتأكيد (١).

ويذكر الفخر أن التقديم يدل على الاختصاص بعد لو ، في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ (٢) يقول : (وأما البحث المتعلق بعلم البيان فهو أن التقديم بالذكر يدل على التخصيص فقوله : ﴿ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ ﴾ دلالة على أنهم هم المختصون بهذه الحالة الخسيسة والشح الكامل) (٣).

والحقيقة أن هذا التركيب لا يفيد الاختصاص ؛ لأنّ (لو) تختص بالدخول على الأفعال دون الأسماء ، فلا بد من فعل بعدها و " أَنتُمْ " فاعل لفعل محذوف ، و " تَمْلِكُونَ " تفسيره ، وعلى هذا فلا تقديم في الآية . كذلك المعنى الذي ذكره في إفادة الاختصاص لا يتناسب مع معنى الآية ؛ لأنّ مقتضى الاختصاص أن يكون اختصاص الناس بالملك ، ويكون المعنى : لو لم يملك خزائن الله إلا أنتم لكان كذا ، أما الشح المتبالغ فذلك واقع في جواب (لو) وليس في جملة الاختصاص وإلى هذا المعنى أشار ابن السبكي (٤).

والفخر هنا يسير على نهج الزمخشري في اعتبار التقديم بعد (لو) دالاً على الاختصاص بل إنه ينقل منه أيضاً .

---

(١) ينظر الكشاف : ٢/٢١٢ .
(٢) سورة الإسراء : من الآية ١٠٠ .
(٣) التفسير : ٢١/٦٤ م ١١ .
(٤) ينظر عروس الأفراح : ٢/١٢ والبلاغة القرآنية : ٣٣٢ ، ٣٣٤ .

وهكذا فإن الفخر كان يفصل أحياناً بين القاعدة النحوية والقاعدة البلاغية. (١)

وقد يفيد التقديم التأكيد، وهذه الدلالة يلتفت إليها الفخر قليلاً.

كما في تفسير قوله تعالى : * وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ *. (٢)

يقول : (والفائدة من ذكر كلمة " هم " التأكيد في إضافة الكفر إليهم، ونفي أن يكون من النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فعل). (٣)

وقد تتبعت كثيراً من آيات تقديم المسند إليه التي تدل على التقوية والتأكيد في التفسير مما شاع في كتب البلاغة فلم أجده يلتفت إلى التقديم فيها. وذلك كقوله تعالى : * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ *، (٤) * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * (٥)، * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * (٦) * وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ *، (٧) * فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ *. (٨)

---

(١) ومن أمثلة فصله بين القاعدة النحوية والقاعدة البلاغية قوله وهو يبين سبب تقديم المفعول في قوله تعالى : * فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * سورة الأحزاب : من الآية ٢٦ في أن فريقاً منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقاً تقتلون، ثم يقول إن التقديم هنا للاهتمام، التفسير : ٢٥/٢٠٥ م١٣ وذلك لا يجوز، لأن الفعل الثاني لم يستوف مفعوله فكأن ما قبله هو مفعوله، ولم يقل أحد من النحاة بذلك، فالاشتغال لا يكون إلا إذا اشتغل الفعل بضمير المفعول.

(٢) سورة المائدة : من الآية ٦١.

(٣) التفسير : ١٢/٤٠ م٦.

(٤) سورة الأعراف : ١٩٦.

(٥) سورة الفرقان : ٥.

(٦) سورة النمل : ١٧.

(٧) سورة ق : من الآية ٤٥.

(٨) سورة الطور : ٢٩.

وأرجع ذلك إلى أن جلّ اهتمامه كان موجهاً في المقام الأول إلى التفسير .

تقديم المسند :

لم يطل الفخر الوقوف عند أسرار تقديم المسند سواء أكان مفرداً أم جاراً ومجروراً أم ظرفاً .

ولم يتناول في ذلك إلا آيات معدودة.فمثلاً تتعدد معاني البشرى في قوله تعالى : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ فيرى أنها تدل على الاختصاص حين تفسر بأنها الرؤيا الصالحة . يقول في هذه الآية : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [(١)] : (فظاهر هذا النص أن لا تحصل هذه الحالة إلا لهم ،والعقل يدل عليه وذلك ؛ لأن ولي الله هوالذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله ،ومن كان كذلك فهوعند النوم لا يبقى في روحه إلا معرفة الله. . . . وأما من يكون موزع الفكر على أحوال هذا العالم فإنه إذا نام لا يبقى كذلك ،فلا جرم لا اعتماد على رؤياه ،فلهذا السبب قال : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ على سبيل الحصر والتخصيص) [(٢)] .

ولم يكن الفخر يفرق بين معنى الحصر ومعنى التخصيص . كما فرق بينهما بعض المتأخرين ، فالاختصاص عندهم هو قصد المتكلم إفادة السامع خصوص شيء من غير تعرض ولا قصد لغيره بإثبات ولا نفي ، أما الحصر فمعناه نفي غير المذكور وإثبات المذكور " بما وإلا " أو " بإنما " [(٣)].

---

(١) سورة يونس: من الآية ٦٤ .

(٢) التفسير : ١٣٤/١٧ م٩ .

(٣) ينظر عروس الأفراح ،لبهاء الدين ابن السبكي : ١٥٦/٢ .

... فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة، ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله وقالوا : * عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا * أي توكلنا عليه، ولا نلتفت إلى أحد سواه).(١)

ومثله قوله تعالى : * إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ *(٢) فتقديم الجار والمجرور يفيد القصر، وقوله تعالى : * وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ *.(٣)

ويتقدم المفعول في أحوال فيفيد الحصر والاختصاص كما في قوله تعالى : * إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ *.(٤)

يقول : (إن قوله : * فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه، وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه).(٥)

ويقول في قوله تعالى : * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ *(٦) : (وأما تقديم المفعول فهو للاختصاص كأنه قيل : وخصوا أنفسهم بالظلم وما تعدى أثر ذلك الظلم عنهم إلى غيرهم).(٧)

ومثله في إفادة التخصيص والحصر قوله تعالى : * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ *(٨)، فمعناه اختصاص تصليته بالجحيم، ويرى ابن الأثير أن التقديم هنا ليس للاختصاص، إنما لمراعاة السجع في الآية.(٩)

---

(١) التفسير : ١٥٢/١٧ م٩.

(٢) ينظر التفسير : ١٦٦/١٥ م٨ . سورة الأنفال : من الآية ٣٦.

(٣) ينظر التفسير : ٢٣٣/١٩ م١٠ . سورة النحل : من الآية ٥.

(٤) سورة النحل : من الآية ٥١.

(٥) التفسير : ٥٠/٢٠ م١٠.

(٦) سورة الأعراف : ١٧٧.

(٧) التفسير : ٦٢/١٥ م٨.

(٨) ينظر التفسير : ٦٢/١٥ م٨ . سورة الحاقة : ٣٠ - ٣١.

(٩) ينظر المثل السائر : ٢١٣/٢.

وكما يرى الفخر أن تقديم المسند يكون للاختصاص يرى أنه يكون للعناية والاهتمام أيضاً فيقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ (١) : (إنما جعل : ﴿ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ ﴾ اسماً و ﴿ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ خبراً مع أن العكس أولى ؛ لأنَّ العناية هي سبب التقديم) (٢).

وهذا الوجه اختصره الفخر من الزمخشري ، وكما قلت لم يهتم الفخر بهذا النوع من التقديم ، ولم يكثر منه في تفسيره .

التقديم في المتعلقات :

التقديم هنا إما أن يكون على الفعل نفسه ، وإما أن يكون تقديم بعض المتعلقات على بعض .

وتقديم المتعلق على العامل عند الفخر إما أن يكون للاختصاص أو للعناية والاهتمام .

ولاحظت أن المتعلق الجار والمجرور لا يفيد تقديمه على الفعل إلا القصر في تفسير الفخر ، يظهر ذلك في قول موسى لقومه ثم ردهم عليه في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣).

قال الفخر : (إنما قال : ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ ولم يقل توكلوا عليه ؛ لأنَّ الأول يفيد الحصر ، كأنه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير

---

(١) سورة القصص : ٢٦ .

(٢) التفسير : ٢٤/٢٤٢ م١٢ .

(٣) سورة يونس : ٨٤ - ٨٥ .

وقد يفيد تقديم العامل على الفعل العناية والاهتمام ، وقد ذكر الفخر آيات كثيرة أفادت هذا المعنى ، وكان يكرر دائماً مقولة سيبويه التي تقول : (يقدمون الذى بيانه أهم وهم بشأنه أعنى) .

ولم يكن الفخر يجمع بين دلالة الاختصاص ودلالة العناية والاهتمام هنا متبعاً في ذلك الزمخشرى ، ولذلك فقد اعترض أبوحيان على إفادة التقديم للاختصاص ، لأنه يرى أن ذلك يتعارض مع ما قاله سيبويه من أن التقديم للعناية والاهتمام ، ولذلك رفض صوراً كثيرة من التقديم دلت على الاختصاص كما في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) ورأى أن لا تعارض بين إفادة هذين المعنيين التخصيص والعناية والاهتمام ، لأن أسرار التقديم لا تتعارض .

وقد ذكر الخطيب القزويني في التلخيص أن الاختصاص يفيد الاهتمام ، وتبعه شراح التلخيص (٢) .

ومن الآيات التي يفيد فيها التقديم العناية والاهتمام قوله تعالى : ﴿ فَرِيْقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾ (٣) يقول الفخر : (ما الفائدة في تقديم المفعولات في قوله تعالى : ﴿ فَرِيْقاً كَذَّبُوا وَفَرِيْقاً يَقْتُلُونَ ﴾ والجواب قد عرفت أن التقديم إنما يكون لشدة العناية فالتكذيب والقتل وإن كانا منكرين إلا أن تكذيب الأنبياء وقتلهم أقبح فكان التقديم لهذه الفائدة) (٤) .

---

(١) سورة الفاتحة : ٤ ، ينظر البحر المحيط : ١/٢٣-٢٤ .

(٢) ينظر شروح التلخيص : ٢/١٥٤ ومابعدها .

(٣) سورة المائدة : من الآية ٧٠ .

(٤) التفسير : ١٢/٥٩م٦ .

ومثله في إفادة الاهتمام والعناية ما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (١) والفخر هنا يذكر العلة النحوية متبعاً في ذلك الزمخشري (٢) ، ثم يربط العلة البلاغية بها .
يقول : ("أحد" مرتفع بفعل مضمر يفسره الظاهر وتقديره : وإن استجارك أحد، ولا يجوز أن يرتفع بالابتداء ، لأن "إنْ" من عوامل الفعل لا يدخل على غيره) .

ثم يقول : (فإن قيل لما كان التقدير ما ذكرتم فما الحكمة في ترك هذا الترتيب الحقيقي ، قلنا الحكمة فيه ما ذكره سيبويه وهو أنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى ، وقد بينا ههنا أن ظاهر الدليل يقتضي إباحة دم المشركين ، فقدم ذكره ليدل ذلك على مزيد العناية بصون دمه من الإهدار) (٣) فقصر التقديم على العناية فقط دون التغلغل في باطن المعنى .

ويرفض الشيخ عبد القاهر أن يرجع التقديم والتأخير للعناية والاهتمام في كل الأحوال يقول : (وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال : (إنه قدم للعناية ، ولأن ذكره أهم) من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهم ، ولتخيلهم ذلك ، قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم) (٤) .

والفخر وإن كان يكتفي بالعناية والاهتمام في وجه التقديم والتأخير أحياناً ، إلا أنه اهتم في مواضع أخرى بذكر غرض آخر بجانب العناية والاهتمام .

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٦ .
(٢) ينظر الكشاف : ٢/١٧٥ .
(٣) التفسير : ١٥/٢٣٥ م ٨ .
(٤) دلائل الإعجاز : ١٠٨ .

فقد يأتي التعجب مع العناية والاهتمام في تقديم المفعول على الفاعل كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ .. ﴾ (١).

يقول : (أما القراءة المشهورة فليس فيها إلا تقديم المفعول به على الفاعل ، ونظيره قوله : ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾ (٣) والسبب في تقديم المفعول هو أنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى ، وموضع التعجب ههنا إقدامهم على قتل أولادهم فلهذا السبب جعل هذا التقدير) (٤).

وذكر الفخر قبل هذا الكلام ، قراءة ابن عامر للآية التي تقتضي جر ﴿ شُرَكَائِهِم ﴾ لكنه ردها لكراهية الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وهذا الكلام قد نقله من كشاف الزمخشرى (٥) ، لكنه أضاف أن القراءة المشهورة هي الرفع على الفاعلية ، وأن المفعول قدم عليه للتعجب والاهتمام .

وينبغي ألا نقتصر في بيان السر البلاغي على العناية والاهتمام كما قال عبد القاهر سابقاً ، بل لا بد من معرفة دواعي الاهتمام ، والأسرار التي وراءه ؛ لأن الاقتصار على القول بأن التقديم للاهتمام أو للاختصاص لا يفسر تلك الأسرار النفسية التي يشع بها التعبير القرآني .

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٣٧ .

(٢) سورة الأنعام : من الآية ١٥٨ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ١٢٤ .

(٤) التفسير : ٢١٧/١٣ م٧ .

(٥) ينظر الكشاف : ٥٤/٢ .

وربما لا يلتفت الفخر إلى تقديم أحد المفعولين على الآخر إنما إلى تقديم متعلقه ،لأنه يفيد الاستعظام كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(١).

يقول : (قال سيبويه : إنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى ، فالفائدة فى هذا التقديم استعظام أن يتخذ لله شريك سواء كان ملكاً أوجنياً أو إنسياً أو غير ذلك ،فهذا هو السبب في تقديم اسم الله على الشركاء)(٢).

وهذا الوجه في التقديم ذكره الزمخشرى(٣) ، ولكن الفخر أضاف إليه عبارة سيبويه التي كان يُصدِّر بها حديثه عن فائدة أكثر تقديمات القرآن.

والفخر لم ينظر إلى ناحية تقديم المفعول إنما إلى تقديم لفظ الجلالة.

وقد بين عبد القاهر سر التقديم فيها بطريقته الأخاذة في الكشف عن الأسرار يقول : (ليس بخاف أن لتقديم "الشركاء" حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب أنت لا تجد شيئاً منه إن أنت أخرت فقلت : وجعلوا الجن شركاء لله. ... بيانه أنا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ،وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فإن تقديم "الشركاء" يفيد هذا المعنى ،ويفيد معه معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك ،لا من الجن ولا غير الجن.)(٤)

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٠.

(٢) التفسير : ١٣/ ١٢٠ م٧.

(٣) ينظر الكشاف : ٢/ ٤٠.

(٤) دلائل الإعجاز : ٢٨٦.

وقد أخذ الفخر هذا الوجه من عبد القاهر وبثه في كتابه نهاية الإيجاز[1] ورد الخطيب القزويني على السكاكي الذى ذكر أن التقديم في هذه الآية للعناية والاهتمام ، وقال إن ذلك لا يجوز ؛ لأن تقديم الشركاء مسوق للإنكار ، فيمتنع أن يكون تقديم (لله) للعناية دون تعلقها بـ " شركاء "[2].

ثم يرد ابن السبكي على الخطيب وينتصر للسكاكي ، ويقول : إن القول بالاهتمام لا يتعارض مع التوبيخ والإنكار ؛ لأن كل واحد من المفعولين متعلق بالآخر ، والعناية قد تشتد بأحدهما فيقدم ؛ لأن هناك عناية عامة بالتوبيخ وعناية خاصة بالله[3].

ومهما يكن من اختلافات في الآراء فإن التقديم يفيد الاهتمام بأمر الشركاء وإنكار اتخاذهم.

ولا يرى الفخر أن تكون القراءة بالفتح في قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[4] على أن يكون مفعولاً لفعل محذوف ؛ لأنه لو كان مفعولاً لكانت العناية بالقطع، ثم اختار قراءة الرفع التي تعني أن العناية والاهتمام في الآية بحال السارق والمبالغة في تقبيح فعله.

يقول الفخر : (إن سيبويه قال : هم يقدمون الأهم فالأهم والذى هم بشأنه أعنى ، فالقراءة بالرفع- تقتضي أن يكون أكبر العناية مصروفاً إلى شرح ما يتعلق بحال السارق من حيث أنه سارق ، أما القراءة بالنصب

---

(١) ينظر نهاية الإيجاز : ٣١٥.

(٢) ينظر الإيضاح : ٢١٢.

(٣) ينظر عروس الأفراح : ٢/١٦٤-١٦٥.

(٤) سورة المائدة : من الآية ٣٨.

فإنها تقتضي أن تكون العناية ببيان القطع أتم من العناية بكونه سارقاً ، ومعلوم أنه ليس كذلك ، فإن المقصود في هذه الآية بيان تقبيح السرقة والمبالغة في الزجر عنها فثبت أن القراءة بالرفع هي المتعينة قطعاً والله أعلم.)[١]

قال الفخر هذا وهو يرد على سيبويه الذى عين القراءة في الآية بالنصب ، وأبطل قوله من خمسة وجوه .

وقد رد أبوحيان على الفخر رداً عنيفاً واتهمه بالجهل وعدم فهمه لكلام سيبويه ، ونقض كل ما رد به على سيبويه وجهاً وجهاً.[٢]

وتتعاطف جملتان فيتقدم في إحداهما المفعول على الفعل دون الأخرى لشهرته كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾[٣] يقول في سبب تقديم فريقاً في موضع وتأخيره في الآخر :

(... إن ما من شيء في القرآن إلا وله فوائد منها ما يظهر ، ومنها ما لا يظهر ، والذى يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم ، والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب ، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل يبدأ وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والضعفاء ، ولم يكونوا مشهورين ، والسبي والأسر أظهر من القتل ، لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم في المحلين ما هو أشهر من الفعل القائم به ، وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخفى) .[٤]

وهذا ملحظ جيد لسر التقديم ، تفرد به الفخر ، وأخذه منه الألوسي .

---

(١) التفسير : ٢٣٠/١١ م٦ .

(٢) ينظر البحر المحيط : ٤٧٦/٣ ومابعدها .

(٣) سورة الأحزاب : من الآية ٢٦ .

(٤) التفسير : ٢٠٥/٢٥ م١٣ .

وكثير ممن يتناول هذه الآية يذكر هذا الوجه وينسبه للآلوسي [1] دون التنبه إلى أنه للفخر ، وللبقاعي في هذا التقديم وجه خلاب حسن، قال فيه إن التعبير بلفظ فريق وتقديمه للدلالة على أنهم طوع لأيدي الفاعلين ،وأن القوم توزعوا بين القتل والأسر ، ففي جانب القتل فريق ،وفي جانب الأسر فريق ، وقد تجاور القتل والأسر ،وهما الفعلان اللذان يشفيان غليل القوم من أعدائهم، وقد قدم أعظم الأثرين الناشئين عن الرعب وأولاه الأثر الآخر ليصير الأثران المحبوبان محفوفين بما يدل على الفرقة.[2]

وهكذا فالتقديم هنا يفيض بكثير من المعاني ،فكل متأمل يلحظ ما لا يلحظه غيره ، وقد قيل إن في التقديم والتأخير موافقة لفواصل الآيات السابقة واللاحقة ،لأن السورة بنيت على حروف المد واللين ،وفيهما من التنغيم ما له أثر بعيد في انطلاق الأنفاس اللاهثة في المواقف المختلفة ، وهذا يلائم موضوعات السورة .[3]

وتظهر عناية الفخر ببيان أثر التقديم على النفس ،فنراه يرصد حركة النفس وهي تتلقى هذا النوع من الأساليب ، ويصف حالات الإحساس به ، وما يثيره في النفس من معاني ،فهو لم يكتف بضبط المسألة من أفواه النحاة والبلاغيين ،بل يتتبع طريق الإحساس بما قالوه .

من ذلك أنه يبين سبب تقديم المفعول وتأخيره في الآية السابقة

---

(١) ينظر من أسرار التعبير القرآني ،د . محمد أبو موسى : ١٤٥ ،من الإعجاز البلاغي للقرآن ،د . صبّاح دراز : ١٢٣ .

(٢) تناسب الدرر في مناسبة الآيات والسور : ١٥/٣٣٣ .

(٣) ينظر من أسرار التعبير القرآني ،د . محمد أبو موسى : ١٤٦ .

﴿ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ﴾ ومناسبة كل منهما لموقعه يقول : (إنه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم ، وأنه قذف في قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون إلى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان ، وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم أنهم هم المقتولون ، فأما إذا قال فريقاً مع سبق في قلوبهم الرعب إلى سمعه يستمع إلى تمام الكلام ، وإذا كان الأول فعلاً ومفعولاً قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها في الأصل ، فعدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم ، إذا عرف حالهم وما يجيء بعده يكون مصروفاً إليهم ، ولو قال بعد ذلك : وفريقاً تأسرون فمن سمع فريقاً ربما يظن أن يقال فيهم يطلقون أو لا يقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى)[1].

فتقديم المفعول الأول يناسب ما سبقه من كلام ، وتقديم الفعل في الجملة الثانية يناسب ما سبقه من الجملة الأولى .

ويقول في موضع آخر وهو يبين الغرض من تقديم الجنات في قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[2] يقول : (فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذى هو الدخول وإعادة ذكره بالهاء في يدخلونها ؟ وما الفرق بين هذا وبين قول القائل يدخلون جنات عدن ؟ نقول : السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المداخل ، فإذا قيل له : أنت تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أى المداخل يكون ، فإذا قيل له : دار زيد تدخلها فبذكر الدار يعلم مدخله ،

---

(١) التفسير : ٢٥/٢٠٥-٢٠٦ م١٣ .
(٢) سورة فاطر : ٣٣ .

وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولاً يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار، فإن بين المدخلين بوناً بعيداً)[١].

ومثل هذا الربط لم يهتم به كثير من المفسرين والدارسين لبلاغة القرآن. وقد اهتم عبد القاهر قبله بربط التقديم بالنفس في قوله : (فإذا قلت " عبد الله " فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً " قام " أو قلت " خرج " أو قلت " قدم " فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له، وقدمت الإعلام فيه، فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة، وأمنع للشك وأدخل في التحقيق)[٢] وتأمل دراساته في بقية أبواب البلاغة تجده يستل خيوطها من النفس وإحساسها كما في باب الحذف وغيره.

ويعد الفخر امتداداً لعبد القاهر ثم للزمخشري الذى اهتم بهذا النوع من الدراسة.

وتبرز عناية الفخر ببيان أسرار تقديم بعض المعمولات على بعض، وهي تمثل الجزء الأكبر من باب التقديم عنده، وسأذكر بعضها -إن شاء الله- مما يجلى لنا طريقته في الدراسة.

فمن ذلك أنه يبين لنا سر تقديم هارون على موسى في قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[٣] يقول : (إنهم قدموا ذكر هارون على موسى، لأن فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى بناءً على أنه

---

(١) التفسير : ٢٦/٢٦ م١٣.

(٢) دلائل الإعجاز : ١٣٢.

(٣) سورة طه : ٧٠.

رباه في قوله : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ (١) فالقوم لما احترزوا عن إيهامات فرعون لا جرم قدموا ذكر هارون على موسى قطعاً لهذا الخيال) . (٢)

وقد تعرض الباقلاني لهذه الآية فقال : إن الذين يثبتون السجع في القرآن ، يردون سبب تقديم هارون على موسى إلى مراعاة الفواصل لمكان السجع ، ثم ينفي الباقلاني ذلك ، ويرجع تقديم هارون هنا وتأخيره في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ (٣) لفائدة أخرى وهي : إنَّ إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة ، تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب ، الذي تظهر به الفصاحة ، وتتبين به البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة ، على ترتيبات متفاوتة ، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً) . (٤)

ويدفع أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى أن يكون هذا سبباً للتقديم ، فيقول : (جواب الباقلاني ليس هو الجواب) ثم يجتهد في ذكر سبب آخر أبر بمعنى الآية ، وهو أن بدء هم بهارون مع أنه ليس هو الغالب ، ولم تظهر الحجة على يده ، ولم يؤمر بتبليغ أمر الله دال على إظهار قوة الاقتناع بالحجة والإيمان بها (٥) ، وما ذكره الفخر وجه حسن ، ففي التقديم قطع لظن فرعون الذي يدعي ربوبيته لموسى أنه هو المقصود بإيمانهم .

ومن العلماء من رد سر التقديم إلى كبر سن هارون على موسى ولذلك قدم في الكلام . (٦)

---

(١) سورة الشعراء : من الآية ١٨ .

(٢) التفسير : ٨٧/٢٢ م ١١ .

(٣) سورة الأعراف : ١٢٢ .

(٤) إعجاز القرآن : ٨٧ - ٨٨ .

(٥) ينظر الإعجاز البلاغي : ١٩٨ - ١٩٩ .

(٦) ينظر البحر المحيط ، لأبي حيان : ٦ / ٢٦١ - روح المعاني ، للألوسي : ١٦ / ٢٣٠ .

وأرى أن هذا ليس هو الوجه الذى يتناسب على فصاحة القرآن ، والفخر من الذين ينفون السجع عن القرآن ، لذلك يدفع أن يكون سبباً لبلاغة أساليب القرآن .

وينفى الفخر في موضع آخر من التفسير قول المفسرين بأن التقديم من أجل توخي أواخر الآيات ، لأنه يعني إثبات السجع المتكلف للقرآن والالتفات إلى التحسين اللفظي دون المعنى ، فيقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الحَرُورُ ﴾ (١) : (قدم الأشرف في مثلين وهما الظل والحرور ، وأخره في مثلين وهو البصر و النور ، وفي مثل هذا يقول المفسرون : إنه لتوخي أواخر الآى وهو ضعيف ؛ لأن توخي الأواخر راجع إلى السجع ، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع ، فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعنى ، وأما القرآن فحكمة بالغة والمعنى فيه صحيح ، واللفظ صحيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى) (٢) .

وللفخر موقف من إثبات السجع في القرآن ونفيه ، سأتناوله بالدراسة لاحقاً - إن شاء الله - في مبحث الفواصل .

وبعد أن نفى الفخر عود التقديم إلى الفواصل عاد فذكر سراً للتقديم فقال : (فنقول: الكفار قبل النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في ضلالة فكانوا كالعمى وطريقهم كالظلمة ، ثم لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم و بين الحق ، واهتدى به منهم قوم فصاروا بصيرين ، وطريقتهم كالنور فقال وما يستوى من كان

---

(١) سورة فاطر : ١٩-٢٠-٢١ .

(٢) التفسير : ٢٦/١٧م١٣ .

قبل البعث على الكفر ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ،فلما كان الكفر قبل الإيمان في زمان محمد صلى الله عليه وسلم ،والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ،ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب) .(١)

وأقول : إنه لا يخل بفصاحة القرآن إن قلنا أن التقديم جاء لبيان سبق رحمته تعالى ،ولمراعاة الفاصلة ومناسبتها لما سبق ؛لأن القرآن بُني على لغة العرب ،وكان التنغيم أساساً في هذا البناء ، ولقد التفت سلف هذه الأمة إلى هذه الناحية ،فدرسوا أصوات الحروف ،وما تولده من ألحان ذات معاني تختلف تبعاً لاختلاف المواقف والأحوال .

وللرافعي كلام جيد في فواصل الآيات يقول فيه : (وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلّا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ،وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت،والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه من العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها أو بالمد ،وهو كذلك طبيعي في القرآن) .(٢)

وللفخر نص يشير فيه إلى أن التقديم والتأخير سواء في الكلام الفصيح فلا يطلب له فائدة ،ثم لا يلبث أن يذكر سراً للتقديم .

ذكر ذلك وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾(٣) فقال : (قدم موسى ههنا ولم يقل كما قال

---

(١) المصدر السابق الجزء والصفحة .

(٢) إعجاز القرآن : ٢١٧ .

(٣) سورة النجم : ٣٦ - ٣٧ .

في : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ فهل فيه فائدة ؟ نقول مثل هذا في كلام الفصحاء لا يطلب له فائدة ،بل التقديم والتأخير سواء في كلامهم فيصح أن يقتصر على هذا الجواب، ويمكن أن يقال أن الذكر هناك لمجرد الإخبار والإنذار ،وههنا المقصود بيان انتفاء الأعذار ،فذكر هناك على ترتيب الوجود صحف إبراهيم قبل صحف موسى في الإنزال ،وأما ههنا فقد قلنا إن الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم) .(١)

وأفهم من قوله : (يمكن أن يقال ...) عدم اقتناع بالبحث عن سر التقديم عند البلغاء ،ومثل هذا التناقض أمر قد اعتدنا عليه من الفخر ونلاحظ أن قوله : (التقديم والتأخير سواء في كلام الفصحاء) يتعارض مع قوله السابق : (فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ إلا لمعنى) . فمن الخطأ أن نقول إن التقديم يفيد مرة ولا يفيد أخرى ،وإلى ذلك أشار عبد القاهر فقال : (واعلم أن من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين ، فيجعل مفيداً في بعض الكلام ، وغير مفيد في بعض ، وأن يعلل تارة بالعناية، وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب ،حتى تطرد لهذا قوافيه ولذلك سجعه، وذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى) .(٢)

ويتتبع الفخر تقديم بعض الكلمات والجمل وتأخيرها في القرآن في مواطن كثيرة ،فيبين أن مجيئها مقدمة في آية ومؤخرة في أخرى ، فيه مراعاة لسياق الآية الواردة فيه.

فيقدم السمع عند ذكر النعمة ويؤخره عند ذكر النقمة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ ﴾(٣) : (لم قدم

---

(١) التفسير : ٢٩/١٤ م ١٥ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١١٠ .

(٣) سورة السجدة : من الآية ٩ .

السمع ههنا والقلب في قوله تعالى : * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ *(١) ... وذلك لأن عند الإعطاء ذكر الأدنى وارتقى إلى الأعلى فقال : أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب ، وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع)(٢).

ويقدم الجن على الإنس عند ذكر النفوذ من السماوات والأرض ، ويقدم الإنس عند تحديهم بالإيتاء بمثل القرآن .

يقول في قوله تعالى : * يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ إِن اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا ... *(٣).

: (ما الحكمة في تقديم الجن على الإنس ههنا ، وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى : * قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ *(٤) ؟ نقول : النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن ، والإتيان بمثل القرآن بالإنس أليق إن أمكن فقدم في كل موضع من يظن به القدرة على ذلك)(٥).

ويقدم المال على النفس في آية ويؤخر في أخرى لغرض يناسب السياق يقول في قوله تعالى : * فَضَّلَ اللَّهُ المُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً *(٦) : (لقائل أن يقول إنه تعالى قال : * إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم *(٧) فقدم ذكر النفس على المال ،

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٧ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٧٦م ١٣ .

(٣) سورة الرحمن : من الآية ٣٣ .

(٤) سورة الإسراء : من الآية ٨٨ .

(٥) التفسير : ٢٩/١١٤م ١٥ .

(٦) سورة النساء : من الآية ٩٥ .

(٧) سورة التوبة : من الآية ١١١ .

وفي الآية التي نحن فيها وهي قوله : ﴿ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ قدم ذكر المال على النفس فما السبب فيه ؟ وجوابه أن النفس أشرف من المال ، فالمشتري قدم ذكر النفس تنبيهاً على أن الرغبة فيها أشد ، والبائع أخر ذكرها تنبيهاً على أن المضايقة فيها أشد فلا يرضى ببذلها إلا في آخر المراتب) .(١)

ويأتي التقديم لأغراض أخرى ، فقد تقدم أعمال القلوب على أعمال الجوارح لأهميتها كما في قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. ﴾(٢) : (وإنما قدم الله تعالى ذكر تقليب الأفئدة على تقليب الأبصار لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب ... أما السمع والبصر فهما آلتان للقلب كانا لا محالة تابعين لأحوال القلب ، فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر تقليب القلوب في هذه الآية ..) .(٣)

وكما في قوله تعالى : ﴿ ... فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾(٤) : (علل تعالى ذلك العذاب بأمرين : أولهما : الاستكبار والترفع وهو ذنب القلب ، والثاني : الفسق وهو ذنب الجوارح ، وقدم الأول على الثاني لأن أحوال القلوب أعظم وقعاً من أعمال الجوارح) .(٥)

ويكون التقديم للرتبة ، فمرتبة الإيمان أعلى من مرتبة الإسلام كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾(٦) : (وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام لأن

---

(١) التفسير : ١١/٨ م٦ .
(٢) سورة الأنعام : من الآية ١١٠ .
(٣) التفسير : ١٣/١٥٥ م٧ .
(٤) سورة الأحقاف : من الآية ٢٠ .
(٥) التفسير : ٢٨/٢٥ م١٤ .
(٦) سورة المائدة : ١١١ .

الإيمان صفة القلب ،والإسلام عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر ..)[١].

ومثله قوله تعالى : ﴿ ... وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ... ﴾[٢] : (التسبيح مقدم عن التحميد ،لأن التسبيح عبارة عن تنزيه الله تعالى عما لا ينبغي،والتحميد عبارة عن وصفه بكونه مفيضاً لكل الخيرات ،وكونه منزهاً في ذاته عما لا ينبغي مقدم بالرتبة على كونه فياضاً للخيرات)[٣].

ويكون التقديم للارتقاء من الأدنى إلى الأعلى كما في قوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾[٤] : (لم قدم طلب الرزق على طلب الإطعام ؟ نقول : ذلك من باب الارتقاء كقول القائل : لا أطلب منك الإعانة ، ولا من هو أقوى ،ولا يعكس ويقال : فلان يكرمه الأمراء بل السلاطين..)[٥]

ومثله قوله تعالى : ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾[٦] : (ما الحكمة في تقديم الفاكهة على القوت ؟ نقول : هو باب الابتداء بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى ،والفاكهة في النفع دون النخل الذى منه القوت ..)[٧].

وتقدم العلة على المعلوم أو السبب على المسبب ،كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[٨] يقول الفخر : (وإنما قدم الأمر بتقوى الله تعالى على الأمر

---

(١) التفسير : ١٣٦/١٢ م٦.
(٢) سورة الشورى : من الآية ٥.
(٣) التفسير : ١٤٦/٢٧ م١٤.
(٤) سورة الذاريات : ٥٧.
(٥) التفسير : ٢٣٤/٢٨ م١٤.
(٦) سورة الرحمن : ١١.
(٧) التفسير : ٩٤/٢٩ م١٥.
(٨) سورة الشعراء : ١٠٦-١٠٨

بطاعته ،لأن تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول)[1] .

وقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهِم مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ... ﴾[2] : (إنما ذكر اللعب مقدماً على اللهو كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تنبيهاً على أن اشتغالهم باللعب الذى معناه السخرية والاستهزاء معلل باللهو الذى معناه الذهول والغفلة)[3] .

ويقدم في القرآن من هو أشد حاجة عن غيره ،فاليتيم أشد حاجة من المسكين ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ ﴾[4] يقول الفخر: (إنما قدم اليتامى على المساكين لأن ضعف اليتامى أكثر،وحاجتهم أشد ،فكان وضع الصدقات فيهم أفضل وأعظم في الأجر)[5] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ﴾[6] .

وقد يقدم اللقب على الاسم لعلو الدرجة وعظم المنزلة ،كما في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[7] يقول : (المسيح كاللقب الذى يفيد كونه شريفاً رفيع

---

(١) التفسير : ٢٤/١٥٥ م١٢ .

(٢) سورة الأنبياء : ٢ ومن الآية ٣ .

(٣) التفسير : ٢٢/١٤١ م١١ .

(٤) سورة النساء : من الآية ٨ .

(٥) التفسير : ٩/٢٠٤ م٥ .

(٦) سورة النساء : من الآية ٣٦ .

(٧) سورة آل عمران : من الآية ٤٥ .

الدرجة مثل الصديق والفاروق ،فذكره الله تعالى أولاً بلقبه ليفيد علو درجته ثم ذكره باسمه الخاص).[1]

وقد يلجأ الفخر إلى الطبيعيات والكونيات وعلم الهيئة للكشف عن سبب التقديم .

من ذلك أنه يرجع تقديم السموات على الأرض إلى أن السماء كالدائرة بالنسبة للأرض يقول في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾[2] : (لم قدم ذكر السماء على الأرض مع أن ظاهر التنزيل يدل على أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء ؟ والجواب : السماء كالدائرة والأرض كالمركز وحصول الدائرة يوجب تعيين المركز ولا ينعكس ،فإن حصول المركز لا يوجب تعيين الدائرة لإمكان أن يحيط بالمركز الواحد دوائر لا نهاية لها).[3]

هذا غيض من فيض له نظائر يمتلئ بها التفسير ،اكتفيت بذكر بعضها لأنني -كما قلت سابقاً - لا أهدف من هذه الدراسة إلى الاستقصاء الشامل إنما أتوخى بيان طريقته في دراسة أبواب علم المعاني .

---

(١) التفسير : ٨/٥٥ م٤ .

(٢) سورة الأنعام : من الآية ١ .

(٣) التفسير : ١٢/١٥٧ م٦ .

الاستفهام

عرض الفخر الرازى لكثير من قضايا الاستفهام وهو يتناول الآيات القرآنية بالشرح والتوضيح . فقد تحدث عن أثر الاستفهام وفائدته فى الكلام ، وعن المعاني والأسرار البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام ، وسماها معاني مجازية ، كما تناول الاستفهام الذى ذكر معه جوابه وفائدته ، والاستفهام الداخل على الواو أو الفاء .

أثر الاستفهام في الكلام :

للفخر عبارات في تفسيره تبين قيمة الاستفهام ، وأثره في أداء المعنى ، وأوضح أسراره عنده أنه يثبت المعنى في النفس ، ويرسخه فيها و يزيده إيضاحاً .

يذكر ذلك عند قوله تعالى : * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * (١) يقول :

(ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام والجواب إن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام و تفويض الجواب إلى المسئول كان ذلك أوقع في القلب) (٢) .

وله عبارات يذكر فيها أن أسلوب الاستفهام أبلغ في أداء المعنى مجرداً عنه . فالاستفهام الذى يفيد النفي أبلغ من أسلوب النفي ذاته .

وقد ركز الفخر في كلامه على بيان الدلالات النفسية التي يشيعها الاستفهام في الكلام . ويقارنه بدلالات غيره من أساليب الإنشاء كالنهي

---

(١) سورة يونس : ٣٤ .

(٢) التفسير : ٩٣/١٧ م ٩ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ (١) : (ذكره على طريق الاستفهام فيه معنى وضوح الأمر، وذلك أن من أخبر عن شيء فقال مثلاً : " لا اتخذ " يصح من السامع أن يقول له : لِمَ لا تتخذ فيسأله عن السبب ، فإذا قال : " أأتخذ " يكون كلامه أنه مستغن عن بيان السبب الذى يطالب به عند الإخبار ، كأنه يقول استشرتك فدلني والمستشار يتفكر ، فكأنه يقول تفكر في الأمر تفهم من غير إخبارمني) (٢) .

ويقول أيضاً في موضع آخر، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ (٣) : (وقد تقدم أن النفي بطريق الاستفهام أبلغ ، لأن من قال : ما أنزل عليه الذكر - بما يعلم أو يظن أو يتوهم أن السامع يكذبه فيه ، فإذا ذكر بطريق الاستفهام يكون معناه أن السامع يجيبني بقوله : " ما أنزل " فيجعل الأمر حينئذ منفياً ظاهراً لا يخفى على أحد بل كل أحد يقول ما أنزل) (٤) ففي الاستفهام توجيه السؤال إلى السامع وحمله على الإقرار بالنفي .

وفي موضع آخر يكشف عن فقه الاستفهام حين يأتي بدلاً عن جملة الخبر وما يفيده من معاني ، ويحاول هنا أن يتتبع حركة النفس وهي تتلقى هذا الأسلوب. يذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ (٥) يقول : (قوله : ﴿ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ جملة استفهامية

---

(١) سورة يس : ٢٣ .
(٢) التفسير : ٢٨/٥٧ م١٣ .
(٣) سورة القمر : ٢٥ .
(٤) التفسير : ٢٩/٥١ م١٥ .
(٥) سورة الواقعة : ٨ .

على معنى التعجب كما تقول لمدعي العلم: ما معنى كذا ؟ مستفهماً متحنناً زاعماً أنه لا يعرف الجواب حتى إنك تحب وتشتهي ألا يجيب عن سؤالك ولو أجاب لكرهته ؛ لأن كلامك مفهوم ، فكأنك تقول إنك لا تعرف الجواب ، إذا عرفت هذا فكأن المتكلم في أول الأمر مخبر [١] ، ثم لم يخبر بشيء ؛ لأن في الإخبار تطويلاً ثم لم يسكت ، وقال ذلك متحنناً زاعماً أنك لا تعرف كنهه . .) [٢] .

ثم يصل كلامه هذا بالحديث عن أغراض حذف الخبر ، ويدعمه بالأمثلة - وسأذكره - إن شاء الله - في بابه ، ثم يخرج مرة ثانية إلى الآية . وهذه الطريقة شائعة في تفسيره ، إذ أنه يذكر الآية ثم يحدد الباب الذي هي منه ويشرح القاعدة ، ثم يعود إلى الآية ويطبق عليها القاعدة .

وفي هذه الآية يذكر السبب في عدم حذف الخبر ومجيئه استفهاماً يقول : (إذا علم هذا فنقول لما قال : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ كأنه يريد أن يأتي بالخبر فسكت عنه ، ثم قال في نفسه إن السكوت قد يوهم أنه لظهور حال الخبر ، كما يسكت عن زيد في جواب من جاء فقال : ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ متحنناً زاعماً أنه لا يفهم ليكون ذلك دليلاً على سكوته على المبتدأ [٣] لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه وغرابته ، وهذا وجه بليغ) [٤] .

ويبدو هنا تأثره الواضح بعبد القاهر الذي حرص على وصف أحوال النفس ، وإحساسها وهي تتلقى أسلوب الاستفهام .

---

(١) في التفسير (مخبراً) وهو خطأ والصحيح ما أثبته لأنه خبر كان .

(٢) التفسير : ١٤٥/٢٩ م١٥ .

(٣) الظاهر أن العبارة (ليكون ذلك دليلاً على سكوته على الخبر) وليس المبتدأ ؛ لأن ما حذف هو الخبر .

(٤) التفسير : ١٤٥/٢٩ م١٥ .

تأمل عبارة عبد القاهر وهو يقول : (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في هذا بالإنكار فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه ويرتدع ويعيا بالجواب ،إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ،فإذا ثبت على دعواه قيل له : فافعل فيفضحه ذلك ، وإما لأنه همَّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ،وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله ،فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته ،وقيل له : فأرناه في موضع وفي حال، وأقم شاهداً على أنه كان في وقت ..) .[1]

المعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام :

وقف الفخر عند كثير من أساليب الاستفهام في القرآن ،وكشف عن معانيها التي خرجت إليها ،وبين أن إفادة أداة الاستفهام لهذه المعاني جاء على طريق المجاز ،وكان يحدد هدف الاستفهام ثم يبين معناه الذى خرج إليه كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً ﴾[2] : (ليس باستفهام بل هو إنكار...) .[3]

ونقل قول الزمخشرى في أن معنى الاستفهام ينسلخ عن الأداة ويراد بها معنى آخر يقول : (الهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستفهام وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً ،قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء كقوله : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام ،كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء)[4] والزمخشرى نقل هذا الكلام عن سيبويه كما هو واضح .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٢٠ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٨٠ .

(٣) التفسير : ٣/١٥٣ م٢ .

(٤) التفسير : ٢/٤٦ م١ .

ويعد الفخر أول من سمى المعاني التي يفيدها الاستفهام معاني مجازية -على حسب علمي - فيقول إنها قد تقوم على المشابهة.

يقول في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [(١)] :

(" ما " لفظة وضعت لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها ،تقول ما الملك ؟ ، وما الروح ؟ وما الجن ؟ والمراد طلب ماهياتها ،وشرح حقائقها ،وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً ، فحصل بين الشيء المطلوب بلفظ " ما " وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه ،والمشابهة إحدى أسباب المجاز، فبهذا جعل "ما" دليلاً على عظمة حال ذلك المطلوب وعلو رتبته) [(٢)].

ويشير إلى أن الاستفهام من المجاز دون أن يوقفنا على نوعه أو علاقته.

كما في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [(٣)] : (واعلم أن هذا وإن كان استفهاماً في الظاهر ،إلاّ أن المراد منه هو النهي في الحقيقة، وإنما حسن هذا المجاز ،لأنه تعالى ذم هذه الأفعال ،وأظهر قبحها للمخاطب فلما استفهم بعد ذلك عن تركها لم يقدر المخاطب إلا على الإقرار بالترك ، فكأنه قيل له : أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما قد ظهر ؟ ، فصار قوله : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ جارياً مجرى تنصيص الله تعالى على وجوب الانتهاء مقروناً بإقرار المكلف بوجوب الانتهاء) [(٤)].

ويعني بقوله : (المراد منه هو النهي في الحقيقة) أى الانتهاء عن هذا الأمر وإن كان الظاهر أنها أمر لا نهي ،ولم يقل أحد قبل الفخر - فيما أعرف - بأن الاستفهام حين يخرج عن معناه يدخل تحت المجاز.

---

(١) سورة النبأ : ١-٢.

(٢) التفسير : ٣١/٣-٤ م١٦.

(٣) سورة المائدة : من الآية ٩١.

(٤) التفسير : ١٢/٨٦-٨٧ م٦.

وقد ظهر هذا القول بوضوح عند المتأخرين من شراح التلخيص وأصحاب الحواشي، فيقول العلامة سعد الدين التفتازاني الذى كشف عن جزء من هذه المسألة المجازية عند شرح عبارة التلخيص : (ثم إن هذه الكلمات كثيراً ما تستعمل في غير الاستفهام) [1] (وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله) [2].

ثم حاول السيد الشريف الجرجاني بعده بيان علاقات المجاز في كثير من الآيات، وتكلف في ذلك تكلفاً، يقول : (قال مما لم يحم أحد حوله أقوال وذلك لصعوبة بيان علاقة المجاز، وكيفية المناسبة المجوزة له، ونحن نذكر في هذه المواضع ما يتضح به وجه المجاز فيها، وتستعين به فيما عداها) [3].

ثم حاول إيجاد العلاقة بين معنى الاستفهام وما يفيده في بعض الآيات، ولم يبين نوع المجاز ولا قرينته.

وجاء بعده ابن يعقوب المغربي، فسمى المجاز في خروج الاستفهام مجازاً مرسلاً [4]، وأخذ عليه كثرة ذكر الوسائط التي يقدرها في جهة التجوز وعلاقته [5].

وأرى أن هذه المعاني المجازية ليست سبباً في بقاء الاستفهام قوياً وراء كل معنى من المعاني ؛ لأن مزية الاستفهام تبرز فيما يثيره هذا الأسلوب من خطرات ومعاني تتكاثر ولا تتقيد، ولا دخل لهذه المعاني فيها. ذلك

---

(١) التلخيص : ١٦٤.

(٢) المطول : ٢٣٥.

(٣) حاشية المطول : ٢٣٥.

(٤) ينظر مواهب الفتاح (ضمن شروح التلخيص) : ٢/ ٢٩٠ ومابعدها.

(٥) ينظر المجاز في اللغة والقرآن الكريم، د. عبد العظيم المطعني : ١/ ٤١٧-٤١٨.

أن عبد القاهر ذكر أن الاستفهام لم يستعمل في الإنكار أو التقرير ولا في غيره من المعاني إلا للتنبيه يقول : (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع)(١) وهذا التنبيه كفيل بإبراز كثير من المعاني .

وقد كثر حديث الفخر عن المعاني التي يفيدها الاستفهام ، وسأذكر بعضها حتى تتضح طريقته في استنباط هذه المعاني .

ولاحظت أنه كان في بعض الأحيان يذكر الفائدة في التعبير عن المعنى بهذا الأسلوب الاستفهامي خاصة.

فالاستفهام قد يفيد الإنكار كما في قوله تعالى : * أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُم ... *(٢) يقول : (المقصود من هذا الاستفهام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه ، لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التنكير والتبكيت)(٣) .

وقد يفيد التقرير كما في قوله تعالى : * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ *(٤) : (الاستفهام للتقرير المؤكد ، فإنه لو قال على سبيل الإخبار : "عسيتم إن توليتم" لكان المخاطب أن ينكره ، فإذا قال بصيغة الاستفهام كأنه يقول أنا أسألك عن هذا ، وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بلا أو نعم فهو مقرر عندك وعندى)(٥) .

---

(١) دلائل الإعجاز : ١١٩ . وينظر دلالات التراكيب د . محمد أبو موسى ٢٢٧-٢٢٩ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٠٠ .

(٣) التفسير : ٣/٢١٧ م٢ .

(٤) سورة محمد : ٢٢ .

(٥) التفسير : ٢٨/٦٤ م١٤ .

وقد يأتي الاستفهام في معرض التقرير ليفيد الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ... ﴾ (١)

يقول الفخر : (قال تعالى : ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ فهو استفهام في معرض التقرير،والمقصود منه الأمر ،قال النحويون : إنما جاء بالأمر في صورة الاستفهام لأنه بمنزلته في طلب الفعل والاستدعاء إليه ،إلا أن في التعبير عن معنى الأمر بلفظ الاستفهام فائدة زائدة ،وهي التعبير بكون المخاطب معانداً بعيداً عن الإنصاف ،لأن المنصف إذا ظهرت له الحجة لم يتوقف بل في الحال يقبل ،ونظيره قولك لمن لخصت له المسألة في غاية التلخيص والكشف والبيان ،هل فهمتها ؟ فإن فيه الإشارة إلى كون المخاطب بليداً قليل الفهم) (٢).

وقد تنبه الفخر هنا إلى ما يثيره الاستفهام من معاني أرحب وأغزر من أن نحددها ،وأن المعاني التي يشير إليها لا نستطيع الإحاطة بها .

وقد يأتي الاستفهام للتعجب كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ... ﴾ (٣).

يقول الفخر : (كلمة تعجب أي لأي وجه ولأي معنى تفعلون هذا ؟ فإنها بذلت نفسها لك ،وجعلت ذاتها لذاتك وتمتعك،وحصلت الألفة التامة) (٤).

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٢٠ .

(٢) التفسير : ٢٢٧/٧ م٤ .

(٣) سورة النساء : من الآية ٢١ .

(٤) التفسير : ١٧/١٠ م٥ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾.(١)

يقول الفخر : (قوله : ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ فالمراد التعجب منهم في الذهاب عن هذا الأمر الواضح الذى دعاهم الهوى والتقليد أو الشبهة الضعيفة إلى مخالفته ،لأن الإخبار عن كون الأوثان آلهة كذب وإفك).(٢)

وقد يفيد التبكيت والتهكم كما في قوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.(٣)

يقول الفخر : (.. قوله : ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الأصنام على عبادة الله،ولا يؤثر عاقل شيئاً على شيء إلاّ لزيادة خير ومنفعة ،فقيل لهم هذا الكلام تنبيهاً على نهاية ضلالهم وجهلهم).(٤)

ويأتي الاستفهام لتعظيم ما عمل من عمل كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ ﴾.(٥)

يقول الفخر : (استفهام يفيد تعظيم الواقعة ،ومعناه ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف ،وما أقبح ما أقدمتم عليه ، وهوكما يقال للمذنب : هل تدرى من عصيت ، وهل تعرف من خالفت ؟).(٦)

---

(١) سورة يونس : ٣٤.
(٢) التفسير : ٩٣/١٧ م٩.
(٣) سورة النمل : ٥٩.
(٤) التفسير : ٢٠٥/٢٤ م١٢.
(٥) سورة يوسف : من الآية ٨٩.
(٦) التفسير : ٢٢٣/١٠ م٥.

وتدخل الهمزة على النفي فتفيد التقرير في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .. ﴾ (١)

يقول الفخر: (... إنه استفهام بمعنى التقرير، قال الشاعر :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ (٢)

وقد عده الخطيب القزويني من شواهد مجيء الهمزة للإنكار وذكر معها قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ، ثم يقول : أي الله كاف عبده، وأنتم خير من ركب المطايا ، لأن نفي النفي إثبات وهذا مراد من قال : إن الهمزة فيه للتقرير ، أي للتقرير بما دخله النفي ، لا للتقرير بالانتفاء) (٣) .
ويعني بذلك أن الإنكار إذا دخل على النفي كان لنفي النفي وهو إثبات ، والخطيب هنا كان أكثر تفصيلاً وتوضيحاً للمسألة .

ويرى الفخر كغيره من البلاغيين أن المستفهم عنه هو ما يلي الهمزة فيلحظ تغير المعنى بتغير بناء الجملة مع الاستفهام ، قال في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٤) : (فرق بين قولك أتستهزئ بالله ، وبين قولك أبالله تستهزئ ، فالأول يقتضي الإنكار على عمل الاستهزاء ، والثاني يقتضي الإنكار على إيقاع الاستهزاء ، ولكن كيف أقدمت على إيقاع الاستهزاء في الله ؟ ،

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٦٠ .

(٢) البيت لجرير في مدح عبد الملك بن مروان . التفسير : ٧/ ٤٣ م٤ .

(٣) الإيضاح : ٢٣٨ .

(٤) سورة التوبة : من الآية ٦٥ .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ والمقصود ليس نفي الغول بل نفي أن يكون خمر الجنة محلاً للغول) .(١)

ويقيس الفخر هنا التقديم في الاستفهام بالتقديم في النفي .

ويبدو هنا تأثره بعبد القاهر الذى اهتدى إلى كثير من الدقائق في معرفة الفروق بين اختلاف بناء الكلام مع الاستفهام ،آخذاً ذلك من سيبويه وهو يضع أصول بحث التقديم في الاستفهام على حد ما بينت في الباب الأول .

فقد ألح عبد القاهر على مسألة الفروق وأسهب فيها وبين الفرق بين تقديم الاسم وتقديم الفعل بعد الهمزة ،وكشف عن خطأ أساليب كثيرة.

ولم يهتم الفخر كثيراً بدخول الهمزة قدر اهتمامه بمعنى الاستفهام في الآيات ،لأنه بصدد دراسة المعنى الذى يحمله الاستفهام في الآية على حد ما رأينا سابقاً . وله نظرات تفرد بها في مدخول الهمزة ،من ذلك أنه بين السبب في دخول الهمزة على الفعل والمراد بها إنكار المبتدأ ،وسمى هذا العدول عن الاسم إلى الفعل مجازاً ،لأنه يخرج عما قرره النحويون من أن المبتدأ اسم دائماً ،ولا يجوز أن يقع الفعل موقع المبتدأ أو أن يخبر عنه.

يقول في قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) : (معناه سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لهم بعد ذلك ،لأن القوم كانوا قد بلغوا في الإصرار واللجاج والإعراض عن الآيات والدلائل إلى حالة ما بقي فيهم البتة رجاء القبول بوجه ... ولو قال :

---

(١) التفسير : ١٦/١٢٥ م٨٠

(٢) سورة البقرة : ٠٦

سواء عليهم إنذارك وعدم إنذارك لما أفاد أن هذا المعنى إنما حصل في هذا الوقت دون ما قبله ،ولما قال : ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ أفاد أن هذه الحالة إنما حصلت في هذا الوقت ،فكان ذلك يفيد حصول اليأس وقطع الرجاء منهم) .(١)

والمشهور في إعراب تركيب الآية أن " سواء " خبر مقدم ، و " أأنذرتهم أم لم تنذرهم " في موضع المبتدأ والتقدير : إنذارك وعدم إنذارك سواء، ومجيء المصدر في صوره فعله مبتدأ في الآية إشارة إلى اعتبار الزمن ، وفي ذلك إفادة حصول اليأس وانقطاع الرجاء منهم كما قال الفخر.

واعتبر الزمخشري هذا العدول من جنس كلام العرب المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى ،ولم يحدد سراً بلاغياً كما فعل الفخر.(٢)

ويرى أبوالسعود أن في هذا العدول إيهام التجدد.(٣)

ويجمع الآلوسي بين رأيي الفخر وأبي السعود فيقول : إن في العدول إيهام التجدد نظراً لظاهر الصيغة ،كما أن فيه دلالة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم فعل ذلك الإنذار وأوجده ،ولو عبر بالمصدر لفات هذا المعنى ،وفي الفعل أيضاً تسلية له عليه السلام.(٤)

وهذه التسوية في تقدير معنى الاستفهام أخرج الاستفهام من الإنشاء إلى الخبر ،وإلى ذلك أشار أبوعلي الفارسي الذي يعد أول من

---

(١) التفسير : ٤٦/٢ م١٠.

(٢) ينظر الكشاف : ١٥٢/١.

(٣) ينظر إرشاد العقل : ٣٦/١.

(٤) ينظر روح المعاني : ١٢٩/١.

صرح بهذا الخروج ،بينما اقتصر غيره على تخريجه مخرج الخبر ولم يصرحوا به [١] يقول : (لفظه لفظ الاستفهام و معناه الخبر ،وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام ،وإن كان خبراً ،لأن فيه التسوية في الاستفهام) . [٢]

---

(١) ينظر التفسير البلاغي للاستفهام ،د . عبد العظيم المطعني : ٩ .

(٢) الحجة في القراءات السبع : ١/ ١٩٨ .

دراسة الاستفهام مع جوابه :

جاء السؤال مع جوابه في القرآن الكريم في مواضع عدة ، وتعرض الفخر لبعض منها ، وتطرق إليها من جهة فائدتها في الكلام ، وقد تناولها الزمخشري قبله ، ولكنه درسها من ناحية مطابقة الجواب للسؤال (١) ، وإن كان الفخر ينقل منه بعضها .

فالسؤال يأتي مع جوابه للتفهيم والإيضاح ، كما في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ (٢) ، يقول في : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ إنه سؤال ، وقوله : ﴿ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ جواب ، والسائل والمجيب هو الله تعالى ، وذلك يدل على علمه بالغيب بل بجميع المعلومات ، فإن قيل : ما الفائدة في أن يذكر الجواب معه ؟ ، قلنا : لأن إيراد الكلام في معرض السؤال والجواب أقرب إلى التفهيم والإيضاح) (٣) .

وقد يأتي السؤال والجواب لبيان ظهور الأمر ووضوحه حتى لا ينكره منكر ولا يدفعه دافع .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٤) : (قوله تعالى : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ سؤال ، وقوله : ﴿ قُل لِّلَّهِ ﴾ جواب ، فقد أمره الله تعالى بالسؤال أولاً ثم بالجواب ثانياً ،

---

(١) ينظر البلاغة القرآنية ، الدكتور محمد أبو موسى : ٣٦٦ ومابعدها .

(٢) سورة النبأ : ١-٢ .

(٣) التفسير : ٣١/ ٣ م ١٦ .

(٤) سورة الأنعام : من الآية ١٢ .

وهذا إنما يحسن في الموضع الذى يكون الجواب قد بلغ في الظهور إلى حيث لا يقدر على إنكاره منكر ولا يقدر على دفعه دافع) .[1]

ومن أسرار البلاغة التي يحملها السؤال مع جوابه ، أن الجواب قد يبدو أنه غير مطابق للسؤال ، ولكنه في الحقيقة جاء ناظراً إلى نواحي عدة .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾.[2]

يقول الفخر : (" مَا أَعْجَلَكَ " سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول : طلبت زيادة رضاك والشوق إلى كلامك ، وأما قوله : ﴿ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين :

الأول : أن سؤال الله تعالى يتضمن شيئين : أحدهما : إنكار نفس العجلة ، والثاني : السؤال عن سبب التقدم ، فكان أهم الأمرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثاني ، فقال لم يوجد مني إلا تقدم يسير ، لا يحتفل به في العادة ، وليس بيني وبين من سبقته إلا تقدم يسير ... ثم أعقبه بجواب السؤال عن العجلة ..

الثاني : أنه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المترتب على حدود الكلام) .[3]

وهذا رأى الزمخشري أخذه عنه الفخر وارتضاه .

---

(١) التفسير : ١٢/١٧٤ م٦ .

(٢) سورة طه : ٨٣-٨٤ .

(٣) التفسير : ٢٢/٩٩ م١١ .

دخول همزة الاستفهام على العطف :

يرى الفخر أن حرف العطف حين يأتي بعد الهمزة يكون العطف على جملة مقدرة ، وأن وراءه أسراراً تأتي في الكلام . وهو في ذلك يتبع رأى الزمخشري فيها و ينقل منه أيضاً .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1] : (قوله : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً ﴾ واو عطف دخلت عليه همزة الاستفهام، وقيل: الواو زائدة وليس بصحيح ، لأنه مع صحة معناه لا يجوز أن يحكم بالزيادة .. قال صاحب الكشاف : الواو للعطف على محذوف معناه أكفروا بالآيات والبينات وكلما عاهدوا)[2] .

وفي هذه الواو آراء متعددة ذكرها العلماء :

الرأى الأول : أنها مؤخرة عن تقديم، وأنها معطوفة على ما قبلها ، وقد قدمت همزة الاستفهام عليها ، لأن لها الصدارة في الكلام ، وهذا رأى سيبويه والجمهور .

الرأى الثاني : أن الهمزة في محلها الأصلي، وأن العطف يكون على جملة مقدرة بينها وبين العاطف ، وهذا رأى الزمخشري ، وقد خرج عنه في عدة مواضع .

الرأى الثالث : أنها زائدة، وهذا الرأى ينسب إلى الأخفش[3] وقد أنكره الفخر على حد ما رأينا .

و يفرق الفخر بين الهمزة الداخلة على الجملة ، وبينها داخلة على واو العطف من حيث المعنى ، ففيها زيادة إنكار الفعل .

---

(١) سورة البقرة : ١٠٠ .

(٢) التفسير : ٣/٢١٧ .

(٣) ينظر مغني اللبيب : ١/١٦ ، البحر المحيط : ١/٣٣٢ .

يقول : (همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه ،وتارة تدخل عليه وبعدها واو فهل بين الحالتين فرق ؟ نقول فرق أدق ما على الفرق ، وهو أن يقول القائل : أزيد في الدار بعد وقد طلعت الشمس ؟ يذكره للإنكار ،فإذا قال : أوزيد في الدار بعد وقد طلعت الشمس ؟ يشعر بالواو إشارة خفية إلى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين كأنه يقول بعد ما سمع ممن صدر عن زيد هو في الدار أغفل وهو في الدار بعد ؛ لأن الواو تنبيء عن ضيف أمر مغاير لما بعدها ،وإن لم يكن هناك سابق ،لكنه يومئ بالواو إليه زيادة في الإنكار).(١) فالواو تنبي عن وجود فعلين قبيحين الأول : في الجملة ،والثاني : مقدر .

ثم خرج من هذا الفرق بين مجيء الواو وعدم مجيئها إلى بيان الفرق بين مجيء الواو ومجيء الفاء فيفرق بينهما ،ويذكر أن الفاء تأتي عقب الإنكار الذى لا يكون بينه وبين المردود عليه فاصل ،وتأتي الواو إذا فصل بينهما بفاصل .

فيقول في قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾(٢) : (فإن قيل : قال في موضع : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ وقال هـهنا : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ بالفاء فما الفرق ؟ نقول : هـهنا سبق منهم إنكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفه ،فإن قيل : ففي يس سبق ذلك بقوله قال : ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ ﴾ نقول : هناك الاستدلال بالسموات لما لم يعقب الإنكار على عقيب الإنكار

---

(١) التفسير : ١٥٥/٢٨ م١٤ .

(٢) سورة ق : ٥ - ٦ .

استدل بدليل آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (١)
ثم ذكر الدليل الآخر ، وههنا الدليل كان عقيب الإنكار فذكر بالفاء) . (٢)

وقد تتبعت كثيراً من الآيات التي صُدِّرت بالعطف بعد الاستفهام
فلم أجده يذكر أسراراً لعطفها .

---

(١) سورة يس : من الآية ٧٩ .
(٢) التفسير : ٢٨/٥٥ ، م١٤ .

الأمــــــــــــــر

ذكر الفخر تعريفاً للأمر ، وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ ... فإذا جاء أمرنا ﴾ (١) يقول : (فاعلم أن لفظ الأمر كما هو حقيقة في طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء فكذا هو حقيقة في الشأن العظيم ، والدليل على أنك إذا قلت هذا أمر بقي الذهن يتردد بين المفهومين ، وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما ، وتمام تقريره مذكور في كتاب المحصول في الأصول) (٢).

وقد رجعت إلى كتابه (المحصول) فوجدته يسهب في الحديث عن الأمر وماهيته عند الأصوليين ، وذكر خمسة عشر وجهاً لخروجه عن معناه الحقيقي . (٣)

ويذكر ابن السبكي أن الإمام فخر الدين الرازي وأتباعه لا يشترطون الاستعلاء ولا العلو مستدلين بقوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (٤) ورد عليه بأن الأمر في الآية بمعنى المشورة ، أو لأن فرعون كان مستعلياً لهم (٥).

وتراه في التفسير حين يفسر هذه الآية في سورة الأعراف يذكر وجهين نسبهما للزجاجي ، أحدهما : أنه قول فرعون ، والآخر : أنه قول الملأ ، وذكر حجة من قال بكل وجه ، دون أن يتعرض للعلو والاستعلاء في الآية (٦)، أما في سورة الشعراء فيفسر ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أي فما رأيكم فيه وما الذي أعمله . (٧) لكنه في المحصول يبين فساد قول من قال إن الرتبة غير معتبرة

---

(١) سورة المؤمنون : من الآية ٢٧ .

(٢) التفسير : ٩٥/٢٣ م١٢ .

(٣) ينظر المحصول في علم أصول الفقه : ٥٧/١ ومابعدها .

(٤) سورة الأعراف : من الآية ١١٠ ، وسورة الشعراء : من الآية ٣٥ .

(٥) ينظر عروس الأفراح : ٣١٠/٢ .

(٦) ينظر التفسير : ٢٠٥/١٤-٢٠٦ م٧ .

(٧) ينظر التفسير : ١٣٢/٢٤ م١٢ .

فيقول : (والصحيح أن يقال الأمر طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء) [١].

وقد يكون قول ابن السبكي مثبت في كتاب آخر للفخر غير التفسير والمحصول ، المهم أن ابن السبكي قد ذكر خمسة وعشرين معنى للأمر نقل أكثرها مع أمثلتها من محصول الإمام الفخر [٢].

والذى يعني الباحث هنا أن الفخر وقف في التفسير أمام كثير من أساليب الأمر ، وبين إفادتها لمعاني بلاغية تفهم من السياق .

فقد يأتي الأمر ليفيد الزجر والنهي ، كما في قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [٣] يقول : (وإن كان في اللفظ أمراً إلا أنه في المعنى نهي بليغ وزجر عظيم ومنع في غاية المبالغة) [٤].

ثم أجد أبا حيان يرى أن في الأمر تهكماً وإهانة وسخرية لمن أجرم من قريش، ولا يرى فيه نهياً ولا منعاً [٥] ، وأقول : إن الأمر وإن كان تهكماً لكنه تهكم يفضي إلى الزجر والنهي .

و من مجيء الأمر للزجر ما جاء في قوله تعالى : ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [٦] يقول : (فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، لأن التأمل في حال أحد القسمين يكفي في معرفة القسم الآخر ، وأيضاً يقال الغرض منه زجر الكفار عن كفرهم وذلك إنما يعرف بتأمل أحوال المكذبين والمعاندين) [٧].

---

(١) المحصول : ٢٢/١.

(٢) ينظر عروس الأفراح : ٣١٤/٢.

(٣) سورة المرسلات : ٤٦.

(٤) التفسير : ٢٨٣/٣٠.

(٥) ينظر البحر المحيط : ٤٠٨/٨.

(٦) سورة آل عمران : ١٣٧.

(٧) التفسير : ١٢/٩ م٥.

ومراده بالقسم الأول أحوال المكذبين ، والقسم الثاني أهل الإيمان فالتأمل في أحوال المكذبين يدل على أحوال المصدقين وأهل الإيمان .

ومن المعاني التي يفيدها الأمر التهديد والتخويف كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، يقول : (... إن قوله : ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد وتخويف ، لأنه أمر وطلب ومعناه أن هؤلاء الكفار لا يعلمون ولا يفوزون بمطالبهم البتة) (٢) .

وكلام الفخر الأخير : (ومعناه أن هؤلاء ...) مفهوم من تكملة الآية ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لا من الأمر والطلب .

ومن هذا النوع قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ (٣) يقول : (﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ (٤) وهو أمر تهديد كقوله : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾ (٥) ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي ذلك الذي تحذرونه ، فإن الله يخرجه إلى الوجود ، فإن الشيء إذا حصل بعد عدمه ، فكأن فاعله أخرجه من العدم إلى الوجود) (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ خطاب لمن تاب من الأعراب في قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ لذلك فالفخر ألحقه بالتهديد ، مع أن

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ١٣٥ .

(٢) التفسير : ٢١٤/١٣ م٧ .

(٣) سورة التوبة : ٦٤ .

(٤) في التفسير (استهزؤا) وهذا خطأ إملائي، والصحيح ما ذكرته .

(٥) سورة التوبة : من الآية ١٠٥ .

(٦) التفسير : ١٢٤/١٦ م٨ .

ظاهر الآية يدل على الترغيب في عمل الخير كما يقول أبو السعود : (* وَقُلِ اعْمَلُوا * زيادة ترغيب لهم في العمل الصالح الذى من جملته التوبة).[1]

ويحمل أبوحيان الأمر على التهديد والوعيد موافقاً في ذلك الفخر يقول : (صيغة أمر ضمنها الوعيد والمعتذرون التائبون من المتخلفين هم المخاطبون).[2]

وألاحظ أن سياق الآيات قبلها لا تحتمل الأمر معنى التهديد ، لأنها تبين سعة رحمته بالمستغفرين التائبين نقرأ قوله تعالى : * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * فالآيات تفيض بمعاني قبول التوبة ، والتطهير من الذنوب، نتأمل قوله : * تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم * وقوله : * وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ * ثم يقول : * أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ... * و * أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *.

ثم يأتي بعدها قوله : * وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ... * وفيها زيادة في الترغيب في عمل الصالحات ، ولذلك يبدو أن القول هو ما قاله أبوالسعود والله أعلم.

ويستدرك الفخر في مواضع أن الأمر قد يأتي ولا يراد به معناه الحقيقي ، كما في الأمر الذى يدل على التهديد في قوله تعالى : * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ *[3] يقول : (كيف قال : * تَرَبَّصُوا * بلفظ الأمر ،

---

(١) إرشاد العقل السليم : ٤/١٠٠.

(٢) البحر المحيط : ٥/٩٦.

(٣) سورة الطور : ٣١.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم يوجب المأمور به أو يفيد جوازه ، وتربصهم كان حراماً ؟ نقول : ذلك ليس بأمر وإنما هو تهديد ، معناه تربصوا ذلك فإنا نتربص الهلاك بكم ، على حد ما يقول السيد الغضبان لعبده افعل ما شئت فإني لست عنك بغافل ، وهو أمر لتهوين الأمر على النفس ، كما يقول القائل لمن يهدده برجل أشكوك إلى زيد فيقول اشكني أي لا يهمني ذلك). (١)

ثم يصل هذا الكلام بالحديث عن فائدة مجيء الأمر دون غيره من الأساليب في الكلام ، وما يحمله من معان لا تتحقق في غيره، يقول :

(وفيه زيادة فائدة ، وذلك لأنه لو قال : " لا تشكني " لكان ذلك دليل الخوف وينافيه معناه فأتى بجواب تام من حيث اللفظ والمعنى ، فإن قيل : لو كان كذلك لقال : تربصوا أو لا تربصوا كما قال : ﴿ اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ نقول : ليس كذلك ، لأنه لو قال القائل فيما ذكرناه من المثال اشكني أو لا تشكني يكون ذلك مفيداً عدم خوفه منه ، فإذا قال : " اشكني " يكون أدل على خوفه ، فكأنه يقول : أنا فارغ عنه ، وإنما أنت تتوهم أنه يفيد فافعل حتى يبطل اعتقادك). (٢)

فالأمر يفيد ما لا يفيده النهي ، واقتران النهي بالأمر يفيد ما لا يفيده النهي وحده .

ويفيد الأمر الإهانة والتنكيل ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) ، يقول : (ثم قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لما بين عذاب أجسامهم بين عذاب أرواحهم ، وهو أن يقال لهم على سبيل التنكيل والإهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون ..). (٤)

---

(١) التفسير : ٢٨/٢٥٥-٢٥٦ م١٤ .
(٢) المصدر السابق الجزء والصفحة .
(٣) سورة العنكبوت : ٥٥ .
(٤) التفسير : ٢٥/٨٣ م١٣ .

ومثله قوله تعالى : ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [١] يقول : (﴿ اصْلَوْهَا ﴾ فإنه أمر تنكيل وإهانة كقوله : ﴿ ذُقْ [٢] إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [٣].

وقد يأتي الأمر في الأفعال التي لا يمكن أن تحدث أبداً استبعاداً لها كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ [٤] يقول : (قوله : ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ﴾ ليس المراد منه الأمر بل المراد أنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله تعالى في الإعادة، وذلك كقول القائل للرجل : أتطمع فيَّ وأنا فلان ، فيقول : كن كما شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقي ... واعلم أن هذا الكلام إنما يحسن ذكره على سبيل المبالغة، مثل أن يقال : لو كنت عين الحياة فالله يميتك ، ولو كنت عين الغني فإن الله يفقرك ، فهذا قد ذكر على سبيل المبالغة ، أما في نفس الأمر فهذا محال) [٥].

واتبع الفخر في هذا التأويل الطبري فقد قال فيها : (قال ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله كما كنتم) [٦] أي قدروا أن تكونوا ما شئتم حجارة أو حديداً .

وقال بهذا المعنى الزمخشري أيضاً ، وجمع من العلماء كأبي السعود وأبي حيان [٧] وعده الإمام الخطيب القزويني من أساليب الإهانة [٨] .

---

(١) سورة يس : ٦٤ .
(٢) القوس في التفسير بعد (ذق) وهذا يوهم أنها ليست جزءاً من الآية ، والصحيح أنه بعدها .
(٣) سورة الدخان : ٤٩ ، التفسير : ٢٦ / ١٠١ م ١٣ .
(٤) سورة الإسراء : ٥٠ ومن الآية : ٥١ .
(٥) التفسير : ٢٠ / ٢٢٧ م ١٠ .
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ١٥ / ٩٩ م ٩ .
(٧) ينظر الكشاف : ٢ / ٤٥٢ ، إرشاد العقل السليم : ٥ / ١٧٧ ، البحر المحيط : ٦ / ٤٦ .
(٨) ينظر الإيضاح : ٢٤٢ .

أى إهانة لهم إذ يسلبهم كل ما للإنسان مما يمتازبه ، وتابعه العلوى في هذا الوجه [١].

ويأتي الأمر للدعاء والخضوع لله سبحانه وتعالى ، كما في قوله تعالى : * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ * [٢] يقول : (ليس المقصود من الدعاء طلب الفعل بل المقصود منه إظهار الخضوع والذلة والعبودية ، وقد أمرنا بالدعاء في أشياء نعلم أنها توجد لا محالة كقوله : * قُل رَبِّ احْكُم * [٣] * فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا * [٤].

وقول الفخر : (ليس المقصود من الدعاء طلب الفعل) لا يشمل كل الدعاء ، لأن الدعاء قد يكون لطلب الفعل ، وقد يأتي لإظهار الخضوع فكان ينبغي أن يقول : (ليس المقصود من الدعاء دائماً طلب الفعل ...) ، وأرى أن المراد من الدعاء في الآية طلب الفعل على سبيل التضرع .

ويأتي الأمر للحث على المداومة على العمل والإخلاص فيه . كما بينه في قوله تعالى : * يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * [٥] يقول : (قال : * يَا عِبَادِيَ * فهم يكونون عابدين فما الفائدة في الأمر

---

(١) ينظر الطراز : ٣/٢٨٣ .
(٢) سورة آل عمران : من الآية ١٩٤ .
(٣) سورة الأنبياء : من الآية ١١٢ - المثبت في المصحف العثماني * قَالَ رَبِّ احْكُم * على قراءة حفص ، وما ذكره الفخر بصيغة الأمر * قُل رَبِّ احْكُم * قراءة سبعية صحيحة قرأ بها حمزة وابن كثير وغيرهما ، كتاب الإقناع في القراءات السبع ، لابن الباذش : ٢/٧٠٤ .
(٤) سورة غافر : من الآية ٧ . التفسير : ٩/١٥٢-١٥٣ م٥ .
(٥) سورة العنكبوت : ٥٦ .

بالعبادة بقوله فاعبدون ؟ فنقول فيه فائدتان :

إحداهما : المداومة ،أى يا من عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل .

الثانية : الإخلاص ،أى يا من تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيرى)[1].

وقد يأتي الأمر لإدخال السرور على المخاطب ،كما في قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ ﴾[2] يقول : (منهم من قال قوله : ﴿ كُلُوا ﴾ ليس بأمر إيجاب ولا ندب ،لأن الآخرة ليست دار تكليف ،ومنهم من قال : لا يبعد أن يكون ندباً ،إذا كان الغرض منه تعظيم ذلك الإنسان وإدخال السرور في قلبه)[3].

ومن المعاني البلاغية التي أشار إليها الفخر صيغة الأمر السهو أو طلب الغوث والاستراوح ،كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾[4] يقول : (فإن قيل : كيف يجوز أن يطلبوا ذلك وقد علموا أن عقابهم دائم ؟ قلنا : يجوز أن يلحقهم السهو عن ذلك في أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة ،ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه الغوث والاستراوح)[5].

---

(١) التفسير : ٢٥/٨٥ م١٣ .

(٢) سورة الحاقة : ٢٤ .

(٣) التفسير : ٣٠/١١٢ م١٥ .

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٧ .

(٥) التفسير : ٢٣/١٦ .

والمعنى الثاني أقرب الى السياق وقرائن الأحوال ، فالكفار في موقف يائس عصيب يطلبون النجاة بأسلوب الدعاء ، لأن فيه استرواحاً وتخفيفاً لما هم فيه .

ومثل هذه الآية الأمر في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ (١) .

وتتعدد أغراض الأمر في هذه الآية ، ولذلك فقد حرص الفخر على ذكرها جميعاً .

يقول : (اختلفوا في أن قولهم : ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ على أي وجه طلبوا ، فقال بعضهم على التمني ، وقال آخرون على وجه الاستغاثة ، وإلّا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب ، وقيل لا يبعد أن يقال إنهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسألة فذكروه على وجه الطلب) (٢) .

والفخر الرازي يذكر الرأي الأول والثاني بالفعل المبني للمعلوم فيقول : (فقال بعضهم) (وقال آخرون) والثالث بالمبني للمجهول (قيل) فلأنه يستبعده بصيغة التمريض ، مع أنه ذكره أولاً في الآية السابقة .

وأقول : إن الانسان قد يطلب ما علم أنه لا يكون تذللاً وأملاً أن تغير الحال ، خصوصاً إذا كان الدعاء موجهاً إلى الله سبحانه وتعالى فكأنهم مع علمهم طمعوا أن يغير الله سبحانه - وهو القادر على ما يشاء - من حالهم فيخرجهم منها ، وحينئذ يكون المطلوب من الدعاء حصول الفعل أي طلب الخروج على وجه الحقيقة طمعاً وأملاً .

---

(١) سورة الزخرف : ٧٧ .

(٢) التفسير : ٢٢٨/٢٧ م١٤ .

وتعدد الوجوه البلاغية للمعنى الواحد لا يعني أنها متعارضة بل تتداخل وتتقارب ،لأن النص البليغ قد يثير في النفس عدة معان تشعر بها نفس المتلقي من السياق وقرائن الأحوال (١) ،وعلماؤنا الأجلاء كانوا يدركون ذلك ، ولذلك فالفخر حرص في أكثر تفسيره على ذكر ما قيل في المعنى الواحد من أغراض كما سبق ،أو استنباط وجوه متعددة يراها في الآية .

ويتعاقب الأمر والخبر ، فقد يأتي الأمر ويراد به الخبر ،ويأتي الخبر ويراد به الأمر، وذلك لمعان .

ويشير الفخر إلى هذه المعاني بعد أن يؤولها فقد تكون الجملة الخبرية شرطاً وجزاءً ،ولكن معناها أمر، كما في قوله تعالى : * قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ * (٢) يقول : (* أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً * وإن كان لفظه أمراً ،إلا أن معناه معنى الشرط والجزاء ،والمعنى سواء أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل ذلك منكم) . (٣)

وبعد أن يبين الفخر الغرض من مجيء الأمر على هذه الصورة يشرح قاعدة هذا التعاقب ،ويدلل عليه بالأمثلة ،وهذه عادته في بعض أبواب المعاني كما قلت سابقاً . يقول : (واعلم أن الخبر والأمر يتقاربان ،فيحسن إقامة كل واحد منهما مقام الآخر ،أما إقامة الأمر مقام الخبر فكما هنا ،وكما في قوله تعالى : * اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ * (٤) وفي قوله : * قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً * (٥) ، وأما إقامة الخبر مقام الأمر فكقوله :

---

(١) ينظر الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم ،د. صبّاح دراز : ١٦-١٧ .

(٢) سورة التوبة : من الآية ٥٣ .

(٣) التفسير : ١٦ / ٩٠ م٨ .

(٤) سورة التوبة : من الآية ٨٠ .

(٥) سورة مريم : من الآية ٧٥ .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ (١) ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ (٢)

وقال كُثَيِّر :

(أسيئي بِنا أو أحسِني لا ملومةٌ لديْنا ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ) . (٣)

وقد تحدث الفراء عن مجيء الخبر في صورة الأمر عند تأويل معنى هذه الآية وذكر بيت كُثَيِّر هذا . (٤)

وذكر الزمخشري هذه القاعدة في معرض الحديث عن الأمر المراد به الخبر ، ويبدو أن الفخر نقلها من الزمخشري ، فيقول: إن فيها الإشارة إلى التسوية بين فعل المأمور به وتركه يقول : (أُنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم ، واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه) (٥) وفي هذه التسوية دلالة على نهاية السخط على هؤلاء المنافقين الذين عصوا الله ، ورد أعمالهم إليهم .

ومثل الأمر الذي يحمل معنى الشرط والجزاء قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ . (٦) قال فيه : (الصيغة أمر والأمر

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٣٣ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ .

(٣) سها الفخر فذكر بيت كُثَيِّر في سياق قيام الخبر مقام الأمر والصحيح أنه أمر قائم مقام الخبر ، لأن المعنى لا نلومك سواء تسيئين أو تحسنين . وقد رجعت إلى نسخة المطبعة الخيرية فوجدت الكلام هو هو ، فهو من الفخر ، أو النساخ . الديوان : ١٠١ ، التفسير : ١٦/ ٩٠-٩١ م٨ ويستدل الخطيب القزويني بهذا البيت على مجيء الأمر للإباحة ؛ لأن المراد لا أنت ملومة ولا مقلية ، فمهما اخترت في حقي من الإساءة والإحسان فأنا راض به غاية الرضى . الإيضاح : ٢٤٢ .

(٤) ينظر معاني القرآن : ١/ ٤٤١ .

(٥) ينظر الكشاف : ٢/ ١٩٥ .

(٦) سورة العنكبوت : ١٢ .

لا يدخله التصديق والتكذيب ، فكيف يفهم قوله : ﴿ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ؟

نقول : قد تبين أن معناه شرط وجزاء ، فكأنهم قالوا إن تتبعونا نحمل خطاياكم ، وهم كذبوا في هذا فإنهم لا يحملون شيئاً) (١).

ولم يذكر الفخر السر البلاغي في هذا التحول الأسلوبي ، إنما اكتفى بتأويل معنى الأمر في قوله (لنحمل) .

ويرى ابن عطية أن صيغة الأمر جاءت لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع (٢).

وتأتي الجملة الخبرية فتفيد الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (٣) ، فيذكر وجهين :

(الأول : أنه تعالى لو ذكره بلفظ الأمر لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود إلّا إذا شرعنا فيها بالقصد والاختيار ، وعلى هذا التقدير فلو مات الزوج ولم تعلم المرأة ذلك حتى انقضت العدة وجب عليها أن لا يكون ذلك كافياً في المقصود ، لأنها لما كانت مأمورة بذلك لم تخرج عن العدة إلّا إذا قصدت في أداء التكليف ، أما لما ذكر الله تعالى هذا التكليف بلفظ الخبر زال ذلك الوهم ، وعرف أنه مهما انقضت هذه العدة حصل المقصود ، سواء علمت ذلك أو لم تعلم ، وسواء شرعت في العدة بالرضا أو بالغضب) (٤).

الثاني : يذكر قول الزمخشري ، وهو الحث على المسارعة في الامتثال حتى كأنهن امتثلن الأمر بالتربص .

وما ذكره الفخر سر دقيق يرجعه إلى حكم فقهي ، فالعدة تحصل وتقع وإن لم يقصد بها .

---

(١) التفسير : ٢٥/ ٤١ م١٣ .

(٢) ينظر البحر المحيط : ٢/ ١٤٣ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ .

(٤) التفسير : ٦/ ٩٢ م٣ .

النهـــــــــي

يعرف بعض البلاغيين النهي بأنه : (طلب الكف عن فعل وصيغته لا تفعل وهي حقيقة في التحريم) (١) .

ويذكر الفخر حكمه في المحصول فيقول : (ظاهر النهي التحريم) (٢) .

وقد تناول النهي في التفسير ، وذكر أسراراً متنوعة له ، ودقائق تتعلق بما دخل عليه النهي .

من ذلك أنه يعرض لأساليب النهي التي خاطب الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم عن أمور لم يقدم عليها ، فيتناولها بالدرس والتحليل ، فيذكر أنها تأتي إما لمواصلة التنبيه عن ارتكاب مثلها ، أو أنها خطاب لغيره موجه له لأنه نبي الأمة .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٣) .

يقول : « ... فإن قيل إن الرسول كان معلوماً منه أنه لا يفعل شيئاً من ذلك ألبتة فما فائدة هذا النهي ؟ قلنا لعل الخطاب معه ولكن المراد غيره ، ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ، ولا تتخذ غيره وكيلاً في أمورك ، فإن من وثق بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد) (٤) .

---

(١) بغية الإيضاح : ٥٦/٢ .

(٢) ٤٦٩/١ .

(٣) سورة القصص : من الآية ٨٨ .

(٤) التفسير : ٢٣/٢٥ م ١٣ .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ [(١)] : (إنه عليه السلام ما كان يطيع أحداً منهم فما الفائدة في هذا النهي ؟ الجواب : المقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد ...) [(٢)].

ويأتي نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر من الأمور تغليظاً وزجراً وهذا أعلى درجة في التنبيه.

كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [(٣)].

يقول : (والمقصود أنه لا ينبغي أن يشتد تحسرك على تكذيبهم، ولا يجوز أن تجزع عن إعراضهم عنك فإنك لو فعلت ذلك قرب حالك من حال الجاهل، والمقصود من تغليظ الخطاب التبعيد والزجر له عن مثل هذه الحالة والله أعلم) [(٤)].

وقد ذكر الزمخشري أن مثل هذه الصور التي يخاطب بها الرسول صلى الله عليه وسلم ولا يتصور وقوعها تفيد الإلهاب والتهييج [(٥)].

ودرس العلوي هذا الفن في بحث خاص وسماه الإلهاب والتهييج وعده باباً من أبواب البلاغة العالية [(٦)]، ولا شك أن في هذا الأسلوب إثارة

---

(١) سورة الإنسان : ٢٤.

(٢) التفسير : ٢٥٨/٣٠ م١٥.

(٣) سورة الأنعام : ٣٥.

(٤) التفسير : ٢١٨/١٢-٢١٩ م٦.

(٥) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٣٧٧.

(٦) ينظر الطراز : ١٦٥/٣ ومابعدها.

للحس والشعور والوجدان ، تجعلها أشد تمسكاً بالأمر ، وأحسن تلقياً له .

وقد يأتي النهي للدعاء والتضرع كما في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (١) : (إن المقصود من الدعاء إظهار التضرع إلى الله تعالى لا طلب الفعل ، ولذلك فإن الداعي كثيراً ما يدعو مما يقطع بأن الله تعالى يفعله سواء دعا أو لم يدع) (٢) .

وقد يوجه النهي لمن لا يكون منه فعل على سبيل الاستعارة مبالغة في النفي في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٣) .

وقبل أن يذكر الفخر سره البلاغي يخرجه نحوياً ، فيقول : (فإن قيل كيف جاز دخول النون المؤكدة في جواب الأمر ؟ قلنا : فيه وجهان :

الأول : أن جواب الأمر جاء بلفظ النهي ، ومتى كان كذلك حسن إدخال النون المؤكدة في ذلك النهي كقولك : انزل من الدابة لا تطرحنك . . .

الثاني : أن التقدير : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ، إلا أنه جيء بصيغة النهي في نفي اختصاص الفتنة بالظالمين ، كأن الفتنة نهيت عن ذلك الاختصاص ، وقيل لها لا تصيبي الذين ظلموا خاصة ، والمراد منه المبالغة في عدم الاختصاص على سبيل الاستعارة) (٤) .

واتبع الفخر النحويين القائلين بأن جملة : (لا تصيبن) نهي ؛ لأن نون التوكيد لا تدخل على جملة النفي ، كالفراء والزمخشري ، وحمل أبو حيان على هؤلاء فقال : (وأخذ الزمخشري قول الفراء وزاده فساداً

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨٦ .

(٢) التفسير : ١٥٦/٧ م٤ .

(٣) سورة الأنفال : ٢٥ .

(٤) التفسير : ١٥٤/١٥ م٨ .

وخبط فيه فقال :"وقولـه : لا تصيبن لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر أو نهياً بعد أمر ...")[١] وله مناقشات مسهبة حول هذه المسألة أثبتها في تفسيره .

وقد يأتي النهي بصيغة النفي ليدل على معاني بلاغية تفهم من السياق كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[٢] وقد ذكر الفخر قول الفراء[٣] في أن الخبر هنا أفاد النهي ، ثم بين فائدة هذا النفي بقوله : (إن الإخبار في معنى الأمر والنهي آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي ، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه)[٤] .

كذلك تأتي آية عدم المضارة من الأم بولدها على صيغة النفي فيبين أن معناها النهي دون أن يذكر سراً بلاغياً يقول في قوله تعالى : ﴿ .. لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ... ﴾[٥] : (وإن كان خبراً في الظاهر ، لكن المراد منه النهي وهو يتناول إساءتها إلى الولد بتركه الرضاع وترك التعهد والحفظ)[٦] .

وقد اتبع الفخر قراءة عاصم برفع الراء المشددة على خلاف باقي السبعة الذين قرؤوها بفتح الراء على أنها نهي[٧] ، ولذلك عدها خبراً لفظاً نهياً في المعنى ، والغرض البلاغي كما يبدو لي أن في النهي توجيه الخطاب إليها مباشرة ، وفي النفي تقرير في أن عدم المضارة كأنه أمر حاصل لا بد أن تلتزم به المرأة .

---

(١) البحر المحيط : ٤/٢٨٤ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٨٣ .

(٣) ينظر معاني القرآن : ١/٥٣ .

(٤) التفسير : ٣/١٧٦ م٢ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٣٣ .

(٦) التفسير : ٦/١٣٠ م٣ .

(٧) ينظر البحر المحيط : ٢/٢١٤ - ٢١٥ .

ويأتي النفي بـ " لن " ويراد به النهي للوثوق من وقوع الفعل ، وللدلالة على صدق قائله ، كما في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ... ﴾.(١)

يقول : (.. في ﴿ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ على صيغة النفي بدلاً عن قوله لا تتبعونا على صيغة النهي معنى لطيف وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم بنى على إخبار الله تعالى عنهم النفي لوثوقه وقطعه بصدقه فجزم وقال : ﴿ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ يعني لو أذنتكم واخترتم لا يتم لكم ذلك لما أخبر الله تعالى).(٢)

فالفخر هنا قد استنبط المعنى من دلالة السياق ، ودلالة الحال التي كان عليها المخلفون ، فهم يريدون المخالفة ، ولكن جاء النص القرآني القاطع ﴿ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ نهياً ونفياً قاطعاً ، ونرى كيف أن (لن) قد أفرغت قدراً كبيراً من معناها على النهي الإلهي .

ويأتي النفي في الآية فيؤوله بعض العلماء بأنه نهي في اللفظ والمعنى ، لكن الفخر يدفع ذلك بالأدلة المفهومة من سياق الآية ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾.(٣)

ويذكر أن ابن عطية ممن قال بأنها نهي لفظاً ومعنى ، فيرد عليه يقول : (﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ الضمير عائد إلى الكتاب على الصحيح ، ويحتمل أن يقال هو عائد إلى ما عاد إليه الضمير من قوله " إنه " ومعناه لا يمس القرآن إلا المطهرون ، والصيغة إخبار لكن الخلاف في أنه هل هو بمعنى النهي كما أن

---

(١) سورة الفتح : من الآية ١٥ .

(٢) التفسير : ٢٨/ ٩١م١٤ .

(٣) سورة الواقعة : ٧٩ .

قوله تعالى : ﴿ والمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ إخبار بمعنى الأمر ، فمن قال المراد من الكتاب اللوح المحفوظ ،وهو الأصح على ما بينا ، قال هو إخبار معنى كما هو إخبار لفظاً ،إذا قلنا أن المضمر في " يَمَسُّهُ " للكتاب ،ومن قال المراد المصحف اختلف في قوله ، وفيه وجه ضعيف نقله ابن عطية أنه لفظاً ومعنى وجلبت إليه ضمة الهاء لا للإعراب ولا وجه له).[1]

ثم يرجح الفخر أنه نفي وإخبار لفظاً ومعنى ،وأن الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ بدليل : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ فمكنون أى محفوظ غاية الحفظ فذكر اللازم وأراد الملزوم ،وذكر كلمة كتاب لتأكيد الرد على الكفار الذين قالوا إنه مخترع ،ومكنون رداً على من قال : أساطير الأولين.

ثم يرى الفخر أنه لو كان المراد نفي الحدث لقال لا يمسه إلاّ المتطهرون أو المطّهرون بتضعيف الطاء.[2]

وابن عطية وإن كان قد ذكر هذا الوجه الضعيف وهو أن ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ نهي - كما قال الفخر- إلا أنه لم يرتضه وجهاً للآية ، بل إنه فنده .

يقول أبوحيان : (قال ابن عطية : والقول بأن ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ نهي قول فيه ضعف،وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة ، وقوله بعد ذلك ﴿ تَنْزِيل ﴾ صفة فإذا جعلناه نهياً جاء معناه أجنبياً معترضاً بين الصفات ،وذلك لا يحسن في وصف الكلام).[3]

---

(١) التفسير : ٢٩/١٩٤ م١٥.

(٢) ينظر التفسير : ٢٩/١٩٣-١٩٤ م١٥.

(٣) البحر المحيط : ٨/٢١٤.

ويتوالى الأمر والنهي في القرآن الكريم، ويقف الفخر عند بعض صورهما ويبين ما يفيده كل أسلوب .

فالنهي وإن كان يأتي توكيداً للأمر إلاّ أن الأمر يدل على وقوع الحدث مرة واحدة ، والنهي يدل على دوامه كما في قوله تعالى : * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ... *.(١)

يقول الفخر : (لقائل أن يقول لا فرق بين أن نقول : * فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ * وبين قوله : * وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً * ، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده ، فما الفائدة في التكرير ؟ والجواب : الأمر لا يفيد إلاّ مرة واحدة فلا يتناول كل الأوقات ، أما النهي فإنه يتناول كل الأوقات ، فلعله يمسكها بمعروف في الحال ، ولكن في قلبه أن يضارها في الزمان المستقبل ، فلما قال تعالى : * وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً * اندفعت الشبهة وزالت الاحتمالات)(٢) ، فالنهي يفيد الدوام ، لأن (لا) هنا تدل على طول النفي ، فهو يمتد إلى ما بَعْدُ من الزمن فصار النهي عن المضارة يتناول سائر الأوقات ويعمها .

ومثله قوله تعالى : * فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ *(٣) فالنهي جاء تأكيداً للأمر ، وتنبيهاً على خطورته .(٤)

---

(١) سورة البقرة : ٢٣١ .

(٢) التفسير : ٦/١١٨ م٣ .

(٣) سورة البقرة : ٢٢٢ .

(٤) ينظر التفسير : ٦/٧٢ م٣ .

الحــــــــذف

الحذف من الأساليب التي تعمل على تحريك الحس، وتنشيط الخيال، وهو كثير جداً في القرآن الكريم.

وقد تنوعت وقفات الإمام الفخر أمام أساليبه، فكثيراً ما كان يقدر ما حذف منه، وقد يرجعه إلى دلالة ما قبله، أو إلى علم المخاطب به، وأحياناً يذكر أنه حذف للإيجاز والاختصار، وقد يكشف عن سره البلاغي وهو في هذا يعول على النفس والعقل، وسنأتي بشواهد من كل نوع ليتضح لنا مساره.

وقبل أن أخوض في هذه الأنواع، أود أن أذكر له كلاماً بين فيه أغراض حذف الخبر، ذكره وهو يفسر قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ (١) وقد حصرها في ثلاثة أغراض:

١ - علم المخاطب به.

٢ - اختصار العبارة.

٣ - طول القصة.

يقول: (... وذلك لأن من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ثم يسكت عن الخبر، قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير ذكر الخبر، كما أن قائلاً إذا أراد أن يخبر غيره بأن زيداً وصل وقال إن زيداً، ثم قبل قوله جاء، وقع بصره على زيد ورآه جالساً عنده يسكت ولا يقول جاء، لخروج الكلام عن الفائدة.

وقد يسكت عن ذكر الخبر من أول الأمر لعلمه بأن المبتدأ وحده يكفي لمن قال من جاء، فإنه إن قال زيد يكون جواباً، وكثيراً ما نقول زيد ولا نقول جاء.

وقد يكون السكوت عن الخبر إشارة إلى طول القصة، كقول القائل

---

(١) سورة الواقعة: ٨.

الغضبان من زيد ويسكت ثم يقول ماذا أقول عنه).[١]

أعود إلى ما مضى فأقول : إنه كان كثيراً ما يقدر المحذوف لدلالة ما قبله أو لعلم المخاطب به.

يقول في قوله تعالى : * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ *[٢] : (في الآية محذوف والتقدير : ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلاّ أنه حذف ذكر الرسل لدلالة الإرسال عليه)[٣] ، وكقوله في قوله تعالى : * فَمَن كَانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِن رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ *[٤] : (ومعناه فحلق ففدية ، وإنما جاز الحذف لعلم المخاطبين بالحذف ، ولدلالة الخطاب عليه).[٥]

ويذكر الفخر أحياناً أن الحذف قد وقع للاختصار والإيجاز دون أن يلاحظ سراً بلاغياً وراءهما ، واتبع في ذلك طريقة من سبقه من العلماء كسيبويه الذى ذكر أن الحذف قد يكون للاتساع والاختصار ، يقول في قوله تعالى : * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ *[٦] : (والمعنى " أمن أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع ينكرون أتباعه ؟ ثم حذف الجواب للاختصار ، وهذا الحذف كثير يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه ، وتعديده عليه ذنوبه بعد كثرة إحسانه إليه أمن قلة إحساني إليك ، أمن إهانتي لك ؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت ؟ ").[٧]

---

(١) التفسير : ١٤٥/٢٩ م١٥.
(٢) سورة الحجر : ١٠ .
(٣) التفسير : ١٦٦/١٩ م١٠.
(٤) سورة البقرة : من الآية ١٩٦.
(٥) التفسير : ١٣/٥ م٣.
(٦) سورة آل عمران : من الآية ٧٣.
(٧) التفسير : ١٠٧/٨ م٤.

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ (١)

ذكر فيها قولين :

(الأول : المراد واسأل أهل القرية ، إلا أنه حذف المضاف للإيجاز والاختصار ، وهذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب ، قال أبوعلي الفارسي: ودافع جواز هذا في اللغة كدافع الضروريات وجاحد المحسوسات .

والثاني : قال أبو بكر الأنباري : المعنى اسأل القرية والعير والجدران والحيطان فلا تجيبك . . .

ثم يذكر وجهاً ثالثاً أعتقد أنه رأيه : (وهو أن الشيء إذا ظهر ظهوراً تاماً كاملاً فقد يقال فيه ، سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنه والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي ما بقي للشك فيه مجال) (٢).

والقول الأول في إطلاق المجاز على الحذف رأي ينسب إلى عبد القاهر ، فقد قال إن المجاز في الحذف يأتي بسبب تغيير الحكم الإعرابي للكلمة في الجملة ، (فالقرية) كانت مجرورة ثم نصبت يقول : (واعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها كما مضى ، فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس بحقيقة فيها ، ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسب إعراب المضاف في نحو : ﴿ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ ﴾ والأصل : واسأل أهل القرية ، فالحكم الذي يجب للقرية في الأصل وعلى الحقيقة هو الجر ، والنصب فيها مجاز) (٣).

وهنا يميل الفخر إلى رأي عبد القاهر بدلالة قوله : (وهذا النوع من المجاز مشهور في لغة العرب ، ثم نراه في الوجه الثالث : يفسر وجه المجاز في الآية .

---

(١) سورة يوسف : من الآية ٨٢ .

(٢) التفسير : ١٨/١٩٤ م ٩ .

(٣) أسرار البلاغة : ٣٦٢ .

والقول الثاني فيه إحالة السؤال إلى الجمادات والبهائم حقيقة من حيث أنه نبي وقد تجيب عليه ، وهذا القول مستبعد في تفسير الآية.

والفخر وإن كان يحيل سبب الحذف إلى الاختصار والإيجاز فهو يريد أن يبين أن من الأساسيات التي بنيت عليها بلاغة الأساليب العربية حذف الفضول من الكلام ، وإقامة العبارة على الاختصار وتصفيتها مما يثقلها ، لتؤدى الغرض المسوقة إليه .

وقد وقف الفخر في تفسيره عند كثير من الآيات ، وبين ما حذف منها ، ثم ذكر سرها البلاغي ، وما أفاده هذا الحذف دون الذكر .

فقد يحذف حرف من الكلام فيكون له الأثر في قوة المعنى وإظهار أهميته كما في قوله تعالى : * وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا * (١) يقول بعد أن يتساءل عن السبب في عدم عطف : * غُلَّتْ * بالفاء مع أنها جاءت جزاءً : (حذف العطف وإن كان مضمراً ، إلا أنه حذف لفائدة ، وهي أنه لما حذف كان قوله : * غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ * كالكلام المبتدأ به ، وكون الكلام مبتدأ به يزيد قوة ووثاقة ، لأن الابتداء بالشيء يدل على شدة الاهتمام به ، وقوة الاعتناء بتقريره ، ونظير هذا الموضع في حذف فاء التعقيب قوله تعالى : * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا * (٢) ولم يقل فقالوا أتتخذنا هزواً) (٣) .

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٦٤ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٦٧ .

(٣) التفسير : ١٢ / ٤٤-٤٥ م٦ .

فالفاء هنا توصل الكلام وتجعله واحداً ، وسقوطها ينبيء عن وجود جملتين ، فكأن الحذف يفصل بين لونين من ألوان المعنى ، وقيام الكلام على القطع والاستئناف مما يقوي الأسلوب ، ويجعله أشد في رد التهمة وإبطالها .

ومن الملاحظ أن جملة : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ دعاء ، فهي إنشاء في المعنى ، والجملة ما قبلها : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ خبرية ولا يعطف الإنشاء على الخبر ، والفخر من الذين يمنعون هذا العطف فيبدو أن ما ذهب إليه الفخر سهو منه ، وعلى ذلك لا يجوز تنظير هذه الآية بآية : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ لأن هذه الآية بنيت على حذف حرف التعقيب ، فقام الكلام على القطع والاستئناف والحذف ، وقيام الكلام على القطع والاستئناف مما تنبه إليه عبد القاهر وذكر أنه مما يطرد في الكلام يقول : (ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف يبدءون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ، ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاماً آخر) .[1]

وقد يحذف من العبارة ما يجعلها تنتقل إلى المجاز فتكون أبلغ في أداء المعنى ، كحذف اللام في قوله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ﴾[2] يقول : (تقدير الكلام : لهم درجات عند الله ، إلا أنه حسن هذا الحذف ؛ لأن اختلاف أعمالهم قد صيرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها ، فكان هذا المجاز أبلغ من الحقيقة) .[3]

---

(١) دلائل الإعجاز : ١٤٧ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١٦٣ .

(٣) التفسير : ٩/٧٧ م٥ .

ويذكر أبوحيان أن بعض المصنفين قد رد على قول الرازي هذا واتهمه بالجهل بلسان العرب ؛ لأنّ حذف لام الجر لا مسوغ له هنا ، وحرف الجر لا يحذف إلاّ عند الضرورة أو لكثرة الاستعمال ، وهذه الآية ليست من تلك المواضع التي يحذف فيها ، والمعنى حسن جداً دون الحذف ؛ لأنه تعالى لما قال قبلها : * أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ * وكأنه منتظر للجواب فجاء الجواب : لا ليسوا سواء بل هم درجات عند الله .(١)

وقد اتبع الفخر الرازي رأي أكثر المفسرين كمجاهد والسدي (٢) ، وزاد عليهم إدراكه للمجاز الذي حققه الحذف ، فصيره أكثر بلاغة وحسناً .

وقد يحذف الفعل إشارة إلى شدة الموقف ، وسوء الحال حيث لا تستطيع النفس أن تتكلم .

كما في قوله تعالى : * وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا .. * (٣) يقول : (قال تعالى : * رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا * يعني يقولون أو قائلين " رَبَّنَا أَبْصَرْنَا " وحذف يقولون إشارة إلى غاية خجالتهم ؛ لأنّ الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم) .(٤)

ففي الحذف تعبير عن شدة الموقف الذي هم فيه ، وتصوير لحالتهم اليائسة .

ويحذف المنادى لإحساس النفس بالقرب والزلفى عند الطلب والدعاء كما في قوله تعالى : * رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا * (٥) فقد حذف (رَبَّنَا) في الدعاء الرابع دون غيرها

---

(١) ينظر البحر المحيط : ١٠٢/٣ .

(٢) ينظر جامع البيان للطبري : ١٦٢/٤ م٣ .

(٣) سورة السجدة : من الآية ١٢ .

(٤) التفسير : ١٧٨/٢٥ م١٣ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٨٦ .

مما سبق لتحقيق معنى القربى : (إنما حذف النداء إشعاراً بأن العبد إذا واظب على التفرغ نال القرب من الله تعالى ، وهذا سر عظيم يطلع منه على أسرار أخرى) .(١)

وكثيراً ما يأتي الحذف عند الفخر لعظمة المحذوف ولفخامته ولعمومه فلا يقدره ولا يقيده ، كما في حذف متعلق الفعل في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٢) يقول : (ذكر إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم) .(٣)

ويبقى الخبر في الجملة ويسقط ما عداه لتبقى مبهمة ، فتكون أدخل في باب التخويف والوعيد ، وذلك عند ذكر جزء الكافرين يوم القيامة في قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ﴾ (٤) : (وأما قوله : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾ ففي نصب قوله ﴿وَيَوْمَ﴾ أقوال ... أنه محذوف وتقديره ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ كان كيت وكيت ، فترك ليبقى على الإبهام الذى هو أدخل في التخويف) .(٥)

وقد يوعز سر الحذف إلى ذهاب الوهم كل مذهب عند حذفه ، لأنه لو ذكر لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان .

وذهاب الوهم كل مذهب مقولة اشتهر بها الرماني (٦) الذى يعد

---

(١) التفسير : ١٦٢/٧ م٤ .

(٢) سورة الحج : من الآية ٣٨ .

(٣) التفسير : ٣٩/٢٣ م١٢ .

(٤) سورة الأنعام : من الآية ٢٢ .

(٥) التفسير : ١٩١/١٢ م٦ .

(٦) ينظر النكت في إعجاز القرآن : ٧٠-٧١ .

من أوائل من التمس علة للحذف ، وأرجعه إلى إحساس النفس وشعورها ، لتتوهم كثيراً من الأشياء التي يحتمل أن يحمل معانيها اللفظ المحذوف في الكلام.

فالحذف يكون عند الفخر لهذا السبب يقول في قوله تعالى :
* إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ * (١) : (في خبر إنّ قولان : أحدهما : أنه محذوف كأنه قيل جمعوا المخازي ، والثاني : هو قوله : * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * . والأول أحسن لوجهين : أحدهما : أنه أبلغ لأنه إذا حذف الجواب ذهب الوهم كل مذهب من العتب ، وإذا ذكر بقي مقتصراً على المذكور) (٢).

وهنا لا يقدر الفخر محذوفاً إنما يعول على عقل السامع إذ يحركه الكلام ، ويثيره ، ويدفعه إلى التفكير ، فيقع على ما لا نهاية له مما يكتنه اللفظ المحذوف ، ولو ذكر لقل التأثير ، ولذلك فهو يقول : (ولو ذكر بقي مقتصراً على المذكور).

ويحسن هذا الحذف حين يأتي في مقام الوعيد ، كما في قوله تعالى : * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ * (٣) يقول في تأويل المعنى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعد من العذاب والحساب فحذف ما يأتي به تهويلاً عليهم ،

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٥٠.
(٢) التفسير : ١١/٩٤ م٦.
(٣) سورة البقرة : من الآية ٢١٠.

إذ لو ذكر ما يأتي به كان أسهل عليهم في باب الوعيد ، وإذا لم يذكر كان أبلغ لانقسام خواطرهم وذهاب فكرهم كل وجه ، ومثله قوله تعالى : ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ...﴾ (١) والمعنى : (أتاهم الله بخذلانه إياهم من حيث لم يحتسبوا) (٢).

ويهتم الفخر بتقدير جواب (لو) المحذوف في كثير من الآيات ، والكشف عن الأوجه البلاغية لهذا الحذف ، وتأكيد ذلك وتوضيحه بالأقوال الجارية على ألسنة الناس في مخاطباتهم العادية ، وهذه طريقة جرى عليها الفخر في أكثر نظراته البلاغية كما بدا لنا في تفسيره .

وقد لاحظ الفخر أن حذف جواب (لو) كثير في القرآن والشعر ، وفيه من البلاغة والحسن ما ليس في إظهاره ، وقد تتبعت هذا الأسلوب في تفسيره فوجدته إما أن يذكر السر البلاغي لحذفه ، أو أنه يقدره في الكلام دون ذكر السر البلاغي .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) : (قوله : ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يقتضي جواباً ، وقد حذف تفخيماً للأمر وتعظيماً للشأن ، وجاز حذفه لعلم المخاطب به ، وأشباهه كثيرة في القرآن والشعر ، ولو قدرت الجواب كان التقدير : لرأيت سوء منقلبهم أو لرأيت سوء حالهم ، وحذف الجواب في هذه الأشياء أبلغ في المعنى من إظهاره ، ألا ترى : أنك لو قلت لغلامك :

---

(١) سورة الحشر : من الآية ٢ .
(٢) التفسير : ٥/٢٣٣ م٣ .
(٣) سورة الأنعام : ٢٧ .

والله لئن قمت إليك وسكت عن الجواب ، ذهب بفكره إلى أنواع من المكروه ، من الضرب ، والقتل ،والكسر ،وعظم الخوف ،ولم يدر أى الأقسام تبغى ، ولو قلت : والله لئن قمت إليك لأضربنك فأتيت بالجواب لعلم أنك لم تبلغ شيئاً غير الضرب ،ولا يخطر بباله نوع من المكروه سواه ،فثبت أن حذف الجواب أقوى تأثيراً في حصول الخوف) (١).

فالفخر هنا يقارن بين الحذف والذكر ،قاصداً إلى إظهار محاسن الحذف وما يثيره في نفس المتلقي .

وكان يلح على هذا الأمر في أكثر مواضع الحذف .

كذلك يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ .. ﴾ (٢) : (واعلم أن جواب " لو " محذوف والتقدير : لكان خيراً لهم وأعود عليهم ،وذلك لأنه غلب عليهم النفاق ... وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل ، وهو كقولك للرجل لو جئتنا ثم لا تذكر الجواب أى لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً) (٣).

وفي مواضع كثيرة كان يقدر المحذوف دون التعرض لغرض بلاغي فيقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٤) : (التقدير : لرأيت منظراً هائلاً وأمراً فظيعاً وعذاباً شديداً) (٥).

---

(١) التفسير : ٢٠١-٢٠٠/١٢ م٦ .

(٢) سورة التوبة : من الآية ٥٩ .

(٣) التفسير : ١٠١/١٦ م٨ .

(٤) سورة الأنفال : ٥٠ .

(٥) ينظر التفسير : ٨٣/١٥ م٨ .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ... ﴾ (١) : (يعني لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجباً) (٢).

والحقيقة أن حصر الجواب بمثل هذه العبارات المقدرة ،لا تغني عما تثيره جملة فعل الشرط من الصور ،وما تبثه من إيحاءات تملأ الإحساس .

وقد يتعدد المحذوف في الآية الواحدة ،فتقوم العبارة على الإبهام الذى يحتاج إلى فكر حتى يفهم المحذوف .

وقد أدرك الفخر عظم هذا الحذف ،فذكر أنه لا يفهم إلاّ بالتأمل والفكر ثم بالتوفيق من الله تعالى .

ففي أوائل سورة (ق) حذف المقسم عليه ،والمضرب عنه ،تعظيماً لأمرهما ، قال تعالى : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (٣)

يقول في حذف المقسم عليه الذى تقديره : (إنك لمنذر) أو : (إنّ الرجع لكائن) (فإن قيل : فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم، في موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه وأتى بأمر لا يفهم إلاّ بعد الفكر العظيم ، ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوفيق العزيز ؟ فنقول : إنما حذف المقسم عليه ،لأنّ الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر ،وذلك لأنّ من ذكر الملك العظيم في مجلس وأثنى عليه يكون قد عظمه ، فإذا قال له غيره هو لا يذكر في هذا المجلس يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالاً على عظمته) (٤).

---

(١) سورة السجدة : من الآية ١٢ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٧٨م ١٣ .

(٣) سورة ق : ١-٢ .

(٤) التفسير : ٢٨/١٤٩م ١٤ .

كذلك يحذف المضرب عنه الذي تقديره : (ما الأمر كما يقولون) لأمرين ذكرهما : (فإذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحاً ، وأتى بحرف الإضراب استفيد منه أمران :

أحدهما : أنه يشير إلى أمر آخر قبله .

وثانيهما : أنه يجعل في[1] الثاني تفاوتاً عظيماً مثل ما يكون وما لا يذكر ، وههنا كذلك ، لأن الشك بعد قيام البرهان بعيد لكن القطع بخلافه في غاية ما يكون من البعد)[2] .

وهكذا رأينا الفخر يلح على مسألة عدم تحديد المحذوف في كثير من مواضع الحذف فهو يقول : (فترك ليبقى الإبهام أدخل في التخويف) ، (في حذف الجواب ذهب كل مذهب) ، (إذا لم يذكر كان أبلغ لانقسام خواطرهم وذهاب فكرهم كل وجه) ، (لأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم مع الذكر) .

ثم إنه يربطه بالنفس ، وتطلعها إلى ما غمض من المعنى ، ووصف إحساسها وهي تصل إلى هذا المعنى من خلال القرائن والأحوال .

---

(١) استقام المعنى بعد أن وضعت (في) قبل (تفاوتاً) ولم يذكرها الفخر في كلامه ، وقد تأكدت من ذلك بالرجوع إلى نسخة المطبعة الخيرية مع النسخة التي نقلت منها ، ينظر التفسير : ٤٣٥/٨ ، المطبعة الخيرية .

(٢) التفسير : ١٤٩/٢٨ - ١٥٠ م١٤ .

الإيجـــــــاز

يعد الإيجاز سمة من سمات الأسلوب العربي ، بل من أهم مميزاته التي قام عليها ، وقد تحدث عنه كثير من بلغاء العرب - على حد ما بينت سابقاً - .

وقد عرض الفخر في تفسيره للإيجاز بقسميه ، اللذين تعارف عليهما العلماء ، ولكن دون تصريح بالمصطلحين.

وسأكتفي بالحديث هنا عن إيجاز القصر ، لأن إيجاز الحذف يدخل في باب الحذف ، وقد رأينا كيف كان يرجع السر في الحذف إلى الإيجاز في كثير من الآيات .

وقد رأيته يتحدث في نهاية الإيجاز عن الحذف والإضمار والإيجاز تحت باب واحد ، وفي فصل الإيجاز تعرض لآيات من إيجاز القصر فقط. وعرفه بقوله : (وحده أنه العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف من غير إخلال) .(١)

ومن الآيات التي عني الفخر ببيان وجه الإيجاز فيها في التفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ (٢) وذلك بعقد المقارنة بينها وبين قول العرب : (القتل أنفى للقتل) (٣) ، استخرج من خلالها فروقاً دقيقة يقول : (اتفق علماء البيان على أن هذه الآية في الإيجاز مع جمع المعاني باللغة (٤) بالغة إلى أعلى الدرجات ، وذلك لأن العرب عبروا عن هذا المعنى

---

(١) نهاية الإيجاز : ٣٤٧ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٧٩ .

(٣) نسب هذا القول للملك (أردشير) أحد ملوك الفرس ، وترجمه عنه أحد بلغاء العرب.

(٤) لم أعرف ماذا يقصد (باللغة) فرجعت إلى طبعة المطبعة الخيرية فلم أجده يذكرها فهي زائدة فقد قال (.. مع جمع المعاني بالغة إلى أعلى الدرجات) . التفسير : ٢/١٠٨ .

بألفاظ كثيرة ،كقولهم : قتل البعض إحياء للجميع ،وقول آخرين : (أكثروا القتل ليقل القتل) ،وأجود الألفاظ المنقولة عنهم في هذا الباب قولهم : (القتل أنفى للقتل) ، ثم إن لفظ القرآن أفصح من هذا ،وبيان التفاوت من وجوه :

أحدها : أن قوله : * ولكم في القِصَاصِ حَيَاةٌ * أخصر من الكل ، لأن قوله : * وَلَكُمْ * لا يدخل في هذا الباب ،إذ لا بد في الجميع من تقدير ذلك ،لأن قول القائل (١) : (قتل البعض إحياء للجميع) لا بد فيه من تقدير مثله ،وكذلك في قولهم : (القتل أنفى للقتل) ، فإذا تأملت علمت أن قوله : * فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ * أشد اختصاراً من قولهم : (القتل أنفى للقتل) .

وثانيها : أن قولهم :(القتل أنفى للقتل) ظاهره يقتضي كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال ،وقوله : * فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ * ليس كذلك ، لأن المذكور هو نوع من القتل وهو القصاص ،ثم ما جعله سبباً لمطلق الحياة ،لأنه ذكر الحياة منكرة ،بل جعله سبباً لنوع من أنواع الحياة.

وثالثها : أن قولهم : (القتل أنفى للقتل) فيه تكرار للفظ القتل ، وليس قولهم * فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ * كذلك.

ورابعها : أن قول القائل : (القتل أنفى للقتل) ،لا يفيد إلا الردع عن القتل ،وقوله : * فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ * يفيد الردع عن القتل وعن الجرح وغيرهما فهو أجمع للفوائد .

---

(١) في التفسير (القاتل) والصحيح (القائل) فهو ولا شك خطأ في الطبع .

وخامسها : أن نفي القتل مطلوب تبعاً من حيث إنه يتضمن حصول الحياة ،وأما الآية فإنها دالة على حصول الحياة ،وهو مقصود أصلي فكـان هذا أولى .

وسادساً : أن القتل ظلماً قتل ،مع أنه لا يكون نافياً للقتل ،بل هو سبب لزيادة القتل ،إنما النافي لوقوع القتل هو القتل المخصوص وهو القصاص، فظاهر قولهم باطل . أما الآية فهي صحيحة ظاهراً وتقديراً ،فظهر التفاوت بين الآية وبين كلام العرب) .(١)

ولا أشك في أن نظرات الفخر للآية والمثل قامت أساساً على ما قاله العلماء قبله فيهما ،وله أفضلية جمعها، ثم إضافته إليها،وفي هذا تظهـر عقليته الفذة ، وقدرته على استنباط المعاني من الكلمات والكشف عن أدق خصوصيات التراكيب .

فالرماني قارن بينهما ،وذكر بأن الآية تفضل المثل من جهة بعدها عن التكرار وحسن تأليفها بتلاؤم حروفها .(٢)

ثم ذكرها أبو هلال العسكري وبين فضلها على المثل بما لا يخرج عما قاله الرماني .(٣)

وذكرها ابن سنان الخفاجي ،وبين فضلها من أربعة وجوه :

الأول : أن القتل الذى ينفي القتل ما كان على وجه القصاص والعدل .

الثاني : في ذكر الحياة إبانة للغرض المرغوب فيه ،ففيه زيادة في الإيضاح .

---

(١) التفسير : ٥/ ٦٠ - ٦١ م٣ .

(٢) ينظر النكت في اعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز) : ٧٢ .

(٣) ينظر الصناعتين : ١٩٥ .

الثالث : قلة حروفها ، فهي تحتوى على عشرة أحرف ، والمثل يحتوى على أربعة عشر حرفاً .

الرابع : بعد الآية عن التكرار في الحروف الذى يعد عيباً من عيوب الكلام [١].

وللثعالبي حديث موجز مركز عن فضل الآية يقول فيه : (وفيه زيادة معاني حسنة ، فمنها إبانة العدل بذكر القصاص والإفصاح عن الغرض المطلوب فيه من الحياة والحث بالرغبة والرهبة على تنفيذ حكم الله به ، والجمع بين ذكر القصاص والحياة ، والبعد عن التكرير الذى يشق على النفس ، فإن قوله : " القتل أنفى للقتل " تكرار غيره أبلغ منه) [٢].

كذلك كان لعبد القاهر نصيب فى الحديث عن الآية وذلك حين بين فائدة التنكير في (حياة) [٣].

وما قاله الفخر يفضل عما قاله كل هؤلاء ، لأنها أكثر تفصيلاً وأدق معنى ، وإن كان يشترك مع الرماني في الوجه الثالث ، وهو البعد عن التكرار ، ومع ابن سنان في الوجه الأول والثالث والخامس والسادس ، ومع الثعالبي كذلك في بعض وجوهه .

ويرى الفخر أن الإيجاز يتحقق في قوله : ﴿ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ بحذف " لَكُمْ " (فهي لا تدخل في هذا الباب) على حد قوله ، وفي ذلك إثبات لحرف الجر " في " الذى يفيد الظرفية ، ولم يذكر ذلك في النهاية

---

(١) ينظر سر الفصاحة : ٢٠٩ .

(٢) الإيجاز والإعجاز : ١٢-١٣ .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٨٩ .

وهو يتحدث عن فضل هذه الآية ، ولذلك فقد قال السبكي : (ووقع في كلام الإمام فخر الدين في نهاية الإيجاز وكلام العسكري في الصناعتين أن الذى يؤدى معنى كلامهم في الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾.(١)

ومن قال بذلك ليس أبو هلال العسكري إنما الرماني ، فقد ذكر أن الإيجاز في ﴿ القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ وأبو هلال (٢) نقلها عن الرماني .

والأصح - كما يبدو لي - أن الإيجاز يتحقق في آية ﴿ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ لأن المراد من الآية جعل القصاص ظرفاً للحياة.

وطريقة الفخر في الكشف عن وجه الإيجاز على أساس المفاضلة بين النصوص طريقة حسنة لمعرفة أدق خصوصيات المعنى الكامنة في الحروف والكلمات، لم تُشبع في كتب البلاغة.

وقد وقف الفخر كذلك عند بعض الآيات الموجزة وبين وجه إيجازها والمعاني التي تحملها وتحيط بها ، كما في قوله تعالى : ﴿ .. قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ .(٣)

قال : (... إنه تعالى لما بين هذا (٤) جمع كل ما يحتاج المرء إليه في معرفة المبدأ والمعاد في ألفاظ قليلة منه فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ ... ﴾ وهذا الكلام جامع لكل ما ورد التكليف به ، وفيه فوائد :

---

(١) عروس الأفراح : ٣/١٨٥.

(٢) ينظر الصناعتين : ١٩٥.

(٣) سورة الرعد : من الآية ٣٦.

(٤) المراد بها معنى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ سورة الرعد : من الآية ٣٦.

أولها : أن كلمة (إنما) للحصر ومعناه إني ما أمرت إلاّ بعبادة الله تعالى ،وذلك يدل على أنه لاتكليف ولا أمر ولا نهي إلا بذلك .

وثانيها : أن العبادة غاية التعظيم ،وذلك يدل على أن المرء مكلف بذلك .

وثالثها : أن عبادة الله لا يمكن إلاّ بعد معرفته ... فهذا يدل على أن المرء مكلف بالنظر والاستدلال ...) .(١)

وهكذا أخذ الفخر يستنبط معاني ودلالات الآية ،ثم قال : (فإذا تأمل الإنسان في هذه الألفاظ القليلة ،ووقف عليها عرف أنها محتوية على جميع المطالب المعتبرة في الدين) .(٢)

وقد يقف أمام الآيات المشتملة على الإيجاز ، ويبين وجه شمولها لكثير من المعاني دون الغوص فيها، والإسهاب في شرحها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾(٣) : (إن قوله ﴿ خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع في الدنيا والدين) .(٤)

ويقول أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾(٥) : (قوله ﴿ وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ من الألفاظ الفصيحة جداً الدالة مع اختصارها على المبالغة الكثيرة ،ونظيره في الاختصار ما قاله في وصفه الجنة ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾(٦) وقال : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾.(٧)

---

(١) (٢) التفسير : ٦٢/١٩ م١٠ .
(٣) سورة الشعراء : ٧٨ .
(٤) التفسير : ١٤٤/٢٤ م١٢ .
(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٠٥ .
(٦) سورة الزخرف : من الآية ٧١ .
(٧) سورة النازعات : ٣١ ،التفسير : ٢١٧/٥ م٣ .

وهذه العبارات القرآنية الموجزة وأمثالها كانت مدار هذا الباب عند البلاغيين وأهل اللغة ، فهي تحمل فرائد من المعاني الرحبة المترامية الأطراف ما يبهر العقل ، وصيغت على طريقة متفردة لتسير مسير الأمثال .

فالحرث في قوله تعالى : ﴿ وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ يشمل كل ما زرع في الأرض ، والنسل يشمل كل ذات روح من إنسان وحيوان .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ ﴾ تلخيص دقيق لما تحتويه الجنة مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فهذه الكلمات بحروفها القليلة تعني الكثير من فيوضات المعنى المراد ، مع ما فيها من القرب و شرف اللفظ وحسن المعنى.(١)

أما آية : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ فقد بين ابن قتيبة ما فيها من المعاني يقول : (كيف دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتاً ومتاعاً للأنام من العشب والشجر ، والحب والثمر والحطب ، والعصف واللباس والنار والملح ؛ لأن النار من العيدان والملح من الماء).(٢)

ويكشف الفخر عن الإيجاز في أساليب المجاز ، كالاستعارة والكناية . فالاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لعلاقة المشابهة ، وقد أشار الفخر إلى أنها حين تأتي في الكلام فإنها تدل على معاني كثيرة ، فيقول وهو يتحدث عن معنى إحياء الأرض بعد موتها في قوله تعالى : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾(٣) : (واعلم أن وصفه تعالى

---

(١) ينظر الإيجاز والإعجاز ، للثعالبي : ١١ .
(٢) تأويل مشكل القرآن : ٥ .
(٣) سورة البقرة : من الآية ١٦٤ .

ذلك بالإحياء بعد الموت مجاز ،لأن الحياة لا تصح إلا على من يدرك ،ويصح أن يعلم ،وكذلك الموت ،إلا أن الجسم إذا صار حياً حصل فيه أنواع من الحسن والنضرة والبهاء ،والنشور والنماء ،فأطلق لفظ الحياة على حصول هذه الأشياء، وهذا من فصيح الكلام الذى على اختصاره يجمع المعاني الكثيرة).[(١)]

فالحياة والموت تتجاوزان معانيهما الأصلية ،لتعبرا عن معاني كثيرة جاءتا على سبيل الاستعارة .

وقد ذكر عبد القاهر أن من مناقب الاستعارة أنها تعطي الكثير من المعاني باليسير من اللفظ .[(٢)]

كذلك أسلوب الكناية يؤدى المعنى على وجه الإيجاز بجملة أخرى ، وهذه الجملة تنوب مناب الجملة المحذوفة ،وهي تحمل من المعاني ما لا تحمله الجملة الأصلية ، يذكر ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[(٣)] قال : (جعل قوله : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾[(٣)] قال : (جعل قوله : ﴿ فَاتَّقُواْ النَّارَ ﴾ قائماً مقام قوله فاتركوا العناد ،وهذا هو الإيجاز الذى هو أحد أبواب البلاغة ،وفيه تهويل لشأن العناد لإنابة اتقاء النار منابه ، متبعاً ذلك بتهويل صفة النار) .[(٤)]

فالأسلوب يكون موجزاً إن تحققت به الكناية ،وإذا بقي على معناه الأصلي فلا إيجاز فيه .

---

(١) التفسير : ٤/ ٢٢٠ م٦ .

(٢) ينظر أسرار البلاغة : ٣٠ .

(٣) سورة البقرة : ٢٤ .

(٤) التفسير : ٢/ ١٣٢ م١ .

وقد ذكر الزمخشري الكلام السابق وهو يتحدث عن الكناية وزاد عليه بأن قال : (فوضع : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ موضعه - أي موضع فاتركوا العناد - ولأن اتقاء النار لصيقه وضميمة ترك العناد من حيث إنه من نتائجه).(١)

ولذلك فقد رد عليه السيد الشريف بأنه لو قيل : فاتركوا العنـــاد لكانت تلك الوسائط مرادة أيضاً فلا إيجاز بسبب الكناية.(٢)

وأقول إن الفخر لم يرد ربط أسلوب الكناية بالمعنى الكنائي ، وقد اقتضب من عبارة الزمخشري ما يدل على أنه يريد وصف أسلوب الكناية بالإيجاز دون اعتبار الوسائط التي تؤدي إلى المعنى الكنائي .

وهكذا فالفخر يرى أن أساليب البيان تحقق الإيجاز من خلال تعبيراتها الموجزة المعبرة عن فيوضات من المعاني .

---

(١) الكشاف : ٢٤٩/١ .

(٢) ينظر حاشية السيد الشريف الجرجاني على الكشاف : ٢٤٩/١ .

التوكيد

الأساليب التي تفيد التوكيد كثيرة جداً ، ومنتشرة في أكثر أبواب البلاغة ، فأساليب البيان قد تفيد التوكيد ، وكثير من أساليب المعاني تفيد التوكيد كالذكر والحذف والتكرار والفواصل والجمل المنفصلة والاعتراض . . . وغيرها .

ويتسع مبحث التوكيد عند الفخر فلا يشمل التأكيد بالأدوات فحسب بل يمتد ليشمل التأكيد بأكثر أساليب المعاني .

وسأعرض هنا لما اهتم به من مظاهر التوكيد في التعبير ، وأسبق ذلك بما ذكره من الحديث عن دواعي التوكيد .

ذكر الفخر في تفسيره قصة المبرد مع الكندي يقول : (روى الأنباري أن الكندي المتفلسف ركب إلى المبرد وقال : إني أجد في كلام العرب حشواً ، أجد العرب تقول : عبد الله قائم ، ثم تقول إن عبد الله قائم ، ثم تقول : إن عبد الله لقائم ، فقال المبرد : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم : إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر لقيامه) .(١)

ثم يتحدث الفخر عن بعض دواعي التوكيد كما ذكرها عبد القاهر في دلائل الإعجاز .

فقد يأتي التوكيد بـ (إنَّ) جواباً لسؤال سائل ، أو إذا كان الخبر بأمر يظن السامع خلافه ، أو إذا ظن المتكلم في الذى وجد أنه لا يوجد (٢) ويذكر أمثلة لكل هذا من القرآن والشعر ناقلاً ذلك من عبد القاهر (٣) .

---

(١) التفسير : ٢/ ٤١ م ١ .

(٢) ينظر المصدر السابق الجزء والصفحة .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ٣٢٤ ومابعدها .

ثم لا أجده في التفسير يطبق ما ذكره من كلام عبد القاهر ،ولا يهتم فيه كثيراً بالحديث عن دواعي التوكيد في الآيات ،إلا في مواضع قليلة .

فمن ذلك أنه يذكر أن التوكيد يأتي لمواجهة تكذيب المكذبين ،فالمرسلون لما كذبوا حملوا كلامهم توكيدات تزيل الشبهة العالقة في نفوس المكذبين يقول في قوله تعالى : * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * (١) : (إشارة إلى أنهم بمجرد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا ،بل أعادوا ذلك لهم وكرروا القول عليهم ،وأكدوه باليمين : * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وأكدوه باللام ؛ لأن " يعلم الله " يجري مجرى القسم ،لأن من يقول يعلم الله فيما لا يكون فقد نسب الله إلى الجهل وهو سبب العقاب ... وفي قوله : * رَبُّنَا يَعْلَمُ * إشارة إلى الرد عليهم حيث قالوا أنتم بشر ،وذلك لأن الله إذا كان يعلم أنهم لمرسلون ... يعني هو عالم بالأمور وقادر فاختار بعلمه لرسالته) (٢) .

فالتوكيد حاصل بالقسم ،والتقديم في قوله تعالى : * رَبُّنَا يَعْلَمُ * .

ويؤكد الفعل بضمير الفصل في الأمر الذى يظن الإنسان أنه من فعله ولا يؤكد به فيما لا يتوهم أنه من فعله ،فالتوكيد يتصاعد بحسب الاعتقاد . كما في قوله تعالى : * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنثَىٰ * (٣) يقول : (قال تعالى : * وَأَنَّهُ خَلَقَ * ولم يقل وأنه هو خلق ،كما قال : * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وذلك لأن الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهم أنه بفعل الإنسان ،وفي الإماتة والإحياء وإن كان ذلك التوهم بعيداً ،لكن ربما يقول به جاهل ،كما قال من حاج إبراهيم الخليل

---

(١) سورة يس : ١٦ .

(٢) التفسير : ٢٦/٥٢ م١٣ .

(٣) سورة النجم : ٤٣ ، ٤٥ .

عليه السلام حيث قال : ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (١) فأكد ذلك بذكر الفصل ، وأما خلق الذكر والأنثى من النطفة فلا يتوهم أحد أن يفعله أحد من الناس فلم يؤكد بالفصل ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ حيث كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله تعالى ، وكان في معتقدهم أن ذلك بفعلهم كما قال قارون : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (٢) ولذلك قال : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون رب محمد هو رب الشعرى ، فأكد في مواضع استبعادهم بالنسبة إلى الله تعالى الإسناد ولم يؤكد في غيره) (٣).

والتأكيد بضمير الفصل يفيد اختصاصه سبحانه بهذه الأمور .

ويأتي التأكيد ليحقق صحة ما اعتقده الإنسان من أن النفقة قربة عند الله ، يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ (٤) : (﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ وهذه شهادة من الله تعالى

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٥٨ .
في النسخة (أنا أحيي وأميت) بسقوط الواو ، وهذا خطأ واضح في الآية والصحيح ما أثبته ، وهو خطأ مطبعي ، بدلالة عدم وجوده في نسخة المطبعة الخيرية : ٥٣٩/٧ .

(٢) سورة القصص : من الآية ٧٨ .

(٣) التفسير : ٢١/٢٩ م١٥ .

(٤) سورة التوبة : من الآية ٩٩ .

للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات ، وقد أكد تعالى هذه الشهادة بحرف التنبيه وهو قوله : " ألا " وبحرف التحقيق وهو قوله : " إنها " ثم زاد في التأكيد فقال : * سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ * وقد ذكرنا أن إدخال هذه السين يوجب مزيد التأكيد) .(١)

واهتم الفخر ببيان عناصر التوكيد في الآيات ، التي قد تكثر وقد تقل على حسب المعنى المراد تقريره .

فقد تتكاثر عناصر التوكيد في آية قصيرة مكونة من عدة كلمات كما في قوله تعالى : * لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ *(٢) يقول : (واعلم أن قوله : * لَهُمُ الْبُشْرَى * فيه أنواع من التأكيدات :

أحدها : أنه يفيد الحصر فقوله * لَهُمُ الْبُشْرَى * أى لهم لا لغيرهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى ، وأقبل بالكلية على الله تعالى .

وثانيها : أن الألف واللام في لفظ البشرى مفيد للماهية ، فيفيد أن الماهية بتمامها لهؤلاء ، ولم يبق منها نصيب لغيرهم .

وثالثها : أن لا فرق بين الإخبار و بين البشارة ، فالبشارة هو الخبر الأول بحصول الخيرات . . .

ورابعها : أن المخبر بقوله : * لَهُمُ الْبُشْرَى * هو الله تعالى وهو أعظم العظماء . . .) .(٣)

---

(١) التفسير : ١٦/١٧٢ م٨ .

(٢) سورة الزمر : من الآية ١٧ .

(٣) التفسير : ٢٦/٢٦٠ م١٣ .

فالتوكيد في الوجه الثالث ليس بحرف أو أداة أو تقديم ، إنما يكون أيضاً في اختيار الكلمة دون غيرها ، وفي المعنى الذى تحمله الجملة ، ولذلك فقد حرص الفخر على كشف طاقات الكلام في بث المعنى من خلال كل ما يتعلق بنظمه .

كما كان يهتم بهذه العناصر ويسمع ما قاله العلماء فيها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١) : (سمعت بعض الأفاضل قال : إنه تعالى لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين في هذه الآية ذكر فيها سبعة أنواع من التوكيدات :

أولها : كلمة (إنَّ) وهي للتأكيد .

وثانيها : كلمة (كُلّ) وهي أيضاً للتأكيد .

وثالثها : اللام الداخلة على خبر (إنّ) وهي تفيد التأكيد أيضاً .

ورابعها : حرف (مَا) إذا جعلناها على قول الفراء موصولاً .

وخامسها : القسم المضمر فإن تقدير الكلام وإن جميعهم والله ليوفينهم .

وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم .

وسابعها : النون المؤكدة في قوله : ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ﴾ .

فجميع هذه الألفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه الكلمة الواحدة تدل على أمر الربوبية والعبودية ، لا يتم إلا بالبعث والقيامة والحشر والنشر ، ثم أردفه بقوله : ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ وهو من أعظم المؤكدات) . (٢)

والفخر هنا يسمى الآية التي تؤدى معنى واحداً كلمة واحدة وقد كرر هذا في عدة مواضع من التفسير .

---

(١) سورة هود : ١١١ .

(٢) التفسير : ١٨ / ٧١م٩ .

وكان يرى في الآية من المؤكدات ما لم يره غيره ، وقد تناول آية :
﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) وبين ما تحتويه من مؤكدات ، يقول : (... اشتمل الأمر بالحج في هذه الآية على أنواع كثيرة من المؤكدات :

أحدها : قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ والمعنى أنه سبحانه لكونه إلهاً ألزم عبيده هذه الطاعة فيجب الانقياد .

وهذه الدلالة كما أرى تفهم من صيغة تقديم الجار والمجرور على المسند إليه ومن ذكر لفظ الجلالة أيضاً ، ثم يقول :

ثانيها : أنه ذكر : ﴿ النَّاسِ ﴾ ثم أبدل منه ﴿ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ ، وفيه ضربان من التأكيد ، أما الأول : فلأن الإبدال تثنية للمراد وتكريره ، وذلك يدل على شدة العناية ، وأما ثانياً : فلانه أجمل أولاً وفصل ثانياً ، وذلك يدل على شدة الاهتمام .

وثالثها : أنه سبحانه عبر عن هذا الوجوب بعبارتين ، الأولى : لام الملك في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ ، والثانية : كلمة : ﴿ عَلَى ﴾ وهي للوجوب في قوله : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ﴾ .

ورابعها : أن ظاهر اللفظ يقتضي إيجابه على كل إنسان يستطيعه ، وتعميم التكليف يدل على شدة الاهتمام .

وخامسها : أنه قال : ﴿ مَن كَفَرَ ﴾ مكان " ومن لم يحج " ، وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج .

وسادسها : ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان .

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٩٧ .

وسابعها : قوله : ﴿ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقل عنه ،لأن المستغنى عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنياً عن ذلك الإنسان ،وعن طاعته ،فكان ذلك أدل على السخط .

وثامنها : أن في أول الآية قال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ﴾ فبين أن هذا الإيجاب كان لمجرد عزة الألهية وكبرياء الربوبية ،لا لجر نفع أو لدفع ضر ، ثم أكد هذا في آخر الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾).(١)

وقد ذكر الزمخشري بعض هذه الوجوه ،لكن الفخر أسهب وفصّل وأضاف فالزمخشري قد ذكر الوجه الثاني والسادس والسابع (٢) ،والوجوه الأخرى استنبطها الفخر.

ويتعدد مثل هذا الكشف لعناصر التوكيد في تفسيره في الآية الواحدة. وقد لحظت ،أنه كثيراً ما كان يرجع الأسرار البلاغية لكثير من أساليب المعاني للتوكيد .

فالجملة في آخر الآية تأتي توكيداً ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ (٣) : (أنه تعالى أكد ذلك القضاء مزيد تأكيد فقال : ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾).(٤)

ويأتي التكرار توكيداً في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ (٥)

---

(١) التفسير : ٨/ ١٦٩-١٧٠م٤ .

(٢) ينظر الكشاف : ١/ ٤٤٨-٤٤٩ .

(٣) سورة الإسراء : ٥ .

(٤) التفسير : ٢٠/ ١٥٧م١٠ .

(٥) سورة المائدة : من الآية ١١٠ .

يقول : (أنه تعالى اعتبر الإذن في خلق الطين كهيئة الطير ، وفي صيرورته ذلك الشيء طيراً ، وإنما أعاد قوله : * بِإِذْنِي * تأكيداً لكون ذلك واقعاً بقدرة الله تعالى وتخليقه لا بقدرة عيسى وإيجاده).(١)

ويأتي المصدر لتأكيد فعله في قوله تعالى : * وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً *(٢) ، يقول : (وإنما ذكر المصدر وهو قوله : * تَفْصِيلاً * لأجل تأكيد الكلام وتقريره كأنه قال وفصلناه حقاً ، وفصلناه على الوجه الذى لا مزيد عليه والله أعلم).(٣)

ومثله قوله تعالى : * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً *.(٤)

وقد تأتي الصفة توكيداً في قوله تعالى : * تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ *(٥)

يقول الفخر : (إن التوكيد طريقة مشهورة في كلام العرب ، كقوله : * وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وقال : * وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ * ، والفائدة فيه أن الكلام الذى يعبر عنه بالعبارات الكثيرة ويعرف بالصفات الكثيرة أبعد عن السهو والنسيان من الكلام الذى يعبر عنه بالعبارة الواحدة ، فالتعبير بالعبارات الكثيرة يدل على كونه في نفسه مشتملاً على مصالح كثيرة لا يجوز الإخلال بها . أما ما عبر عنه بعبارة واحدة فإنه لا يعلم منه كونه

---

(١) التفسير : ١٢/١٣٤م٦ .

(٢) سورة الإسراء : من الآية ١٢ .

(٣) التفسير : ٢٠/١٦٧م١٠ .

(٤) سورة النساء : ٦١ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ١٩٦ .

مصلحة مهمة لا يجوز الإخلال بها ، وإذا كان التوكيد مشتملاً على هذه الحكمة، فإن ذكره في هذا الموضوع دلالة على أن رعاية العدد في هذا الصوم من المهمات التي لا يجوز إهمالها ألبتة) (١).

والفخر في كلامه السابق يبين فائدة التوكيد إذا نشأ عن تعدد الصفات في الكلام وقوله تعالى : * الَّتِي فِي الصُّدُورِ * و : * يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ * قيود جاءت توكيداً ، ولكل منها سر خاص دعا لمجيئه.

---

(١) التفسير : ٥/١٦٩م٣.

القصـــــــــر

هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص.[1]

تحدث عنه الفخر في نهاية الإيجاز بعد الحديث عن (إنّ) واقتصر فبين أدواته وما تختص به من معاني ،وذكر منها: إنما والنفي والاستثناء.

لكنه في التفسير ذكر طرقاً أخرى للحصر ،فالتقديم قد يدل على الحصر و تعريف الطرفين كذلك.

و بين إفادة كثير من صور التقديم لمعنى الحصر ،و قد بينت رأيه في هذا في باب التقديم ، فكثير من صور تقديم الجار والمجرور عنده تفيد الحصر.

يقول في قوله تعالى : * وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... *[2] : (إن قوله : * وَلَهُ أَسْلَمَ * يفيد الحصر وله أسلم كل من في السموات والأرض لا لغيره).[3]

ومثله قوله تعالى : * بِيَدِكَ الْخَيْرُ *[4] ،وقوله : * لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ *[5] وقوله تعالى : * وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *.[6]

كما أن بعض صور تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي يفيد القصر عنده.

---

(١) ينظر شرح التلخيص : ١٦٦/٢ ،المطول للتفتازاني : ٢٠٤.
(٢) سورة آل عمران : من الآية ٨٣.
(٣) التفسير : ١٣٤/٨ م٤.
(٤) سورة آل عمران : من الآية ٢٦.
(٥) آل عمران : من الآية ١٥٨.
(٦) سورة آل عمران : من الآية ١٦٠.

التعريف :

يأتي ضمير الفصل مبتدأ فيفيد الحصر ، ولا يعده أكثر البلاغيين من طرق القصر ، ويعلل ابن المغربي ذلك بقوله : (وللقصر طرق أي أسباب لفظية تفيده وهي كثيرة منها تعريف الجزأين وفصل المبتدأ بضمير الفصل والمذكور للمصنف أربعة ، وإنما لم يذكر غيرها ، لأن الغير إما أنه ليس معدوداً من الطرق اصطلاحاً كالتأكيد المعنوي ... وإما أنه مخصوص بالمسندين كضمير الفصل، والأ فيد ذكر ما يعم ...) .(١)

وذكر الفخر صوراً كثيرة منها في تفسيره ، وذكر أنها تفيد الحصر كما في قوله تعالى : ﴿ ... وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾(٢) يقول : (﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ يقتضي الحصر أي من أتى بالإيمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر .)(٣)

ومثله في إفادة القصر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾(٤) يقول : (ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه ، فإنك إذا قلت : زيد هو العالم يفيد أنه لا عالم غيره) .(٥)

---

(١) مواهب الفتاح : ١٨٦/٢ (من شروح التلخيص) .
(٢) سورة العنكبوت : من الآية ٥٢ .
(٣) التفسير : ٨١/٢٥ م١٣ .
(٤) سورة الكوثر : ٣ .
(٥) التفسير : ١٣٣/٣٢ م١٦ .

ويدخل ضمير الفصل على صفات الله تعالى فتفيد قصر هذه الصفات عليه قصراً حقيقياً .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾(١) : (يدل على أن العزيز ليس إلا هو ،لأن هذه الصيغة تفيد الحصر ، يقال : زيد هو العالم لا غيره ، فهذا يقتضي أنه لا إله إلا الواحد ،لأن غيره ليس بعزيز ولا حكيم وما لا يكون كذلك لا يكون إلهاً)(٢) .

ومثله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾(٣) يقول : (يفيد الحصر ،فما معنى هذا الحصر مع أن العباد أيضاً موصوفون بكونهم سميعين بصيرين ؟ فنقول : السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل الكمال ،والكمال في كل الصفات ليس إلا لله ،فهذا هو المراد من هذا الحصر)(٤) .

---

(١) سورة الحديد : من الآية ١ .

(٢) التفسير : ٢٠٨/٢٩ م١٥ .

(٣) سورة الشورى : من الآية ١١ .

(٤) التفسير : ١٥٥/٢٧ م١٤ .

إنمــا :

يتحدث الفخر في أقوال العلماء في (إنّما) ويفصّل ما قالوه ثم لا يرتضي إلا أن تكون للحصر مستدلاً على ذلك بالقرآن والشعر والقياس ؛ لأنّ بعض علماء النحو قالوا إنها لا تكون للحصر .

يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) : (اعلم أن كلمة "إنّما" على وجهين :

أحدهما : أن تكون حرفاً واحداً ، كقولك : إنما داري دارك ، وإنما مالي مالك .

الثاني : أن تكون (ما) منفصلة من (إنّ) ، وتكون (ما) بمعنى الذي ، كقولك : إنّ ما أخذت مالك ، وإنّ ما ركبت دابتك ، وجاء في التنزيل على الوجهين . . . واختلفوا في حكمها على الوجه الأول ، فمنهم من قال : (إنّما) تفيد الحصر ، واحتجوا عليه بالقرآن والشعر والقياس .

أما القرآن فقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (٢) أي ما هو إلا إله واحد ، وقال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ (٣) أي لهم لا لغيرهم ، وكذا هذه الآية فإنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ ﴾ (٤) ،

---

(١) سورة البقرة : ١٧٣ .

(٢) سورة النساء : من الآية ١٧١ .

(٣) سورة التوبة : من الآية ٦٠ .

(٤) سورة الأنعام : من الآية ١٤٥ .

وصارت الآيتان واحدة فقوله : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ في هذه الآية مفسر لقوله : ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ لا كذا في تلك الآية.

وأما الشعر فقول الأعشى :

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصىً ... وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلْكَاثِرِ

وقول الفرزدق :

أَنَا الذائدُ الحَامِي الذِّمَار وإِنَّمَا ... يُدَافِعُ عن أَحْسَابِهِم أَنَا أو مِثْلِي

وأما القياس ، فهو أن كلمة (إِنَّ) للإثبات ، وكلمة (مَا) للنفي ، فإذا اجتمعا فلا بد وأن يبقيا على أصليهما ، فإما أن يفيدا ثبوت غير المذكور ، ونفي المذكور وهو باطل بالاتفاق ، أو ثبوت المذكور ، ونفي غير المذكور وهو المطلوب ، واحتج من قال : إنه لا يفيد الحصر بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ (١) ولقد كان غيره نذيراً ، وجوابه معناه : ما أنت إلا نذير فهو يفيد الحصر ، ولا ينفي وجود نذير آخر) (٢).

وقد ذكر أوجه (إنما) هنا ، لأن هناك من جعل (إنما) في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ موصولة وتكون (أن) عاملة فيصير المعنى إن الذى حرم عليكم الميتة (٣) ، وقالوا : إن (إنما) إذا كانت تفيد الحصر على كل حال لاتجه النفي إلى كل ما عدا المذكور ، وذلك قد لا يكون كما في آية : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ . ويرد عليهم الفخر بقوله : (وجوابه معناه ما أنت إلا نذير فهو يفيد الحصر ولا ينفي وجود نذير آخر) أى أن القصر هنا من باب قصر الموصوف على الصفة ، والمنفى هنا صفة أخرى وهي أن يكون في قدرته

---

(١) سورة هود : من الآية ١٢ .

(٢) التفسير : ٥/١١-١٢ م٣ .

(٣) ينظر مواهب الفتاح للمغربي : ٢/١٩٦-١٩٧ .

هداية الناس ، فالنبي صلى الله عليه وسلم مقصور على الإنذار لا يتعداه إلى غيره من الصفة المذكورة ،وهذا القصر لا ينفي وجود نذير آخر ،والباطل بالاتفاق كما يقول الفخر هو أن يكون القصر هنا قصر الصفة على الموصوف كأن يقال : إنما نذير أنت لا غيرك .

ويذكر ذلك أيضاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[1] بعد أن ينقل كلام الزمخشري فيها يقول : (قال صاحب الكشاف : إنما يقصر الحكم على شيء أو يقصر الشيء على حكم كقولك : إنما زيد قائم ،أو إنما يقوم زيد ،وقد اجتمع المثالان في هذه الآية ،لأن ﴿ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد ،و ﴿ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ بمنزلة إنما زيد قائم ،وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على إثبات وحدانية الله تعالى ... فإن قيل : لو دلت إنما على الحصر لزم أن يقال إنه لم يوح إلى الرسول شيء إلا التوحيد ، ومعلوم أن ذلك فاسد ،قلنا : المقصود منه المبالغة).[2] فالأول قصر الصفة على الموصوف ، والثاني قصر الموصوف على الصفة ،فالفخر هنا اتبع رأي الزمخشري في أن (أنما) بالفتح تفيد القصر ،وقد رد أبو حيان على هذا الرأي فقال : إن (أنما) لا تدل على الحصر إلا بالوضع ،لأن الحصر لا يفهم من أخوات (إن) التي كفت بـ (ما)[3] وقال :

(ولو كانت "إنما" دالة على الحصر لزم أن يقال إنه لم يوح إليه شيء إلا التوحيد وذلك لا يصح الحق فيه ،إذ قد أوحي إليه أشياء غير التوحيد).[4]

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٨ .

(٢) التفسير : ٢٢/٢٣٢ م ١١ .

(٣) ينظر البحر المحيط : ١/ ٦١ .

(٤) ينظر المصدر السابق : ٦/ ٣٤٤ .

وقد رد الفخر الرازي على من قد يقول بما قال به أبوحيان فرأى أن القصر هنا قصر ادعائي فما عداه غير منظور إليه ،فكأنه عليه السلام أرسل للدعوة إلى الوحدانية فقط ،لأن معنى التوحيد الالتزام بكل ما أقربه الله.

وأرى أن الحق مع الزمخشري الذي أتبعه الفخر وأكثر المفسرين كالبيضاوي (١) وأبي السعود (٢) والآلوسي (٣).

ونتيجة لاعتراض المحتجين ،وقولهم بأن (إنما) تأتي للحصر الحقيقي ونفي كل ما سواه ، فقد حرص الفخر على أن يبين مخرج كل آية لا تحتمل ذلك ،يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) : (قوله " فإنما " تقتضي الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك ، فإن من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه ... والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ،ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) وهذا قصر إضافي .

وأحياناً كان الفخر يرى أن القصر ليس إلا إثبات الشيء للشيء ونفيه عما عداه في كل موضع ،وأن " إنما " تفيد ذلك وإن كان في الواقع ما يخالف ذلك يقول في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا

---

(١) ينظر أنوار التنزيل : ٤٨/٤ .

(٢) ينظر إرشاد العقل السليم : ٨٩/٦ .

(٣) ينظر روح المعاني : ١٠٦/١٧ .

(٤) سورة العنكبوت : ٦ .

(٥) التفسير : ٣٣/٢٥ م١٣ .

المَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾[1] : ("إنما " للحصر وهذا يقتضي أن لا نجس إلا المشرك ،فالقول بأن أعضاء المحدث نجسه مخالف لهذا النفي ،والعجب أن هذا النص صريح في أن المشرك نجس ،وفي أن المؤمن ليس بنجس)[2].

وقد لجأ الفخر إلى ذلك وإلى دليل الخطاب ليرد على أبي حنيفة في قوله بأن أعضاء المحدث نجسه نجاسة حكمية.[3]

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٢٨ .

(٢) التفسير : ٢٦/١٦ م٨.

(٣) ينظر المصدر السابق الجزء والصفحة.

النفي والاستثناء :

لم يتناول الفخر الحديث عن النفي والاستثناء إلا في مواضع قليلة من التفسير ، فهو عنده إما استثناء متصل ويؤوله على دلالة القصر ، أو استثناء منقطع ويؤوله على باب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، والذي يعد نوعا من أنواع علم البديع ، وكثيراً ما كان يجمع بين الدلالتين .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾ (١) : (قوله : ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ فيه قولان :

القول الأول : أنه استثناء متصل والذاهبون إلى هذا القول ذكروا وجوهاً :

(الأول) : أن هذا الاستثناء ورد على طريق المعنى ، لأن قوله : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً﴾ معناه أنه يؤاخذ الإنسان على القتل إلا إذا كان القتل قتل خطأ فإنه لا يؤاخذ به .

(الثاني) : أن الاستثناء صحيح أيضاً على ظاهر اللفظ ، والمعنى أنه ليس لمؤمن أن يقتل مؤمناً ألبتة إلا عند الخطأ .

القول الثاني : أن هذا الاستثناء منقطع بمعنى لكن ، ونظيره في القرآن كثير ، قال تعالى : ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً﴾ (٢) وقال : ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ . (٣)

---

(١) سورة النساء : من الآية ٩٢ .

(٢) سورة النساء : من الآية ٢٩ .

(٣) سورة النجم : من الآية ٣٢ . التفسير : ١٠/٢٣٣ - ٢٣٤ م ٥ .

وقول الفخر : (والذاهبون إلى هذا النوع يدل على أنه لا يمثل مذهبه وأنه يرى كما يرى جمهور المفسرين أن الاستثناء منقطع ،كابن عطية فهو يقول :
(قال جمهور المفسرين في معنى هذه الآية : وما كان في إذن الله وفي أمره للمؤمن أن يقتل مؤمناً بوجه ،ثم استثنى استثناء منقطعاً ليس من الأول ،وهو الذى تكون فيه إلا بمعنى لكن والتقدير لكن الخطأ قد يقع)(١) .

وقد يحتمل النفي والاستثناء الوجهين ،لكنه يرجح ما هو عليه المعنى في الظاهر ،يقول في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾(٢) "إلا قيلاً" استثناء متصل أو منقطع(٣) ،فنقول فيه وجهان :

أحدهما : وهو الأظهر أنه منقطع ،لأن السلام ليس من جنس اللغو تقديره : لكن يسمعون ﴿ قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾ .

وثانيهما : أنه متصل ووجهه أن تقول : المجاز قد يكون في المعنى ، ومن جملته أنك تقول : مالى ذنب إلا أني أحبك فلهذا تؤذيني ،فتستثنى محبته من الذنب ،ولا تريد المنقطع ،لأنك لا تريد بهذا القول بيان أنك تحبه ، إنما تريد في تبرئتك عن الذنوب ،ووجهه هو أن بينهما غاية الخلاف ،وبينهما أمور متوسطة مثاله الحار والبارد وبينهما الفاتر الذى هو أقرب إلى الحار من البارد ،وأقرب إلى البارد من الحار ، والمتوسط يطلق عليه اسم البارد عند النسبة إلى الحار، فيقال هذا بارد ،و يخبر عنه بالنسبة إلى البارد فيقال إنه حار ،إذا ثبت هذا فنقول قول القائل : مالي ذنب إلا أني أحبك ،معناه لا تجد

---

(١) المحرر الوجيز : ٤/ ٢٠٧ .
(٢) سورة الواقعة : ٢٥-٢٦ .
(٣) في النسخة (متصل منقطع) بدون حرف العطف والمناسب للمعنى ما ذكرته وهو مثبت في نسخة المطبعة الخيرية : ٨/ ٥٢ .

ما يقرب من الذنب إلا المحبة ، فإن عندي أموراً فوقها إذا نسبتها إلى الذنب تجد بينهما غاية الخلاف فيكون ذلك كقوله : درجات الحب عندي طاعتك ..)[(١)].

فهو يتكلف ليؤول المعنى في مجيء الاستثناء المتصل ، وهذا يبعد عن معنى الآية ، لأن قيل سلاماً سلاماً لا يندرج في اللغو ولا التأثيم .

وهكذا نراه يجعل أكثر كل نفي واستثناء محتملاً للوجهين في كثير من المواضع ، يقول في قوله تعالى : ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾[(٢)] : (ظاهر هذه الآية يقتضي أنه طلب أجراً على التبليغ والرسالة وهو المودة في القربى ... والجواب من وجهين :

الأول : أن هذا من باب قوله :

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غيرَ أنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِا مِنْ قِرَاعِ الدارعين فُلُولُ[(٣)]

والمعنى : أنا لا أطلب منكم إلا هذا ، وهذا في الحقيقة ليس أجراً ؛ لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب ..

الوجه الثاني : في الجواب أن هذا استثناء منقطع)[(٤)].

فالوجه الأول استثناء متصل يلحقه بقول النابغة ، أي لا عيب فيهم إلا عيب سيوفهم .

---

(١) التفسير : ٢٩/١٦١ م١٥ .

(٢) سورة الشورى : من الآية ٢٣ .

(٣) هذا القول للنابغة والمشهور (بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتَائِبِ) وهذا مثبت أيضاً في نسخة المطبعة الخيرية : ٢٧٣/٧ ، الديوان : ٤٧ ، وقد ذكر الفخر البيت كما ورد في الديوان في مواضع عدة من التفسير .

(٤) التفسير : ٢٧/١٦٦ م١٤ .

وفي آية أخرى يلحق الفخر بيت النابغة بالاستثناء المنقطع وذلك في قوله تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ (١) يقول :

(أنه استثناء منقطع ومعناه لكن الذين ظلموا منهم يتعلقون بالشبهة ، ويضعونها موضع الحجة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ (٢) ، وقال النابغة :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

ومعناه لكن بسيوفهم فلول) (٣).

فالتقدير كأن بسيوفهم عيب ، وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٥٠ .

(٢) سورة النساء : من الآية ١٥٧ .

(٣) التفسير : ٤/١٥٤ م٢ .

الوصف

تأتي الصفات في كثير من الآيات القرآنية وفي غيرها لتفيد معاني بلاغية.
وقد اهتم الفخر بصفات القرآن وبيان أسرارها .

فقد تأتي الصفة لتميز الموصوف الذي تتعدد أنواعه كما في قوله تعالى : * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *(١) يقول : (ميز الرزق بالوصف بقوله : * كَرِيمٌ * ولم يصف المغفرة ؛لأنها واحدة(٢) هي للمؤمنين ،والرزق منه شجرة الزقوم والحميم ،ومنه الفواكه والشراب الطهور ، فميز الرزق لحصول الانقسام فيه ،ولم يميز المغفرة لعدم الانقسام فيها)(٣).

ولما كان الرجال أكثر شهرة من النساء فقد وصفهم الله بالكثرة في قوله تعالى : * وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً *(٤) يقول الفخر : (..لم خصص وصف الكثرة بالرجال دون النساء ؟ ، قلنا : السبب فيه -والله أعلم- أن شهرة الرجال أتم ، فكانت كثرتهم أظهر ،فلاجرم خصوا بوصف الكثرة وهذا كالتنبيه على أن اللائق بحال الرجال الاشتهار والخروج والبروز ،واللائق بحال النساء الاختفاء والخمول)(٥).

وتأتي الصفة على صيغة المبالغة لبيان ميل طبع الموصوف إلى تلك الصفة،

---

(١) سورة سبأ : ٤ .

(٢) لم يكن الكلام مستقيماً فأضفت كلمة (لأنها) لأنه قال : لم يصف المغفرة واحدة هي للمؤمنين .

(٣) التفسير : ٢٥/٢٤٣ م١٣.

(٤) سورة النساء : من الآية ١.

(٥) التفسير : ٩/١٦٨ م٥.

كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [(١)] يقول الفخر : (فإن قيل لم قال : ﴿ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ مع أن الصادر عنه خيانة واحدة وإثم واحد ؟ قلنا : علم الله تعالى أنه كان في طبع ذلك الرجل الخيانة الكثيرة، والإثم الكثير ، فذكر اللفظ الدال على المبالغة بسبب ما كان في طبعه من الميل إلى ذلك)[(٢)].

ويوصف القسم لعظمته في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [(٣)] يقول : (ما الفائدة في وصفه بالعظيم في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ ؟ فنقول : لما قال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ وكان معناه لا أقسم بهذا الوضوح المقسم به عليه قال لست تاركاً للقسم بهذا ؛ لأنه ليس بقسم أو ليس بقسم عظيم ، بل هو قسم عظيم ولا أقسم به ، بل بأعظم منه أقسم لجزمي بالأمر وعلمي بحقيقته)[(٤)].

ويوصف الشيء للمبالغة في قبحه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [(٥)] يقول : (الأقرب عندي إذا كان مستنكراً مستقبحاً ، فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سبباً لوقوف العقل على ما فيه من القبح)[(٦)].

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٠٧ .

(٢) التفسير : ١١/٣٥-٣٦ م٦ .

(٣) سورة الواقعة : ٧٦ .

(٤) التفسير : ٢٨/١٩١ م١٤ .

(٥) سورة النحل : ٥١ .

(٦) التفسير : ٢٠/٤٩ م١٠ .

وللزمخشري وجه لطيف في الآية ذكر فيه أن الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية يدل على الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريد معنى العدد المخصوص شفع بما يؤكده ، وعندئذ يدل على القصد.[١]

وذكر الزركشي وجوهاً عدة لمجيء هذه الصفة في الآية منها :

١ - أنها جاءت لتوكيد نهي الإشراك بالله ، لأن العبرة في النهي عن اتخاذ الإلهين إنما هو لمحض كونهما اثنين فقط ، ولو وصف (إلهين) بغير هذه من الصفات كقوله : لا تتخذوا إلهين عاجزين ، لأشعر بأن القادرين يجوز أن يتخذا ، فمعنى التثنية شامل لجميع الصفات.

٢ - لو حذفت الصفة لكان النهي عن اتخاذ جنسين آلهة ، وجاز أن يتخذ من نوع واحد أعداد آلهة ، فلما قال (اثنين) بين فيه قبح التعديد ، وأنه منزه عن العددية .[٢]

وتأتي الصفة لبيان قدرة الله وحكمته في إظهار الضد مع الضد كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً ﴾[٣] يقول : (واعلم أن في ذكر "الطري" فائدة زائدة ، وذلك لأنه لو كان السمك كله مالحاً عرف به من قدرة الله تعالى ما يعرف بـ "الطري" ، فإنه لما خرج من البحر الملح الزعاق الحيوان الذي لحمه في غاية العذوبة علم أنه إنما حدث لا بحسب الطبيعة ، بل بقدرة الله وحكمته).[٤]

---

(١) ينظر الكشاف : ٤١٣/٢ .
(٢) ينظر البرهان في علوم القرآن : ٤٣٣/٢ ومابعدها .
(٣) سورة النحل : من الآية ١٤ .
(٤) التفسير : ٥/٢٠-٦ م١٠ .

وهناك وجه آخر لفائدة الصفة شاع في كتب التفسير [١] وهو أن وصف اللحم بالطراوة حث على المسارعة في أكله خيفة الفساد عليه ، لأن الفساد أسرع إليه .

وهذا الوجه راجع في الأصل إلى الزمخشري ذكره في تفسيره [٢] وما ذهب إليه الفخر وجه حسن جداً .

وفي وصف يوم القيامة بما توصف به المحسوسات بيان لشدة هوله في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [٣]

يقول الفخر : (ما السبب في وصف يوم القيامة بأنه يوم ثقيل؟ ، الجواب : استعير الثقل لشدته وهوله ، من الشيء الثقيل الذي يتعب حامله) [٤].

فقد جاء الوصف استعارة لليوم ، لما يحدث فيه من شدائد وأهـــــوال تشبه الشيء الثقيل الذي يصعب حمله . [٥]

وقد يأتي الوصف بياناً لصفاته جل وعلا ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [٦].

يقول الفخر : (قال : ﴿ الْمَتِينُ ﴾ وذلك لأن : ﴿ ذُو الْقُوَّةِ ﴾ . لا يدل إلا على أن له قوة ما ، فزاد في الوصف بياناً ، وهو الذي له ثبات لا يتزلزل ، وهو من المتين من باب واحد لفظاً ومعنى ، فإن متن الشيء هو أصله الذي عليه

---

(١) ينظر أنوار التنزيل : ٢/١٧٦ ، إرشاد العقل السليم : ٥/١٠٣ ، روح المعاني : ١٤/١١١ .

(٢) ينظر الكشاف : ٢/٤٠٤ .

(٣) سورة الإنسان : ٢٧ .

(٤) التفسير : ٣٠/٢٦٠ م١٥ .

(٥) ينظر الكشاف : ٤/٢٠٠ - ٢٠١ .

(٦) سورة الذاريات : ٥٨ .

ثباته ، والمتن هو الظهر الذى عليه أساس البدن والمتانة مع القوة كالعزة مع القوة).[١]

ويرى الفخر أن : ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ جاءت صفة في قوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾[٢] لإفادة معنى الدوام والاستمرار مخالفاً بهذا قول العلماء الذين رأوا أنه بدل .

يقول : (لا نزاع في أن قوله : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ يحسن جعلهما صفة ، وإنما كان كذلك لأنهما مفيدان معنى الدوام والاستمرار فكذلك قوله : ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ يفيد معنى الدوام والاستمرار ، لأن صفات الله تعالى منزهة عن الحدوث والتجدد).[٣]

فقد جعله الزجاج بدلاً ، ويرى الزمخشري أن كونه بدلاً بين الصفات نبوء ظاهر ، والوجه أن يقال إن كلها أبدال غير أوصاف وحذفت الألف واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظاً (ويجوز أن يقال : قد تعمد تنكيره وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار).[٤]

---

(١) التفسير : ٢٨/٢٣٢ م١٤ .

(٢) سورة غافر : من الآية ٣ .

(٣) التفسير : ٢٨/١٧ م١٤ .

(٤) الكشاف : ٣/٤١٣ .

القيــــــــود

قد يتعلق بالجملة قيود تعين على تحديد المعنى وتصويره فتزيد من فائدتها ،وتفقدها بدونها ،وقد قال الخطيب القزويني : إنها تأتي لتربية الفائدة(١) ،ولذلك فللقيود أهميتها في الكلام ومذاقاته .

وقد تنبه لها الفخر وذكر أسرارها في آيات من القرآن .

فقد يأتي القيد لتأكيد الفعل وللعلم بقبحه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾.(٢)

يقول : (فلم قال : ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ وقتل الأنبياء لا يكون إلا على هذا الوجه ؟ فالجواب من وجهين :

الأول : أن الإتيان بالباطل قد يكون حقاً ،لأن الآتي به اعتقده حقاً لشبهة وقعت في قلبه ،وقد يأتي به مع علمه بكونه باطلاً ، ولا شك أن الثاني أقبح ، فقوله : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى أنهم قتلوهم من غير أن كان ذلك القتل حقاً في اعتقادهم وخيالهم ،بل كانوا عالمين بقبحه ،ومع ذلك فقد فعلوه .

والثاني : أن هذا التكرير لأجل التأكيد كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾(٣) ويستحيل أن يكون لمدعى الإله الثاني برهان).(٤)

---

(١) ينظر الإيضاح : ١٧٧ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٦١ .

(٣) سورة المؤمنون : من الآية ١١٧ .

(٤) التفسير : ٣/ ١١٠ م٢ .

وقد يكون القيد لإثبات الصدق والنهي عن الرياء في العمل .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ﴾ (١) : (التوبة لا تكون إلا للباري ، والجواب المراد منه النهي عن الرياء في التوبة ، كأنه قال لهم : لو أظهرتم التوبة لا عن القلب فأنتم ما تبتم إلى الله ، الذي هو مطلع على ضمائركم ، وإنما تبتم إلى الناس ، وذلك مما لا فائدة فيه ، فإنكم إذا أذنبتم إلى الله وجب أن تتوبوا إلى الله) (٢).

ويأتي القيد للتعظيم ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (٣) يقول الفخر : (النصر لا يكون إلا من الله قال تعالى : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (٤) فما الفائدة في هذا التقييد وهو قوله : ﴿ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ؟ والجواب : معناه نصر لا يليق إلا بالله ، ولا يليق أن يفعله إلا الله أو لا يليق إلا بحكمته ، ويقال هذا صنعة زيد إذا كان زيد مشهوراً بإحكام الصنعة ، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة ، فكذا ههنا ، أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم : ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴾ (٥) فيقول : هذا الذي سألتموه) (٦).

ويذكر القيد لإثبات كمال علمه وقدرته عز وجل ، يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (٧) : (فإن قيل ما الفائدة في قوله : ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ مع أنه لو أطلق كان أبلغ ؟

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٥٤ .

(٢) التفسير : ٨٥/٣ م٢ .

(٣) سورة النصر : ١ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٢٦ ، سورة الأنفال : من الآية ١٠ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢١٤ .

(٦) التفسير : ١٥١/٣٢ م١٦ .

(٧) سورة آل عمران : ٥ .

قلنا : الغرض إفهام العباد كمال علمه ، وفهمهم هذا المعنى عند ذكر السموات والأرض أقوى ، وذلك لأن الحس يرى عظمة السموات والأرض فيعين العقل على معرفة عظمة علم الله عز وجل) .(١)

وكثيراً ما يدل المتعلق عند الفخر الرازي على التأكيد والمبالغة ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ .(٢)

يقول : (لقائل أن يقول : الأكل لا يكون إلا في البطن فما فائدة قوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ ؟ وجوابه : أنه كقوله : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾(٣) والقول لا يكون إلا بالفم ، وقال : ﴿ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾(٤) وقال : ﴿ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾(٥) والطيران لا يكون إلا بالجناح والغرض من كل ذلك التأكيد والمبالغة) .(٦)

وألمح مع التوكيد في هذه الآيات معاني أخرى ، ففي الآية الأولى : ذكر البطن مع الأكل لبيان بشاعة عملهم ، وهو أكل مال اليتيم .

وفي الثانية : ذكر الأفواه والقول لا يكون إلا بها ، لأنهم لا يقصدون ما يقولون فهو من أفواههم فقط ، وليس من قلوبهم .

وفي الثالثة : لا يكون الطيران إلا بالجناح للدلالة على قدرة الله وعظمته في الخلق .

---

(١) التفسير : ١٧٩/٧ م٤ .

(٢) سورة النساء : من الآية ١٠ .

(٣) سورة آل عمران : من الآية ١٦٧ .

(٤) سورة الحج : من الآية ٤٦ .

(٥) سورة الأنعام : من الآية ٣٨ .

(٦) التفسير : ٢٠٧/٩-٢٠٨ م٥ .

وكان يبين أحياناً فائدة التوكيد الذى جاء به القيد ،كقوله في قوله تعالى : ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ ﴾[١] : (ما الفائدة في تأكيد الحجارة بكونها من طين ؟ نقول : لأنّ بعض الناس يسمى البرد حجارة، فقوله : ﴿ مِن طِينٍ ﴾ يدفع ذلك التوهم)[٢].

وقد يزداد في الكلام لإظهار البهجة والسرور والافتخار بالعمل يقول في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾[٣] : (واعلم أنه كان يكفيهم في الجواب أن يقولوا نعبد أصناماً ،ولكنهم ضموا إليه زيادة على الجواب وهي قولهم : ﴿ فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ وإنما ذكروا هذه الزيادة إظهاراً لما في نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الأصنام)[٤].

فهم حريصون على ذكر أحوالهم مع أصنامهم كاملة على سبيل التفصيل إظهاراً لابتهاجهم وسرورهم.

وهذا الوجه أخذه الفخر من الزمخشرى[٥].

---

(١) سورة الذاريات : ٣٣.

(٢) التفسير : ٢١٧/٢٨ م١٤.

(٣) سورة الشعراء : ٧٠-٧١.

(٤) التفسير : ١٤٢/٢٤ م١٢.

(٥) ينظر الكشاف : ١١٦/٣.

وضع المظهر موضع المضمر وعكسه

اهتم البلاغيون بهذا الباب ،فعبد القاهر بَيَّن فيه مكانة الكلمة ووحيها وإثارتها لكثير من المعاني ،لأن قدراً كبيراً من معنى النص يظل كامناً في الاسم الظاهر لا يستطيع الضمير الإفصاح عنه ،وقد تناول أمثلة كثيرة من القرآن والشعر بين فيها بلاغة الاسم الظاهر في الكلام ،فيقول في قول النابغة :

نَفْسُ عِصَام سَوَّدَتْ عِصَاما وَعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإقداما

: (لا يخفى على من له ذوق حسن هذا الإظهار ،وأن له موقعاً في النفس وباعثاً للأريحية ،لا يكون إذا قيل : (نفس عصام سودته) شيء منه ألبتة) (١).

والفخر الرازى اهتم ببيان سر إيثار الاسم الظاهر على المضمر في بعض الآيات في مواضع قليلة من التفسير .

فقد يوضع الاسم الظاهر موضع المضمر لفخامته وعظمته كما في قوله تعالى : ﴿ الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّةُ ﴾ (٢) يقول : (﴿ الحَاقَّةُ ﴾ مرفوعة بالابتداء ،وخبرها : ﴿ مَا الحَاقَّةُ ﴾ والأصل : الحاقة ما هي ؟ أى : أى شيء هي ؟ ، تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها ،فوضع الظاهر موضع المضمر ؛ لأنه أهول لها ،ومثله قوله : ﴿ القَارِعَةُ مَا القَارِعَةُ ﴾. (٣)

ويذكر اسم يوم القيامة بدل الضمير للزيادة في وصف شدتها وهولها

---

(١) دلائل الإعجاز : ٥٥٧ .

(٢) سورة الحاقة : ١-٢ .

(٣) سورة القارعة : ١-٢ ، التفسير : ٣٠/١٠٢ م١٥ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ (١) : (إنما قال : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴾ ولم يقل بهما ليدل على أن معنى القرع حاصل في الحاقة فيكون ذلك زيادة على وصف شدتها) (٢).

وقد يعدل إلى المظهر لما فيه من زيادة التقبيح .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (٣) : (قال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل منكم ، مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ ... ﴾ تنبيهاً على قبح ذلك ، وتبعيداً لهم عنهم ، كما يقول السيد لعبده : إن رأيت أحداً من غلماني يفعل كذا فامنعه ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فإن فعل غيرك فامنعه) (٤).

ففي كلمة ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقبيح لصدور الفعل منهم وهم قد آمنوا بالله وصدقوا به .

و يكرر الاسم الظاهر بدل الضمير إظهاراً للتعجب من قولهم .
يقول في قوله تعالى : ﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٥) : (وإنما لم يقل وقالوا بل قال : ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾

---

(١) سورة الحاقة : ١-٤ .
(٢) التفسير : ١٠٣/٣٠ م١٥ .
(٣) سورة الحجرات : من الآية ٩ .
(٤) التفسير : ١٢٧/٢٨ م١٤ .
(٥) سورة ص : ٤ .

إظهاراً للتعجب ودلالة على أن هذا القول لا يصدر إلا عن الكفر التام.)[١]

ويذكر الزمخشري أن الإظهار هنا للدلالة على الغضب عليهم، وأنه قول لا يجسر عليه إلا الكافرون.[٢]

وقد يستغنى عن ذكر الاسم الظاهر بضميره لأغراض ذكرها الفخر منها: الدلالة على شهرة هذا المضمر، وأن كل أحد يعرفه، فلا يحتاج إلى أن يذكر به كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾.[٣]

يقول: (إنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح، ألا ترى أنه في السورة المتقدمة لم يذكر اسم أبي جهل، ولم يخف على أحد اشتهاره، وقوله: ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾[٤] ولم يذكر الموت لشهرته فكذا هنا).[٥]

ويقصد بالسورة المتقدمة سورة العلق، وفيها آيات تتحدث عن استكبار أبي جهل، وكلها جاءت بالضمير دون الاسم الظاهر للدلالة على شهرته بإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾[٦] ولذلك استغنى عن ذكر اسمه.

ويبين الفخر سر مجيء لفظ الجلالة مرة بالاسم الظاهر ومرة بالضمير في آيتين متشابهتين، الآية الأولى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[٧]، الآية الثانية:

---

(١) التفسير: ٢٦/ ١٧٦م١٣.

(٢) ينظر الكشاف: ٣/ ٣٦٠.

(٣) سورة القدر: ١.

(٤) سورة الواقعة: ٨٣.

(٥) التفسير: ٣٢/ ٢٧م١٦.

(٦) سورة العلق: ١٥، ١٦.

(٧) سورة آل عمران: ٩.

﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [١]

يقول : (فإن قيل فلم قالوا في هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ وقالوا في تلك الآية : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ ؟ قلت : الفرق - والله أعلم - أن هذه الآية في مقام الهيبة ، يعني أن الألهية تقتضي الحشر والنشر لينتصف المظلومون [٢] من الظالمين ، فكان ذكره باسمه الأعظم أولى في هذا المقام ، أما قوله في آخر السورة : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ فذاك المقام مقام طلب العبد من ربه أن ينعم عليه بفضله ، وأن يتجاوز عن سيئاته فلم يكن المقام مقام الهيبة ، فلا جرم قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ ..) [٣]

وقد يلجأ الفخر في بيان سر الإضمار إلى حقيقة علمية تتعلق بطبيعة تكوين جسم الإنسان .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [٤] : (إن الله تعالى قال : ﴿ أَصَمَّهُمْ ﴾ ولم يقل أصم آذانهم ، وقال : ﴿ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ ولم يقل أعماهم ، وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الأبصار ، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام ، لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ، ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذي كما يؤذي الصوت القوي فقال : ﴿ أَصَمَّهُمْ ﴾ من غير ذكر الأذن ، وقال : ﴿ أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ مع ذكر العين ، لأن البصر ههنا بمعنى العين ، ولهذا جمعه بالأبصار ، ولو كان مصدراً

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٤ .

(٢) في النسخة (المظلومين) والصحيح ما أثبته لأنه فاعل مرفوع بالواو والنون ، وهو خطأ املائي .

(٣) التفسير : ١٩٧/٧ م٤ .

(٤) سورة محمد : ٢٣ .

لما جمع فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإصمام ،والعين لها مدخل في الرؤية بل هي الكل)[١].

وهذا تعليل حسن جداً من الفخر ،يصل فيها أسرار القرآن بالحقائق الكونية ،وقد دأب على هذا في مواضع عدة من التفسير ،وهي طريقة جيدة في الكشف عن أسرار القرآن.

ومن أحسن مواقع مجيء المضمر موضع الظاهر ما كان الضمير فيه ضمير الشأن والقصة ،والأساليب التي تجيء على هذه الطريقة تصيب موقعها ولها مذاق حسن في الكلام.

وقد تتبعت بعض الآيات التي يعود فيها ضمير الشأن على ما بعده في التفسير فلم أجده يهتم بذكر نكاتها البلاغية ،أو أثرها في النفس، بل كان يكتفي بأنه ضمير شأن وما بعده مفسر له.

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[٢] : (ما معنى الضمير في قوله : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ ؟ الجواب : هذا الضمير ضمير القصة والشأن يجيء مؤنثاً ومذكراً ،وفي قراءة ابن مسعود : ﴿ فإنه ﴾ ويجوز أن يكون ضميراً مبهماً يفسره (الأبصار))[٣] ولم يفطن الفخر إلى أن الضمير هنا قد هيأ النفس لتلقي ما بعده من أمر عدم وقوع العمى على الأبصار بل هو في القلوب ،ومجيء الضمير على هذه الهيئة ينبيء عن أهمية ما بعده ولذلك فهو يقع في النفس موقع القبول والفخامة .

---

(١) التفسير : ٢٨/٦٤-٦٥ م١٤.

(٢) سورة الحج : من الآية ٤٦.

(٣) التفسير : ٢٤/٤٦ م١٢.

ويقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾[١] : (لفظة " هي " .. ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون كناية عن الأبصار ، والمعنى : فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم كنى عن الأبصار ثم أظهر .

ثانيها : أن تكون عماداً ويصلح في موضعها هو ...

ولم يذكر الوجه الثالث إنّما قال : وقال سيبويه الضمير للقصة بمعنى فإذا القصة شاخصة ، يعني أن القصة أن أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك)[٢] .

فهو وإن أشار إلى أنواع الضمير لكن لم يبين سره البلاغي الذى دعا لمجيئه ، والذى يخبىء وراءه خبراً ذا بال وشأن ، مهد له بقوله تعالى قبله : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ .

---

(١) سورة الأنبياء : من الآية ٩٧ .

(٢) التفسير : ٢٢/٢٢٢ م ١١ .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

قامت الطالبة بإجراء التعديلات التى طلبتها لجنة المناقشة.

المشرف	مناقش	مناقش
د. علي محمد حسن العماري	د. عبده هليل	د. علي البدري

علم المعاني في التفسير الكبير للفخر الرازي وأثره في الدراسات البلاغية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علوم البلاغة

إعداد

الطالبة/ فائزة سالم صالح يحيى أحمد

إشراف

الأستاذ الدكتور / علي محمد حسن العماري

المجلد الثاني

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الرابع:

بنـاء الجمل

بنـــــاء الجمـــــل

تتخطى الدراسة البلاغية نطاق البحث في المفرد والجملة إلى النظر في الجمل المتتابعة ، لمعرفة خفي المعاني الكامنة وراء ترابطها .

وهذا الفصل يتناول المناسبات القائمة بين المعاني، كما يتناول باب فصل الجمل ووصلها في الكلام ، ويبحث عن الفواصل القرآنية وملاءمتها لمضامين الآيات ، ويهتم أيضاً بجمل الالتفات، والاعتراض في الكلام ،وتحليل النصوص تحليلاً بلاغياً ، وإقامة الموازنة بين ما تشابه منها في صياغته،وغير ذلك من المباحث المتصلة ببناء الجمل مما سنراه،إن شاء الله.

المناسبات والترتيبات

يعد هذا المبحث من أطول المباحث في تفسير الفخر ، وهو ما يميزه عن غيره من كتب التفسير فيما يتعلق بالمباحث البلاغية .

وعلم المناسبة علم تعرف منه علل الترتيب بين أجزائه ، وثمرته هو معرفة المرتبة العليا التي يستحقها الجزء بما له من ارتباط بسابقه ولاحقه ، ومن تعلق بهما كلحمة النسب (١) . ولم يفرد البلاغيون هذا النوع من العلم بباب خاص؛ لأن مباحثه لم يتحدد لها معاقد مضبوطة ، وكثير منها يدخل تحت باب الفصل والوصل .

وقد استفاد المتأخرون من علماء المناسبة بباب حسن التخلص ، وباب الاستطراد في البلاغة ، وطبقوا عليه آيات كثيرة كما عند (بدر الدين الزركشي) و (جلال الدين السيوطي) (٢) .

وتنقل إلينا الكتب أن أول ظهور هذا العلم كان على يدي عالم جليل يسمى (أبا بكر النيسابوري) (ت ٣٢٤ هـ) ، وقد كان غزير العلم في الشريعة والأدب ، وكان يقرأ القرآن ويبين لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ، وما الحكمة من جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ، وكان يزدري علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة (٣) .

إذن فهو علم شريف لا يتأتى لكل أحد من الناس ، ولا بد فيه من الجمع بين علم الأدب الذي هو جزء من علم العربية وعلم الشريعة .

---

(١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للبقاعي : ١/٧ .
(٢) البرهان في علوم القرآن ، الإتقان في علوم القرآن .
(٣) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي : ١/٣٦ .

وكان القاضي (أبو بكر بن العربي) يشتكي من قلة حملة هذا العلم للطفه ودقته إذ يقول : (ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد ، عمل فيه سورة البقرة ، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه) (١) .

نتأمل قوله : (علم عظيم) ، وقوله : (لم نجد له حملة) .

ولا أعلم من يريد بقوله : (لم يتعرض له إلا عالم واحد) هل هو أبو بكر النيسابوري أم أحد غيره ؟

وللباقلاني دراسة تسبق قول القاضي ابن العربي في كتابه (إعجاز القرآن) يبحث فيها عن المناسبة بين المعاني المختلفة في بعض آيات القرآن ، كما تناول سورتي النمل وغافر ، ووقف فيهما عند مواطن التخلص من معنى إلى آخر ، وبين كيف يتم الانتقال من غرض إلى غرض بطريقة عجيبة يأتلف فيها المختلف ، وتندمج فيها المعاني المتنوعة ، وهو في كل هذا لم يسر على طريقة علمية ، إنما اعتمد على إحساس النفس وإثارة ملكات التفكير عند القارئ ، ويتضح ذلك بوضوح وجلاء عند النظر في كتابه (٢) .

وهكذا ظلت دراسة المناسبات تسير في حدود ضيقة عند مفسري القرآن على آيات قليلة منه .

وجاء الفخر الرازي واهتم بها اهتماماً كبيراً ، وأكثر منها في تفسيره ، وطبقها على كثير من آى القرآن ، ويعد تفسيره - حسب علمي - أول تفسير

---

(١) المصدر السابق : ٣٦/١ .

(٢) ينظر إعجاز القرآن : ٢٠٢ ومابعدها .

اهتم بتدوين مناسبات القرآن ،ويرى أن كثيراً من النكات واللطائف تكمن في مثل هذه العلاقات بين الآيات والسور يقول : (إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط)[(١)] ، واللطائف هي الدقائق التي لا تظهر إلا بالتأمل وحسن النظر.

كما أنه كان يدرك عظم هذا العلم ،وأنه لا يتأتى للعامة بل لا بد من توفر القريحة القوية التي لا تتأتى إلا بعد طول ممارسة للعلم ،ورياضة روحية تزكو بها النفس ،وتسمو بها الروح حتى تدرك دقائقه ولطائفه ،وهو هنا يوافق القاضي ابن العربي في أنه علم عزيز جداً ،فيقول : (اعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصاباً وافياً من العلوم الإلهية الكشفية عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن)[(٢)].

ولهذا فقد أرجع إليها إعجاز القرآن بجانب الفصاحة -كما سنرى في فصل الإعجاز في تفسيره-.

وكان الفخر شديد الإعجاب بهذه المناسبات ،وقيامها على وجه دقيق منتظم ، ولذلك أجده يستحسنها ،ويكثر الثناء عليها في كل تفسيره.

فمثلاً يقول في ربط الآيات الأولى من سورة آل عمران : (فقد ظهر أنه لا يمكن أن يكون كلام أقرب إلى الضبط وإلى حسن الترتيب وجودة التأليف من هذا الكلام)[(٣)]. ولم ينبغي له أن يصف القرآن بأنه (كلام أقرب إلى الضبط).

---

(١) التفسير : ١٤٥/١٠ م٥.

(٢) التفسير : ١٢٤/٢٧ م١٤.

(٣) التفسير : ١٦٩/٧ م٤ ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ سورة آل عمران : آية ١.

ويقول كذلك في الآيات نفسها : (ومن تأمل في هذه اللطائف علم أنه لا يعقل كلام أكثر فائدة ولا أحسن ترتيباً ولا أكثر تأثيراً في القلوب من هذه الكلمات) . (١)

هذا وقد تتبعت حديث الفخر عن المناسبات في التفسير فصنفتها على أنواع :

١ - مناسبة بين جزئيات الآية الواحدة .

٢ - مناسبة بين آية وآية .

٣ - مناسبة بين أجزاء وموضوعات السورة الواحدة .

٤ - مناسبة بين أول السورة وآخرها .

٥ - مناسبة أول السورة بآخر ما قبلها .

٦ - مناسبة بين سورة وسورة أو عدة سور .

وسأقف -إن شاء الله - عند كل نوع وأبين طريقته في تناوله .

---

(١) التفسير : م٤ ٧/١٧٩/عند تفسير قوله تعالى : * إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * سورة آل عمران : آية ٥ .

المناسبة بين جزئيات الآية الواحدة :

اعتنى الفخر بالربط بين جزئيات الآية الواحدة ، التي تتكون من ألفاظ وجمل عدة ، تحمل معاني عدة ، وهذا النوع من الصعوبة بمكان ، لأنه يبحث عن العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني الجزئية في الجملة الواحدة ، واستخراج الخيط الجامع لهذه المعاني ، وهي في التفسير نوعان :

نوع يبحث عن المناسبة بين أجزاء الآية الواحدة ألفاظاً وجملاً .

ونوع يبحث عن مناسبة ذيل الآية لصدرها .

النوع الأول :

استطاع الفخر ببصيرته النفاذة أن يربط بين الجمل المتجاورة في الآية الواحدة ، مما تخفى المناسبة بينهما ، كمناسبة الأمر بالغض من الصوت بالأمر بالقصد في المشي في قوله تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (١) ، قال : (هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي ؟ فنقول : نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها ، وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ، ولا يصيبه عد ، ولا يعلمه أحد والذي يظهر وجوه :

الأول : هو أن الإنسان لما كان شريفاً تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطراً ، فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشي ، فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادي مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشياً . . . فإذا كان المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر .

---

(١) سورة لقمان : ١٩ .

الثاني : هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء : عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فإنه حركة وسكون ، وقول باللسان ، لا يشاركه فيه غيره ، وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا لله ، وقد أشار إليه بقوله : ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ (١) .. بقي الأمران فقال : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال ...) (٢).

ومن التأليف بين أجزاء الكلام في الآية الواحدة ما جاء في قوله تعالى (٣) : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ : (... ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل ما سواه فاعبدوه ولا تعبدوا غيره أحداً ، فإنه هو المصلح لمهمات جميع العباد ، وهو الذي يسمع دعاءهم ويرى ذلهم وخضوعهم ، ويعلم حاجتهم ، وهو الوكيل لكل أحد على حصول مهماته ، ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه ... علم أنه لا طريق أوضح ولا أصلح منه) (٤).

ويربط الفخر هنا بين المعاني ربطاً معنوياً ، دون تمييز لمواقع الجمل ، فقد جاءت كلها أخباراً في خمس جمل ، فالجملة الأولى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ وأكدت بما بعدها في قوله : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فالربوبية تعني أنه متوحد في الألوهية ، ثم جاءت الجملة الثالثة أيضاً مؤكدة لما قبلها : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، ثم جاءت جملة : ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ جملة أمر كنتيجة لما قبلها من الأخبار ، فربوبيته وتوحده في الألوهية وخلقه لكل شيء يستدعي عبادته ، ثم جاءت الجملة الأخيرة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ خاتمة تخبر عن كمال قدرته.

---

(١) سورة لقمان : من الآية ١٦.

(٢) التفسير : ٢٥/١٥١ م١٣.

(٣) سورة الأنعام : ١٠٢.

(٤) التفسير : ١٣/١٢٦ م٧.

وقد التفت الزمخشرى إلى هذه الجمل وذكر أنها أخبار مترادفة يقول : ﴿ ذَلِكُمُ ﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم مبتدأ ، وما بعده أخبار مترادفة، وهي : ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى ذلكم الجامع لهـذه الصفات ، ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ مسبب عن مضمون الجملةعلى معنى أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه .... ثم قال : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يعني وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال رقيبعلى الأعمال) [(١)].

وأحياناً لا تبدو هناك مناسبة بين جزئيات الآية الواحدة لكن الفخر يربط بينها ويظهر هذه العلاقة.

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [(٢)] : (الوجه عندى في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة ، والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذى هو عبارة عن التعظيم لأمر الله ، وإلى الإحسان الذى هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ، ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء ، وحسن القول للناس ، فكأنه سبحانه قال : كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة ، بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة، وهو فعل الخيرات) [(٣)].

وهكذا تتصاعد المعاني وتتدرج حتى تؤدى المعنى المقصود .

---

(١) الكشاف : ٢ / ٤١ .

(٢) سورة الحج : ٧٧ .

(٣) التفسير : ٢٣ / ٧٢ م١٢ .

وقد يربط الفخر بين آخر الآية والآية التي بعدها ، ويعد هذه المناسبة من أسباب فصاحة الكلام في قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

يقول : (... إنه تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة ... واحتج بعضهم على أن الامتناع من إيتاء الزكاة يوجب الكفر ، فقال إنه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر ، وهو قوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ، وذكر أيضاً بعدها ما يوجب الكفر ، وهو قوله : ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ فلو لم يكن عدم إيتاء الزكاة كفراً لكان ذكره فيما بين الصفتين الموجبتين للكفر قبحاً ، لأن الكلام إنما يكون فصيحاً إذا كانت المناسبة مرعية بين أجزائه) (٢) .

وفي كل هذا نجد الفخر يعتمد في بيان المناسبة على القرائن المعنوية دون التعرض لعلاقات الجمل اللفظية .

أما النوع الثاني فهو الذي يبحث في علاقة ومناسبة عجز الكلام لأوله كأن يبين صلة أواخر آيتين من سورة الحجرات تقاربتا في المعنى بأوائلهما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة فصلت : من الآية ٦ والآية ٧ .

(٢) التفسير : ٢٧ / ١٠١ م١٤ .

(٣) آية : ١١-١٢ .

يقول : (وإنما ختم الآيتين بذكر التوبة ،فقال في الأولى : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ،وقال في الأخرى : ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ ، لكن في الآية الأولى لما كان الابتداء بالنهي في قوله : ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ذكر النفي الذى هو قريب من النهي ، وفي الآية الثانية لما كان الابتداء بالأمر في قوله : ﴿اجْتَنِبُوا﴾ ذكر الارتياب الذى هو قريب من الأمر) .(١)

ويربط الفخر هنا بين بنية الكلام واتفاقه من حيث النظم ،ولا يتعرض للمناسبة بين المعاني ، على أن الألوسي قد ربط بين أول الآية وآخرها من ناحية المعنى فذكر في الآية الأولى أنه لما كانت السخرية والتنابز بالألقاب أفحش ذكر التهديد على صيغة النفي : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ ، ولما كان الظن والتجسس والغيبة في الآية الثانية أخفى جاءت الخاتمة على صيغة الأمر.(٢)

ويدخل تحت هذا النوع مشكلات الفواصل التي سأذكرها في مبحث الفواصل والتي تكشف عن المناسبة بين مضمون الآية وفاصلتها .

---

(١) التفسير : ١٣٦/٢٨ م١٤.
(٢) روح المعاني : ١٦١/٢٦.

المناسبة بين الآية وما قبلها :

أكثر الأنواع انتشاراً في التفسير ،فقد حرص الفخر على ربط أكثر الآيات بما قبلها قبل الشروع في تفسيرها .

فمن هذا النوع ما يكون الرابط بين الآية وما قبلها خفياً ،لا يظهر بوضوح وجلاء ،وهنا يقف الفخر أمام هذه الآيات ،ويتغلغل في معانيها ، ويبين وجه ارتباطها بما قبلها بطريقة عجيبة .

من ذلك أن الآية قد تقع بين عدة آيات ذات سياق واحد ،فلا تبدو مرتبطة بها ، فيكشف الفخر عن وجه ارتباطها .

مثل ذلك أن الله تعالى - في سورة البقرة - قد عدد على بني إسرائيل أنواع النعم التي أنعم بها عليهم ،فذكرهم بإنجائهم من آل فرعون ،وبغرقه للبحر وبعفوه عنهم بعد اتخاذهم العجل ،وبإنزاله الكتاب عليهم .

ثم قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾.(١)

وقد قال بعض المفسرين إن هاتين الآيتين لا تعدان من النعم فكيف جاءت في سياقها ،وقد رد الفخر عليهم وبين صلتها بما قبلها .

يقول : (اعلم أن هذا الإنعام الخامس قال بعض المفسرين : هذه الآية ومابعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم ،وذلك لأنها أمر بالقتل ،

---

(١) سورة البقرة : ٥٤ - ٥٥ .

والقتل لا يكون نعمة وهذا ضعيف من وجوه :

أحدها : أن الله تعالى نبههم على عظم ذنبهم ،ثم نبههم على ما به يتخلصون من ذلك الذنب العظيم ،وذلك من أعظم النعم في الدين .

وثانيها : أن الله تعالى لما أمرهم بالقتل رفع ذلك الأمر عنهم قبل فنائهم بالكلية فكان ذلك نعمة في حق أولئك الباقين .

وثالثها : أنه تعالى لما بين أن توبة أولئك ما تمت إلا بالقتل مع أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يقول لهم لا حاجة بكم الآن في التوبة إلى القتل ،بل إن رجعتم عن كفركم وآمنتم قبل الله إيمانكم . .

ورابعها : أن فيه ترغيباً شديداً لأمة محمد صلوات الله وسلامه عليه في التوبة . . .) (١)

وهكذا ظل الفخر يجول بعقله في معنى الآية ،ويستل العلاقة الواحدة تلو الأخرى بعقلية فذة ،لا تخرج الآية عن معناها الصحيح وعن سياقها مع أخواتها ،وهذا ما ميزه في هذا الباب عن غيره كما رأينا وكما سنرى -إن شاء الله .

كما بين الفخر صلة قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (٢) بما قبله ،لأن الآية توهم أن لا مناسبة بينها وبين الآيات السابقة لها ،وقد أسهب في الحديث عن أوجه المناسبة .

يقول : (زعم قوم من قدماء الروافض (٣) أن هذا القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص عنه ،واحتجوا عليه بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ماقبلها ،ولو كان هذا الترتيب من الله تعالى لما كان الأمر كذلك ،واعلم أن في بيان المناسبة وجوهاً :

---

(١) التفسير : ٣ / ٨٤ م٢ . (٢) سورة القيامة : ١٦

(٣) الروافض : فرقة حدثت أولها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ،كان مبدؤها إجابة ممن خذله الله تعالى لدعوة من كاد

===

أولها : يحتمل أن يكون الاستعجال المنهي عنه إنما اتفق للرسول عليه السلام عند إنزال هذه الآيات عليه . وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقى على تلميذه شيئاً ، فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً ، فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس لا تلتفت يميناً وشمالاً ، ثم يعود إلى الدرس ، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثنائه ، فمن لم يعرف السبب يقول إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب ، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب.

وثانيها : أنه تعالى نقل عن الكفار أنهم يحبون السعادة العاجلة، وذلك هو قوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ثم بين أن التعجيل مذموم مطلقاً حتى التعجيل في أمور الدين ..

وثالثها : أنه تعالى قال : ﴿ بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ فههنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر التعجيل في القراءة مع جبريل ، وكان يجعل العذر فيه خوف النسيان ، فكأنه قيل له ... اترك هذا التعجيل واعتمد على هداية الله تعالى .

رابعها : كأنه تعالى قال : يا محمد إن غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه وتبلغه إليهم ، لكن لا حاجة إلى هذا ، فإن ﴿ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ ...

خامسها : أنه تعالى حكى عن الكافر أنه يقول : أين المفر ؟ ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ فالكافر كأنه كان يفر من الله تعالى إلى غيره ، فقيل لمحمد إنك في طلب حفظ القرآن ، تستعين بالتكرار، وهذا استعانة منك بغير الله فاترك هذه الطريقة ، واستعن في هذا الأمر بالله ...

=== للإسلام ، وهي طائفة تجرى مجرى اليهود والنصارى من الكذب والكفر، تقول بألوهية عليّ بن أبي طالب وألوهية جماعة منهم . (الفصل في الملل والنحل ، لابن حزم الظاهري : ٢/ ٧٨) .

وسادسها : ما ذكره القفال وهو أن قوله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ ليس خطاباً مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ ..) (١) ثم قال : (وهذا مما لم ترد به الآثار) .

و ينقل إلينا الفخر أن الروافض نفوا المناسبة بين آيات القرآن ، وزعموا أنه سقط من سورة القيامة شيء (٢) وهم من جماعة الشيعة الذين قالوا إن القرآن حرف وأسقط من آياته و بعض سوره .

وهناك من أنكر حسن التخلص، وهو نوع من أنواع المناسبة في القرآن ، كأبي العلاء محمد بن غانم (٣) فقد قال : لم يقع منه في القرآن شيء لما فيه من التكلف . وحسن التخلص هو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاساً دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما (٤) . وقال أيضاً : (إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذى هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم) (٥) .

ورد على كلامه ابن الأثير ودلل على ترابط القرآن و حسن التخلص فيه بآيات كثيرة (٦) ، كذلك ذكر الزركشي في البرهان بعضاما ذكره ابن الأثير وزاد عليه (٧) .

---

(١) التفسير : ٢٢٣/٣٠ م١٥ .

(٢) ينظر الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي : ٢ / ١٤١ .

(٣) أبو العلاء محمد بن غانم كان من شعراء عصره وفضلائه ، وهو من شعراء نظام الملك .

(٤) ينظر تعريفه في الإيضاح ، الخطيب القزويني : ٥٩٦ ، البديع ، ابن أبي الأصبع : ١٦٧ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٤٠ .

(٦) المثل السائر : ٣ / ١٢٨ ومابعدها .

(٧) ١ / ٤٣ ومابعدها .

وهذا الطعن في ترتيب كتاب الله فتح للمستشرقين باباً ينفذون منه للنيل من كتاب الله، فقالوا : إن القرآن ليس على سياق واحد في السور، فالمعنى متقطع، والآيات ليست مترابطة، تلمح ذلك بوضوح في كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه، وكتابي (مذاهب التفسير الإسلامي) و (العقيدة والشريعة في الإسلام) لجولد تسيهر.(١)

أدع هذا لأقول إن الفخر أكثر من أوجه المناسبة بين قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ وما قبلها من آيات مع ملاحظة أن أكثر الوجوه متقاربة في المعنى مع فارق ضئيل جداً، تأمل الوجه الأول والوجه الثالث، تجد التشابه واضحاً، ولا عجب فهذه طريقة الفخر في توليد المعنى من المعنى، واستنباط الوجوه الكثيرة حتى الضعيف منها، مثل ما ذكره للقفال من وجه لم ترد به الآثار.

ويظهر أن أبا حيان لم يرض بطريقته هذه في استنباط المعاني فذكر وجهاً يراه مناسباً للمناسبة بين الآية وما قبلها.

يقول : (ذكر أبو عبد الله الرازي في تفسيره أن جماعة من قدماء الروافض زعموا أن القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص منه، وأنهم احتجوا بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وما قبلها، ولو كان التركيب من الله تعالى ما كان الأمر كذلك، ثم ذكر الرازي مناسبات على زعمه يوقف عليها في كتابه، ويظهر أن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنه تعالى لما ذكر منكر القيامة والبعث معرضاً عن آيات الله تعالى ومعجزاته، وأنه قاصر شهواته على الفجور، غير مكترث بما يصدر منه ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها

---

(١) ينظر الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، د. محمد أحمد يوسف القاسم : ٥٠٢ ومابعدها.

والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها ، فظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله ومن يرغب عنها) [١] .

وهذا الوجه الذى يراه مناسباً يمت إلى الوجه الثاني بسبب .

وقد يتحول الأسلوب عن النمط الذى يسير عليه ، فيبين الفخر مناسبته للسياق وصلته بما قبله .

من ذلك أنه يبين وجه اعتراض قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [٢] واقعة بين قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ [٣] وقوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَابَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [٤] .

يقول : (واعلم أن في الآية إشكالاً وهو أن قوله : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ كلام الله ، وقوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ كلام غير الله ، فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل ؟ والجواب: أنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح ، كما أن قوله سبحانه : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ وهو كلام الله ، وقوله : ﴿ وإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ كلام غير الله ، وأحدهما معطوف على الآخر . واعلم أن ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ خطاب جماعة لواحد وذلك لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول ويحتمل في سببه ما روى أن قريشاً بعثت خمسة رهط

---

(١) البحر المحيط : ٨/٣٨٨ .
(٢) سورة مريم : ٦٤ .
(٣) سورة مريم : ٦٣ .
(٤) سورة مريم : ٦٥ .

إلى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم فسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه ، وقالت اليهود نجده في كتابنا وهذا زمانه ، وقد سألنا رحمن اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف فاسألوه عنهن ، فإن أخبركم بخصلتين منهما فاتبعوه ، فاسألوه عن فتية أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح ، قال فجاءوا فسألوه عن ذلك فلم يدر كيف يجيب فوعدهم أن يجيبهم بعد ذلك ، ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحي عنه أربعين يوماً فشق عليه ذلك . . . فنزل جبريل عليه السلام فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أبطأت عني حتى ساء ظني واشتقت إليك ، قال : إنّي كنت أشوق ولكنني عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال أبو مسلم : (قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ يجوز أن يكون قول أهل الجنة ، والمراد وما نتنزل الجنة إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا أى فى الجنة مستقبلاً وما خلفنا مما كان في الدنيا وما بين ذلك ، أى ما بين الوقتين وما كان ربك نسياً لشيء مما خلق . . .) .(١)

ثم ينقض الفخر قول أبي مسلم بقول للقاضي عبد الجبار يقول فيه : إن قوله مخالف للظاهر من وجوه ثم يذكرها .

وكأن الفخر حين ذكر القول ونقضه أراد أن يبين أن رأيه هو الأرجح ، فهذا القول هو قول الملائكة .

وينقل أبو حيان عن قوم أن قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ متصل بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ ثم ضعفه ، ثم ذكر الوجه الذى رآه الفخر محتملاً من أن هذا هو قول جبريل .(٢)

---

(١) التفسير الكبير : ٢١/٢٣٩ - ٢٤٠ م ١١ .

(٢) ينظر البحر المحيط : ٦/٢٠٣ .

ونلاحظ أنه يُنَظِّرُ للمناسبة في هذه الآية وماقبلها بصلة قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (١) بما قبله : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢).

وقد عدت إلى هذه الآية في التفسير لأرى ما يقول في صلتها فوجدته يقول : (أنه لا يصح أن يقول الله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ فلا بد وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى وفيه قولان :

الأول : التقدير فقل يا محمد إن الله ربي وربكم بعد إظهار البراهين الباهرة في أن عيسى هو عبد الله .

الثاني : قال أبومسلم الأصفهاني : (الواو في ﴿ وإن الله ﴾ عطف على قول عيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ كأنه قال إني عبد الله وإنه ربي وربكم فاعبدوه ، قال وهب بن منبه عهد إليهم حين أخبرهم عن بعثه ومولده ونعته إن الله ربي وربكم أي كلنا عبيد الله تعالى) (٣).

وقد ذكر ابن حزم هذه الآية وهو يدلل على أن إعجاز القرآن ليس بالبلاغة ، بل لأنه قرآن وفيه ما يخالف المعهود من كلام الناس ، ومن مخالفة المعهود إدخال معنى بين معنيين ليس بينهما .

يقول : (ونحن نجد في القرآن إدخال معنى بين معنيين ليس بينهما كقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ وليس هذا من بلاغة الناس في ورد ولا في صدر ، ومثل هذا في القرآن كثير) (٤).

---

(١) سورة مريم : ٣٦ .

(٢) سورة مريم : ٣٥ .

(٣) التفسير : ٢١/٢٢٠ م١١ .

(٤) ينظر الفصل في الملل والأهواء والنحل : ٣/ ٢١ - ٢٢ .

وسبقه ابن وهب في نقد النثر فقد ذكر في باب (القطع والعطف) أن هناك نوعاً من الكلام يكثر في القرآن ، وهو أن يقطع الكلام ثم يأتي فن آخر من القول ، ثم يعطف عليه تمام الكلام الأول [(١)] ، ودلل بآيات أدخل الفخر بعضها تحت باب الاعتراض كآية المائدة [(٢)] وغيرها .

وكان الفخر يشير أحياناً إلى خروج الكلام عن سياقه إشارة يسيرة ، كأن يبين صلته بما قبله .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلَاغُ المُبِينُ ﴾ [(٣)] التي جاءت في ثنايا قصة إبراهيم عليه السلام : (لما فرغ من باب التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا ﴾ وفي المخاطب في هذه الآية وجهان :

أحدهما : أنه قوم إبراهيم ، والآية حكاية من قوم إبراهيم ...

والثاني : أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ، ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ، ولهذا كثيراً مايقول الحاكي لأي شيء حكيت هذه الحكاية ، فالنبي عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى ...) [(٤)]

---

(١) ص : ٧٢ .

(٢) أي قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالمُنْخَنِقَةُ وَالمَوْقُوذَةُ وَالمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ اليَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ سورة المائدة : ٣ .

ينظر التفسير : ١١/١٤٣ م٦ .

(٣) سورة العنكبوت : ١٨ .

(٤) التفسير : ٢٥/٤٦ م١٣ .

والظاهر أن الفخر يرجح القول الثاني بدلالة أنه يوضحه بالأمثلة وهو هنا لم يلتفت إلى كون الآية خارجة عن السياق ، وإنما بين صلتها بما قبلها ومناسبتها له .

ومن الآيات ما لا يحتاج إلى جهد في استخراج المناسبة ، لأن الصلة بين الجزءين واضحة ، وفي هذا النوع تتنوع العلاقات والمناسبات ، فالفخر إما أن يربط بعضها ببعض من الناحية اللفظية والموقع الإعرابي ، وإما أن يكتفي بإيجاد الروابط المعنوية كأن تكون الآية توكيداً ، أو تفسيراً ، أو تفصيلاً أو علة وسبباً ، أو تكون العلاقة علاقة مضادة .

والنوع الأول يتخذ من النحو طريقاً لبيان العلاقات .

مثل أن يربط بين قوله تعالى : * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ * (١) بما بعدها من آيات وهي من قوله تعالى : * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * (٢) إلى قوله تعالى : * سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * (٣) يقول : (اعلم أن هذه الآية هل هي متعلقة بما قبلها أم لا ؟ فيه قولان :

القول الأول : أنها متعلقة بما قبلها ، وعلى هذا التقدير ففيه وجهان : الأول : أنه يجوز أن يكون قوله : * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ * صفة لأولي الألباب .

الثاني : أن يكون ذلك صفة لقوله : * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ * .

---

(١) سورة الرعد : ١٩ .

(٢) سورة الرعد : ٢٠ .

(٣) سورة الرعد : ٢٤ .

القول الثاني : أن يكون قوله : * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ * مبتدأ ، و* أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * خبره ... واعلم أن هذه الآية من أولها إلى آخرها جملة واحدة شرط وجزاء ، وشرطها مشتمل على قيود ، وجزاؤها يشتمل أيضاً على قيود)[1].

وقد ذكر الزمخشري هذين الوجهين ورجح الوجه الثاني ، يقول : * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ * مبتدأ ، و * أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * ، خبره كقوله : * وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ - أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ * ويجوز أن يكون صفة لأولي الألباب، والأول أوجه)[2].

ثم يذكر الفخر كيف تترابط أجزاء الجملة ، فهي مكونة من شرط وجزاء وللشرط قيود ، وللجزاء قيود ، أما قيود الشرط فهي تسعة :

القيد الأول : قوله : * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ *.

القيد الثاني : قوله : * وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * .

القيد الثالث : قوله : * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ * .

القيد الرابع : قوله : * وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ * .

القيد الخامس : لم يذكره الفخر ولكن أشار إليه بقوله : (وهذا القيد الخامس إشارة إلى الخوف والخشية وسوء الحساب) وهذا يعني أن هذا القيد هو قوله تعالى : * وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ *

القيد السادس : قوله : * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ *.

القيد السابع : قوله : * وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ * .

القيد الثامن : قوله : * وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً * .

القيد التاسع : قوله : * وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ * .

---

(١) التفسير : ١٩/٤١ م١٥.

(٢) الكشاف : ٣٥٧/٢.

ثم يقول : (واعلم أن جملة هذه القيود التسعة هي القيود المذكورة في الشرط،أما القيود المذكورة في الجزاء فهي أربعة :

القيد الأول : قوله : * أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ *.

القيد الثاني : قوله : * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا * .

القيد الثالث : قوله : * وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ * .

القيد الرابع : قوله : * وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ *.(1)

و * عُقْبَى الدَّارِ * هي * جَنَّاتُ عَدْنٍ * ولا تعد قيداً مستقلاً ، فهي بدل من عقبى الدار ،بدل كل من كل .(2)

وهكذا نجد الفخر يتابع هذا الترابط في هذه الآيات ،بل إنه يسميها آية واحدة ،لأنها بترابطها تكوّن معنى واحداً .

وتأتي جمل الصفات متولدة من الجملة الأم ،تحكى صفات من يسارع في الخيرات في قوله تعالى : * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ *.(3)

يقول : (اعلم أنه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله : * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ * ثم قال : * بَل لَّا يَشْعُرُونَ * بيين صفات من يسارع في الخيرات ويشعر بذلك،وهي أربعة :

---

(1) التفسير : ١٩/ ٦١-٦٢ م ١٠.

(2) ينظر روح المعاني ،للألوسي : ١٣/ ١٤٣.

(3) سورة المؤمنون : ٥٥-٥٦.

الصفة الأولى : قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ ...

واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن ، لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد ... والصفة الثالثة (١) : دلت على ترك الرياء في الطاعات ، والصفة الرابعة (٢) : دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير) (٣) .

وقد عنى الفخر هنا بتطبيق نظرية النظم التي أخذها من عبد القاهر والتي ذكرها في (نهاية الإيجاز) فقال : (النظم عبارة عن توخي معاني النحويين الكلم) ، فمعناها تعلق الجمل بعضها ببعض ، والمناسبات تهتم بتتابع جزئيات المعنى في الآية ، ثم علاقة الآية بالآية ، وقد تمتد فتبين علاقتها بغيرها من الآيات .

ومن الروابط المعنوية ، أن تكون الآية توكيداً لما قبلها كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (٤) يقول : (اعلم أنه تعالى لما أمر اليهود ببعض الأشياء ونهاهم عن بعض ، ثم أمر المسلمين بالبعض ونهاهم عن البعض ، أتبع ذلك بذكر أحوال الآخرة تأكيداً للأمر) (٥) .

---

(١) ، (٢) ذكر الفخر الصفة الثانية والمراد بها الثالثة ، وذكر الثالثة وأراد الرابعة وقد صححتها ، والظاهر أنه خطأ في الطباعة .

(٣) التفسير : ٢٣/١٠٧-١٠٨ م١٢ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٠٦ .

(٥) التفسير : ٨/١٨٥ م٤ .

أو تكون الآية تفسيراً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾.(١)

يقول : (أنه تعالى لما ذكر أنه يغني كلاً من سعته ،وأنه واسع أشار إلى ما هو كالتفسير لكونه واسعاً فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾.(٢)

وقد تُفصِّل الآية ما قبلها مما أجمل ، مثل ما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾.(٣)

يقول : (اعلم أنه تعالى بين في هذه الآية تفصيل ما ذكره على سبيل الإجمال بقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٤) فبين أنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من إنزال الملائكة وإحياء الموتى حتى كلموهم.. ما كانوا ليؤمنوا ..).(٥)

وقد تكون الآية سبباً لما قبلها كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.(٦)

يقول : (واعلم أنه تعالى لما حكم على أولئك المنكرين بالخسران في الآية الأولى بين في هذه الآية سبب ذلك الخسران).(٧)

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٣١.

(٢) التفسير : ١١/٧٠ م٦.

(٣) سورة الأنعام : من الآية ١١١.

(٤) سورة الأنعام : من الآية ١٠٩.

(٥) التفسير : ١٣/١٥٧ م٧.

(٦) سورة الأنعام : ٢١.

(٧) التفسير : ١٢/١٩١ م٧.

وقد تكون العلاقة المضادة بين موضوعين ،وقد لاحظ الفخر اطراد مثل هذه المناسبات بين الموضوعات في كل القرآن ،والحكمة في ذلك أن الأشياء تتبين بأضدادها .

فالشرك يأتي مع التوحيد يقول في قوله تعالى : * وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ *(١) : (اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد ،لأن تقبيح ضد الشيء مما يؤكد حسن الشيء ،ولذلك قال الشاعر :

* وبضدها تتبين الأشياء *

وقالوا أيضاً : النعمة مجهولة ، فإذا فقدت عرفت ،والناس لا يعرفون قدر الصحة ،فإذا مرضوا ثم عادت الصحة إليهم عرفوا قدرها ، وكذا القول في جميع النعم ،فلهذا السبب أردف الله تعالى الآية الدالة على التوحيد بهذه الآية) .(٢)

وتأتي آيات الوعد مع آيات الوعيد لحكمة يذكرها الفخر يقول في قوله تعالى : * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *(٣) : (اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد وذلك لفوائد :

أحدها : ليظهر بذلك عدله سبحانه . .

ثانيها : أن المؤمن لا بد أن يعتدل خوفه ورجاؤه . .

ثالثها : أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته . .) .(٤)

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٦٥ .

(٢) التفسير : ٢/٢٢٥ م١ .

(٣) سورة البقرة : ٨٢ .

(٤) التفسير : ٣/١٧٤ م٢ .

ويذكر حال المؤمن بعد بيان حال الكافر ، يقول في قوله تعالى :

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ... إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾(1) : (... على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن بعد بيان حال الكافر ،وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمرالترهيب والترغيب)(2) .

كذلك يذكر الربا بعد ذكر الصدقات ، يقول في قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾(3) : (اعلم أن بين الربا وبين الصدقة مناسبة من جهة التضاد ،وذلك لأن الصدقة عبارة عن تنقيص المال بسبب أمر الله بذلك ، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه ،فكانا متضادين)(4) .

ويأتي ذكر دلائل الآفاق بعد ذكر دلائل الأنفس .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ... فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً ﴾(5) : (واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس ،فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق)(6) .

---

(١) سورة الطور : ١١ وآية ١٨ .

(٢) التفسير : ٢٧/٢٤٧ - ٢٤٨ م١٤ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٧٥ .

(٤) التفسير : ٧/٩١ م٤ .

(٥) سورة عبس : ١٧ - ٢٦ .

(٦) التفسير : ٣١/٦٢ م١٦ .

واهتمام الفخر بمثل هذه الروابط بين موضوعات القرآن تفتح الطريق للباحثين إلى النظر في الموضوعات المطردة في القرآن ومعرفة طرق أدائها ، ومناسبتها لسياقها الواردة فيه .

وهكذا فهذه الأنواع التي ذكرتها تمثل أكثر وأبرز ما في التفسير من الروابط .

المناسبة بين أجزاء وموضوعات السورة الواحدة :

أى ربط أجزاء السورة بعضها ببعض حتى تصير كالبناء المتلاحم الأجزاء وهذا النوع يوقفنا على الغرض الأساسي الذى بنيت عليه السورة .

وقد اعتنى الفخر بربط نجوم أكثر سور القرآن ، وبيان النسق الذى تسير عليه الآيات في السورة الواحدة .

فمثلاً نراه يربط بين موضوعات سورة البقرة في وحدة كاملة ، حتى بدت لنا على طولها سورة صغيرة يمكن الإحاطة بموضوعاتها .

فيقول عند وصوله إلى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١) : (إن الله سبحانه وتعالى تكلم من أول السورة إلى ههنا في دلائل التوحيد والنبوة ، واستقصى في الرد على اليهود والنصارى ، ومن هنا شرع في بيان الأحكام) (٢) .

ثم سرد الأحكام :

الحكم الأول : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ . . . ﴾ (٣) .

الحكم الثاني : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (٤) .

الحكم الثالث : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ (٥) .

الحكم الرابع : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ (٦) .

الحكم الخامس : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ (٧) .

الحكم السادس : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٨) .

---

(١) آية ١٧٢ .
(٢) التفسير : ٥/٩ م٣ .
(٣) سورة البقرة : من الآية ١٧٣ .
(٤) سورة البقرة : من الآية ١٧٤ .
(٥) سورة البقرة : من الآية ١٧٧ .
(٦) سورة البقرة : من الآية ١٧٨ .
(٧) سورة البقرة : من الآية : ١٨٠ .
(٨) سورة البقرة : من الآية ١٨٣ .

ثم تتتابع الأحكام فيأتي بعده حكم الاعتكاف، وحكم الأموال، والقتال والحج .

ثم بين الصلة بين ذكر أحكام الحج وقوله تعالى بعده : * فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ *(١) ، يقول : (اعلم أن الله تعالى بين أولاً تفصيل مناسك الحج ، ثم أمر بعدها بالذكر فقال : * فَإِذَا أَفَضْتُم مِن عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ * ...

ثم بين بعد ذلك الذكر كيفية الدعاء فقال : * فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا * وما أحسن هذا الترتيب ، فإنه لا بد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ، ثم بعد العبادة لا بد من الاشتغال بذكر الله لتنوير القلب وتجلي نور جلاله)(٢) .

ثم تعود السورة ثانية لبيان الأحكام ، فيذكر حكم الإنفاق ، والقتال ، والخمر ، وكمية الإنفاق ، واليتامى ، وفيما يتعلق بالنكاح ، وبالمحيض ، وبالإيمان ، وبالإيلاء والطلاق ، وفي الرضاع ، وفي عدة الوفاة ، وفي خطبة النساء ، وفي المحافظة على الصلوات .

ثم تأتي بعد كل هذه الأحكام القصص بدءاً بقوله تعالى : * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ *(٣) يقول الفخر : (واعلم أن عادته تعالى في القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام القصص ، ليفيد الاعتبار للسامع ، ويحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد ، ومزيد الخضوع والانقياد)(٤) .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٠٠ .

(٢) التفسير : ٢٠٢/٥ م٣ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٤٣ .

(٤) التفسير : ١٧٤/٦ م٣ .

ثم تلت هذه القصة قصة طالوت، ويختلط بهذه القصة الأمر بالقتال ثم الأمر بالإنفاق، ثم يلي ذلك آية الكرسي : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (١) ، يقول : (اعلم أن من عادته سبحانه وتعالى في هذا الكتاب الكريم أنه يخلط هذه الأنواع الثلاثة بعضها بالبعض، أعني علم التوحيد، وعلم الأحكام، وعلم القصص، والمقصود من ذكر القصص إما تقرير دلائل التوحيد، وإما المبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف، وهذا الطريق هو الطريق الأحسن لإبقاء الإنسان في النوع الواحد، لأنه يوجب الملال، فأما إذا انتقل من نوع من العلوم إلى نوع آخر فكأنه يشرح به الصدر، ويفرح به القلب، فكأنه سافر من بلد إلى آخر، وانتقل من بستان إلى بستان آخر ... ولما ذكر فيما تقدم من علم الأحكام ومن علم القصص وما رآه مصلحة ذكر الآن ما يتعلق بعلم التوحيد) (٢) .

ثم تعود السورة لسرد ثلاث قصص :

القصة الأولى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ (٣) .

القصة الثانية : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (٤) .

القصة الثالثة : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ (٥) .

ثم تتبعها آيات الإنفاق في سبيل الله في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٥٥ .

(٢) التفسير : ٢/٧ م٤ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٥٨ .

(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٥٩ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٢٦٠ .

(٦) سورة البقرة : من الآية ٢٦١ .

يقول الفخر : (اعلم أنه سبحانه لما ذكر من بيان أصول العلم بالمبدأ وبالمعاد ومن دلائل صحتهما ما أراد أتبع ذلك ببيان الشرائع والتكاليف)[1].

ويطول الحديث عنها فيتفرع منها الحديث عن الصدقات ، ثم عن الربا ،ثم عن طريقة حفظ المال وذلك في آية المداينة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ... ﴾[2] ومابعدها .

ثم تُختتم السورة بقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾[3] فيذكر الفخر وجوهاً في كيفية نظمها منها أنه يقول : (وأقول إنه قد ثبت أن الصفات التي هي كمالات حقيقية ليست إلا القدرة والعلم ،فعبر سبحانه عن كمال القدرة بقوله : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِلكاً وملكاً ،وعبر عن كمال العلم المحيط بالكليات والجزئيات بقوله : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ وإذا حصل كمال القدرة والعلم ، فكان كل من في السموات والأرض عبيداً مربوبين وجدوا بتخليقه وتكوينه، كان ذلك غاية الوعد للمطيعين ،ونهاية الوعيد للمكذبين ،فلهذا السبب ختم الله هذه السورة بهذه الآية)[4].

وهكذا رأينا سورة البقرة على طولها بدت كسورة صغيرة ،ذات موضوعات عديدة مترابطة على نظام عجيب .

وسأتناول سورة أخرى تتضح فيها طريقة الفخر في الربط بين موضوعات السورة الواحدة ،حيث يتتبع كل آياتها ،ويبين طريقة ربط بعضها ببعض وطريقة تصاعد معانيها .

---

(١) التفسير : ٤٧/٧ م٤ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨٢ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٨٤ .

(٤) التفسير : ١٣٤/٧ م٤ .

سأعرض لسورة (فصلت) وهي أربع وخمسون آية نزلت في مكة، وقد قامت السورة على رد شبهات الكفار من بدايتها إلى نهايتها، ولذلك قال الفخر عنها عند تفسير آية منها : (فكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية[١] على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو غرض واحد)[٢].

بدأت السورة بذكر الكتاب وجلالة قدره : ﴿ حم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٣].

ثم يعرض القرآن لأقوال الكفار : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ .

يقول الفخر : (اعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا : ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ والمراد فاعمل على دينك إننا عاملون على ديننا ... ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ وبيان هذا الجواب كأنه يقول : إني لا أقدر أن أحملكم على الإيمان جبراً وقهراً، فإني بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم إلا بمجرد أن الله عز وجل أوحى إليّ)[٤].

وقد وجدت الإمام البقاعي يذكر علة تختلف عما قاله الفخر.

---

(١) الآية هي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ سورة فصلت : ٤٤ .

(٢) التفسير : ١٣٥/٢٧ م١٤ .

(٣) آية : ١-٢-٣ .

(٤) التفسير : ٩٩/٢٧ م١٤ .

يقول : (ولما أخبروا بإعراضهم وعللوا بعدم فهمهم لما يدعو إليه أمره سبحانه بجواب يبين أنهم على محض العناد فقال : * قُلْ * أي لهؤلاء الذين عجزوا عن رد شيء من أمرك بشيء يقبله ذو عقل، فادعوا ما ينادي عليهم بالعجز: * إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ * لا غير بشر مما لا يرى ، والبشر يرى بعضه بعضاً ويسمعه و يبصره ، فقولكم إنه لا وصول لكم إلى رؤيتي ولا إدراك شيء مما أقول مما لا وجه له أصلاً) . (١)

فالبقاعي أكثر تفصيلاً للمناسبة ولمعنى الآية .

ثم يربط الفخر بين جزئيات الآيتين اللتين جاءتا في الرد على شبهتهم الأولى : * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * . (٢)

يقول : (ثم بين أن خلاصة ذلك الوحي ترجع إلى أمرين : العلم والعمل . أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد ، وذلك لأن الحق هو أن الله واحد وهو المراد من قوله : * أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ * وإذا كان الحق في نفس الأمر ذلك وجب علينا أن نعترف به وهو المراد من قوله : * فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ * . . . فلما أمر بذلك انتقل إلى وظيفة العمل والرأس والرئيس فيه الاستغفار فلهذا السبب قال : * وَاسْتَغْفِرُوهُ * . . . ولما رغب الله تعالى في الخير والطاعة أمر بالتحذير عما لا ينبغي فقال : * وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * . (٣)

---

(١) نظم الدرر في مناسبة الآيات والسور : ١٧/١٤٣-١٤٤ .

(٢) آية : ٦-٧ .

(٣) التفسير : ٢٧/٩٩-١٠٠ م١٤ - من الآية ٦ والآية ٧ .

والفخر هنا يستل معنى كل جملة ويربطه بما قبله ،فالآية الأولى في الرد على الكفار جاءت في ست جمل جاءت مقول القول قل :

* إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ *

* يُوحَى إِلَيَّ *

* أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ *

* فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ *

* وَاسْتَغْفِرُوهُ *

* وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ *

ثم بين صلة الآية الثانية : * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ . . . * بالأولى فيقول : (إن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين : التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله . . . وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحداً . . . ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال)[1] .

ثم تفرعت من الحجة الأولى التي أمر الله نبيه بأن يرد بها على المشركين حجة أخرى : * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * .

ثم ذكر تعالى خلقه للأرض وللسماء لإثبات ألوهيته ، ثم لما تمت تلك الحجة أوعدهم الله بالعذاب الشديد فقال : * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * وذكر قصة عاد وثمود مع قومهم في ست آيات حتى الآية الثامنة عشرة ، ثم يمتد الكلام ليبين عقوبة الكفار في الآية ،ويتصل بعضه مع بعض حتى الآية الخامسة والعشرين .

---

(١) التفسير : ٢٨/١٠٠ م١٤ .

ثم تأتي شبهة أخرى قال بها الكفار، فتأتي الآيات بعدها رداً عليها يقول الفخر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [1]: (اعلم أن الكلام في أول السورة ابتدئ من قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة، واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع، ثم إنه حكى عنهم شبهة أخرى فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.. ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾) [3]

وبعد هذا الوعيد جاء الوعد الذي هو من خصائص ترتيب القرآن.

يقول الفخر: (واعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف، وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه) [4].

وجاء الوعد في ثلاث آيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [5].

---

(١) آية: ٢٦-٢٧.
(٢) التفسير: ٢٨/١٢٠ م١٤.
(٣) المصدر السابق: ٢٨/١٢٠-١٢١.
(٤) المصدر السابق: ٢٨/١٢٢.
(٥) آية: ٣٠-٣١-٣٢.

فهذا الوعد داخل تحت ترغيب الرسول صلى الله عليه وسلم بالمواظبة على الدعوة إلى الله ، ثم ترقى إلى درجات أخرى في قوله تعالى : * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *.(١)

يقول الفخر مبيناً كيف ترابطت الموضوعات من أول السورة إلى هذه الآيات : (واعلم أنا بينا أن الكلام من أول السورة ابتدىء من أن الله حكى عنهم أنهم قالوا : * قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ * فاظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة . . . ثم إنه تعالى أطنب في الجواب عنه وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ، ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهي قولهم : * لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ * وأجاب عنها أيضاً بالوجوه الكثيرة ، ثم إنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغب محمداً صلى الله عليه وسلم في أن لا يترك الدعوة إلى الله ، فابتدأ أولاً بأن قال : * إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا * فلهم الثواب العظيم ، ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعاً على أحسن وجوه الترتيب ، ثم كأن سائلاً سأل فقال : إن الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة عظيمة ، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به ، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعاً لهذا الإشكال فقال : * وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ *.(٢)

---

(١) آية : ٣٣-٣٤ .

(٢) التفسير : ١٢٨/٢٨ م١٤ .

ثم تتحدث السورة عن آيات الكون الدالة على قدرة الله تعالى .

فيقول الفخر رابطاً بينها وبين ما قبلها من موضوعات : (اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات ،فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن) (١) .

فعلم المناسبات فيه من الدقائق ما يجعله أحسن علوم القرآن كما يقول الفخر .

ثم تأتي آية أخرى ترد على شبهة الكفار الأولى في أول السورة وهكذا تتسق آيات السورة من أولها لآخرها نحو غرض واحد وهو الرد على مطاعن الكفار .

وذلك في قوله تعالى﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٢) .

يقول الفخر : (وقد ظهر في كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة هو ذكر الأجوبة عن قولهم : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة ،وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولمن يعرض عنه ،وامتد الكلام إلى هذا الموضع من أول السورة على

---

(١) المصدر السابق : ٢٧/ ٢٩ .

(٢) آية : ٤٤ .

الترتيب الحسن والنظم الكامل ، ثم إنه تعالى ذكر جواباً آخر عن قولهم : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ... ﴾ فقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾.[1]

ويعترض الفخر على من قال إن هذه الآية أنزلت رداً على من قال : لو نزل القرآن بلغة العرب ،لأن ذلك يقتضي عدم المناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها ،ولأن فهم الآية بعيداً عن سياقها قد يوقع في لبس وتحيف ظالم ،يقول : (وعندى أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن ،لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض ،وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتاباً منتظماً ، فضلاً عن ادعاء كونه معجزاً ؟ بل الحق عندى أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد ،على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ وهذا الكلام أيضاً متعلق به وجواب له ، والتقدير : أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمى إلى القوم العرب ،ويصح لهم أن يقولوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ أى من هذا الكلام : ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ منه لأننا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه ... فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن ذلك الكلام ، بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم ، وأما على الوجه الذى يذكره الناس فهو عجيب جداً).[2]

وهكذا أخذ الفخر يلح كثيراً على إثبات ترابط السورة وانتظامها في موضوعاتها ،سائرة نحو غرض واحد ،لا تكاد تنحل عقدة منه.

---

(١) التفسير : ١٣٤/٢٨ م١٤.

(٢) المصدر السابق : ١٣٤/٢٨ م١٤.

ثم ختمت السورة بأحوال يوم القيامة وبتهديد المشركين ،فيعمل الفخر على ربطها بأول السورة وبموضوعها .

يقول : (ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة وهذا الذى ذكره ههنا شديد التعلق أيضاً بما وقع الابتداء به من أول السورة ،وذلك لأن أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى التوحيد . . . بدليل أنه قال في أول السورة : * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ * فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد .)(١)

وهكذا نرى اتساق المعاني وائتلاف الأغراض في السورة الواحدة ،وكأنها في تناسقها بناء هندسي قد أحكم وأتقن حتى صار كلاً لا يتجزأ ، إذ ليس هناك فجوات ولا انحلال بين المعاني والأغراض،فالسورة كلها بناء حي متماسك .

ولا أدري لماذا اهتم الفخر بالمناسبات بين الأغراض العامة في السورة دون التعرض لنظم الآيات وتآلف الألفاظ والمعاني الجزئية في كل آية من السورة ؟

وأظن أنه كان يريد أن يبين المناسبات بين الموضوعات التي قد تخفى الصلة بينها ،والتي قد تكون منفذاً للطعن في القرآن ،أما المناسبة بين جزئيات الآية الواحدة فما يسهل معرفته لكل قارئ .

---

(١) التفسير : ١٣٧/٢٨ م١٤ .

صلة أول السورة بآخرها :

اتفق العلماء على أن ترتيب آيات القرآن في السور توقيفي من الله تعالى ، فجبريل ينزل بالآية ويوقف الرسول على سورتها وموضعها من السورة .

وقد بين الفخر العلاقة بين أول السورة وآخرها في بعض السور دون بعض، وهذا يثير في النفس سؤالاً لماذا اقتصر الفخر على بعض السور دون بعض مع أنه كان قادراً على إيجاد العلاقة بين أول كل سورة وآخرها ، أو على الأقل في أكثر السور .

ذلك أنني لاحظت أنه يتناول الكشف عن المناسبة هذه في أقل من عشر سور ، والسبب في ذلك كما أظن أنه قد شغل بالمسائل الأخرى كالبحث عن المناسبة بين أكثر الآيات أو المسائل الأخرى من غير البلاغة ، أو أن المناسبة كانت تخفى عليه ولا تظهر ظهوراً بيناً فآثر ترك الحديث عنها .

ومن السور التي اهتم بالصلة بين أولها وآخرها سورة البقرة ، فبعد أن بين صلة أكثر آياتها ، والموضوع الذي بنيت عليه ، أخذ يبين الوشائج التي تربط أول السورة بآخرها ، وأراه يقابل بين آياتها بطريقة تنبئ عن معرفة بدقائق المعاني في الكلمات .

قال : (إنه بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، وبين في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : * وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ * وهذا هو المراد بقوله في أول السورة : * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ * ثم قال ههنا : * وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا * وهو المراد بقوله في أول السورة : * وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * ثم قال ههنا : * غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * وهو

المراد بقوله في أول السورة : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قولهم : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها)(١).

وقد ترتبط أوائل السورة بآخرها لأنها تشاكلها في اللفظ والمعنى كما في آيتي الكلالة في أول وآخر سورة النساء.

يقول الفخر : (اعلم أنه تعالى تكلم في أول السورة في أحكام الأموال وختم آخرها بذلك ليكون مشاكلاً للأول ، ووسط السورة مشتمل على المناظرة مع الفرق المخالفين للدين)(٢).

ويربط الفخر بين أول آية من سورة النساء بآخر فاصلة في السورة قال تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وقال في آخر السورة ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يقول : (واعلم أن في هذه السورة لطيفة عجيبة وهي أن أولها مشتمل على بيان كمال قدرة الله تعالى ، فإنه قال : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وهذا أدل على سعة القدرة وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم ، وهو قوله : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وهذان الوصفان هما اللذان بهما ثبتت الربوبية والألوهية والجلالة والعزة ، وبهما يجب على العبد أن يكون مطيعاً للأوامر والنواهي ، منقاداً لكل التكاليف)(٣).

وهذا يعني أن السورة مرتبطة الأجزاء من أولها لآخرها .

وقد تختم السورة بما افتتحت به من ذكر للقرآن كما في سورة (ق)

---

(١) التفسير : ٧/١٢٨-١٢٩ م٤.

(٢) التفسير : ١١/١٢٢ م٦.

(٣) التفسير : ١١/١٢٣-١٢٤ م٦.

يقول : (إن أول السورة وآخرها متقاربان في المعنى حيث قال في الأول : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ (١) وقال في آخرها : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ ﴾ (٢) فإن كانت الألفاظ تتفق إلا أن هناك اختلافاً في المعنى ، ففي أول السورة أقسم بالقرآن ، وفي الخاتمة أمر بتبليغ القرآن للناس فأحدهما وعيد والأخرى تذكير .

وهكذا تتنوع المعاني التي تهدف إليها هذه المناسبات ، والتي تمثل خاتمة النظر الدقيق لمناسبات السورة والترابط بين آياتها .

وقد تكون المناسبة بين أول السورة وآخرها مناسبة عكسية ، وذلك في سورة الذاريات يقول : (وأول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال في أولها : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ (٣) وقال في آخرها : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (٤) .

فأولها وعد للمؤمنين وآخرها وعيد للكافرين ، بالإضافة إلى التوافق بين كلمتي : ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ و : ﴿ يُوعَدُونَ ﴾ .

---

(١) سورة ق : ١ .

(٢) سورة ق : من الآية ٤٥ .

(٣) سورة الذاريات : ٥ .

(٤) سورة الذاريات : ٦٠ ، التفسير : ١٩٣/٢٨ م١٤ .

مناسبة أول السورة بآخر ما قبلها :

اهتم الفخر بالمناسبة بين أواخر كثير من السور بأوائل مابعدها ، وبين كيف تتواصل المعاني في السور المتجاورة ، على الرغم من تباعد وقت نزولها ، أو قد تكون إحداهما مكية والأخرى مدنية.

وبيان هذه المناسبات من الفخر وغيره من علماء المناسبة يدل على أن ترتيب القرآن توقيفي من الله تعالى .

وقد اختلف كثير من العلماء في ذلك وتعددت آراؤهم ، فمنهم من قال إن الصحابة تولت ترتيب السبع الطوال والمئين ، ولذلك اختلفت مصاحف السلف في ترتيب السور فمنهم من رتبها حسب النزول كمصحف علي ، المكي ثم المدني ، وكمصحف ابن مسعود جاءت فيه سورة آل عمران بعد البقرة والنساء ، ومنهم من قال : كان جبريل يوقف النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة ، واتساق السور كاتساق الآيات ، وتأليف الصحابة (رضوان الله عليهم) له على ما كانوا يسمعونه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم تواترت الأقوال بأنه توقيفي .

ومنهم من استدل على ذلك بحديث أخرجه أحمد وأبو داود عن أوس ابن أبي أوس عن حذيفة الثقفي قال : كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف ... الحديث وفيه : (1) (فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : طرأ عليّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه ، فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وحزب المفصل من : * ق * حتى تختم .

---

(1) مسند الإمام أحمد : ٣٤٣/٤ .

فهذا الحديث يدل على أن ترتيب السور كان على ما هو عليه الآن في المصحف .

ويقول صاحب الإتقان : (وما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاء ، وكذا الطواسين ، ولم ترتب المسبحات ولاء ، بل فصل بين سورها ، وفصل بين طسم (الشعراء) وطسم (القصص) بـ (طس) مع أنها أقصر منها ، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء وأخرت (طس) عن القصص)(١) وهذا القول يقطع القول بأنه من ترتيب الصحابة .

ثم يقول : (والذى ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلاّ براءة والأنفال)(٢) .

وأعود لأقول : إن الفخر في بيانه للمناسبات بين أول بعض السور وآخر ما قبلها أراد أن يقول إن القرآن الكريم متسق المباني مترابط المعاني ، وكان يؤكد هذا الترابط في أكثر من موضع فيقول : (إن القرآن كالسورة الواحدة)(٣) أى في ترابط المعاني ، فإذا كانت السورة الواحدة تترابط معانيها ، وتبنى على معنى أو معاني متعددة من بدايتها حتى خاتمتها ، كذلك القرآن وإن كان سوراً منفصلة مختلفة الموضوعات إلا أن بينها رابطة لا تظهر إلا بطول النظر ، وكان الفخر يدرك ذلك جلياً ، ويظهره في كلامه ، حتى إنه يسميه كلمة واحدة ، و يفسر الكلمة في قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾(٤)

---

(١) الإتقان في علوم القرآن : ٨٤/١ .

(٢) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٣) قال ذلك وهو يبين جواب القسم في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ فقدره ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ وقال إنه يوافق جواب قسم سورة الذاريات: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ وذلك يدل على أن القرآن كسورة واحدة ، التفسير : ٣٤/٣١ م ١٦ .

(٤) سورة الأنعام : من الآية ٦ .

بأنها القرآن قياساً على طريقة العرب في كلامها .

يقول : (... قالوا الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد ...)[١] ثم يقول : (إن القرآن معجز فذكر في هذه الآية أنه تمت كلمة ربك ، والمراد بالكلمة القرآن أى تم القرآن في كونه معجزاً دالاً على صدق محمد ...)[٢].

وقد حرص الفخر وهو يربط أول السورة بآخر ما قبلها على أن يبين أغراض هذا الوصل وهذه المناسبة ، والمعنى الذى يجمع بينهما .

فقد تقرر أول السورة آخر ما قبلها وتؤكده ، كما في أول سورة التوبة فقد جاءت تأكيداً لآخر سورة الأنفال التي آخرها : ﴿ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[٣] وأول التوبة قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾[٤].

يقول الفخر : (إنه تعالى ختم سورة الأنفال بإيجاب أن يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً ، وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية ، ثم إنه تعالى صرح بهذا المعنى في قوله : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فلما كان هذا عين ذلك الكلام وتأكيداً له وتقريراً له لزم وقوع الفاصل بينهما)[٥].

وقد استدل بهذه المناسبة على انفصال السورتين ، والرد على من قال إنهما سورة واحدة ، لأنهما لو كانتا سورة واحدة لما جاء المعنى نفسه تأكيداً وتقريراً ، ولكن بصيغة أخرى .

---

(١) ، (٢) التفسير : ١٣/١٦٨ م٧ .
(٣) آية : ٧٥ .
(٤) آية : ١ .
(٥) التفسير : ١٥/٢٢٤ م٨ .

وقد تأتي أول السورة تكراراً لمعنى آخر السورة السابقة مع إقامة الدليل، كما في آخر سورة النجم : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [١] وأول سورة القمر : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [٢] يقول : (أول السورة مناسب لآخر ما قبلها . . . فكأنه أعاد ذلك مع الدليل ، وقد قال : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ وهو حق إذ القمر انشق) [٣].

وتشترك السورتان أيضاً في الحديث عن أحوال يوم القيامة.

وقد يكون أول السورة جواباً عن سؤال يثيره آخر السورة السابقة، كآخر سورة الأحقاف وأول سورة محمد يقول : (أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة ، فإن آخرها قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٤] فإن قال قائل : كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره ، فيكون في إهلاكه إهدار عمله ، وقد قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [٥] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [٦] أي لم يبق لهم عمل -ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك) [٧].

وقد تكون المناسبة لفظية ومعنوية كصلة آخر الطور بأول النجم ، قال تعالى في آخر سورة الطور : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [٨] وقال في أول سورة النجم : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ [٩].

---

(١) آية ٥٧ - ٥٨ .

(٢) آية : ١ .

(٣) التفسير : ٢٩/٢٩ م١٥ .

(٤) من الآية : ٣٥ .

(٥) سورة الزلزلة : ٧ .

(٦) سورة محمد : ١ .

(٧) التفسير : ٢٨/٣٦ م١٤ .

(٨) آية : ٤٩ .

(٩) آية : ١ .

يقول : (أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظاً ومعنى ،أما اللفظ فلأن ختم * وَالطُّورِ * بالنجم ،وافتتاح هذه النجم مع واو القسم ، أما المعنى فكقول الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ * بين له أن جزاءه في أجزاء مكايدة النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وبعده فقال : * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى *.[(١)]

ويقف الفخر الرازي عند أواخر سورة محمد ليبين صلتها الوثيقة بأول سورة الفتح ،ويكشف عن أكثر من مناسبة بينهما .

والآيات هي : * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *[(٢)] يقول : (والأول[(٣)] مناسب لآخر ما قبلها من وجوه :

أحدها : أنه تعالى لما قال : * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ * إلى أن قال : * وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ * بين تعالى أنه فتح لهم مكة ،وغنموا ديارهم ،وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ،ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلاّ على أنفسهم.

---

(١) سورة النجم : ٢ ،التفسير : ٢٧٧/٢٨ م١٤.

(٢) سورة محمد : ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ .

(٣) ذكر وجوهاً للمقصود بالفتح في قوله تعالى * إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * الأول : هو فتح مكة ،وهذا ما يعنيه بالأول هنا أي الوجه الأول .
التفسير : ٧٧/٢٨ م١٤.

ثانيها : لما قال : ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ وقال : ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ بين برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعلون .

ثالثها : لما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ وكان معناه : لا تسألوا الصلح من عندكم ،بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ، ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية) .[1]

والفخر هنا يجمع بين الوشائج الغائرة في بواطن المعاني ليوجد المناسبة وكان -رحمه الله- ذا قدرة عجيبة في استبطان المعاني .

وقد يبدو التكلف ظاهراً في بيان العلاقة ،كمناسبة آخر سورة الانفطار بأول سورة المطففين .

يقول : (إنه تعالى بين في آخر السورة -أي سورة الانفطار- أن يوم القيامة يوم من صفته أنه لا تملك نفس لنفس شيئاً ،والأمر كله لله ، وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة ،فلهذا أتبعه بقوله : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾[2] والمراد الزجر عن التطفيف) .[3]

---

(١) التفسير : ٧٧/٢٨ م١٤ .

(٢) سورة المطففين : ١ .

(٣) التفسير : ٨٨/٣١ م١٦ .

المناسبة بين سورة وسورة أوعدة سور :

راعى الفخر إقامة المناسبة بين السور متتالية كانت أومتباعدة .

ويبدو ذلك واضحاً في السور الأخيرة من القرآن ،وإن كنا نجد له نظرات بسيطة في سور أخرى من بقية القرآن ،يعني بالمناسبة بين معاني السور .

ولا أعلم لماذا لم يلتفت إلى بقية السور ،وإن كانت المناسبة تبدو أحياناً ظاهرة في بعضها ،كالروابط التي تجمع بين السور الأربع الطوال من القرآن .

وآخذ على الفخر أنه كان يهتم بالبحث عن وجه الشبه الظاهر بين السورتين دون أن يتغلغل في بطون معانيها ليكشف عن مناسبات أرحب وأكثر .

فمثلاً يقول وهو يبين المناسبة بين سورة الرحمن وسورة القمر : (اعلم أولاً أن مناسبة هذه السورة لما قبلها بوجهين :

أحدهما : أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة : (أي القمر) بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر ، فإن من يقدر على شق القمر يقدر على هد الجبال وقد الرجال ،وافتتح هذه السورة (الرحمن) بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم ، فإن شفاء القلوب بالصفاء من الذنوب .

ثانيهما : أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة : * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * غير مرة ، وذكر في السورة : * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة ،وهذه السورة سورة إظهار الرحمة) .(١)

---

(١) التفسير : ٨٣/٢٩ م١٥٠

ثم يسكت الفخر عن الكشف عن مزيد من العلاقات الكامنة في السورة مجملاً لأبرز الوشائج .

وبالتأمل نجد تمام الاقتدار وعظمة القدرة في القمر ، وسعة الرحمة وعمومها في الرحمن ، كما أن سورة القمر تحدثت عن جزاء الكفار في الدنيا وعن أحوال قيام الساعة ، أما الرحمن فقد تحدثت عن مرحلة متتالية فذكرت الجنة وما فيها من نعيم ، كذلك فصلت سورة الرحمن ما أجمل في آخر القمر من مقر الأولياء في الآخرة ، ثم إن سورة القمر خصت بمخاطبة بني آدم من مشركي العرب ، أما الرحمن فقد خاطبت الثقلين .

ويقابل الفخر بين سورة الجمعة وسورة المنافقين في أن إحداهما تتحدث عن اليهود والأخرى عن المنافقين يقول : (وجه تعلق هذه السورة بما قبلها - أي سورة المنافقين - هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذكر من كان يكذبه قلباً ولساناً بضرب المثل كما قال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلباً دون اللسان ويصدقه لساناً دون القلب) .(1)

ومن يتأمل السورتين يجد بينهما ضروباً من المعاني لا تظهر إلا لمن كانت له قريحة قوية - كما قال الفخر - قادرة على فهم المعاني ، وإيجاد الروابط بينها .

وأراه أكثر اقتداراً في المقابلة بين أدق المعاني الكامنة في سورة الكوثر وسورة الماعون ، فيقسم المعاني في كل سورة ثم يقابل بينها .

---

(1) التفسير : ٣٠/١٢ ص١٥ .

يقول : (إن هذه السورة أي (الكوثر) كالمقابلة للسورة المتقدمة ، وذلك لأن في السورة المتقدمة (الماعون) وصف الله تعالى المنافق بأمور أربعة :

أولها : البخل .... ، الثاني : ترك الصلاة .... ،

الثالث : المراءاة في الصلاة ، والرابع : المنع من الزكاة ...

فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة ، فذكر في مقابلة البخل قوله : * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * ، أي إنا أعطيناك الكثير فأعط أنت الكثير ولا تبخل ، وذكر في مقابلة : * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * قوله : * فَصَلِّ * أي دم على الصلاة ، وذكر في مقابلة : * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * قوله : * لِرَبِّكَ * أي ائت بالصلاة لرضاء ربك لا لمراءاة الناس ، وذكر في مقابلة : * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ * قوله : * وَانْحَرْ * .. فاعتبر هذه المناسبة العجيبة) .(1)

والمقابلة بين ما تحمله الكلمات من معاني من البحوث الجليلة في اللغة ، والتي تقتني بالجمع بين الكلمات التي يلمح أن بينها قدراً من الاشتراك في المعنى ، ولذلك قال : (فاعتبر هذه المناسبة العجيبة) .

ولاحظ الفخر تواصل المعاني في السور المتباعدة ، فجمع بينها ، فقد وقف عند سورة النساء ولاحظ تشابه مطلعها مع مطلع سورة الحج مع اتحاد ترتيبهما في القرآن يقول في قوله تعالى : * يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. *(2) : (إنه تعالى جعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن :

---

(1) التفسير : ٣٢/١١٧ م ١٦ .

(2) سورة النساء : من الآية ١ .

إحداهما : هذه السورة ، وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن .

والثانية : سورة الحج ، وهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن .

ثم إنه علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة . . . وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد وهو قوله : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد ، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد).[1]

وكما قلت سابقاً فقد لاحظ الفخر وهو يجمع بين العلاقات المتباعدة أن القرآن كسورة واحدة مجتمعة أطرافه ، ملتقية موضوعاته ، ويكرر هذا الرأى في مواضع من تفسيره ، كأن يقول عند تفسير سورة القيامة : (. . . إلا أن القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض ، والدليل عليه أنه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[2] ثم جاء جوابه في سورة أخرى وهي قوله : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾[3] .

ولا يراعي الفخر وهو يوجد هذه العلاقة ترتيب السور في النزول فسورة " الحجر " أنزلت بعد سورة " ن " فكيف أنزلت آية الجواب عن الشبهة قبل الشبهة؟ . أظن أن الفخر قد راعى ترتيب القرآن التوقيفي من الله عند إقامة

---

(١) التفسير : ٩/١٦٤ م٥ .

(٢) سورة الحجر : ٦ .

(٣) سورة القلم : ٣ .

المناسبات بين الآيات دون النظر إلى ترتيب النزول ، واعتبرالقرآن وحدة كاملة بعد نزوله من أول سورة الفاتحة حتى سورة الناس . أو أن الفخر وهو يفسر الآية خطر في ذهنه هذا المعنى دون التنبه إلى موقع ترتيب الآية في النزول .

ومن السور المتباعدة التي يبحث عن وجه التلاقي بينها سورة (ق) وسورة (ص) فقد تلاقت في كثير من المعاني .

يقول عند تفسير أول سورة (ق) : (هذه السورة ، وسورة "ص" تشتركان في افتتاح أولهما بالحرف المعجم والقسم بالقرآن ، وقوله * بَل والتعجب ، ويشتركان في شيء آخر ، وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان ؛ وذلك لأن في "ص" قال في أولها : * والقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ * وقال في آخرها : * إنْ هُوَ إلاّ ذِكْرٌ للعَالَمِينَ * وقال في "ق" في أولها : * وَالقُرْآنِ المَجِيدِ * وقال في آخرها : * فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ * فافتتح بما اختتم به) (١) .

وهذه المناسبات مناسبات لفظية ظاهرة ، وبين السورتين أيضاً مناسبات معنوية كشف الفخر عن بعض منها يقول : (... إن في تلك السور "أي ص" صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد ، بقوله تعالى : * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا * (٢) وقوله تعالى : * أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ * (٣) وفي هذه السورة "أي ق" إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر ، بقوله تعالى : * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * (٤)

---

(١) التفسير : ٣٠/٢١٤ م١٥ .

(٢) سورة ص : من الآية ٥ .

(٣) سورة ص : من الآية ٦ .

(٤) سورة ق : ٣ .

ولما كان افتتاح السورة في "ص" في تقرير المبدأ قال في آخرها : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ (١) وختمه بحكاية بدء خلق آدم ؛ لأنه دليل الوحدانية، ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر ، قال في آخرها : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (٢).

ويربط الفخر بين السور التي تفتتح بالقسم بالأسماء دون الحروف ويبين كيف أنها تكاملت في موضوعاتها .

يقول عند تفسير سورة (النجم) : (السورة التي تقدمت أى "الطور" وافتتاحها بالقسم بالأسماء دون الحروف وهي الصافات والذاريات والطور وهذه السورة بعدها ، والأولى (٣) فيها القسم لإثبات الوحدانية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (٤) ، وفي الثانية لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (٥) ، وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ (٦) وفي هذه السورة لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم لتكمل الأصول الثلاثة : الوحدانية ، والحشر ، والنبوة) (٧).

وتتسع نظرة الفخر لتتعدى السورة والسورتين الى بيان مناسبة السورة الواحدة بما قبلها وما بعدها ، كبيانه لصلة سورة الكوثر بما قبلها ابتداءً من سورة الضحى ، وصلتها بما بعدها حتى سورة الناس ، وكانت

----

(١) آية : ٧١ .
(٢) التفسير : ٢٨/١٤٥ م١٤ ، سورة ق : ٤٤ .
(٣) في النسخة (بالأولى) وهو خطأ مطبعي والصحيح ما أثبته .
(٤) سورة الصافات : ٤ .
(٥) سورة الذاريات : ٥-٦ .
(٦) سورة الطور : ٧-٨ .
(٧) التفسير : ٢٨/٢٧٧ م١٤ .

طريقته في ذلك أنه يبين عناصر كل سورة ، وما فيها من تشريعات للنبي صلى الله عليه وسلم.

يقول : (إن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لمابعدها من السورة ، أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة (الضحى) في مدح محمد عليه الصلاة والسلام ، وتفصيل أحواله ، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته :

أولها : قوله : * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * ،

وثانيها : قوله : * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * ،

وثالثها : قوله : * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى *

ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا ...

ثم إنه تعالى شرفه في سورة التين بثلاثة أنواع من التشريف :

أولها : أنه أقسم ببلده ... ،

وثانيها : أنه أخبر عن خلاص أمته من النار ... ،

وثالثها : وصولهم إلى الثواب ..)(1)

وفعل هكذا في كل من سورة القدر ، والزلزلة ، والتكاثر ، والهمزة ، والفيل ، وقريش ، والماعون ثم ربطها بسورة الكوثر يقول : (إنه سبحانه وتعالى لما شرفه في هذه السورة من هذه الوجوه العظيمة قال بعدها : * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * أي : إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السورة المتقدمة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ،

---

(1) التفسير : ٣٢/١١٨ م١٦ .

فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب ،وبإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم أما عبادة الرب فإما بالنفس ، وهو قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ وإما بالمال ،وهو قوله : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ وأما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم ... فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وأما أنها كالأصل لمابعدها ...).[١]

وهكذا أخذ الفخر يربط هذه السورة بمابعدها ربطاً قد يتكلف فيه أحياناً .

ولا يراعي الفخر وهو يقيم هذه المناسبات الترتيب في النزول ،إنما يربط كل سورة بما تليها حسب ترتيبها في المصحف .

وهكذا اهتم الفخر بدراسة المعاني وأجناسها وتناسبها وترابطها حتى يأخذ بعضها بحجز بعض كما قال العلماء .

وهناك دعوة لتطبيق علوم القرآن في مجال الدراسات الأدبية لأستاذي الفاضل د . محمد أبوموسى [٢] ،منها علم المناسبة الذي يرى أنه إذا دخل عالم الأدب والشعر - بعد اكتماله في القرآن - أثراه وولّد دراسات جادة ،تبحث عن ترابط القصيدة ،وتتابع المعاني فيها ،وطريقة انتقالها من غرض إلى غرض في المعنى الواحد ،والبحث عن الكلمات والتراكيب لكل غرض والصلة بينها ... وهكذا ،واضعين نصب أعيننا دراسات الأفذاذ من علماء الأمة في التفسير والبلاغة ،والتي تقوم دراساتهم على التحليل والتفسير والنظر الفاحص في دقائق العلم كالفخر الرازي وغيره .

---

(١) التفسير : ٣٢/١١٩ م ١٦ .

(٢) ينظر مقدمة البلاغة القرآنية ،الطبعة الثانية : ٣ ومابعدها .

الفصل والوصـــــل

تناول الفخر هذا الباب في (نهاية الإيجاز) فضبط معاقده، وجمله في خمسة فصول، لخص فيها كلام عبد القاهر في هذا المبحث، وأسقط منه وجوهاً، وذكر فيه الأمثلة التي ذكرها عبد القاهر.(١)

ويتسع هذا المبحث في التفسير الكبير، فلا يختص بالجمل التي لا محل لها من الإعراب، ولا بالواو من بين حروف العطف، ما دام هناك سر بلاغي تشير إليه الجملة.

وقد لاحظت أن أكثر أبواب المعاني ضيقة في (نهاية الإيجاز) ثم تتسع عند التطبيق في التفسير.

وسأبدأ في هذا المبحث بوصل الجمل بالواو، فهي تأتي لعطف الخاص على العام، فكأن الجملة الثانية تفصيل وتوضيح للأولى، كما في قوله تعالى: ﴿ قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾.(٢)

يقول: (اعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ معطوف على قوله: ﴿ لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَدُنْهُ ﴾ والمعطوف يجب كونه مغايراً للمعطوف عليه، فالأول عام في حق كل من استحق العذاب والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها، تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي

---

(١) ينظر نهاية الإيجاز: ٣٢١ ومابعدها.

(٢) سورة الكهف: ٢-٣-٤.

كقوله تعالى : ﴿ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ (١) فكذا ههنا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى) (٢).

ويمنع الفخر عطف الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية ، فإذا ماجاء في القرآن فلا بد له من تأويل .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (٣) : (إنه لقائل أن يقول : ﴿ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ خبر وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أمر ، وعطف الأمر على الخبر لا يجوز ، وجوابه التقدير : قل أمر ربي بالقسط وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) (٤).

والفخر هنا مع جمهور النحاة الذين يمنعون عطف الخبر على الإنشاء كابن مالك في كتاب التسهيل ، وابن عصفور في شرح الإيضاح ، لكن سيبويه أجازه وغيره من النحاة (٥) ، ويجيزه البلاغيون لأنه عطف على المعنى وليس اللفظ

ويقبح الفخر عطف الجملة الفعلية على الجملة الاسمية ، لكنه يجيزه عند وجود سر بلاغي لهذا العطف حيث يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (٦) : (واعلم أنه ثبت أن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز إلا لفائدة وحكمة) (٧).

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٩٨ .
أسقط من الآية في النسخة (ورسله) وقد أثبتها وهو خطأ من الطباعة.

(٢) التفسير : ٢٠/٧٩ م ١١ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٩ .

(٤) التفسير : ١٤/٦١ م٧ .

(٥) ينظر مغني اللبيب : ٢/٤٨٢ .

(٦) سورة الأعراف : من الآية ١٩٣ .

(٧) التفسير : ١٥/٩٦ م٨ .

وقد نسب ابن هشام منع هذا العطف للفخر الرازي بعد أن ذكر مذاهب العلماء في هذا العطف، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، ومنهم من أجازه في الواو يقول: (وأضعف الثلاثة القول الثاني، وقد لهج به الرازي في تفسيره)[١] واستدل ابن هشام على منعه بتأويله للعطف في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[٢] الذي رد به على من رد قول الشافعي: (يحل أكل متروك التسمية) فقد ذكر أن معنى الواو هنا ليست للعطف إنما لتخالف الجملتين بالاسمية والفعلية، فهي حالية وبذلك يكون المعنى: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حالة كونه فسقاً، وإن لم يكن فسقاً فكلوا منه.[٣]

وقد رجعت إلى هذه الآية في التفسير فلم أجده يذكر هذا التأويل ولعله ذكره في كتاب آخر لم أقف عليه.

وقول ابن هشام: (لهج به الرازي في تفسيره) فيه نظر، لأنه منع العطف في التفسير إذا لم يكن هناك سر بلاغي للعطف، وأجازه في كثير من الآيات القرآنية، حين دلت الجملة الاسمية فيها على معنى الثبوت والدوام يقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾[٤]: (فإن قيل قوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ فعل، وقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ اسم وعطف الجملة الاسمية على الفعلية قبيح فما السبب في حصولها ههنا؟ قلنا: الفعل قد يكون

---

(١) مغني اللبيب: ٢/٤٨٥.

(٢) سورة الأنعام: من الآية ١٢١.

(٣) ينظر مغني اللبيب: ٢/٤٨٦.

(٤) سورة النحل: ١٠٥.

لازماً وقد يكون مفارقاً ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (١) ذكره بلفظ الفعل تنبيهاً على أن ذلك السجن لا يدوم ، وقال فرعون لموسى عليه السلام : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢) ذكره بصيغة الاسم تنبيهاً على الدوام ، وقال أصحابنا إنه قال تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (٣) ولا يجوز أن يقال إن آدم عاصٍ وغاوٍ ، لأن صيغة الفعل لا تفيد الدوام وصيغة الاسم تفيده) (٤) .

ودلالة الفعل على اللزوم والمفارقة كما يقول أخذها من عبد القاهر كما سنرى .

وبعد أن قرر الفخر هذه القاعدة وعززها بالأمثلة طبقها على الآية التي هو بصدد شرحها .

يقول الفخر : (وإذا عرفت هذه المقدمة فنقول قوله : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ذكر ذلك تنبيهاً على أن من أقدم على الكذب فكأنه دخل في الكفر ، ثم قال : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ تنبيهاً على أن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة ، وهذا كما تقول : كذبت وأنت كاذب ، فيكون قولك : (وأنت كاذب) زيادة في الوصف بالكذب ومعناه أن عادتك أن تكون كاذباً) (٥) والدوام والثبوت الذى أراده الفخر هو ما يفهم من دلالة اسم الفاعل في الجملة الاسمية .

---

(١) سورة يوسف : ٣٥ .

(٢) سورة الشعراء : من الآية ٢٩ .

(٣) سورة طه : من الآية ١٢١ .

(٤) التفسير : ٢٠/١٢٠ م١٠ .

(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة .

ويأتي السكاكي بعده فيذكر أن من محسنات الوصل اتحاد الجملتين في الاسمية والفعلية ، ولا يجيز المخالفة بين الجملتين إلّا إذا كان هناك معنى زائد تحمله الجملتين، كالتجدد في الفعل والثبوت في الاسم.(١) وقد لحق السكاكي الفخر بالقول بضرورة وجود سبب لعطف الجملة الاسمية على الفعلية.

وكان يحاول أحياناً أن يجد مخرجاً للآية حتى يمنع عطف الجملة الاسمية على الفعليـة لكنه لا يلبث أن يذكر المعنى المراد من هذا العطف لكونه ظاهراً ، ويستعين على ذلك بقاعدة يذكرها عبد القاهر في دلالة الاسم ودلالة الفعل كما قلت سابقاً .

يقول في قوله تعالى : * إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ *(٢) : (أن لقائل أن يقول إنه قال أولا : * يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ * ثم قال : * وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ * وعطف الاسم على الفعل قبيح فما السبب في اختيار ذلك ؟ قلنا : قوله : * وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ * معطوف على قوله : * فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى * لأنَّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامي من جنس إخراج الحي من الميت ، لأنَّ النامي في حكم الحيوان ، ألا ترى الى قوله : * وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا * .(٣)

وفيه وجه آخر وهو أن لفظ الفعل يدل على أن ذلك الفاعل يعتني بذلك الفعل في كل حين وأوان ، وأما لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة ، وضرب الشيخ عبد القاهر الجرجاني لهذا مثلاً في

---

(١) ينظر مفتاح العلوم : ١١٨ .
(٢) سورة الأنعام : من الآية ٩٥ .
(٣) سورة الروم : من الآية ١٩ .

كتابه : (دلائل الإعجاز) فقال : قوله : * هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ * (١) إنما ذكره بلفظ الفعل وهو قوله : * يَرْزُقُكُم * لأن صيغة الفعل تفيد أنه تعالى يرزقهم حالاً فحالاً وساعة فساعة ،وأما الاسم فمثاله قوله تعالى : * وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ * (٢) فقوله : * بَاسِطٌ * يفيد البقاء على تلك الحالة الواحدة) (٣) .

وقوله هذا ذكره عبد القاهر عند الحديث عن الفرق بين الخبر إذا كان اسماً وإذا كان فعلاً (٤) .

وهنا أيضاً ذكر الفخر هذه المقدمة التي حرر فيها أصول المسألة التي تحدث عنها ، وهذه عادته التي جرى عليها في أكثر المسائل البلاغية في التفسير ،يحرص على ذكر المقدمة ثم يطبقها على الآية التي يفسرها . يقول بعد ذكر كلام عبد القاهر في دلالة الاسم ودلالة الفعل : (إذا ثبت هذا فنقول : الحي أشرف من الميت ،فوجب أن يكون الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي ،فلهذا المعنى وقع التعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل ،وعن الثاني بصيغة الاسم ،تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحي من الميت أكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي والله أعلم بمراده) (٥) .

وقد ذكر الزمخشري الوجه الأول وهو يبين وجه عطف : * مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ * على : * فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى * حيث جعل جملة : * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ * مبينة لفالق الحب والنوى ،لأن فلق الحب النوى ...

---

(١) سورة فاطر : من الآية ٣ .
(٢) سورة الكهف : من الآية ١٨ .
(٣) التفسير : ٩٨/١٣ م٧ .
(٤) ينظر دلائل الإعجاز : ١٧٥ .
(٥) التفسير : ٩٨/١٣ م٧ .

من جنس إخراج الحي من الميت ؛ لأن النامي في حكم الحيوان) (١).

وأرى أن الأقرب أن نقول : إن جملة : * مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ * معطوفة على جملة : * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ * لأنهما وردتا في القرآن معطوفتين في عدة مواضع :

في قوله تعالى : * وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ * (٢).

وقوله تعالى : * أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ * (٣).

وقوله تعالى : * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * (٤) ومجيء أحدهما باسم الفاعل في سورة الأنعام للدلالة على أن العناية به أكثر وأكمل كما قال الفخر.

ويشترط النحاة في عطف الأفعال التماثل في الزمن فالماضي يعطف على الماضي والمضارع يعطف على المضارع . ويجيز الفخر عطف المضارع على الماضي لنكتة بلاغية وذلك حين يراد من المضارع التعبير عن الاستمرار في الفعل ، لا حصوله في الحال أو الاستقبال ، يقول في قوله تعالى : * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * (٥) : وفيه إشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله : * وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ * على الماضي وهو قوله : * كَفَرُوا * والجواب من وجهين :

---

(١) الكشاف : ٢ / ٣٧ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ٢٧ .

(٣) سورة يونس : من الآية ٣١ .

(٤) سورة الروم : ١٩ .

(٥) سورة الحج : ٢٥ .

الأول : أنه يقال فلان يحسن إلى الفقراء ، ويعين الضعفاء ، لا يراد به حال ولا استقبال ، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه في جميع أزمنته وأوقاته ، فكأنه قيل إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ، ونظيره قوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

والثاني : ذكر فيه قولاً لأبي علي الفارسي) .[1]

وكان الفخر حريصاً على أن يذكر الآيات التي تشابه الآية المذكورة في الحكم فنظير عطف المضارع على الماضي قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾[2] فالذين آمنوا بالله من عادتهم وشأنهم المستمر أن تطمئن قلوبهم عند ذكر الله .

وتأتي الواو لتعطف الجملة على مرادفها في المعنى مع اختلاف اللفظ للتأكيد ، ولتحقيق معنى آخر من أجله عطف هذا المعنى ، فالذين آمنوا بالباطل هم الذين كفروا بالله .

قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾[3].

فالعطف في : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ جاءت لبيان قبح المعنى الأول كما يقول الفخر : (إذا كان الإيمان بما سوى الله كفراً به ، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله ، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو في قول القائل : قم ولا تقعد ، وأقرب مني ولا تبعد ؟ نقول : نعم فيه فائدة غيرها ، وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول كقول القائل : أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح)[4].

---

(١) التفسير الكبير : ٢٣/٥٤ م ١٢ .

(٢) سورة الرعد : من الآية ٢٨ .

(٣) سورة العنكبوت : ٥٢ .

(٤) التفسير الكبير : ٢٥/٨١ م ١٣ .

وتعطف آية على آية بينهما آيات ، وهذه الآيات متفرعة من الآية الأولى فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) معطوف على قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) وبينهما سبع آيات تتحدث عن نقض الميثاق .

يقول الفخر في صلة الآيتين : (واعلم أن وجه الاتصال هو أن الواو في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ واو عطف ، وهو متصل بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ كأنه قيل : أخذ عليهم الميثاق وذكرهم موسى نعم الله تعالى وأمرهم بمحاربة الجبارين فخالفوا في القول في الميثاق ، وخالفوه في محاربة الجبارين) (٣) .

ولم يبين الفخر صلة هذه الآيات السبع بالآية الأولى ، وكيف كان الاتصال ، وإن كان قد اهتم في باب الوصل والفصل في (نهاية الإيجاز) بعطف الجمل على الجمل وكيف تتواصل وتترابط ، وضرب لذلك مثلاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ... ﴾ (٤) .

ولم يهتم هنا ببيان مثل هذه الروابط التي تتواصل في الآيات القرآنية . والتي تعنى بالوشائج الداخلية للآية القرآنية .

---

(١) سورة المائدة : ١٢ .

(٢) سورة المائدة : ٢٠ .

(٣) التفسير الكبير : ١١ / ٢٠٠ م ٦ .

(٤) سورة القصص : من الآية ٤٤ .

وكما اهتم الفخر بالوصل بين الجمل والعلاقات القائمة بينها اهتم أيضاً بالجمل التي فصلت، وحلل العلاقة بينها .

فقد تُفصل الجملة عما قبلها لتأتي تفصيلاً وشرحاً لمجملها .

كما في قوله تعالى : ﴿ ... لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (١) .

يقول الفخر : (واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ (٢) .

وقد يسقط العاطف فتأتي الجملة بعده بمعنى جديد ، هذا المعنى يقوي الجملة و يبين أهميته في الكلام .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ... ﴾ (٣) عند بيان فائدة فصل جملة ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ عما قبلها : (حذف العطف وإن كان مضمراً إلا أنه حذف لفائدة وهي أنه لما حذف فإن قوله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كالكلام المبتدأ به ، وكون الكلام مبتدأ به يزيد قوة ووثاقة ، لأن الابتداء بالشيء يدل على شدة الاهتمام به وقوة الاعتناء بتقريره ، ونظير هذا الموضع في حذف فاء التعقيب : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً .. ﴾ ولم يقل : فقالوا أتتخذنا هزواً) (٤) .

---

(١) سورة ص : من الآية ٢٢ - ٢٣ .

(٢) التفسير الكبير : ١٩٦/٢٦ م١٣ .

(٣) سورة المائدة : من الآية ٦٤ .

(٤) التفسير الكبير : ٤٤/١٢-٤٥ م٦ - سورة البقرة : من الآية ٦٧ .

وهذا من باب القطع والاستئناف الذي ذكره الفخر في باب الفصل والوصل وقال فيه : (اعلم أنك قد ترى الجملة حالها مع ما قبلها حال مايقتضي العطف، ثم إنه يجب فيها ترك العطف لأمر عرض ،وأفاد انقطاعها عما قبلها) (١).

و يضع البلاغيون هذه الآية تحت مبحث كمال الانقطاع حيث أن : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ إنشاء ،وجملة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ خبر ،ولا يعطف الإنشاء على الخبر.

وقال البلاغيون في الآية الثانية إنها استئناف فهي جواب عن سؤال مقدر والتقدير فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ؟ ولا أعلم لماذا جمع بينهما الفخر مع اختلافهما -كما قلت سابقاً- .

و يكثر الفخر الرازي من ذكر الجمل المستأنفة التي تأتي لتجيب عن سؤال تثيره الجملة السابقة لها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ . . ﴾ (٢) : (فإن قيل : ما موقع تحبسونهما ؟ قلنا : هو استئناف كأنه قيل كيف نعمل إن حصلت الريبة فيهما فقيل تحبسونهما) (٣).

ويأتي الاستئناف جواباً عن سؤال يثيره ما قبله في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . . . ﴾ (٤) : (﴿تُؤْمِنُونَ﴾ استئناف كأنهم قالوا :كيف نعمل ؟ : فقال : ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهو خبر في معنى الأمر) (٥).

---

(١) نهاية الإيجاز : ٣٢٨ .

(٢) سورة المائدة: من الآية ١٠٦ .

(٣) التفسير الكبير : ١٢٤/١٢ م٦ .

(٤) سورة الصف : ١٠ ومن الآية ١١ .

(٥) التفسير الكبير : ٣١٧/٢٩ م١٥ .

وقد تفصل الجملة عما قبلها لأنها توكيد لها ، فالنهي عن مقاتلة من لم يعتد هو أمر بقتال من قاتل وأخرج عن الديار.

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ... ﴾[1] : (﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ وفيه لطيفة وهي أنه يؤكد قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ ... ﴾)[2].

وقد تتابع الجمل ولا رابط بينها فتأتي الجمل إما في سياق تعداد النعم ، أو بياناً لما قبله وإيضاحاً لها كما في قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[3].

يقول : (.. ولم يذكروا النسق ، وقد يجرى مثل هذا في الكلام يقول أكرمتك أحسنت إليك ملكتك الأموال وليتك الولايات . ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحداً ، ويكون المعنى علم الإنسان بالقلم ما لم يعلمه فيكون قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ بياناً لقوله : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾)[4].

وقد يجمع الفخر الرازي بين الحديث عن فصل الآيات ووصلها بالواو ، فيبين سر مجيئها مفصولة وموصولة في آيات متتابعة ، أو آيات متباعدة متشابهة ، ويكشف عن المعاني التي تهدف الآيات إلى بثها حين تأتي على هذه الطريقة.

---

(١) سورة الممتحنة : ٨ ومن الآية ٩ .

(٢) التفسير الكبير : ٣٠٥/٢٩ م١٥ .

(٣) سورة العلق : ١ - ٥ .

(٤) التفسير الكبير : ١٧/٣٢ م١٦ .

فيبين السر في فصل ووصل آيات أوائل سورة الرحمن : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ .(١)

وقبل أن يذكر ذلك يضبط القاعدة في الفرق بين مجيء العطف وسقوطه في الكلام عامة يقول : (ما الحكمة في ذكر الجمل السابقة من غير واو عاطفة ، ومن هنا ذكرها بالواو العاطفة ؟ نقول : ليتنوع الكلام نوعين ؛ وذلك لأن من يعد النعم على غيره تارة يذكر نسقاً من غير حرف ، فيقول : فلان أنعم عليك كثيراً ، أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، قواك بعد ضعف . وأخرى يذكرها بحرف عاطف ، وذلك العاطف قد يكون واواً ، وقد يكون فاءً ، وقد يكون ثم ، فيقول : فلان أكرمك وأنعم عليك ، وأحسن إليك ، ويقول : رباك فعلمك فأغناك ، ويقول أعطاك ثم أغناك ثم أحوج الناس إليك ، فكذلك هنا ذكر التعديد بالنوعين جميعاً . فإن قيل : زده بياناً وبيّن الفرق بين النوعين في المعنى ، قلنا : الذي يقول بغير حرف كأنه يقصد به بيان النعم الكثيرة فيترك الحرف ليستوعب الكل من غير تطويل كلام ، ولهذا يكون ذلك النوع في أغلب الأمر عند مجاوزة النعم ثلاثاً أو عندما تكون أكثر من نعمتين ، فإن ذكر ذلك عند نعمتين فيقول : فلان أعطاك المال وزوجك البنت فيكون في كلامه إشارة إلى نعم كثيرة ، وإنما اقتصر على النعمتين للأنموذج . والذي يقول بحرف فكأنه يريد التنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها وإذهاب توهم البدل والتفسير) .(٢)

---

(١) سورة الرحمن : ١-٧ .

(٢) التفسير : ٨٩/٢٩ م١٥ .

وكلامه هذا شرح لما تضمنه كلام الزمخشري في هذه الآية حيث يقول :

(الرحمن : مبتدأ وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثّرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه).(١)

وبعد أن يقرر الفخر القاعدة يذكر السر في عدم مجيء العطف في أول السورة فيقول : (ففي هذه السورة ابتدأ الأمر بالإشارة إلى بيان أتم النعم إذ هو المقصود فأتى بما يختص بالكثرة ، ثم إن الإنسان ليس بكامل العلم يعلم مراد المتكلم إذا كان الكلام من أبناء جنسه ، فكيف إذا كان الكلام كلام الله تعالى ، فبدأ الله به على الفائدة الأخرى وإذهاب توهم البدل والتفسير ، والنعي على أن كل واحد منها نعمة كاملة).(٢)

فالنعم الكبيرة التامة جاءت بدون عطف وما عداها من نعم جاءت معطوفة .

وقد ذكر الزمخشري وجهاً أكثر صلة بالمعنى مما ذكره الفخر يقول :

(كيف أخل بالعاطف في الجمل الأولى ثم جيء به بعده ؟ قلت : بكّت بتلك الجمل الأولى واردة على سنن التعديد ليكون كل واحدة من تلك الجمل مستقلة في تقريع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه ، . . . ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف).(٣)

---

(١) الكشاف : ٤/ ٤٣ .

(٢) التفسير : ٢٩/ ٨٩ م ١٥ .

(٣) الكشاف : ٤/ ٤٤ .

وقد تأتي آيتان متتاليتان إحداهما وصلت بما قبلها ، والأخرى فصلت ، فيقف الفخر أمامهما ليبين سر ذلك ، في قوله تعالى : * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *.(١)

يقول الفخر : (إنما تدخل الواو في قوله : * إِذْ يَقُولُ * ودخلت في قوله : * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ * لأن قوله : * وَإِذْ زَيَّنَ * عطف هذا التزيين على حالهم وخروجهم بطراً ورئاء ، وأما ههنا وهو قوله : * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ * فليس فيه عطف لهذا الكلام على ما قبله بل هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله).(٢)

وهكذا نرى الفخر ينظر إلى الآيات السابقة للآية ليعرف مقتضيات العطف وعدمه .

ويتحد لفظ آيتين في سورة واحدة ، ولكن تأتي إحداهما موصولة بما قبلها بالواو لأنها جزء منها ، والأخرى مفصولة لعدم ارتباطها بما قبلها ولكل سر في ذلك .

قال تعالى في سورة (ق) : * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ *(٣)
وقال في موضع آخر : * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ *(٤)

---

(١) سورة الأنفال : ٤٨-٤٩ .
(٢) التفسير الكبير : ١٥/١٨٢ م٨ .
(٣) آية : ٢٣ .
(٤) آية : ٢٧ .

يقول الفخر فيها : (قال ههنا : * قَالَ قَرِينُهُ * من غير واو وقال في الآية الأولى : * وَقَالَ قَرِينُهُ * بالواو العاطفة ،وذلك لأن في الأول الإشارة وقعت إلى معنيين مجتمعين ،وأن كل نفس في ذلك الوقت يجيء ومعها سائق ويقول الشهيد ذلك القول ،وفي الثاني لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر الواو ،والفاء في قوله : * فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ * لا يناسب قوله تعالى : * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ * مناسبة مقتضية للعطف بالواو) .(١)

فقوله تعالى : * وَقَالَ قَرِينُهُ * معطوف على مجيء كل نفس معا سائق وشهيد ،لأن الآيات في سياق تصوير أحداث ما بعد الموت من النفخ في الصور و مجيء الملكين وقول القرين ..

أما قوله تعالى : * قَالَ قَرِينُهُ * فقد جاءت في سياق أسلوب المقاولة بين الكافر وقرينه، وهذا يقتضي الفصل ،كأن قائلا قال : ما قال قرينه ؟ فقيل : قال ربنا ما أطغيته . ولذلك لا مناسبة بين هذه الآية وماقبلها * فَأَلْقِيَاهُ * كما قال الفخر فهي جملة متضمنة لمعنى الشرط ولذلك دخلت الفاء في خبره .(٢)

وهذا النوع من الفصل في أساليب المقاولة أشار إليه عبد القاهر في باب الفصل والوصل .(٣)

ويذكر القرآن قول الملأ من قوم ثمود في سور متفرقة ،مرة موصولة بالواو ، في سورة المؤمنين ،ومرتين بغير واو كما في سورة الأعراف وسورة هود ، ويقف الفخر ليبين سر هذا الفصل والوصل .

---

(١) التفسير : ٢٨/ ١٦٨ م١٤ .

(٢) ينظر البحر المحيط : ٨/ ١٢٦ .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٤٠ - ٢٤١ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (١) : (فإن قبل ذكر الله مقالة قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ (٢) : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا ﴾ (٣) وههنا مع الواو فأي فرق بينهما ؟ قلنا : الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال قومه ؟ فقيل له : كيت وكيت ، وأما الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله ، ومعناه أنه اجتمع في هذه الواقعة هذا الكلام الحق وهذا الكلام الباطل) (٤) .

ويتكرر قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في سورة البقرة في ستة مواضع ، ثلاثة منها بالواو ، وثلاثة بغير واو ، فما جاء بالواو دل على أن هذه الأسئلة وقعت في وقت واحد ، فلذلك اقتضت العطف ، وما جاء بغير واو دل على حصولها في أوقات متفرقة .

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ... ﴾ (٥)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ... ﴾ (٦)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عن الْخَمْرِ ... ﴾ (٧)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ... ﴾ (٨)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عن الْيَتَامَى ... ﴾ (٩)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عن الْمَحِيضِ ... ﴾ (١٠)

---

(١) سورة المؤمنون : ٣٣ .
(٢) سورة الأعراف : من الآية ٦٦ .
(٣) سورة هود : من الآية ٥٣ ، وقد ذكر الفخر بدل هذه الآية قوله : (قالوا ما نراك إلا بشراً مثلنا) ولا يوجد في سورة هود آية بهذا النص ، وقد صححت وذكرت الآية المرادة .
(٤) التفسير : ٢٣ / ٩٨ م١٢ .
(٥) سورة البقرة : من الآية ٢١٥ .
(٦) سورة البقرة : من الآية ٢١٧ .
(٧) سورة البقرة : من الآية ٢١٩ .
(٨) سورة البقرة : من الآية ٢١٩ .
(٩) سورة البقرة : من الآية ٢٢٠ .
(١٠) سورة البقرة : من الآية ٢٢٢ .

يقول : (اعلم أنه تعالى جمع في هذه المواضع ستة من الأسئلة فذكر الثلاثة الأول بغير الواو ، وذكر الثلاثة الأخيرة بالواو ، والسبب أن سؤالهم عن تلك الحوادث الأولى وقع في أحوال متفرقة ، فلم يؤت فيها بحرف العطف ؛ لأن كل واحد من تلك السؤالات سؤال مبتدأ ، وسألوا عن المسائل الثلاثة الأخيرة في وقت واحد ، فجيء بحرف الجمع لذلك ، كأنه قيل : ويجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر والسؤال عن كذا والسؤال عن كذا) .(١)

وقد ذكر السيوطي هذا الوجه ونسبه للكرماني (٢) ذكره في كتابه (العجائب) يقول : (لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقاً ، وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد ، فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك) .(٣)
فيكون الفخر قد تبع فيه الكرماني .

و يتابع الفخر الرازي الآية الواحدة التي تتكرر في سور مختلفة مقترنة بالعاطف مرة وخالية منه مرة أخرى ، ويذكر ما وراء ذلك من دقائق المعنى . المتصلة بالسياق ، من ذلك تكرار قوله تعالى : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ في سورة الروم وسورة فاطر ، مرة بالواو ، ومرة بغيرها . قال تعالى في سورة الروم :
﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ (٤) وقال تعالى في سورة فاطر :
﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ ﴾ .(٥)

---

(١) التفسير : ٦٧/٦ م٣ .
(٢) هو محمود بن حمزة الكرماني ، عالم بالقراءات ، نقل في التفسير آراء مستنكرة وأثنى عليه الجزري ، وذكر بعض كتبه منها (لباب التفسير المعروف بالعجائب والغرائب ، توفي سنة ٥٠٥هـ ، الاعلام للزركلي ١٦٨/٧ .
(٣) الإتقان في علوم القرآن : ١٤٦/٢ .
(٤) من الآية ٩ .
(٥) من الآية ٤٤ .

فالتي بدون واو أخبرت عن شيئين فما قبل الواو ظاهر ومابعدها ظاهر ، وماسبقها واو جاءت على سبيل الخبر ، وقبل أن يذكر هذا يحرر المسألة كما فعل سابقاً ويدلل عليها بأمثلة يقول : (قال هناك : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ ﴾ من غير واو ، وقال ههنا بالواو ، فما الفرق ؟ نقول : قول القائل : أما رأيت زيداً كيف أكرمني وأعظم منك ، يفيد أن القائل يخبره بأن زيداً أعظم ، وإذا قال : أما رأيته كيف أكرمني هو أعظم منك ، يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه ، ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثاني في الظهور مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار) .

فهذا تحرير للمسألة البلاغية في الفرق بين مجيء العبارة بالواو وبدونها ونلاحظ هنا استعانة الفخر بالشواهد المبسطة لتقرير هذه المسألة ، ثم تطبيق الآيات على ضوئها ، وهذا مما يكثر في التفسير كما لاحظنا ، ثم يقول في سبب الاختلاف : (إذا علمت هذا فنقول : المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير ، ولعل ذلك كان ظاهراً عندهم فقال بالواو أي نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم ، وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة ، فإنه قال : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ﴾ وفي موضع آخر قال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ [1] ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوماً عندهم ، فإن كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه) [2] .

---

(١) سورة غافر : من الآية ٨٢ .

(٢) التفسير الكبير : ٢٦/٣٦ م ١٣ .

ومن الممكن أن تكون : * كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً * استئناف إخبار عما كانوا عليه ، وفي الروم جملة * وَكَانُوا * أي بمعنى : وقد كانوا ، فالجملة حال ، فهما مقصدان .(١)

وتمتد نظرة الفخر فلا تقتصر على البحث عما وراء وصل الجمل بالواو وفصلها ، بل ينظر في عطف الجمل بالفاء ويبحث عما وراءها من سر بلاغي ، ويقارنها بنظيراتها مما عطف بالواو .

من ذلك أنه يبين عن سبب مجيء آيتي سورة الزمر ، إحداهما بالواو والأخرى بالفاء في قوله تعالى :

* وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ .. *(٢)

وقوله تعالى : * فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ .. *.(٣)

يقول : (ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء ههنا وعطف مثلها في أول السورة بالواو ؟ والجواب : أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية(٤) أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ، ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ، ثم ذكر بفاء

---

(١) ينظر البحر المحيط : ٧/ ٣٢٠ .

(٢) من الآية : ٨ .

(٣) من الآية : ٤٩ .

(٤) يقصد بها قوله تعالى : * وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * سورة الزمر : ٤٥ .

التعقيب أنهم إذا وقعوا في الضر والبلاء التجأوا إلى الله وحده ، فإن الفعل الأول مناقضاً للفعل الثاني فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون في المناقضة في الحال ، وأنه ليس بين الأول والثاني فاصل ، مع أن كل واحد منهما مناقض للثاني فهذا هو الفائدة في ذكر فاء التعقيب ههنا ، فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم في التناقض في الحال ، فلا جرم ذكر الله بحرف الواو) .(١)

لكن الزمخشري يرى أن الفاء جاءت مسببة عن قوله : ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ أي يشمئزون عند ذكر الله ويستبشرون عند ذكر آلهتهم ، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره .(٢)

وفسر ابن المنير هذه السببية فقال : (تقول زيد مؤمن بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فهذا تسبيب ظاهر لا لبس فيه ، ثم تقول : زيد كافر بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة ، كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان ومجريه مجراه في جعله سبباً في الالتجاء ، فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر) .(٣)

هذا العكس هو التناقض الذي قال به الفخر وفهمه من الفاء التي جعلها للتعقيب .

ويرى الفخر أن اختلاف الموضوع يؤدي إلى اختلاف نسق الكلام ، فالآيات في الدلائل الآفاقية تتتابع معطوفة بالواو ، وعند ذكر الدلائل النفسية يأتي العطف بالفاء .

---

(١) التفسير : ٢٦/٢٨٨ م١٣ .

(٢) ينظر الكشاف : ٣/٤٠٢ .

(٣) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (على هامش الكشاف) : ٣/٤٠٣ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ .. أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ (١) : (إنه تعالى في الدلائل الآفاقية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ وقال : ﴿ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً ﴾ ثم في الدليل النفسي ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها إشارة إلى أن تلك الدلائل من جنس ، وهذا من جنس ، فلم يجعل هذا تبعاً لذلك) (٢) .

ثم يقيس ما قاله من اختلاف النسق القرآني عند تغير الموضوع على أواخر سورة (يس) فيقول : (ومثل هذا مراعى في أواخر سورة (يس) حيث قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ ﴾ (٣) ثم لم يعطف الدليل الآفاقي ههنا ، نقول - والله أعلم - ههنا وجد منهم الاستبعاد بقوله : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ فاستدل بالأكبر وهو خلق السموات ، ثم نزل كأنه قال : لا حاجة إلى ذلك الاستدلال بل في أنفسهم دليل جواز ذلك ، وفي سورة (يس) لم يذكر استبعادهم فبدأ بالأدنى وارتقى إلى الأعلى) (٤) .

واختلاف نسق الكلام لاختلاف الموضوع مما يقوم عليه كل كلام حسن ؛ لأن لكل موضوع مقدماته التي تناسبه ، ومداخله التي هي أشبه به .

وأحياناً كان الفخر يفرق بين الفاء والواو ، تفريقاً لا يقوم على أصل بلاغي أو لغوي ، بل على نظرات خاصة به يفهمها من إيحاءات الآية .

---

(١) سورة ق : ٧-١٥ .

(٢) التفسير : ٢٨ / ١٦١ م١٤ .

(٣) سورة يس : من الآية ٧٧ .

(٤) التفسير : ٢٨ / ١٦١ م١٤ .

من ذلك أنه يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (١) : (لم قال في القسم الأول : ﴿ فَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ﴾ وفي القسم الثاني : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ فذكر الأول بالفاء والثاني بالواو ؟ والجواب : لأن رحمة الله سابقة على غضبه وابتلاءه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام ، فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم ، وقلة الثاني على ما قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (٢).

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات جاءت (بأما) إحداهما معطوفة بالفاء والأخرى بالواو ، ولا ينطبق عليها ما قاله الفخر.

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ (٣).

فالفاء لا تعني كثرة المؤمنين العالمين بأنه الحق من ربهم ، لأن القرآن يصف غير المؤمنين دائماً بالكثرة ، كما أن الواو لا تعني قلة الجاحدين ، وقال تعالى أيضاً : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٤).

---

(١) سورة الفجر : ١٤-١٥-١٦.

(٢) سورة إبراهيم : من الآية ٣٤ ، وسورة النحل : من الآية ١٨.
التفسير : ١٧٢/٣١ م١٦.

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٦.

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٠٦ - والآية ١٠٧.

فالفاء لاتعني في هذه الآية كثرة من تسوّد وجوههم يوم القيامة ، كما أن الواو لا تعني قلة الذين ابيضّت وجوههم .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ .. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ ﴾ (١) وغير هذا كثير جداً في القرآن .

وأقول : إن جملة : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ ﴾ جملة شرطية متصلة بما قبلها : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ بالفاء التي جاءت للترتيب الذكرى ، حيث يترتب على ما قبلها أمور تأتي بعدها ،ثم تأتي آية ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ ﴾ جملة شرطية معطوفة على ما قبلها .

وقد تحدث الزمخشري عن صلة هذه الفاء بما قبلها فيقول : (بم اتصل قوله ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ ﴾ ؟ قلت : بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (٢).

---

(١) سورة هود : من الآية ١٠٦-١٠٨ .

(٢) الكشاف : ٤/٢٥١ .

الاعتــــــــــراض

وقف الفخر عند كثير من جمل الاعتراض في القرآن الكريم ، واهتــــم بذكر قيمتها البلاغية في أداء المعاني ، وصلتها بالكلام المعترضة فيه .

والجملة المعترضة عنده إما أن تفيد التوكيد ، وهو المعنى المشهورة به عند العرب كما قال ابن جني (وهو جار عند العرب مجرى التأكيد) .(١)

أو تفيد معاني أخرى تقوم على التغلغل في معنى الآية .

ومما جاءت جملة الاعتراض مفيدة التوكيد ما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ﴾ .(٢)

يقول : (في قوله : ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ وجهان :

الأول : أنه صفة لقوله : ﴿ رَجُلَانِ ﴾ .

والثاني : أنه اعتراض وقع في البين يؤكد ما هو المقصود مــن الكــلام) .(٣)

كذلك جاءت جملة : ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ للتأكيد في قوله تعالــى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .(٤)

---

(١) الخصائص : ١/٣٣٥ .

(٢) سورة المائدة : من الآية ٢٣ .

(٣) التفسير : ١١/٢١٤ م٦ .

(٤) سورة المائدة : ٣ .

يقول : (ومن قوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ إلى هنا - أي إلى قوله تعالى : ﴿ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ - اعتراض وقع في البين ، والغرض منه تأكيد ما ذكر من معنى التحريم ، فإن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل ...) .(١)

وقد يشرح الفخر معنى التوكيد في الاعتراض ، حيث يقصد به إزالة شبهة راسخة في العقول .

يقول في قوله تعالى : ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾(٢) (اعلم أن هذا الكلام معترض بين ذكر الوارثين وأنصبائهم وبين قوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ ومن حق الاعتراض أن يكون ما اعترض مؤكداً ما اعترض بينه ومناسبه ، فنقول : إنه تعالى لما ذكر أنصباء الأولاد وأنصباء الأبوين ، وكانت تلك الأنصباء مختلفة والعقول لا تهتدي إلى كمية تلك التقديرات ، والإنسان ربما خطر بباله أن القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه ، وأنهم كانوا يورثون الرجال الأقوياء وما كانوا يورثون الصبيان والنسوان الضعفاء ، فالله تعالى أزال هذه الشبهة بأن قال : إنكم تعلمون أن عقولكم لا تحيط بمصالحكم فربما اعتقدتم في شيء أنه صالح لكم وهو عين المضرة ، وربما اعتقدتم فيه أنه عين المضرة ويكون عين المصلحة ، وأما الإله الحكيم الرحيم فهو العالم بمغيبات الأمور وعواقبها ... وقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى وجود الانقياد لهذه القسمة التي قدرها الشرع وقضى بها) .(٣)

---

(١) التفسير : ١٤٣/١١ م٦ .

(٢) سورة النساء : من الآية ١١ .

(٣) التفسير : ٢٢٥/٩ م٥ .

والفخر هنا يكمل ما قال به الزمخشري من أن : (من حق الاعتراض أن يؤكد ما اعترض بينه ويناسبه) فيشرح هذه المناسبة ويبينها بعد أن نقل هذه العبارة من الكشاف.(١)

ولابن عطية تعليل حسن في سبب وجود هذا الاعتراض أحب أن أذكره ، وهو أن فيه تأنيساً للعرب الذين كانوا يورثون على غير هـــــذه الصفة.(٢)

وتأتي جملة الاعتراض فتضيف حُسناً إلى الجملة ، لأنها تصور أدق ما يتطلبه المعنى ، وكأنها تعليق جانبي على مشهد أو تحليل للمعنى .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾(٣) : (لقائل أن يقول لو كان التنزيل هكذا : ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً كان النظم مستقيماً حسناً فكيف وقع قوله : ﴿ كَأَن لَمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ في البين ؟ وجوابه : . . . أنه تعالـى حكى عن هذا المنافق سروره وقت نكبة المسلمين ، ثم أراد أن يحكي حزنه عند دولة المسلمين بسبب أنه فاته الغنيمة ، فقبل أن يذكر هذا الكلام بتمامه ألقى في البين قوله : ﴿ كَأَن لَمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ والمراد التعجب كأنه تعالى يقول : انظروا إلى ما يقول هذا المنافق كأنه ليس بينكم أيهـــــا المؤمنون وبينه مودة ولا مخالطة أصلاً ، فهذا هو المراد من الكلام ، وإن كان كلاماً واقعاً في البين على سبيل الاعتراض ، إلا أنه في غاية الحسن).(٤)

---

(١) ينظر الكشاف : ٥٠٩/١ .

(٢) ينظر المحرر الوجيز : ٥١٨/٣ .

(٣) سورة النساء : ٧٣ .

(٤) التفسير : ١٨٥/١٠ م٥ .

وقد سماها ابن عطية التفاتاً واعتراضاً يقول : (﴿كَأَن لَّمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ التفاتة بليغة ، واعتراضاً بين القائل والمقول بلفظ يظهر زيادة في قبيح فعلهم) [١]. والالتفات أتى من تغيير نمط الكلام من الغيبة إلى الخطاب، وقد استقبح الراغب الأصفهاني اعتبار الجملة اعتراضاً فقال : (فإنه لا يفصل بين بعض الجملة وبعض ما يتعلق بجملة أخرى) [٢] ، وذلك لأن ما بعد جملة الاعتراض مقول القول لما قبلها ، ومهما يكن فإن هذه الجملة جاءت لتصور قبح فعلهم وغرابة موقفهم وقت الشدة .

وتأتي جملة الاعتراض لتبين شدة أحوال المنافقين بسبب أعمالهم السيئة كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴾ [٣].

ويذكر الفخر في هذه الآية أن من شروط الاعتراض أن يكون لها تعلق بما قبلها بعد أن يستشهد لذلك ببيت من الشعر مشهور عند البلاغيين في هذا الباب .

يقول : (وتلك الآية وقعت في البين ، أي : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كالكلام الأجنبي وهذا يسمى اعتراضاً وهو كقول الشاعر :

إِنَّ الثَّمَانِينَ - وَبُلِّغْتَهَا - قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ [٤]

---

(١) المحرر الوجيز : ٤/١٧٤ .
(٢) نقلاً عن البحر المحيط لأبي حيان : ٣/٢٩٣ .
(٣) سورة النساء : ٦١-٦٢ .
(٤) هذا البيت لعوف بن مُحَلِّم الشيباني يشكو ضعفه في قصيدة قالها لعبدالله بن طاهر .

فقوله : (وَبُلِّغْتَهَا) كلام أجنبي وقع في البين ، إلا أن هذا الكلام الأجنبي شرطه أن يكون له من بعض الوجوه تعلق بذلك المقصود كما في هذا البيت فإن قوله : (وَبُلِّغْتَهَا) دعاء للمخاطب وتلطف في القول معه ، والآية أيضاً كذلك ، لأن أول الآية وآخرها في شرح قبائح المنافقين وفضائحهم وأنواع كيدهم ومكرهم ، فإن الآية أخبرت بأنه تعالى حكى عنهم في أول الآيـــة أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت مع أنهم أمروا بالكفر به ، ويصدون عن الرسول مع أنهم أمروا بطاعته ، فذكر بعد هذا ما يدل على شدة الأحوال عليهم بسبب هذه الأعمال السيئة في الدنيا والآخرة فقال : * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَـا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ * أي فكيف حال تلك الشدة وحال تلك المصيبة) (١) .

والمح في جملة الاعتراض تهديداً لهؤلاء المنافقين ، وبياناً لعجزهم عن ردها .

وكما اهتم الفخر بإيجاد العلاقة المعنوية بين ما قبل جملة الاعتراض ومابعدها كذلك اهتم بالعلاقة اللفظية بينهما .

فقد تأتي جملة الاعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه للعذر عـن النسيان ، يقول في قوله تعالى : * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْـرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً * (٢) : (* وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ * اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه ، والتقدير فإني نسيت الحوت واتخذ سبيله في البحـر عجباً ، والسبب في وقوع هذا الاعتراض ما يجرى مجرى العذر والعلة لوقـوع النسيان) (٣) .

---

(١) التفسير : ١٠/١٦١-١٦٢ م٥ .

(٢) سورة الكهف : ٦٣ .

(٣) التفسير : ٢١/١٤٨ م١١ .

ومثله فيما وقع بين المعطوف والمعطوف عليه ما في قوله : * فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * (١).

فقوله : (* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ * كلام معترض وسره : (هو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله ، فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه) (٢).

وتأتي جملة الاعتراض بين الصفة والموصوف للقطع بجهل الكفار ، كما في قوله تعالى : * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * (٣) يقول الفخر في جملة * لَوْ تَعْلَمُونَ * : (... هو كلام اعتراض في أثناء الكلام وتقديره : وإنه لقسم عظيم لو تعلمون لصدقتم ، فإن قيل فما فائدة الاعتراض ؟ نقول الاهتمام بقطع اعتراض المعترض ، لأنه لما قال : * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ * أراد أن يصفه بالعظمة بقوله عظيم والكفار كانوا يجهلون ذلك ويدعون العلم بأمور النجم ، وكانوا يقولون لو كان كذلك فما باله لا يحصل لنا علم وظن فقال : * لَوْ تَعْلَمُونَ * لحصل لكم القطع) (٤).

وقد تفرد الفخر بذكر هذا السر لهذا الاعتراض ، فقد أجمع أكثر المفسرين على أن هذه الجملة جاءت لتأكيد وتعظيم جملة القسم الواقعة فيها .

فمثلاً يقول أبو السعود : (* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * اعتراض في اعتراض قصد به المبالغة في تحقيق مضمون الجملة القسمية وتأكيده) (٥).

---

(١) سورة الروم : ١٧ .
(٢) التفسير : ٢٥/١٠٨ م١٣ .
(٣) سورة الواقعة : ٧٦ .
(٤) التفسير : ٢٩/١٩٠ م١٥ .
(٥) إرشاد العقل السليم : ٨/١٩٩ .

ويقول الألوسي : (* لَوْ تَعْلَمُونَ * معترض بين الصفة والموصوف وهو تأكيد لذلك التعظيم)[(١)] أي التعظيم المستفاد من جملة القسم .

وقد سكت الفخر عن بيان سر الجملة الاعتراضية التي وقعت فيها : * لَوْ تَعْلَمُونَ * وهي : * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * حيث وقعت بين القسم والمقسم عليه : * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * و * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * .

وكأن الفخر لا يرى فيها اعتراضاً ،وقد وجدت أن ابن عطية لا يعد جملة القسم اعتراضاً ويرى أنها جاءت للتأكيد .

يقول : (* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ * تأكيد للأمر وتنبيه من المقسم به وليس هذا باعتراض بين الكلامين بل هذا معنى قصد التهمم به ،وإنما الاعتراض قوله : * لَوْ تَعْلَمُونَ *)[(٢)] .

وتقع جملة الاعتراض بين المشبه والمشبه به لقصد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : * وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ *[(٣)]

يقول : (كيف توسط بين المشبه والمشبه به * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ * إلى آخره ؟ - أي إلى قوله تعالى : * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * - قلنا لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو

---

(١) روح المعاني : ١٥٣/٢٧ .

(٢) نقلاً عن البحر المحيط : ٢١٤/٨ ،لجأت إلى هذا النقل لأن تفسير ابن عطية لم يصل إلينا كاملاً وما وصل إلينا حتى سورة النحل فقط .

(٣) سورة الحجر : ٨٧ - ٩٠ .

مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم)[(١)].

وهكذا فإن الفخر أدرك قيمة جملة الاعتراض في الكلام.

---

(١) التفسير : ٢١٧/١٩ م١٠.

الالتفات

يتسع بحث الالتفات في التفسير الكبير ، ويخرج عن الحدود الضيقة التي وضعها له الفخر في (نهاية الإيجاز) ، ويعده قسماً من أقسام النظم يتعلق فيه الكلام بعضه ببعض ، وفيه تظهر قوة الطبع ، وجودة القريحة ، واستقامة الذهن ، حيث تتداخل فيه الجمل فتكوّن بناءً واحداً ، وضم إليه أبواباً أخرى كالمطابقة والمقابلة والمزاوجة وغيرها من الأبواب ، التي ترى فيها الكلام متلاحم الأجزاء .

وهذا لم يذكره عبد القاهر بل أشار إليه ، والفخر مثّل له بهذه الأبواب.

ويذكر الفخر تعريفين للالتفات : الأول يقول : (قيل : إنه العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو العكس ، فالأول قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (١) والثاني قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ (٢).

وهذا التعريف الأول عند الفخر يعود إلى ابن المعتز الذي عرفه بقوله : (وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك) (٣).

والتعريف الثاني : (وقيل : هو تعقيب الكلام بجملة تامة ملاقية إياه في المعنى ، ليكون تتميماً له على جهة المثل أو غيره كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ (٥).

---

(١) سورة الفاتحة : ٤ ومن الآية ٥ .

(٢) سورة يونس : من الآية ٢٢ . ، نهاية الإيجاز : ٢٨٧ .

(٣) البديع : ٥٨ .

(٤) سورة الإسراء : ٨١ .

(٥) سورة التوبة : من الآية ١٢٧ . نهاية الإيجاز : ٢٨٨ .

وهذا هو التذييل الذى جعله البلاغيون المتأخرون نوعاً من أنواع الإطناب يعرفه الخطيب بقوله : (وهو تعقيب الجملة بجملة تشمل على معناها للتوكيد) [١] ثم بين أنواعه ، فمنه ما لا يخرج مخرج المثل ،ومنه ما يخرج مخرج المثل كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ .

ولم يذكر أحد من المتقدمين هذا التعريف للالتفات ،وقد وجدت رشيد الدين الوطواط في كتابه : (حدائق السحر في دقائق الشعر) يذكر هذين التعريفين للالتفات.وأكد الظن أن الفخر نقل منه ذلك حيث يقول : (تكون هذه الصنعة كما يقول بعض أهل العلم -بأن تنتقل بالعبارة من المخاطبة إلى الغيبة أو من المغايبة إلى المخاطبة،وكلا النوعين موجود في القرآن) [٢].

ثم يستشهد بآية الفاتحة ويونس ويضيف إلى الالتفات نوعاً ثالثاً وهو الانتقال من المغايبة إلى المتكلم.

ثم يذكر التعريف الثاني فيقول : (وقال بعض أهل العلم إن الالتفات يكون بأن يقول الكاتب معنى من المعاني ويتمه ،ثم يلتفت إلى هذا المعنى ، فيذكر بعضه إما صراحة أو كناية على سبيل المثل أو الدعاء ،أو أي وجه آخر ومثاله من القرآن : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾.[٣]

وقد جعل التفتازاني هذا النوع من أنواع الالتفات و نقل كل أمثلة الوطواط.

---

(١) الإيضاح ،للخطيب القزويني : ٣٠٩ ،وينظر شروح التلخيص : ٣/٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢) ص : ١٣٤.

(٣) حدائق السحر : ١٣٤ - سورة الإسراء : ٨١.

وقد رجعت إلى التفسير فوجدت الفخر يمر على هذه الآيات دون أن يشير إلى أنها من الالتفات .

والالتفات في التفسير هو ما انتقل فيه الأسلوب من طريق إلى آخر من طرق الخطاب .

وسأبدأ بذكره لسر بلاغة الالتفات وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (١) يقول : (والعدول عن المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فمذكورة في باب الالتفات من أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت : قال زيد كذا وكذا ، وقال خالد كذا وكذا ، وقال عمرو كذا ، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرر مراراً) (٢) ويقصد بالفصاحة هنا البلاغة كما مر بنا في عدة مواضع

وهو هنا لا يحدد انتقالاً من طريق إلى طريق ، بل يستحسن كل انتقال في الكلام ، وتلون في الأسلوب ، وتصرف في مجارى الكلام ولذلك يقول : (ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه) .

ثم يرجع سر التفات الآية إلى وجهين :

---

(١) سورة لقمان : من الآية ١٠ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٤٤ م١٣ .

أحدها : أن خلق الأرض ثقيل ، والسماء في غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة ، لأن لها اختياراً ... ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعاً ، فإن الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارا ، إذ الماء لا اختيار له فهو بإرادة الله فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ .

الثاني : هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ، متكثرة في كل مكان ، فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته)[1] .

ففي الالتفات تنبيه الإنسان ولفته إلى هذه النعمة .

وأرى أن هذا الوجه أقرب للآية من المعنى الأول ، وإن كان الفخر مولعاً بإرجاع السر البلاغي إلى الظواهر الكونية ، وهو مجال برع فيه الفخر وتفرد .

وقد رأى الفخر عدم اهتمام العلماء ببيان سر مواقع الالتفات في الكلام البليغ ولذلك أخذ عليهم ذلك ، وإن كنت أظن أنه قصد بذلك عبد القاهر الجرجاني الذى لم يتناول الالتفات ، ولم يتحدث عنه في كتابيه ، وإن كان الزمخشرى قد تحدث عنه وعن أوجه بلاغته في بعض الآيات ، ولذلك فالفخر يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] : (قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ بعد قوله : ﴿ أَنزَلَ ﴾ يسمى التفاتاً ، ويعد ذلك من الفصاحة . واعلم أن أصحاب العربية ادعوا أن ذلك يعد من الفصاحة وما بينوا أنه من أى الوجوه يعد هذا الباب ؟ وأما نحن فقد أطنبنا فيه في تفسير قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ فلا فائدة من الإعادة)[3] .

---

(١) التفسير : ٢٥/١٤٤ م١٣ .
(٢) سورة الأنعام : من الآية ٩٩ .
(٣) التفسير : ١٣/١١٣ م٧ .

وقد رجعت إلى هذه الآية لأرى ماذا يقصد بوجه البلاغة التي أهمل أصحاب العربية الحديث عنها ، فوجدته يرجع سر الالتفات فيها إلى ثلاثة أوجه الأول للزمخشري، والثاني للجبائي، والثالث له.

يقول : (الأول : قال صاحب الكشاف: المقصود هو المبالغة كأنه تعالى يذكر حالهم لغيرهم لتعجبهم منها ...

الثاني : قال أبو علي الجبائي : إن مخاطبته تعالى لعباده هي على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهي بمنزلة الخبر عن الغائب ، وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه أن يرده مرة أخرى إلى الغائب .

الثالث : وهو الذي خطر بالبال في الحال ، أن الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور فإنه يدل على مزيد التقرب والإكرام ، وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة يدل على المقت والتبعيد) (١).

ثم يضرب مثلاً على النوع الأول بسورة الفاتحة فيقول : (فكما في سورة الفاتحة ، فإن قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كله مقام الغيبة ، ثم انتقل منها إلى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهذا يدل على أن العبد كأنه انتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور ، وهذا يوجب علو الدرجة ، وكمال القرب من خدمة رب العالمين .

أما الثاني فكما في قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ خطاب الحضور ، وقوله : ﴿ جَرَيْنَ بِهِم ﴾ مقام الغيبة ، فههنا انتقل من مقام الحضور إلى مقام الغيبة ، وذلك يدل على المقت والتبعيد والطرد ، وهو اللائق بحال هؤلاء ، لأن من كان صفته أنه يقابل إحسان الله تعالى إليه بالكفران ، كان اللائق به ما ذكرناه) (٢).

---

(١)،(٢) التفسير : ١٧/ ٧٢ م٩ه

فالفخر وإن كان يعنى بوجه بلاغة الالتفات ما يفيده كل وجه من وجوه الانتقال فقد اقتصر في بيان ما يفيده الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة دون غيره من أساليب الانتقال في الالتفات، وقد طبق قوله هذا على عدة آيات في التفسير .

يقول في قوله تعالى : * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم مِن قَبْلِ أَن نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً * (١).

: (وقوله تعالى : * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ * خطاب مشافهة ، وقوله : * أَوْ نَلْعَنَهُمْ * خطاب مغايبة فكيف يليق أحدهما بالآخر ؟ الجواب: منهم من حمل ذلك على طريق الالتفات ... ومنهم من قال هذا تنبيه على أن التهديد حاصل في غيرهم ممن يكذبون من أبناء جنسهم . وعندي فيه احتمال آخر وهو أن اللعن هو الطرد والإبعاد ، وذكر العبد لا يكون إلا بالمغايبة فلما لعنهم ذكرهم بعبارة الغيبة) (٢).

ووجه الفخر أقرب إلى المعنى، فالله تعالى ناداهم نداء تشريف : * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمِنُوا * ، ثم طلب منهم أن يؤمنوا ، ثم أوعدهم فأتى بأسلوب الغيبة طرداً وإبعاداً إن لم يستجيبوا لداعي الله .

وقد يكون في ذكر هذا الوعيد بضمير الغيبة إيهام أنه ليس لهم ، ليبقى التأنيس والاستدعاء إلى الإيمان في الخطاب الأول غير مشوب بمفاجأة الخطاب الذى يوحش السامع وقد يصرفه عن القبول (٣).

---

(١) سورة النساء : ٤٧ .

(٢) التفسير : ١٠/١٢٦-١٢٧ م٥ .

(٣) ينظر البحر المحيط : ٣/٢٦٨ .

وأعود فأقول : إنه لا يمكن تحديد وجه لكل نوع من طرق الانتقال ؛ لأن المعاني تتنوع والأساليب تختلف في مقاماتها ، والسياق هو الذى يولد الوجه البلاغي المناسب له ، وولوع الفخر بوضع البلاغة في أطر وقواعد هي التي جعلته يحدد دلالة الانتقال من الغيبة إلى الخطاب على التعظيم ، ودلالة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة على المقت والطرد دون اعتبار معان أخرى.

ثم إنني لاحظت أن هذه الدلالة تتغلت منه في آيات أخرى ، فقد يخرج الكلام من الخطاب إلى الغيبة للدلالة على التعظيم في الآيات التي تتحدث عن نعيم الجنة لا على المقت والطرد كما ذكر ، يقول في قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ (١): (قال تعالى : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ على سبيل المخاطبة ، ثم قال : ﴿ لَهُم ﴾ ولم يقل " لكم " ما الحكمة فيه ؟ الجواب : هو أنه من باب الالتفات والحكمة الجمع بين الطرفين ، كأنه تعالى يقول : إكرامهم به في حضورهم ، ففي حضورهم الحبور وفي غيبتهم الحور والقصور) (٢).

كذلك قد يأتي الالتفات من الخطاب إلى الغيبة للفت إلى حكمة الله وعظيم قدرته كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ .. ﴾ (٣) يقول الفخر : (إن هذا رجوع من الخطاب إلى الغيبة ، والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الأحوال أن يحتج الإنسان المكلف به على قدرة الله تعالى ... فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الإنسان وقال : إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) (٤).

----

(١) سورة ق : ٣٤-٣٥.
(٢) التفسير : ١٨١/٢١ م١٤.
(٣) سورة النحل : من الآية ٦٩.
(٤) التفسير : ٧٤/٢٠ م١٠.

ويذكر الفخر وجوهاً متنوعة لانتقال الالتفات، ويبين سرها البلاغي، وسأحاول الإلمام بها، لأنها تمثل أوجه الالتفات التي اتفق عليها المتأخرون بعده.

فقد ينصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم، لزوال شبهة قد تعلق بذهن الإنسان، وللدلالة على قدرته تعالى في هذا الكون.

يقول في قوله تعالى: * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ * (١) : (ما حكمة الالتفات في قوله: * فَأَنبَتْنَا * ، جوابه: أنه لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلا الله تعالى، وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة هو الإنسان، فإن الإنسان يقول: أنا الذى ألقى البذرة في الأرض الحرة، وأسقيها الماء، وأسعى في تشميسها، وفاعل السبب فاعل للمسبب، فإذن أنا المنبت للشجرة، فلما كان هذا الاحتمال قائماً لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة إلى قوله: * فَأَنبَتْنَا *). (٢)

إذن فالالتفات جاء لبيان اختصاصه سبحانه وتعالى بهذا الفعل، وفي ضمير المتكلم بيان لعظمته سبحانه وتعالى.

ويقف الفخر عند آيات أخرى تشبه الآية السابقة في الانتقال من الغيبة إلى الخطاب وتتحدث عن دلائل الكون.

يقول في قوله تعالى: * وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ * (٣) : (قال:

---

(١) سورة النمل: من الآية ٦٠.
(٢) التفسير: ٢٠٦/٢٤ م١٢.
(٣) سورة فاطر: ٩.

* أَرْسَلَ * إسناداً للفعل إلى الغائب ، وقال : * سُقْنَاهُ * بإسناد الفعل إلى المتكلم ،وكذلك في قوله : * فَأَحْيَيْنَا * ،وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال ،ثم لما عرف قال أنا الذى عرفتني سقت السحاب وأحييت الأرض ، ففي الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب ،وفي الثاني تذكيراً بالنعمة ،فإن كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء).(١)

وفي الالتفات هنا دلالة على اختصاصه تعالى بهذه الأفعال ، وقدرته الباهرة .

وقد يكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب مفيداً لزيادة الإنكار كما في قوله تعالى : * عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *(٢) : (واعلم أن في الإخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار ،كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ،ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجة).(٣)

وقد أخذ هذا الوجه من الزمخشرى .

وقد يتحول الأسلوب من التكلم إلى الغيبة ثم يعود ثانية إلى التكلم في آية واحدة لبيان العظمة.

يقول الفخر في قوله تعالى : * تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ .. *(٤) : (إنه تعالى قال في أول الآية : * فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ * ثم عدل عن هذا النوع من الكلام إلى المغايبة فقال :

---

(١) التفسير : ٧/٢٦ م١٣.
(٢) سورة عبس : ١-٢-٣.
(٣) التفسير : ٥٧/٣١ م١٦.
(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٥٣.

* مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ * ثم عدل من المغايبة إلى النوع الأول فقال : * وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ * فما الفائدة في العدول عن المخاطبة إلى المغايبة ، ثم عنها إلى المخاطبة مرة أخرى ؟ والجواب : أن قوله : * مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ * أهيب وأكثر وقعاً من أن يقال منهم من كلمنا ، ولذلك قال : * وَكَلَّمَ اللَّهُ موسى تَكْلِيماً * فلهذا المقصود اختار لفظة الغيبة، وأما قوله : * وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ * فإنما اختار لفظ التكلم (١) ؛ لأن الضمير في قوله : * وَآتَيْنَا * ضمير التعظيم ،وتعظيم الموتى يدل على عظمة الإيتاء) (٢) .

والسبب في كون : * مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ * أهيب وأكثر وقعاً من (منهم من كلمنا) لأن في ذكر الله عظمة وفخامة وتعظيم لمن كلمهم .

وقد يعدل المتكلم من الخطاب إلى النفس لتأكيد ما احتج به أمام المخاطبين ،كما في قوله تعالى : * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * (٣) .

يقول الفخر : (وفي العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمه . . . وهي أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم ،لم يكن في البيان مثل قوله : * وَمَالِيَ * ؛ لأنه لما قال : * وَمَالِيَ * واحد لا يخفى عليه حال نفسه علم كل أحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد ؛لأنه أعلم بحال نفسه ،فهو يبين عدم المانع ،وأما لو قال : مالكم ؟ جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه) (٤) .

---

(١) ذكر الفخر في التفسير : (اختار لفظ المخاطبة) وهو خطأ والمناسب للكلام ما ذكرته (اختار لفظ التكلم) .

(٢) التفسير : ٢١٨/٦ م٣ .

(٣) سورة يس : ٢١-٢٢ .

(٤) التفسير : ٥٦/٢٦ م١٣ .

ويصرف الزمخشري فائدة الالتفات إلى ناحية أخرى وهي أن الرجل قد أراد الملاطفة في النصح يقول : (ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم، ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه)[(١)].

و ينتقل الأسلوب من التكلم إلى الخطاب لبيان عظمة ما أسند إليه ضمير التكلم وإن جاء على الخطاب .

يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[(٢)] : (قال : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ ولم يقل : إنا فتحنا لنغفر لك تعظيماً لأمر الفتح ، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة لكنها عامة)[(٣)].

وهكذا استطاع الفخر أن يكشف عن أسرار كثير من صور انتقال الالتفات ولم يقتصر على الوجهين اللذين ذكرهما في (نهاية الإيجاز) .

وقد لاحظت أنه ذكر كل الأوجه التي اتفق المتأخرون[(٤)] عليها فيما بعد فالأسلوب قد ينتقل - كما مر بنا -

من الغيبة إلى الخطاب	ومن الخطاب إلى الغيبة
ومن الغيبة إلى التكلم	ومن التكلم إلى الغيبة
و من الخطاب إلى التكلم	ومن التكلم إلى الخطاب

---

(١) الكشاف : ٣/ ٣١٩ .

(٢) سورة الفتح : ١-٢ .

(٣) التفسير : ٢٨/ ٧٩ م١٤ .

(٤) ينظر شروح التلخيص : ١/ ٤٦٣ ومابعدها .

التكـــــــرار

وقف الفخر أمام كثير من أساليب التكرار في القرآن الكريم ، وبين أسراره البلاغية ، وما يضيفه من حسن للكلام .

وقد وجدت أن التكرار عنده ثلاثة أنواع :

١ - تكرار في اللفظ والمعنى .

٢ - تكرار في المعنى دون اللفظ .

٣ - تكرار في اللفظ دون المعنى .

١ - التكرار في اللفظ والمعنى :

وهذا النوع أكثر ما في التفسير ، وقد ذكر أغراضاً كثيرة له سأكتفي ببعض منها :

فقد يأتي التكرار متلطفاً ليصرف النفس المنغمسة في حمأة الضلال ، وطريق الغواية عما هي عليه ، وينعتها بما تحب أن تنعت به كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ﴾(١).

يقول : (كرر في الآيتين : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ لأن المقصود التوبيخ على ألطف الوجوه ، وتكرير هذا الخطاب اللطيف أقرب إلى التلطف في صرفهم عن طريقتهم في الضلال والإضلال ، وأدل على النصح لهم في الدين والإشفاق)(٢).

والسر فيه تأكيد استقلالهم بأهلية الكتاب الذى يستدعى منهم الإيمان بما عداه .

---

(١) سورة آل عمران : ٩٨ ومن الآية ٩٩ .

(٢) التفسير : ٨/١٧٣ م٤ .

وفي تكرار : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً ﴾ إذلال لهم وتحقير لشأنهم وتهويل لما فعلوه في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الخَاسِرِينَ ﴾.(١)

يقول : (وإنما كرر قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً ﴾ لتعظيم المذلة لهم وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم ، والعرب تكرر مثل هذا في التفخيم والتعظيم، فيقول الرجل لغيره : أخوك الذى ظلمنا ، أخوك الذى أخذ أموالنا أخوك الذى هتك أعراضنا).(٢)

ويرى الزمخشري أن التكرار جاء هنا مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياعهم في قوله تعالى قبله : ﴿ وَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾(٣) وفيه أيضاً تسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم لما جرى عليهم.(٤)

ويبنى الزمخشري هنا معنى التكرار على الآية التي قبلها، بينما يفصل الفخر بينهما ويذكر ما يفيده التكرار في الآية ، وما ذكره أقرب إلى مفهوم المعنى مما ذكره الزمخشري .

وقد جرى الفخر في هذه الآية وفي غيرها على ربط القرآن بطرائق العرب وجريانه على مذاهب القوم في أساليب لغتهم في قوله : (والعرب تكرر مثل هذا).

وقد يفيد التكرار الحث على تكرير العبادة وغرسها في النفس كما في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾.(٥)

---

(١) سورة الأعراف : ٩٢ .

(٢) التفسير : ١٤/١٩٠ م٧ .

(٣) سورة الأعراف : ٩٠ .

(٤) ينظر الكشاف : ٢/٩٧ .

(٥) سورة آل عمران : ١٨ .

يقول : (فائدة هذا التكرير الإعلام بأن المسلم يجب أن يكون أبداً في تكرير هذه الكلمة ، فإن أشرف كلمة يذكرها الإنسان هي هذه الكلمة ، فإذا كان في أكثر الأوقات مشتغلاً بذكرها و بتكريرها كان مشتغلاً بأعظم أنواع العبادات، فكان الغرض من التكرير في هذه الآية حث العباد على تكريرها) .(١)

ويذكر أبو حيان أنه قيل إن الأولى شهادة الله والثانية شهادة الملائكة وأولى العلم ثم يقول : (وهذا بعيد جداً لأنه يؤدي إلى قطع الملائكة عن العطف على الله تعالى)(٢) لأنه عندئذ لا يكون تكراراً .

و تكرر الجملة للدلالة على بقاء الأمر المراد به ، وأرى الفخر هنا يذكر آراء العلماء ثم يرجح رأيه .

يقول في قوله تعالى : ﴿ .. وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٣) : (ذكروا في فائدة تكرير الأمر بالهبوط وجهين :

الأول : قال الجبائي الهبوط الأول غير الثاني ، فالأول من الجنة إلى سماء الدنيا ، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض ...) وقد ضعف هذا الوجه .

الوجه الثاني : أن التكرير لأجل التأكيد .

وعندي فيه وجه ثالث أقوى من هذين الوجهين ، وهو أن آدم وحواء

---

(١) التفسير : ٢٢٣/٧ م٤ .

(٢) البحر المحيط : ٤٠٦/٢ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٣٦ وآية ٣٧-٣٨ .

لما أتيا بالزلة أمراً بالهبوط فتابا بعد الأمر بالهبوط ووقع في قلبهما أن الأمر بالهبوط لما كان بسبب الزلة فبعد التوبة وجب أن لا يبقى الأمر بالهبوط، فأعاد الله تعالى الأمر بالهبوط مرة ثانية ليعلما أن الأمر بالهبوط .. باق بعد التوبة)[١].

وقد أخذ أبوالسعود هذا المعنى ، وأضاف إليه وعبر عن كل ذلك بأسلوب أدبي جيد .

يقول : (كرر الأمر بالهبوط إيذاناً بتحتم مقتضاه وتحققه لا محالة ودفعاً لما عسى يقع في أمنيته عليه السلام من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك ، وإظهاراً لنوع رأفة به عليه السلام لما بين الأمرين من الفرق النير كيف لا ، والأول مشوب بضرب وسخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لا يخلدون فيها ، والثاني مقرون بوعد إيتاء الهدى المؤدي إلى النجاح ..)[٢].

و يرى البعض أن التكرار جاء لاختلاف متعلق كل أمر منهما ، فالأول متعلق بالعداوة، والثاني بإتيان الهدى[٣].

ويدل التكرار في كثير من الآيات على التأكيد ، وهو من أهم أغراضه ، و يعد المحور الأساسي الذي يدور حوله.

ويقول الفخر في قوله تعالى : * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *،[٤] : (وقوله : * فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ * تأكيد للأول ، وحسنت

---

(١) التفسير : ٣/ ٢٨ م٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ١/ ٩٢ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ، لابن عطية : ١/ ٢٦٢ ، والكشاف ، للزمخشري : ١/ ٢٧٤ .

(٤) سورة آل عمران : ١٨٨ .

إعادته لطول الكلام كقولك : لا تظن زيداً إذا جاءك وكلمك في كذا فلا تظنه صادقاً) (١) .

وأرى أنه ليس من البلاغة أن نكتفي بالقول حسن التكرار لطول الكلام بل لا بد من معرفة السر الذى ينطوى عليه طول الكلام حتى اقتضى التكرار .

ويخرج ابن الأثير هذه الآية من التكرار ، لطول الفصل ، ولأن أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به .

يقول : (فالأولى في باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية ، ليكون مقارناً لتمام الفصل) (٢) .

ويدل التكرار على التأكيد أيضاً في قوله تعالى : * يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً * (٣) .

يقول : (إنه تعالى قال أولاً : * اتَّقُوا رَبَّكُمُ * ثم قال بعده : * واتَّقُوا اللَّهَ * ... تأكيد الأمر والحث عليه كقولك للرجل : اعجل اعجل ، فيكون أبلغ من قولك اعجل) (٤) .

ويذكر الفخر أن آيات الوعيد لم تتكرر في القرآن إلا مرة واحدة ، وذلك في سورة النساء ، حيث إنها تأتي للتوكيد باتفاق المفسرين .

---

(١) التفسير : ٩/١٣٦ م٥ .

(٢) المثل السائر : ٣/١٧ .

(٣) سورة النساء : ١ .

(٤) التفسير : ٩/١٧١ م٥ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (١) وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٢) .

يقول : (اعلم أن هذه الآية مكررة في هذه السورة ،وفي تكرارها فائدتان ،الأولى : أن عمومات الوعيد وعمومات الوعد متعارضة (٣) في القرآن ، وأنه تعالى ما أعاد آية من آيات الوعيد بلفظ واحد مرتين ، وقد أعاد هذه الآية دالة على العفو والمغفرة بلفظ واحد في سورة واحدة ،وقد اتفقوا على أنه لا فائدة في التكرير إلا التأكيد ،فهذا يدل على أنه تعالى خص جانب الوعد والرحمة بمزيد التأكيد ،وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد) (٤) .
وهاتان الآيتان وإن كانتا وعيداً إلا أنهما دلتا على المغفرة والعفو في قوله : ﴿ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ .

ويأتي التكرار لتهويل وتفظيع أمر ما يقع فيه والتخويف منه ،كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ (٥) يقول :

---

(١) آية : ٤٨ .

(٢) آية : ١١٦ .

(٣) المعارضة هنا بمعنى المقابلة من عارض الشيء بالشيء معارضة أي قابله، ومنه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة ،وأنه عارضه العام مرتين) قال ابن الأثير : أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن من المعارضة المقابلة . لسان العرب ،لابن منظور : ١٦٧/٧ .

(٤) التفسير : ٤٦/١١ م٦ .

(٥) سورة الروم : ١٢ ، ١٤ .

(وأعاد قوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ،لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيداً للتخويف منه ،واعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله).[1]

وقد يفيد التكرار التوكيد مع المبالغة كما في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.[2]

يقول : (إن المقصود من هذا التكرير التأكيد والمبالغة في الحث على الإيمان والتقوى).[3]

ويذكر الفخر وجوهاً لتكرار قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[4] إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن .

يقول : (ما الحكمة في تكرير هذه الآية وكونه إحدى وثلاثين مرة ؟

نقول : الجواب من وجوه :

الأول : أن فائدة التكرار التقرير .

الثاني : .. فلما ذكر العذاب ثلاث مرات[5] ذكر الآلاء إحدى وثلاثين مرة لبيان ما فيه من المعنى وثلاثين مرة للتقرير .

الثالث : أن الثلاثين مرة تكرير بعد البيان في المرة الأولى ،لأن الخطاب مع الجن والإنس ...

---

(١) التفسير : ١٠٣/٢٥ م١٣.

(٢) سورة المائدة : ٩٣.

(٣) التفسير : ٢٢٤/١٦ م٨.

(٤) سورة الرحمن : ١٣ وغيرها من الآيات .

(٥) المراد به قوله تعالى في سورة القمر : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فقد جاءت ثلاث مرات بعد ذكر عذاب قوم نوح وقوم عاد وقوم صالح .

ولا يسمى الفخر هذا تكراراً في كتابه : (نهاية الإيجاز) وهو يتحدث عن فساد طعنهم في القرآن من جهة التكرار والتطويل ،لأن المعنى في كل تكرار يختلف عن غيره - كما يقول - ولا يكون التكرار في اللفظ إنما في المعنى يقول : (وأما ما تكرر في سورة الرحمن من قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فليس بتكرار ،لأنه سبحانه ذكر نعمة بعد نعمة ،وعقب عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى ،وإن كان اللفظ واحداً)(١).

وقد يأتي التكرار في الكلام ويدل على أكثر من معنى ،وهو الذي قال عنه ابن الأثير إنه من التكرار المفيد الذي يدل على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان (٢).

واختلاف هذين الغرضين يكون باختلاف السياق السابق لكل جملة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً .. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (٣).

يقول : (ما الفائدة في الإعادة ؟ نقول لله جنود الرحمة وجنود العذاب أوجنود الله إنزالهم قد يكون للرحمة ،وقد يكون للعذاب فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ وثانياً إنزال العذاب على الكافرين)(٤).

---

(١) نهاية الإيجاز : ٣٨٨ .

(٢) ينظر المثل السائر : ٣/٥ .

(٣) سورة الفتح : من الآية ٣ والآية ٧ .

(٤) التفسير : ٢٨/٨٤-٨٥ م١٤ .

وقد فهم هذين المعنيين من سياق الآية السابقة للتكرار ،فالأول جاء بعد ذكر اختصاصه تعالى بإنزال السكينة على قلوب المؤمنين ،والثاني بعد ذكر المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء .

ويتكرر قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [١] ثلاث مرات، ولكل تكرار معناه الخاص المفهوم من سياق الكلام قبله .

يقول : (... إنه تعالى ذكر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ في حكاية نوح للتعظيم، وفي حكاية ثمود للبيان ،ومن حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعاً) [٢] .

فالآية ذكرت بعد حكاية نوح تهويلاً وتعظيماً لما حل بهم من العذاب والاستئصال ، وفي ثمود ذكرت قبل القصة فاستفهم بها لبيانها ، أما في حكاية عاد فقد ذكرت مرتين ،استفهم بها في الأولى للبيان ثم لما ذكر عذابهم كررت الجملة للتعظيم وتهويل العذاب .

ولا يجعل الزمخشري وغيره معنى لكل تكرار بل يرى أن فائدته الادكار والاتعاظ عند سماع كل نبأ . [٣]

ونبه الفخر إلى تكرار القصص القرآني ،وما يحققه من أغراض متنوعة في كل مرة ،وفي ذلك دلالة على فصاحة القرآن وحسن بيانه .

من ذلك أنه يبين سر تكرار قصة نوح في سورة يونس وسورة هود

---

(١) سورة القمر : ١٦-١٨-٢١-٣٠ .

(٢) التفسير : ٢٩/٥٨ م١٥ .

(٣) ينظر الكشاف : ٤/٤٠ ، البحر المحيط : ٨/١٨٢ .

فيقول : (إن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه : ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب ،فذكر تعالى قصة نوح في بيانه أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر، ثم في العاقبة ظهر ، فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم ،وفي هذه السورة -أي سورة هود - ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاش كان حاصلاً في زمان نوح ،إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر . . . ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خالياً عن الفائدة)(١) .

وفي كلامه هذا تنبيه على ضرورة التأمل في القصص القرآني المكرر في سور عدة ،وكشف للخصائص الأسلوبية في كل مرة ،ومناسبتها لغرض السورة العام .

ويتحدث الفخر عن تكرار القصص القرآني في (نهاية الإيجاز) والمغزى منه فيذكر أن به تظهر الفصاحة وحسن البيان في القرآن الكريم .

فيقول : (. . . وكان تعالى يسليه بما ينزله عليه من أقاصيص من تقدم من الأنبياء ،ويعيد ذكره بحسب ما يعلمه من الصلاح . . . وأيضاً فلأن ظهور الفصاحة ومزيتها في القصة الواحدة إذا أعيدت أبلغ منها في القصص المتغايرة، فهذا هو الفائدة فيما تكرر في كتاب الله من قصة موسى وفرعون وسائر الأنبياء)(٢) .

وهذه هي المعاني التي ذكرها القاضي عبد الجبار نقلاً عن شيخه أبي علي فقد قال : (إن العادة من الفصحاء جارية بأنهم قد يكررون القصة الواحدة في مواطن متفرقة بألفاظ مختلفة لأغراض تتجدد في المواطن وفي الأحوال ، وذلك من دلالة المفاخر والفضائل لا من دلالة المعايب في الكلام)(٣) .

---

(١) التفسير : ١٨/٩ - ١٠ م٩ .

(٢) ص : ٣٨٨ .

(٣) المغني : ٣٩٧/١٦ .

٢ - تكرار في المعنى دون اللفظ :

وقد يأتي التكرار بغير اللفظ ، أي أن المعنى يكرر بألفاظ وتراكيب مختلفة تدل على معنى واحد ، واهتم الفخر بهذا النوع وبين أسرار مجيء التكرار على هذه الهيئة ، ودلالته على المعنى .

ويأتي هذا النوع - غالباً - ليفيد التأكيد كما في قوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (١).

يقول : (اللعن هو البعد فلما قال : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فما الفائدة في قوله : ﴿ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ ﴾ ؟ الجواب: التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد) (٢).

وقد يأتي التوكيد مع التبكيت كما في قوله تعالى : ﴿ ... وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٣).

يقول : (وأما قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا ﴾ فهو تأكيد بتكرير الشيء بغير اللفظ الأول ، وهو بمنزلة أن يقول الرجل لعبده وقد احتمل منه ذنوباً سلفت منه فعاقبه عند آخرها : هذا بما عصيتني وخالفت أمري ، وهذا بما تجرأت علي واغتررت بحلمي ، هذا بكذا ، فيعد عليه ذنوبه بألفاظ مختلفة تبكيتاً) (٤).

---

(١) سورة هود : ٦٠ .

(٢) التفسير : ١٨/١٧ م٩ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٦١ .

(٤) التفسير : ٣/١١٠ م٢ .

٣ - تكرار في اللفظ دون المعنى :

وقد تتكرر الألفاظ والجمل دون المعنى ، ولا يسميه الفخر تكراراً ، لأن المعنى في كل جملة يختلف عن المعنى في الجملة الأخرى ، والعبرة عنده بتكرار المعنى لا اللفظ ، خاصة في القرآن الكريم ، ويتردد ذلك كثيراً في تفسيره فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾ (١).

يقول : (فإن قيل : ما معنى التكرير في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾ ؟ قلنا : هذا ليس بتكرير ، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، والثاني إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحداً غير الله) (٢).

وقد تبع الفخر الزمخشري في هذا الوجه فلم يعده تكراراً (٣).

وخالفهما ابن الأثير واعتبره تكراراً ، وذكره تحت قسم (التكرار في اللفظ والمعنى والمقصود به غرضان مختلفان) (٤) وذكر فيه ما قاله الزمخشري والفخر الرازي .

ورأيه في هذا النوع من التكرار يوافق ما قاله في (نهاية الإيجاز)

---

(١) سورة الزمر : ١١-١٤ .

(٢) التفسير : ٢٥٥/٢٦ م١٣ .

(٣) ينظر الكشاف : ٣٩٢/٣ .

(٤) المثل السائر : ١٠/٣ .

: (ليس المعتبر بتكرار اللفظ ، لأنّا نعلم أن الحروف والكلمات متكررة فـي كل الكلام ،وإنما المعتبر بالأغراض والمقاصد فربما كان المشتبه في اللفظ غير مكرر في المعنى ،وربما كان المتباين في اللفظ متكرراً في المعنى)[١] ولذلك دفع أن يكون هناك تكرار في سورة الرحمن وسورة المرسلات وسورة الكافرين ؛ لأنّ القصد في كل جملة يختلف عن القصد من الجملة الأخرى .

ومما لا يعده الفخر تكراراً في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[٢]

يقول في تكرار الأمر بالتقوى : (... لأنه في الأول أراد ألا تتقون مخالفتي وأنا رسول الله ،وفي الثاني ألا تتقون مخالفتي ،ولست آخذ منكم أجراً فهو في المعنى مختلف ولا تكرار فيه ،وقد يقول الرجل لغيره ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيراً،ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً)[٣].

وكلامه هذا يقرب من أن يكون تكراراً ؛لأنّ الغرض الأساسي من هذا التكرار تأكيد وتقرير أمر التقوى في نفوسهم .

وذكر هذا الزمخشري فقال : (وكرره ليؤكد عليهم ويقرره في

---

(١) ص : ٣٨٨.

(٢) سورة الشعراء : ١٠٥ـ١١٠.

(٣) التفسير : ١٥٤/٢٤ م١٢.

نفوسهم مع تعليق كل واحدة منها بعلة ،جعل علة الأول كونه أميناً فيما بينهم ، وفي الثاني حسم طمعه عنهم)[1] .

ومعنى حسم طمعه عنهم انتفاء أخذ الأجرة ، فكان كلام الفخر هو كلام الزمخشري في هذه العلة مع اختلاف العبارات ،والفرق أن الفخر لا يسميه تكراراً والزمخشري يسميه تكراراً .

---

(١) الكشاف : ٣/١٢٠ .

الفواصل القرآنية

تتسع دراسة الفواصل عند الفخر في تفسيره ، ويهتم بها اهتماماً بيناً وله رأي فيها . ذلك أنه يرى أن القرآن يعدل من لفظ أي لفظ آخر مراعاة للفاصلة التي كان يسميها : (أواخر الآيات) حتى يتحد النغم ، ثم يحاول أن يستخرج سراً لهذا التحول يقول في قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) : (إنه قال : ﴿ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ولم يقل (يولون الأدبار) وقال في موضع آخر : ﴿ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ (٢) ، وقال في موضع آخر : ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ (٣) فكيف تصحيح الإفراد ، وما الفرق بين المواضع ؟ ... أما الفرق فنقول اقتضاء أواخر الآيات حسن الإفراد ، فقوله : ﴿ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ إفراد ، إشارة إلى أنهم في التولية كنفس واحدة ، فلا يتخلف أحد عن الجمع ، ولا يثبت أحد للزحف فهم كانوا في التولية كدبر واحد ، وأما قوله : ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ أي كل واحد يوجد به ينبغي أن يثبت ولا يولي دبره فليس المنهي هناك توليتهم بأجمعهم بل المنهي أن يولي واحد منهم دبره ، فكل واحد منهي عن تولية دبره ، فجعل كل واحد برأسه في الخطاب ثم جمع الفعل بقوله : ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ﴾ ولا يتم إلا بقوله : ﴿ الأَدْبَارَ ﴾ (٤) ، فالكلمتان مفردة وجمعاً تؤديان غرضاً واحداً ، وجاءت على هذه الصورة مراعاة لأواخر الآيات ، كما يقول الفخر مع مناسبة كل لفظ لما جاء عليه المعنى .

---

(١) سورة القمر : ٤٥ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١١١ .

(٣) سورة الأنفال : من الآية ١٥ .

(٤) التفسير : ٢٩/٦٨ م١٥ .

والفخر هنا يربط بين حسن اللفظ وحسن المعنى ، فكما أن القرآن يحسن بحسن اللفظ كذلك يحسن بحسن المعنى ، ويعد ذلك من الإعجاز القرآني .

من ذلك أنه يرجع مجيء الصفة مرة مؤنثة ومرة مذكرة لموصوف واحد مراعاة لأواخر الآيات بعد اعتبار المعنى، يقول في المناسبة بين قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (٢) : (قال ههنا ﴿ مُنقَعِرٍ ﴾ فذكر النخل ، وقال في الحاقة : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ فأنثها . قال المفسرون في تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضي ذلك لقوله : (مستمر - منهمر - منتشر) وهو جواب حسن ، فإن الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ، ويمكن أن يقال النخل لفظه لفظ الواحد . . . فيجوز أن يقال فيه نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات ، ونخل خاو وخاوية وخاويات . . فإذا قال قائل منقعر أو خاوٍ أو باسق جرد النظر إلى اللفظ ولم يراع جانب المعنى ، وإذا قال منقعرات أو خاويات أو باسقات جرد النظر إلى المعنى ولم يراع جانب اللفظ ، وإذا قال منقعرة أو خاوية أو باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ، وألحق به تاء التأنيث التي في الجماعة . . . فحيث قال (منقعر) كان المختار ذلك ، لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول ، لأنه الذى ورد عليه القعر فهو مقعور . . . والخاوي والباسق فاعل ومعناه إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولا كما تقول امرأة كفيل ، وامرأة كفيلة . . . وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ ، فكان الدليل يقتضي ذلك ، بخلاف الشاعر الذى يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية) (٣) .

---

(١) سورة القمر : من الآية ٢٠ .

(٢) سورة الحاقة : من الآية ٧ .

(٣) التفسير : ٢٩/ ٤٨-٤٩ ، ط ١ .

ومذهب الفخر يمثل المذهب الوسط ، فهناك من عد مراعاة أواخر الآى حسناً في ذاته كالفراء ، وهناك من نأى بالقرآن عن أن يراعى فيه اللفظ ، والفخر هنا يرى أن مراعاة الفواصل يحسن بوجود المعنى .

ولذلك ينكر على من يرجع تقديم لفظ على لفظ للمناسبة اللفظية فيقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ ﴾ (١) : (قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحرور ، وأخره في مثلين وهو البصر والنور ، وفي مثل هذا يقول المفسرون : إنه لتوخي أواخر الآى ، وهو ضعيف ، لأن توخي الأواخر راجع إلى السجع ، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع ، فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعنى ، وأما القرآن فحكمة بالغة ، والمعنى فيه صحيح ، واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى) (٢) .

فهو يسمى مجيء اللفظ مراعياً للفاصلة ورأس الآية سجعاً إن جاء دون معنى ، لأنه عيب يتبع فيه المعنى اللفظ ، والقرآن خلا من ذلك ، وهذا هو مذهب الأشعرية الذى قال عنه الرماني : (ذهب الأشعرية إلى امتناع أن يقال في القرآن سجع ، وفرقوا بأن السجع هو الذى يقصد في نفسه ، ثم يحال المعنى عليه ، والفواصل التي تتبع المعنى ، ولا تكون مقصودة في نفسها) (٣) والفخر كان أشعرياً لذلك فهو يدافع عن هذا الرأى .

وقد رد كثير من العلماء على ذلك وأجازوا إطلاق السجع والازدواج على القرآن كأبي هلال العسكرى ، وابن سنان الخفاجي ، وابن الأثير (٤)

---

(١) سورة فاطر : ١٩-٢٠-٢١ .

(٢) التفسير : ١٧/٢٦ م١٣ .

(٣) نقلاً عن الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي : ١٢٥/٢ .

(٤) ينظر الصناعتين : ٢٨٥ ، سر الفصاحة : ١٧٢ ، المثل السائر : ٢٧٣/١ .

وأرى أنه ما دامت كلمة (الفواصل) تؤدي المعنى ، فلا حاجة إلى إطلاق كلمة السجع ، حتى ترتفع بالقرآن عن مشابهة كلام البشر .

ونقل السيوطي عن الشيخ شمس الدين بن الصائغ من كتابه " أحكام الرأى في أحكام الآى " وجوهاً كثيرة خرجت فيها الآيات عن أصلها لوجود مناسبة ، وقال فيها : (لا يمتنع من توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة ، فإن القرآن العظيم كما جاء في الأثر لا تنقضي عجائبه)(١) .

ووقف الفخر عند كثير من الفواصل يبين سرها وصلتها بما قبلها ، خاصة تلك التي يتم المعنى قبلها ، ولا تمثل جزءاً من معنى الآية ، وقد لاحظت أن له قدرة فائقة على التغلغل في بواطن المعاني ، واستخراج دقائقها مما لا نجده عند غيره من المفسرين السابقين له .

فقد تأتي الفاصلة مؤكدة لمضمون الآية قبلها كما في قوله تعالى : * قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *(٢) .

يقول : (* إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * كالتأكيد لما تقدم من كونه مالكاً لإيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال)(٣)

ومثله الفاصلة في قوله تعالى : * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *(٤) .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن : ٩٩/١-١٠٠ .

(٢) سورة آل عمران : ٢٦ .

(٣) التفسير : ٩/٨ م٤ .

(٤) سورة البقرة : ٢٦٥ .

يقول : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ والمراد من البصير العليم أى هو تعالى عالم بكمية النفقات وكيفيتها ، والأمور الباعثة عليها ، وأنه تعالى مجازيها إن خيراً فخير وإن شراً فشر). (١)

وهذا النوع يسهل فيه إقامة العلاقات بين الفاصلة و مضمون الآية قبلها ، لأنها تظهر واضحة فلا تحتاج إلى إنعام نظر ، وتغلغل في المعاني .

و ربما لا تمتد الفاصلة لتؤكد معنى الآية كلها ، بل جزءاً منها ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِمَن فِي أَيْدِيكُم مِنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. (٢)
يقول : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وهو تأكيد لما مضى ذكره من قوله : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ والمعنى : كيف لا يفي بوعد المغفرة وأنه غفور رحيم ﴾. (٣)

وتأتي الفاصلة : ﴿ وَهُم لَا يَشْعُرُونَ ﴾ لتؤكد كلمة : (بَغْتَةً) في الآية ، ويكشف الفخر عن مدى ملاءمة هذه الفاصلة للكلمة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ العَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُم لَا يَشْعُرُونَ ﴾. (٤)

: (قوله تعالى : ﴿ وَهُم لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة بحيث لم يدر ، فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة.

والثاني : هو كلام يفيد فائدة مستقلة ..). (٥)

---

(١) التفسير : ٧/ ٦٢ م٤.
(٢) سورة الأنفال : ٧٠.
(٣) التفسير : ١٥/ ٢١٣ م٨.
(٤) سورة العنكبوت : ٥٣.
(٥) التفسير : ٢٥/ ٨٢ م١٣.

والوجه الأول أشد صلة بالمعنى ؛لأن معنى البغتة هو عدم الشعور بحصول الشيء فكانت الفاصلة تأكيداً .

وهذا النوع من الفواصل يدخل تحت (التذييل) وهو نوع من أنواع الإطناب عرفه البلاغيون بأنه (تعقيب الجملة بجملة تشمل على معناهـا للتوكيد)(1) ويكثر هذا النوع في القرآن الكريم ،وقد تنبه الفخر إلى كثير منه .

وقد يمتد اتصال الفاصلة إلى الآية السابقة لها ،ويكشف الفخر عن وجه الملاءمة بينهما ،وإن كان يبدو أن الفاصلة تناسب الآية التي جاءت في سياقها .

يقول في قوله تعالى : * يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ *(2) : (واعلم أنه تعالى ختم الآية بقوله : * وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * والمراد ما ذكره في الآية الأولى من قوله : * إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ * فبين في آخر هذه الآية أن الله مع الصابرين ، والمقصود أن العشرين لو صبروا ووقفوا فإن نصرتي معهم وتوفيقي مقارن لهم)(3) .

---

(1) الإيضاح ،للخطيب القزويني : ٣٠٧ .

(2) سورة الأنفال : ٦٥ - ٦٦ .

(3) التفسير : ١٥/٢٠٣ م٨ .

وأرى أن لا وجه لاختصاص الفاصلة بالآية الأولى فقط، بل إنها قد تشمل الآيتين، لأن ذكر صبر المؤمنين وارد في الآيتين .

وربما لا ترتبط الفاصلة بمعنى الآية الواردة فيها، بل تمتد لترتبط بأوائل السورة، وهنا تظهر براعة الفخر في البحث عن المناسبات الخفية بين الفواصل والمعاني التي تتناولها السورة، كما في قوله تعالى : * مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * (١)، فالفاصلة : * وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * مرتبطة بأول سورة العنكبوت : * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * (٢) يقول : (قال : * وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما، وذلك لأنه سبق القول في قوله : * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا * وسبق الفعل بقوله : * وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وبقوله : * فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا * وبقوله : * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ * ولا شك أن القول يدرك بالسمع، والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك ... وهو السميع يسمع ما قالوه، وهو العليم يعلم من صدق فيما قال ممن كذب) (٣).

ويذكر الفرق بين فاصلة : * يَتَفَكَّرُونَ * و * يَعْقِلُونَ * في الآيتين المتتاليتين في سورة الرعد في قوله تعالى : * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * (٤)، يقول في

---

(١) سورة العنكبوت : ٥ .

(٢) سورة العنكبوت : ٢-٣ .

(٣) التفسير : ٢٥/٣٢ م١٣ .

(٤) سورة الرعد : ٣-٤ .

سر * يَتَفَكَّرُونَ * : (واعلم أنه تعالى في أكثر الأمر حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها : * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * أو ما يقرب منه بحسب المعنى ، والسبب فيه أن الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلي إلى الاختلافات في الأشكال الكوكبية ، فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتم المقصود ، فلهذا المعنى قال : * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * كأنه تعالى يقول مجال الفكر باق بعد ، ولا بد بعد هذا المقام من التفكر والتأمل ليتم الاستدلال) (١) .

وعلل الفخر مثل هذا التعليل وهو يبين سر مجيء الفاصلة : * يَتَفَكَّرُونَ * في آية النحل : * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * (٢) فمن الممكن أن يرتاب مرتاب أن تعاقب الفصول الأربعة هو السبب في إنباتها من تأثير الشمس والقمر والكواكب يقول : (فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تاماً وافياً بإفادة هذا المطلوب بل يكون مقام الفكر والتأمل باقياً ، فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله : * لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *) (٣) .

ولكن ما سر فاصلة : * يَعْقِلُونَ * في آية الرعد ، وهل هناك فرق بينها وبين * يَتَفَكَّرُونَ * . يذكر الفخر أن لها سراً حين ختمت بها آية الرعد : (واعلم أن يذكر هذا الجواب قد تمت الحجة ، فإن هذه الحوادث السفلية لا بد لها من مؤثر ، وبينا أن ذلك المؤثر ليس هو الكوكب والأفلاك والطبائع ، فعند هذا يجب القطع بأنه لا بد من فاعل آخر

---

(١) التفسير : ٦/١٩ م ١٠ .

(٢) آية : ١١ .

(٣) التفسير : ٢٤٠/١٩ م ١٠ .

سوى هذه الأشياء وعندها يتم الدليل ، ولا يبقى بعده للفكر مقام البتة فلهذا السبب قال ههنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

ويعلل مثل هذا التعليل في آية النحل التي ختمت بـ ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢) ، فهو يجعل التفكير حيث يحتاج مضمون الآية إلى كثير من التأمل والنظر ، ويجعل التعقل حين تتم الدلائل ولم يبق إلا مجرد العقل .

لكن عند التأمل وجدت أن ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ جاءت في الآيات التي يكثر فيها تفصيل الدلائل فعند تأمل آية الرعد نجد أنها تتحدث عن الاختلاف في بقاع الأرض رغم تجاورها ، كما تحدثت عن جنات الأرض التي تحتوي على صنوف شتى من الثمرات ذوات تشابه واختلاف ، ثم تمايز هذه الأشجار التي تخرج من مكان واحد وتشرب من ماء واحد . فالآية عامة تتحدث عن وجوه الاختلاف في المخلوقات الواحدة ، وهذا لا يكون إلا من فعل قادر حكيم ولذلك فهي تحتاج إلى نظر وتأمل ثم تعقل .

والآية الثانية من سورة النحل تحدثت عن الاختلاف في المخلوقات المتشابهة ، فالليل لا يجتمع مع القمر ، والشمس لا تلتقي مع القمر والنجوم ، وهذه الآيات تستدعي التبصر ليتم التعقل في نهاية الأمر .

وحين نستقصي آيات القرآن التي ختمت بـ ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ نجد أنها تحتاج إلى نظر وتأمل وتعقل ، كما في آية البقرة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) وغيرها من الآيات .

---

(١) التفسير : ١٩/٨ م١٠ .

(٢) ينظر التفسير : ٣/٢٠ م١٠ .

(٣) آية : ١٦٤ .

أما الآيات التي ختمت بـ ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإنها أقل تفصيلاً من ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ ومعنى هذا أن التعقل أعلى من التفكر ، ذلك أن العقل كما يقول أستاذي الفاضل الدكتور علي العماري : (مرتبة تالية للفكر ، فالمرحلة الأولى هي التفكير ، وبعد إطالة التفكير وإصابته ينشأ العقل)[1].

وقد ذكر الزركشي أن فاصلة : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ : (لا تقع إلا في سياق إنكار فعل غير مناسب في العقل)[2].

وذكر الألوسي أن المراد بـ :﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ في آية النحل الإشارة إلى عجائب الدقائق المودعة في العلويات ، والتي لا يعرفها إلا المهرة من علماء الحكمة ويقول : (قطع الآية بقوله سبحانه هنا : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ للإشارة إلى احتياج ذلك إلى التفكر أكثر من غيره)[3].

وهنا يسمى الفخر إدراك مثل هذه الدقائق بين الفواصل المتشابهة من أسرار علم القرآن فيقول بعد التفريق بين : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ و ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ : (فهذه اللطائف نفيسة من أسرار علم القرآن ونسأل الله تعالى العظيم أن يجعل الوقوف عليها سبباً للفوز بالرحمة والغفران)[4].

فهو يعد من أوائل الذين اهتموا بمثل هذه الفروق ، واستخراج دقائق المعاني لكل فاصلة ، انظر إلى قوله : (لطائف نفيسة) ثم قوله : (أسرار علم القرآن) تجد أن السبيل إليها لا يتأتى إلا بالغوص وراء معانيها ، كما تجد المعاناة في إخراجها .

---

(١) من أسرار القرآن : ١٤٩ (مخطوط) .
(٢) البرهان في علوم القرآن : ١/٨٤ .
(٣) روح المعاني : ١٤/١١٠ .
(٤) التفسير : ١٩/٨ م١٠ .

وأريد أن أقف على قول الفخر السابق : (واعلم أن الله تعالى في أكثر الأمر حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أو ما يقرب منه بحسب المعنى) أقف لأحقق من قوله هذا فأقول : إن القريب من يتفكرون هو يعقلون يذكرون ، وقد استقصيت كثيراً من الآيات التي تتحدث عن الدلائل الأرضية فوجدتها لا تخرج عن هذه الأفعال الثلاثة وسأعرض بعض الآيات للدلالة على ذلك :

فآيات يتفكرون : آية سورة الرعد السابقة التي تحدثت عن مد الأرض وما فيها من جبال وأنهار وأشجار وليل يعقبه نهار .

وآية سورة النحل التي تحدثت عن أصناف الثمار في الأرض .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . (١)

وتأتي : ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ بعد ذكر الدلائل الأرضية في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . (٣)

وقال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . (٤)

وتأتي كثيراً فاصلة : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ بعد ذكر الدلائل الأرضية

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

(٢) سورة النحل : ١٣ .

(٣) سورة الأعراف : ٥٧ .

(٤) سورة الذاريات : ٤٩ .

في القرآن الكريم قال تعالى : * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ . . . لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *.(١)

وقال تعالى : * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *.(٢)

وقال تعالى : * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ *.(٣)

وقال تعالى : * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *.(٤)

ويدخل تحتها آية سورة الرعد وآية سورة النحل السابقتي الذكر.

فهذه هي الفواصل التي ختمت بها أكثر الآيات الكونية والأرضية الدالة على قدرته تعالى ،وبهذا أصاب الفخر في قوله : إن الدلائل الأرضية في أكثر الأمر ختمت بمثل هذه الفواصل . وقد رجعت إلى تفسيره لهذه الآيات لأرى هل كان يذكر ما تختص به كل فاصلة من معنى ؟ لكنني لم أجد له أى إشارة في التفريق بينها .

وأقول إن كلامه السابق يفتح المجال لنا لدراسة موضوعات القرآن ورصد الفواصل التي تختتم بها ،ومعرفة مدى ملاءمتها لهذه الموضوعات.

ويرى الفخر أن فاصلة : * تَذَكَّرُونَ * فيها من الاجتهاد والفكر والتأمل ما ليس في : * يَعْقِلُونَ * .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٦٤.

(٢) سورة النحل : ٦٧ .

(٣) سورة المؤمنون : ٨٠.

(٤) سورة الجاثية : ٥ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

ختمت الآية الأولى ب : ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ : (لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى أمور ظاهرة جلية ، فوجب تعقلها وتفهمها ، وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية فأمور خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال فلهذا السبب قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وأرى - والله أعلم - أن التكاليف الأولى أهم في الرعاية - فالشرك وقتل الأولاد والزنا وقتل النفس المحرمة من الأمور التي تحتاج إلى زيادة تعقل ، ومابعدها أقل منها في الخفاء فأمرهم الله بتذكرها كلما نسيت.

كذلك لاحظت أن أكثر التكاليف في الآية الأولى جاءت بصيغة النهي الظاهر والتكاليف الأخرى جاءت بصيغة الأمر ، والمنع فيها ليس ظاهراً ، وهذا يقتضي أن يكون التعقل أعلى درجة من التذكر . والله أعلم.

ويلاحظ الفخر أن الفواصل المتتالية تراعي تدرج المعاني التي تحملها ، فالذكرى تحصل أولاً ثم تؤدي إلى التقوى ، كما في قوله تعالى :

---

(١) سورة الأنعام : ١٥١ - ١٥٢.

(٢) التفسير : ٢٤٨/١٣ م٧.

* وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * .(١)

يقول في سر تقدم الفاصلة : (... والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء ، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه حصل الاتقاء والاحتراز) .(٢)

كذلك لما كان لفظ الكفر أعم من لفظ الشرك فقد تقدمت فاصلة * وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * على * وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * مع مناسبة كل فاصلة لسياقها الواردة فيه ، قال تعالى : * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * .(٣)

يقول : (قال في الآية المتقدمة : * وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * وقال في المتأخر : * وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * فما الحكمة فيه ؟ فنقول : إنهم أنكروا الرسول ، وما أنزل إليه وهو الكتاب وذلك من نعم الله ، والكافرون كلهم في كفران النعم ، فلهذا قال : * وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * لأن لفظ الكافر أعم من لفظ الشرك ، والمراد من الكافرين ههنا اليهود والنصارى والمشركون ، وههنا ذكر النور وإطفاءه ، واللائق به الكفر ، لأنه الستر والتغطية ، لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال ، وفي الآية الثانية ذكر الرسول والإرسال ودين الحق ، وذلك منزلة عظيمة للرسول عليه السلام ، وهو اعتراض على الله تعالى ... والاعتراض قريب من الشرك ، ولأن الحاسدين للرسول عليه السلام كان أكثرهم

---

(١) سورة الزمر : ٢٧-٢٨ .

(٢) التفسير : ٢٦/٢٧٦ م١٣ .

(٣) سورة الصف : ٨ - ٩ .

من قريش وهم المشركون ، ولما كان النور أعم من الدين والرسول ، لا جرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام والإرسال ، والرسول والدين أخص من النور قابله بالمشركين الذين هم أخص من الكافرين * .(١)

ومن الممكن أن نقول : إنه لما كان إطفاء نور الله واقعاً منذ أزل الزمان قوبل بالكفر الواقع أيضاً منذ أزل الزمان ، ولما ذكر الرسول والهدى ناسب ذكر المشركين الذين صدوا عن الدين .

ومهما يكن فتعليل الفخر أشمل وأحسن ، وقد أطلعت على كثير من كتب التفسير في هذه الآية فلم أجد أحداً يذكر المناسبة على هذه الطريقة في الحسن .

ويذكر الفخر الفرق بين * يَفْقَهُونَ * و * يَعْلَمُونَ * حين تأتيان في آيتين متتاليتين ، فهما وإن كانا من باب واحد إلا أن لكل لفظ معنى خاصا به .

يقول في قوله تعالى : * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ *(٢) : (فإن قيل : قال في الآية الأولى : * لَا يَفْقَهُونَ * وفي الأخرى : * لَا يَعْلَمُونَ * فما الحكمة فيه ؟ فنقول : ليعلم بالأول قلة كياستهم وفهمهم ، وبالثاني كثرة حماقتهم وجهلهم ، ولا يفقهون من فَقِهَ يَفْقَهُ كَعَلِمَ يَعْلَمُ ، ومن فَقُهَ يَفْقُهُ كعَظُمَ يَعْظُم ، والأول لحصول الفقه بالتكلف ، والثاني لا بالتكلف ، فالأول علاجي والثاني مزاجي *.(٣)

---

(١) التفسير : ٢٩/٣١٦-٣١٧ م١٠ .

(٢) سورة المنافقون : ٧-٨ .

(٣) التفسير : ٣٠/١٨ م١٥ .

ومعنى حصول الفقه بالتكلف ، لأن الفقه هو فهم الأشياء الدقيقة وإمعان الفكر فيها ، ولا يكون ذلك إلا بتكلف النفس .

أما العلم فهو المعرفة المباشرة للشيء فهو لا يتأتى بالتكلف ، والفخر وإن فرق بينهما إلا أنه لم يبين صلة كل فاصلة بما قبلها .

وأقول : إنه لما اتفق المنافقون على الإضرار بالمؤمنين و منع النفقات عنهم ناسب وصفهم بعدم الفقه ؛ لأنهم ضروا أنفسهم ، ولأن توزيع الرزق ليس في أيديهم إنما في يد الله .

والثاني : إبعادهم بإخراج الأعز الأذل وهم لا يعلمون أن القدرة التي يفضل بها الإنسان عن إنسان هي من الله لا منهم .(١)

وقد يقارن الفخر بين ثلاث فواصل جاءت متتالية في معرض الحديث عن آيات الله ، و يبين كيف أن كل فاصلة لاءمت الموضوع الذى ختمت به في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ .

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .(٢)

يقول : (قال : ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ وقال من قبل : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال : ﴿ لِلْعَالِمِينَ ﴾ فنقول : المنام بالليل والابتغاء من فضله

---

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل ، الخطيب الإسكافي : ٤٨٥-٤٨٦ .
(٢) سورة الروم : ٢١-٢٢-٢٣ .

يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله،فلم يقل آيات للعالمين ؛ ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الأوقات ،ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان فإنهما يدومان بدوام الإنسان فجعلهما آيات عامة.

وأما قوله : * لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * فاعلم أن من الأشياء ما يعلم من غير تفكر ،ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة ،ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقف عليه ،ومرشد يرشد إليه . . . لكن خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر،فإذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية. وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد ،وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكره ، فقال : * لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ *)(1)

فخلق الأزواج وما أوجد بينهما من المودة الداعية لبقاء النوع مما يدعو الإنسان للتفكر الذى يؤدى للعلم بقدرته كما أن اختلاف الألسنة والألوان من الأمور التي تظهر ويلمسها كل إنسان ففيها آية للعالمين ، ثم إن النوم من نعم الله وهو القادر على دفعها واجتلابها،وكل من له سمع علم ذلك ولم يحتج إلى مرشد يرشده..

ويفرق الفخر بين العقل واللب في فاصلتي آيتين متشابهتين :

في قوله تعالى : * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *.(2)

---

(1) التفسير : ٢٥/١١٣-١١٤ م١٣.
(2) سورة البقرة : ١٦٤.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (١) يقول في تفسير هذه الآية الثانية :

(إنه تعالى استقصى في هذه الآية الدلائل السماوية ، وحذف الدلائل الخمسة الباقية التي هي الدلائل الأرضية ، وذلك لأن الدلائل السماوية أقهر وأبهر والعجائب فيها أكثر ، وانتقال القلب فيها إلى عظمة الله وكبريائه أشد ، ثم ختم تلك الآية بقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وختم هذه الآية بقوله : ﴿ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ لأن العقل له ظاهر وله لب ، ففي أول الأمر يكون عقلاً ، وفي كمال الحال يكون لباً) (٢).

فالدلائل في الآيات الأولى دلائل عظيمة متنوعة لا يدركها إلا العقلاء ، ودلائل الآية الثانية مقتصرة على خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وفيهما دلالة على غاية الإتقان ، ونهاية الإحكام لا يدركها إلا من كان له لب أى عقل خالص ، واللب كمال العقل كما ذكر الفخر وهذا يدل على أن العقل مرحلة تأتي بعد التفكير ، وبعدها يأتي اللب وهذا يؤيد ما قلته من أن ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ تأتي في سياق المشاهد الكونية العجيبة المفصلة .

ويبحث الفخر في فواصل القصص القرآني المتكررة في سور عدة في القرآن ، من ذلك أنه يقارن بين آيتين من قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه من الملائكة في سورة هود وسورة الذاريات ، قال تعالى في سورة هود : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ (٣) وقال في سورة الذاريات : ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤).

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ .

(٢) التفسير : ٩/١٣٩ م٥ .

(٣) آية : ٧٣ .

(٤) آية : ٣٠ .

يقول : (فإن قيل لم قال هـهنا : ﴿ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ وقال في هود : ﴿ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ ؟ نقول : لما بينا أن الحكاية هناك أبسط فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ثم لما صدقت أرشدهم إلى القيام بشكر نعم الله ، وذكروهم بنعمته بقولهم: ﴿ مَجِيدٌ ﴾ فإن الحميد هو الذى يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم : ﴿ مَجِيدٌ ﴾ إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل ، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه ، وهـهنا لما لم يقولوا : ﴿ أَتَعْجَبِينَ ﴾ إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه) (١).

فالمعنى في سياق الآية هو الذى حدد الفاصلة واقتضاها فآية هود جاءت مبسوطة، قال تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . . . ﴾ (٢).

فامرأة إبراهيم قد استبعدت ولادتها استبعاداً شديداً قولاً وفعلاً فذكر الملائكة ما يدفع استبعادها ، وختمت ذلك بوصفه تعالى : ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أى تحمد أفعاله ﴿ مَجِيدٌ ﴾ كثير الخير والاحسان .

أما آية الذاريات فقد قامت على الاختصار قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) فالآية صورت دهشتها في " صك الوجه " دون التفصيل في الحديث، فلم تستدع جواباً من الملائكة فلذلك ناسب ذكر العلم والحكمة .

---

(١) التفسير : ٢٨/٢١٥ م١٤ .

(٢) آية : ٧١ - ٧٢ ومن الآية ٧٣ .

(٣) آية : ٢٩ - ٣٠ .

وتمتد نظرة الفخر إلى ما قبل الفواصل ،التي قد تتحد لكن السياق قبلها يختلف كما في الآيتين اللتين تتحدثان عن الإرث في الإسلام ،في قوله تعالى : * ... آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * .

* ... فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ *.(١)

يقول : (لم جعل خاتمة الآية الأولى : * فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ * وخاتمة هذه الآية : * وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ * الجواب : أن لفظ الفرض أقوى وآكد من لفظ الوصية ، فختم شرح ميراث الأولاد بذكر الفريضة ،وختم شرح ميراث الكلالة بالوصية ليدل بذلك على أن الكل وإن كان واجب الرعاية ،إلا أن القسم الأول وهو رعاية حال الأولاد أولى).(٢)

فالفريضة أقوى وآكد من الوصية ،وهي مناسبة لميراث ذوي القرابة الأشد صلة بالإنسان .

ويبين الفخر سر حذف جزئية من الفاصلة الأولى والسادسة من الآيات الستة من سورة الروم والتي تتحدث عن آيات الله في الكون ،فكل آية تنتهي بقوله تعالى : * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ .. * إلا الآيتين الأولى والسادسة في قوله تعالى : * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ *(٣) وقوله تعالى : * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ *.(٤)

---

(١) سورة النساء : من الآية ١١-١٢ .

(٢) التفسير : ٢٣٤/٩ م٥ .

(٣) آية : ٢٠ .

(٤) آية : ٢٥ .

يقول : (ذكر ستة دلائل وذكر في أربعة منها : * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ * ولم يذكر في الأول وهو قوله : * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ * . ولا في الآخر وهو قوله : * وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ * . أما في الأول فلأن قوله بعده : * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم *(١) أيضاً دليل الأنفس، فخلق الأنفس ، وخلق الأزواج من باب واحد على ما بينا ، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير ، فإذا قال : * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ * كان عائداً إليهما ، وأما في قيام السماء والأرض فنقول في الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون(٢) لظهورها ، فلما كان في أول الأمر ظاهراً ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر فلم يميز أحداً عن أحد في ذلك)(٣) .

---

(١) الآية : * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * : الروم : ٢١ .

(٢) أي قوله تعالى : * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * : الروم : ٢٢ .
وقوله تعالى : * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * : الروم : ٢٤ .

(٣) التفسير : ٢٥/١١٦-١١٧ م١٣ .

مشكلات الفواصل :

كما اهتم الفخر ببيان صلة الفاصلة بما قبلها مما تتضح فيها المناسبة، وقف كذلك عند بعض الفواصل التي لا تبدو صلتها بما قبلها ظاهرة فكشف عن وجه المناسبة بينها .

وقد سميتُ هذا الفصل بمشكلات الفواصل أسوة بالسيوطي (١) الذي أطلق هذا الاسم على مثل هذه الفواصل ،وقد اكتفى الفخر بأن يقول فيها : (فيه إشكال) ، ومن الآيات التي ذكرها ولا تبدو في الظاهر مناسبة مع معناها وفاصلتها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

يقول : (أما قوله تعالى في آخر الآية :﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ففيه إشكال وهو أنه لما قال : ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فكيف يليق أن يقول بعده : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فإن الغفران إنما يكون عند حصول الإثم ،والجواب من وجوه :

أحدها : أن المقتضى للحرمة قائم في الميتة والدم إلا أنه زالت الحرمة بقيام المعارض،فلما كان تناوله تناولاً لما حصل فيه المقتضى للحرمة عبر عنه بالمغفرة ،ثم ذكر بعده أنه رحيم يعني لأجل الرحمة عليكم أبحت لكم ذلك .

ثانيها : لعل المضطر يزيد على تناول الحاجة ،فهو سبحانه غفور بأن يغفر ذنبه في تناول الزيادة ،رحيم حيث أباح في تناول قدر الحاجة.

---

(١) ينظر الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٣١ .
(٢) سورة البقرة : ١٧٣ .

ثالثها : أنه تعالى لما بين هذه الأحكام عقبها بكونه غفوراً رحيماً ،لأنه غفور للعصاة إذا تابوا رحيم بالمطيعين المستمرين على نهج حكمه سبحانه وتعالى) .(١)

وهكذا تتعدد الوجوه وتتباين ليظل معنى الفاصلة متصلاً بما قبله .

وفي موضع آخر يرد على من يرى أن العزة والحكمة لا تتناسبان مع التهديد في ارتكاب الذنب في قوله تعالى : * فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * .(٢)

يقول : (لقائل أن يقول إن في قوله تعالى : * فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ * إشارة إلى ذنبهم وجرمهم ، فكيف يدل قوله : * أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * على الزجر والتهديد ؟ الجواب : إن العزيز لا يمنع من مراده ،وذلك إنما يحصل بكمال القدرة ،وقد ثبت أنه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات فكان عزيزاً على الإطلاق ، فصار تقدير الآية : فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله مقتدر عليكم لا يمنعه مانع عنكم ، فلا يفوته ما يريده منكم ،وهذا نهاية في الوعيد ،لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه من الوعيد بذكر العقاب ،وربما قال الوالد لولده : إن عصيتني فأنت عارف بي ،وأنت تعلم قدرتي عليك وشدة سطوتي ،فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره) .(٣)

ويكشف عن وجه الملاءمة بين الفاصلة : * الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ومضمون الآية في قوله تعالى : * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *(٤) لأن قوله : * وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ * يقتضي أن تكون

---

(١) التفسير : ١٤/٥ م٣ .

(٢) سورة البقرة : ٢٠٩ .

(٣) التفسير : ٢٨٨/٥ م٣ .

(٤) سورة المائدة : ١١٨ .

الفاصلة : ﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ،ويستعين في ذلك بقول والده يقول : (سمعت شيخي ووالدي -رحمه الله- يقول : (﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ههنا أولى من ﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ،لأنّ كونه غفوراً رحيماً يشبه الحالة الموجبة للمغفرة والرحمة لكل محتاج ،وأما العزة والحكمة فهما لا يوجبان المغفرة ، فإن كونه عزيزاً يقتضي أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ،وأنه لا اعتراض عليه لأحد ،فإن كان عزيزاً متعالياً عن جميع جهات الاستحقاق ثم حكم بالمغفرة كان الكرم ههنا أتم مما إذا كان كونه غفوراً رحيماً يوجب المغفرة والرحمة) [(١)].

وقد يقع في الظن أن التذييل في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [(٢)] ينبغي أن يكون : " إن الله على كل شيء قدير " لأنّ صفة القدرة تناسب بسطة الرزق وإمساكه ،ولكن صفة العلم هنا هي الملائمة كل الملاءمة ،لأنه سبحانه عليم بمقادير الحاجات والأرزاق ،ويبين الفخر وجه هذه المناسبة من عدة وجوه فيقول : (وفي إثبات العلم هنا لطائف :

إحداها : أن الرازق الذى هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجاً وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق ...

الثانية : وهي أن الله بإثبات العلم استوعب ذكر الصفات التي هي صفات الإله ...) [(٣)].

ويقف الفخر أمام الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ [(٤)] فيبين وجه مناسبة الحلم والمغفرة لتسابيح الأشياء ، لأنها لا تبدو ظاهرة واضحة.

---

(١) التفسير : ١٢/ ١٤٥ م٦.

(٢) سورة العنكبوت : ٦٢.

(٣) التفسير : ٢٥/ ٩١ م١٣.

(٤) سورة الإسراء : ٤٤.

يقول : (إن القوم كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل ، والنبوة والمعاد ،فكان المراد من قوله : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فذكر الحليم والغفور ،وههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم ،وهذا إنما يكون حراماً إذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ،ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ماعرفوا وجه دلالة تلك الدلائل . أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرماً ولا ذنباً ، وإذا لم يكن ذلك جرماً ولا ذنباً لم يكن قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ لائقاً بهذا الموضع ،فهذا وجه قوي في نصرة القول الذي اخترناه) .(١)

وهكذا استطاع الفخر أن يكشف ما خفي من مناسبة بين الفاصلة وموضوع الآية بنظرته الثاقبة ،وبما عرف به من قدرة على الجمع بين المعاني المختلفة ،جعلته يخطو خطوات واسعة في هذا الباب مما لا نجده عند من سبقه .

---

(١) التفسير : ٢٠/٢٢١ م١٠ .

التحليلات والموازنـــات

إن أكثر كتب التحليلات الأدبية والموازنات بين النصوص تدّعى أنها استقت طريقتها من المناهج الأوربية[1] ، ولم ينل منهج القدماء أى عناية واهتمام ،ولم يعرف حق المعرفة ،مع أنه سابق لكل هذه النظريات والمناهـــج المستحدثة .

وللفخر الرازى في تفسيره نظرات تحليلية شاملة جمعت كل ما يتعلـــق بأحوال وكيفيات اللفظ العربي ،يحكمها حس بلاغي متفرد .

وأجده هنا يستضيء في تحليلاته بمنهج عبد القاهر النظرى ويطبـــق كثيراً مما قرره من أصول بلاغية ، ونظرات أدبية .

وكان الفخر يدرك دقة مثل هذه النظرات ،ويرى أنها تكمن في كـــل حرف بل في كل حركة ،ولا تظهر واضحة جليـة بل يبدو بعضها ويختفى بعضها الآخر،وقدرات البشر تقصر عن الوصول إليها .

نتأمل قوله :[2] (. . . ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيـــه فائدة ،ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ،وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً)[3] .

---

(١) هناك على سبيل المثال كتاب النصوص الأدبية للدكتور علي عبد الحليم محمود ،عرض لمنهج المستشرق الفرنسي (لانسون) في تحليل النصوص، وسماه المنهج العلمي .
وهناك كتاب (النقد التطبيقي والموازنات) للأستاذ محمد الصادق عفيفي ، اتبع مناهج المحدثين في تناوله لنقد النصوص . وغيرها كثير .

(٢) ذكره وهو يفرق بين صياغة كلام رسل الله مع إبراهيم وكلامهم مع لوط في سورة العنكبوت : آية ٣١-٣٢-٣٣- ٣٤ .

(٣) التفسير : ٦٣/٢٥ م١٣ .

وكثيراً ما كان يقف موقف إجلال أمام هذه الأسرار فيقصر نفسه أمام الوصول إلى الدقائق الخبيئة في بواطنها، فمثلاً يقول وهو يفرق بين قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (١) و ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (٢) : (فما الحكمة فيه ؟ قلنا : الحكمة لا بد منها ولا نعلمها كما هي لكن نقول ما يخطر بالبال ...) (٣).

وقد وقف أمام بعض الآيات وحللها تحليلاً تناول دقائق معانيها كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤).

يقول : (فيه لطائف : "إحداها": توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب .

"الثانية" : تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالاً للراحة إلى القلب، ولا يبين النقمة وإنما ينبه عليها تنبيهاً .

"الثالثة" : قال عذاب ولم يصرح بأنهم فيه خالدون، وإنما أشار إلى الخلود بقوله : ﴿مُّهِينٌ﴾ وصرح في الثواب بالخلود بقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ .

---

(١) سورة التغابن : من الآية ١ .

(٢) سورة الحديد : من الآية ١ .

(٣) التفسير : ٣٠ / ٢١ ص١٥ .

(٤) سورة لقمان : ٦-٧-٨-٩ .

"الرابعة" : أكد ذلك بقوله : * وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا * ولم يذكره هناك .

"الخامسة": قال هناك لغيره : * فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ * وقال ههنا بنفسه : * وَعْدَ اللَّهِ * ثم لم يقل أبشركم به ،لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون ،لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله ،وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى : * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ *(١) ولولا قوله : * مِّنْهُ * لما عظمت البشارة ،ولو كانت منه مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة).(٢)

والحقيقة أن هذه الآيات تفيض بكثير من المعاني التي تكمن وراء صياغتها ،ولم يلتفت إليها الفخر ،مع أنه كان أقدر على بيان ما فيها من أسرار منها على سبيل المثال السر في استعارة يشترى بدلاً من (يتخذ) وما تعبر عنه من حرصهم على طلب لهو الحديث ،وإقبالهم عليه إقبال المشترى للشيء الراغب فيه ثم ما وراء اسم الإشارة : * أُولَئِكَ * للبعيد من التعبير عن حقارتهم .

ثم السبب في مجيء الأفعال متتالية على صيغة المضارع ،وفي تشبيه صممهم بالوقر ، ثم ما في اختلاف الأسلوب من المتكلم إلى الغيبة في قوله : * لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * ، * فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * من إعراض عنهم وانصراف ، وما وراء التبشير بدل الإنذار من العذاب ،وما وراء وصف كل عذاب بصفة تختلف عن الأخرى من حيث الفرق بين : * مُّهِينٌ * و * أَلِيمٍ * وأيهما أقوى في أداء المعنى ... وغيرها من اللطائف التي تدرك العقول البشرية بعضها ولا تصل إلى بعضها الآخر كما يقول الفخر ، ذلك أنه ذكر بعض اللطائف دون أن يذكر سر مجيئها على تلك الهيئة دون غيرها ،كما في الوجه الثالث والوجه الرابع.

---

(١) سورة التوبة : ٢١ .

(٢) التفسير : ١٤٣/٢٥ م١٣ .

ومن تأملاته في الآيات بحثه عن اللطائف القرآنية في قوله تعالى :

* نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ *. (١)

يقول : (في الآية لطائف :

إحداها : أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله : * عِبَادِي * وهذا تشريف عظيم ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله : * سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ * .

ثانيها : أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة : قوله : * أَنِّي * ، وثانيها : قوله : * أَنَا * ، وثالثها : إدخال حرف الألف واللام على قوله : * الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * ولما ذكر العذاب لم يقل أني أنا المعذب ، وما وصف به نفسه بذلك بل قال : * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ * .

وثالثها : أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة .

ورابعها : أنه لما قال : * نَبِّئْ عِبَادِي * كان معناه نبئ كل من كان معترفاً بعبوديتي ، وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع ، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى) (٢) .

وأجده يذكر في بعض المواضع دلالات الألفاظ في الآية الواحدة على معناها الذي تحدثت عنه ، فيلاحظ التناسب اللفظي لمعنى الآية ، فالآية التي تدل على الرحمة تشترك ألفاظها وصياغتها في التعبير عن هذا المعنى .

---

(١) سورة الحجر : ٤٩-٥٠ .

(٢) التفسير : ١٩/١٩٩ م ١٠ .

كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.(١)

يقول : (اعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة من وجوه :

الأول أنه سمى المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة ، واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج .

الثاني : أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال : ﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ﴾ وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب .

الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ما عاد إليه بل هو عائد إليهم . . .

الرابع : أنه قال : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمراً بالرجاء ، والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم .

الخامس : أنه تعالى قال أولاً : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ وكان الأليق أن يقول لا تقنطوا من رحمتي لكنه ترك هذا اللفظ وقال : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ لأن قولنا : الله أعظم الأسماء وأجلها ، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة .

السادس : أنه لما قال : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ كان الواجب أن يقول إنه يغفر الذنوب جميعاً ، ولكنه لم يقل ذلك ، بل أعاد الله وقرن به لفظة : ﴿ إِنَّ ﴾ المفيدة لأعظم وجوه التأكيد ، وكل ذلك يدل على المبالغة في الوعد من الرحمن .(٢)

---

(١) سورة الزمر : ٥٣ .

(٢) في النسخة (بالرحمن) وهو خطأ والصحيح (من الرحمن) ، والظاهر أنه خطأ مطبعي وقد صححته .

السابع : أنه لو قال : (يغفر الذنوب) لكان المقصود حاصلاً لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعاً، وهذا أيضاً من المؤكدات.

الثامن : أنه وصف نفسه بكونه غفوراً ، ولفظ الغفور يفيد المبالغة ...)(١)

وهكذا أخذ ينظر في المعاني ويحللها تحليلاً يكشف عن أدق ماتحمله صياغتها، ويكشف عما يدل عليه كل لفظ من معنى .

وقد تناول آية : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(٢). وحلل ألفاظها من جهة دلالتها على معناها العام.

يقول : (واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه :

فأولها : قوله : ﴿ وَقِيلَ ﴾ وذلك لأن هذا يدل على أنه سبحانه في الجلال والعلو والعظمة بحيث أنه متى قيل : ﴿ قِيلَ ﴾ لم ينصرف الفعل إلا إليه ، ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو هو ، وهذا تنبيه من هذا الوجه على أنه تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ... إلّا هو.

وثانيها : قوله : ﴿ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ فإن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها .

---

(١) التفسير : ٢٧/٥ م١٤.

(٢) سورة هود : ٤٤ .

ثالثها : أن السماء والأرض من الجمادات فقوله : * يَا أَرْضُ * و * يَاسَمَاءُ * مستعمر بحسب الظاهر ،على أن أمره وتكليفه نافذ [1] في الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك فلأن يكون أمره نافذاً على العقلاء كان أولى ، وليس مرادي منه أنه تعالى يأمر الجمادات ،فإن ذلك باطل بل المراد أن توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر في الوهم نوع عظمته وجلاله تقريراً كاملاً) [2] .

وقد تناول عبد القاهر هذه الآية في الدلائل وحللها تحليلاً فريداً وهو يتحدث عن الحسن في ارتباط الكلم بعضها مع بعض،وقد وقف أمام ألفاظها وذكر ما أفادته ،ولا يبدو تأثر الفخر بها واضحاً ،وإن كان كلامه عامة لا يخلو من أنه اطلع على تحليلها في (دلائل الإعجاز) ،خاصة وهو يتحدث عما حقق معنى العظمة في الآية ،كما أنه لم يذكرها في (نهاية الإيجاز) .

ننظر إلى ما قاله عبد القاهر ليتضح لنا الأمر .

يقول : (... ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ،ثم في أن كان النداء (بيا) دون (أي) ،نحو (ياأيتها الأرض) ، ثم إضافة (الماء) إلى (الكاف) ، دون أن يقال : (ابلعي الماء) ، ثم أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل و : *وَغِيضَ المَاءُ * فجاء الفعل على صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : *وَقُضِيَ الأَمْرُ * ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو : * اسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ * ثم إضمار (السفينة) قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ،ثم مقابلة * قِيلَ * في الخاتمة بـ *قِيلَ * في الفاتحة ..) [3] .

---

(١) في النسخة : نافذاً ،وهذا خطأ لأنه جواب إنَّ لا اسمها والصحيح ما أثبته .

(٢) التفسير : ٢٤٣/١٧ م٩ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٤٥-٤٦ .

والفخر أكثر اختصاراً في تحليلها ،وأشمل في بيانه للسر البلاغي ،
فمثلاً يقول في قوله تعالى : * يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي * :
(فإن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها) ولم يبين لنا
الصيغة التي أفادت هذا المعنى .

كذلك تناول السكاكي هذه الآية ،وحللها تحليلاً دقيقاً مسهباً ،
فبدأ أولاً بذكر ما فيها من أسرار تتعلق بعلم البيان ،ثم ثنى بما فيها من
أسرار تتصل بعلم المعاني .

ويبدو تأثره فيها بعبد القاهر واضحاً ،وإن كان السكاكي قد فاقه في
تتبع كل دقائقها ،ولولا طول دراسته لها لذكرتها ،ولكن حسبي منها ماقلت .

واهتم الفخر بالمقارنة بين الآيات المتشابهة في القرآن وتعنى
بالمتشابه المتماثل في الصياغة ، أى الآيات التي تتفق في بعض ألفاظها
وتختلف في بعضها ،كأن يكون في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير
أو إبدال حرف مكان حرف ،أو غير ذلك من أوجه الصياغة.

وقد أفرد علماء كثيرون التصنيف في هذا اللون من المقارنات القرآنية،
منهم من هو سابق عن الفخر الرازي كالخطيب الإسكافي في (درة التنزيل
وغرة التأويل) ،والكرماني في (البرهان في متشابه القرآن) ،ومنهم من هو
لاحق له كأبي جعفر بن الزبير في (ملاك التأويل) .

ويكثر هذا النوع في تفسير الفخر ،والاختلاف في المتشابهات عنده
إما أن يكون داخلاً في نطاق المفرد ، كأن يختلف حرف عن حرف ،أو فعل
عن فعل أو اسم عن اسم في إفراده أو جمعه أو تقديمه أو تأخيره ،وهذا قد
وضعته في فصوله الخاصة به .

---

(١) ينظر مفتاح العلوم : ١٧٦- ١٧٨ .

وإما أن تتعدد وجوه الاختلاف في الآيتين المتشابهتين ، وهذا ما سأتناوله، وفي هذا النوع تدق الأسرار ، وتتجلى بلاغة القرآن ، وأراه هنا يوازن بين الآيتين ويستخرج من مطاويهما دقائق اللغة وخوافيها .

من ذلك أنه يبين التفاوت بين قوله تعالى : * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * (١) وقوله تعالى في السورة نفسها : * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ * (٢)

يقول في بيان وجوه الاختلاف بين الآيتين وسر كل تعبير : (أما النوع الأول من التفاوت وهو أنه تعالى ذكر قوله : * فَلَا تُعْجِبْكَ * بالفاء في الآية الأولى ، وبالواو في الآية الثانية فما السبب ؟ أن في الآية الأولى إنما ذكر هذه الآية بعد قوله : * وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ * وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق ، وإنما كرهوا ذلك الإنفاق لكونهم معجبين بكثرة تلك الأموال ، فلهذا المعنى نهاه الله عن ذلك الإعجاب بفاء التعقيب فقال : * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ * وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو) ثم يعلل مجيء " لا " في الآية الأولى دون الثانية فيقول : (أما النوع الثاني وهو أنه تعالى قال في الآية الأولى : * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ * فالسبب فيه أن مثل هذا الترتيب يبتدئ بالأدنى ثم يترقى إلى الأشرف ، فيقال لا يعجبني أمر الأمير ولا أمر الوزير ، وهذا يدل على أنه كان إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم ، وفي هذه الآية يدل على عدم التفاوت بين الأمرين عندهم .

---

(١) سورة التوبة : ٥٥ .

(٢) سورة التوبة : ٨٥ .

(٣) التفسير : ١٥٨/١٦ م٨ .

أما النوع الثالث : وهو أنه قال هناك : * إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّـهُ لِيُعَذِّبَهُم * وههنا قال : * إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُم * فالفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله تعالى محال ، وأنه أينما ورد حرف التعليل فمعناه : (أَنْ) كقوله : * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ * أي وما أمروا إلّا بأن يعبدوا الله .

أما النوع الرابع : وهو أنه ذكر في الآية الأولى : * فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا * وههنا ذكر : * فِي الدُّنْيَا * وأسقط لفظ الحياة ، تنبيهاً على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة إلى أنها لا تستحق أن تسمى حياة ، بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا ، تنبيهاً على كمال دناءتها . فهذه وجوه في الفرق بين هذه الألفاظ ، والعالم بحقائق القرآن هو الله تعالى) .(١)

والفخر في النوع الثالث لا يصل إلى سر التعليل . بأَنْ . في الآية الأولى ، واللام في الآية الثانية بل ساوى بينهما ، وقد تعرض الكرماني لهذه الآية واعتبر (أَنْ) زائدة في الآية ولم يبين سر زيادتها(٢) . لكن الإسكافي ذكر وجهاً لطيفاً لهذا الاختلاف ، فقد ذكر أن مفعول الإرادة محذوف في قوله : * إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم * ، لأنّ معناها إنما يريد أن يزيد في نعمائهم بالأموال والأولاد ليعذبهم بها واللام للصيرورة ، والآية الأخرى : * أن يُعَذِّبَهُم * جاءت للإخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا فلم تتضمن مفعولاً ، فعديت الإرادة إلى ما آل إليه حالهم من تعذيبهم .(٣)

---

(١) التفسير : ١٥٨/١٦ م٨ .

(٢) ينظر البرهان في متشابه القرآن : ٩٧ .

(٣) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل : ٢٠٠ .

ويذكر الخطيب الإسكافي والكرماني تعليلاً للفاء والواو في قوله :
﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ أقرب للمعنى مما ذكره الفخر ، فهما يقولان إن الفعل الذى قبل الفاء يأتي بمعنى الشرط في قوله تعالى :
﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ (١) وما بعدها موضع الجزاء ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ ...)

أما الآية التي دخلت عليها الواو فما قبلها أفعال ماضية وهذه الأفعال لا تكون شرطاً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢) لذلك عطفت الآية بعدها على ما قبلها بالواو) (٣) .

أما الفخر فقد عد الفاء للتعقيب ، وجملة الواو لا صلة لما قبلها بها .

ثم إننا نلاحظ أن بقية تعليلات الفخر للاختلاف بين الآيتين أقرب إلى روح التذوق ، فحين جعل الكرماني (لا) زائدة في (أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) جعلها الفخر للدلالة على أن إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم ، ودلل على ذلك بمثل، كذلك يرجع الكرماني حذف الحياة في قوله تعالى : ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ دون حذفها في : ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ اكتفاءً بذكرها في الآية الأولى (٤) . لكن الفخر يرى أن الحذف جاء للدلالة على خستها حيث إنها لا تستحق أن تسمى حياة. وقد نقل أبوحيان كثيراً من تحليلات الفخر لهذه الآية.

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٥٤ .
(٢) سورة التوبة : من الآية ٨٤ .
(٣) ينظر درة التنزيل : ١٩٩ ، البرهان في متشابه القرآن : ٩٧ .
(٤) البرهان في متشابه القرآن : ٩٧ .

ويفرق الفخر بين قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١) وقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (٢).

يبين الفروق بين الآيتين عند تفسيره لسورة البقرة ، وعند تفسيره لسورة الأعراف ، لكنه يذكر هنا أسراراً ، وهناك أسراراً قد تتفق ، وكثيراً ما تختلف ولا غرابة في ذلك لأن أمثال هذه النكت البلاغية لا تتزاحم ، وبها تظهر علامات التفوق والقدرة على الغوص في تحليل الأساليب الرفيعة ، كما أنني لاحظت الفخر في مواضع كثيرة من تفسيره يقول هذا ما خطر بالبال في الحال ، فالنكت والأسرار تتجدد بتجدد النظر والتأمل .

وسأقابل بين الأسرار المختلفة في كل فرق في كلتا السورتين ، فأذكر ما قاله في سورة البقرة ثم ما قاله في سورة الأعراف ، لتتضح لنا طريقته في استنباط النكات وقربها أو بعدها عن الآية وسياقها .

يقول : (لم قال في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ وقال في الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ ؟ الجواب : أن الله تعالى طرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله تعالى إزالة للإبهام ولأنه ذكر في أول الكلام : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم أخذ يعدد نعمة نعمة فاللائق بهذا المقام أن يقول : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ أما في سورة الأعراف فلا يبقى في قوله تعالى :

---

(١) آية : ٥٨ - ٥٩

(٢) آية : ١٦١ - ١٦٢

* وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ * إبهام بعد تقديم التصريح به في سورة البقرة.[1]

لم قال في سورة البقرة : * وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا * وفي الأعراف: * اسْكُنُوا * ؟ الجواب : الدخول مقدم على السكون ولا بد منهما فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة والسكون في السورة المتأخرة.[2]

لم قال في البقرة : * فَكُلُوا * بالفاء وفي الأعراف : * وَكُلُوا * بالواو ؟ والفرق : أن الدخول حالة مخصوصة ،كما يوجد بعضها ينعدم ، فإنه إنما يكون داخلاً في أول دخوله ، وأما ما بعد ذلك فيكون سكوناً لا دخولاً).[3]

لم قال في البقرة : * نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ * وفي الأعراف : * نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ * ؟ الجواب : الخطايا جمع[4] الكثرة ،والخطيئات جمع السلامة فهو للقلة ،وفي سورة البقرة لما أضاف ذلك القول إلى نفسه فقال : * وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ * لا جرم قرن به ما يليق جوده وكرمه وهو غفران الذنوب الكثيرة فذكر بلفظ الجمع الدال على الكثرة ،وفي الأعراف لما لم يضف ذلك إلى نفسه بل قال : * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ * لا جرم ذكر ذلك بجمع القلة، فالحاصل أنه لما ذكر الفاعل ذكر ما يليق بكرمه من غفران الخطايا الكثيرة ، وفي الأعراف لما لم يسم الفاعل لم يذكر اللفظ الدال على الكثرة).[5]

---

(١) لم يراع الفخر -كما قلت سابقاً- ترتيب السور في النزول وهو يبحث عن النكات والأسرار البلاغية في الآيات أو يقيم المناسبة بينها، فسورة البقرة وإن كانت في أول القرآن إلا أنها نزلت في المدينة بعد سورة الأعراف التي نزلت في مكة.

(٢) التفسير : ٣/٩٨ - ٩٩ م٢.

(٣) التفسير : ١٥/٣٨ م٨.

(٤) في التفسير : جميع ،والصواب جمع ،وهو خطأ مطبعي.

(٥) التفسير : ٣/٩٩ م٢.

ويختلف السر البلاغي لهذه الكلمة في سورة الأعراف فيقول :

(إنه قال في سورة البقرة : * خَطَايَاكُمْ * وقال ههنا : *خَطِيئَاتِكُمْ * فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة فهي مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع).(١)

: (لم ذكر قوله : * رَغَداً * في البقرة وحذفه في الأعراف ؟ الجواب عن هذا السؤال كالجواب في الخطايا والخطيئات ،لأنه لما أسند الفعل إلى نفسه لا جرم ذكر معه الإنعام الأعظم وهو أن يأكلوا رغداً ،وفي الأعراف لما لم يسند الفعل إلى نفسه لم يذكر الإنعام الأعظم فيه).(٢)

ويقول في الأعراف : (إنه ذكر في سورة البقرة : * رَغَداً * وما ذكره هنا،فالفرق الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذ ،لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم ، ولما كان ذلك الأكل ألذ لا جرم ذكر فيه قوله : *رَغَداً * وأما الأكل حال سكون القرية فالظاهر أنه لا يكون في محل الحاجة الشديدة ، ما لم تكن اللذة فيه متكاملة ،فلا جرم ترك قوله : *رَغَداً * فيه).(٣)

: (لِمَ ذكر في البقرة : * وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ * وفي الأعراف قدم المؤخر ؟ الجواب : الواو للجمع المطلق ،وأيضاً فالمخاطبون بقوله : * ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ * يحتمل أن يقال إن بعضهم كانوا مذنبين والبعض الآخر ماكانوا مذنبين ، فالمذنب لا بد أن يكون اشتغاله بحط الذنوب مقدماً على الاشتغال بالعبادة ،لأن التوبة عن الذنب مقدمة عن الاشتغال بالعبادات المستقبلة لا محالة ... وأما الذى لا يكون مذنباً

---

(١) التفسير : ٣٨/١٥ م٨.

(٢) التفسير : ٩٩/٣ م٢.

(٣) التفسير : ٣٨/١٥ م٨.

فالأولى به أن يشتغل أولاً بالعبادة، ثم يذكر التوبة ثانياً على سبيل هضم النفس ...

ويقول في الأعراف : (... المراد التنبيه على أنه يحسن تقديم كل واحد من هذين الذكرين على الآخر ، ولأنه لما كان المقصود منهما تعظيم الله تعالى وإظهار الخضوع والخشوع لم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير) (١) .

و : (لم قال : ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ في البقرة مع الواو ، وفي الأعراف : ﴿ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ من غير الواو ؟ الجواب : أما في الأعراف فذكر أمرين :

(أحدهما) : قول الحطة وهو إشارة إلى التوبة ،

(وثانيهما) : دخول الباب سجداً وهو إشارة إلى العبادة ، ثم ذكر جزاءين : أحدهما : في قوله تعالى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ وهو واقع في مقابلة قول الحطة ، والآخر قوله : ﴿ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وهو واقع في مقابلة دخول الباب سجداً ، فترك الواو يفيد توزع كل واحد من الجزاءين على كل واحد من الشرطين . وأما في سورة البقرة فيفيد كون مجموع المغفرة والزيادة جزاءً واحداً لمجموع الفعلين ، أعني دخول الباب وقول الحطة . ويذكر في الأعراف سراً مغايراً يقول : (فالفائدة في حذف الواو أنه استئناف ، والتقدير كأن قائلاً قال : وماذا حصل بعد الغفران ؟ فقيل له : " سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ") .

لم قال في البقرة : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً ﴾ وقال في الأعراف : ﴿ فَأَرْسَلْنَا ﴾ ؟ الجواب : الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر

---

(١) التفسير : ١٥/٣٨ م٨ .

والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية وذلك إنما يحدث بالآخرة) .

ويقول في الموضع الآخر : (الفرق بين قوله : * أَنزَلْنَا * وبين قوله : * أَرْسَلْنَا * فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة ، والإرسال يشعر بها ، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل ثم جعله كثيراً ..) (١) وهنا تقارب بين المعنيين .

وهكذا نلاحظ إما اتفاق الوجوه في ذكر أسرار الدقائق في السورتين أو اختلافهما ، وإن كان يبدو أن ما ذكره في سورة البقرة هو الأقرب إلى سياق الآيات .

وقد ظل يتناول أدق ما بين الآيتين من الاختلاف ويبحث عن سره وأكتفي بما ذكرته ، ومن أراد المزيد فليرجع إلى التفسير في هذين الموضعين .

ونلاحظ أن تعليلاته التي ذكرها في سورة البقرة أشد صلة بالمعنى وأكثر اقتداراً على تذوق الكلمات ، والتعمق في بواطنها للكشف عن المعنى ، وهي تفوق تعليلاته التي ذكرها في الآية نفسها في سورة الأعراف .

ويوازن بين قوله تعالى : * وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * (٢) وقوله تعالى : * وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * (٣) .

ويستعين في بيان هذه الفروق بسياق الآيات السابقة لها يقول :

(قال الله تعالى في سورة الأنعام : * وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا * ولم يقل وما هذه الحياة ، وقال ههنا : * وَمَا هَذِهِ * فنقول لأن المذكور من قبل

---

(١) التفسير : ٢٥/١٥ م ٨٠ .

(٢) سورة الأنعام : ٣٢ .

(٣) سورة العنكبوت : ٦٤ .

ههنا أمر الدنيا حيث قال تعالى : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ فقال : (هَذِهِ) ، والمذكور فيها هناك الآخرة حيث قال حكاية عن المكذبين : ﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال : ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ، وقال هناك : ﴿ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وقال ههنا : ﴿ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ فنقول : لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الإشغال بها فأخر الأبعد ، وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها ، اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً ، فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو قال هناك : ﴿ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ وقال ههنا : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ فنقول : لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى رادع قوى فقال الآخرة خير ، ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوى فقال : لا حياة إلا حياة الآخرة ، وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيئان فقال في أحدهما : هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحاً فحسب ، ولو قال : هذا جيد وهذا الآخر ليس بشيء يكون ترجيحاً مع المبالغة فكذلك ههنا . . .

قال هناك : ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ولم يقل ههنا إلا : ﴿ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ ، لأن الآخرة خير للمتقى فحسب أى المتقي عن الشرك ، أما الكافر فالدنيا جنته فهي خير له من الآخرة . . .

قال في سورة الأنعام : ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ وقال ههنا : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيراً ، وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل ، والمثبت ههنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة ، وهذا لا يعرف إلا بعلم نافع) .(١)

---

(١) التفسير : ٢٥ / ٩٢ - ٩٣ م١٣ .

ويرى الإسكافي وجهاً لطيفاً في تقديم اللهو على اللعب في سورة العنكبوت أحب أن أشير إليه . ذلك أنه نظر إلى وقوعه في أسلوب قصر ، ولذلك كان المراد المبالغة في وصف قصر مدة الدنيا بالإضافة إلى مدة الآخرة ، فكأن المراد من المعنى ما أمد الحياة الدنيا إلا كأمد اللهو واللعب ، وهي أزمنة مقتصرة على شغل النفس بحلاوة ما يستعجل ، ويدل على هذا قوله تعالى بعدها : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ وقدم اللهو لأن الأزمنة التي يستغرقها الإنسان في اللهو أكثر من أزمنة استغراقه في اللعب ، ولذلك كان تقديم ما يكثر أوجب من تقديم ما هو دون ذلك.(١)

وطريقة الفخر في ربط سياق الكلام بما قبله طريقة جيدة في دراسة النص ، لأنها تعني النظر الشامل لأجزائه ، والربط بين معانيه ، ومن الممكن أن نستفيد منها في دراسة النصوص الأدبية .

وكما اعتنى الفخر بالنظر في الآيات المتقاربة في اللفظ والمعنى وبين الفروق الدقيقة بينها ، كذلك اهتم بالمقارنة بين الآيات ذات المعنى الواحد ، في السورة الواحدة والتي تختلف في صياغتها .

من ذلك مقارنته بين آيتي سورة العنكبوت اللتين جاءتا متتاليتين ، تتحدثان عن قدرته تعالى على الخلق .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.(٢)

---

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل : ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) آية : ١٩ - ٢٠ .

يقول : (الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ،وقال في هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري . . . وفي الآية مسائل :

الأولى : قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه ؟ نقول : العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين ، والرؤية أتم من النظر ،لأن النظر يفضي إلى الرؤية يقال : نظرت فرأيت والمفضى إلى الشيء دون ذلك الشيء . . .

المسألة الثانية : ذكر هذه الآية بصيغة الأمر ،وفي الآية الأولى بصيغة الاستفهام ،لأن العلم الحدسي إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل . . وأما العلم الفكري فهو مقدور فورد الأمر به .

المسألة الثالثة: أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال : ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ ﴾ وأضمره عند الإعادة ،وفي هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الإعادة حيث قال : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ ﴾ لأن في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال : ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ ﴾ ،ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كما يقول القائل ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكراً ، ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاءً بالأول ،وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه . . . وأما إظهاره عند الإنشاء ثانياً حيث قال : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ ﴾ مع أنه كان يكفي أن يقول : ثم ينشيء النشأة الآخرة ،فالحكمة بالغة وهي ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الإعادة أظهر اسما من يفهم المسمى به بصفات كما له ،ونعوت جلاله يقطع بجواز الإعادة فقال الله مظهراً مبرزاً ،ليقع في ذهن الإنسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه . . .

المسألة الرابعة : في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ﴾ ، وههنا قال بلفظ الماضي فقال : ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ﴾ ولم يقل كيف يبدأ ، فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسي الموجب للعلم الحدسي ، وهو في كل حال يوجب العلم ببدء الخلق . . .

المسألة الخامسة : قال في هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال في الآية الأولى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وفيه فائدتان :

إحداهما : أن الدليل الأول هو الدليل النفسي ، وهو وان كان موجبه العلم الحدسي التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام ، لأنه بالنظر إلى نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه ، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجة غيره إليه ووجوده منه ، فتم علمه بأن كل شيء من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال عند الدليل الواحد : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ وهو اعادته : ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١). وتحليله هنا يعتمد على الناحية العقلية ويبتعد عن الناحية التذوقية الأدبية.

وله موازنة جيدة بين قصة نوح وقصة هود في سورة الأعراف وردتا في آيات متتالية ، وقد تشابهتا في الصياغة ولذلك كانت مجالاً رحباً للمقارنة.

قال تعالى في قصة نوح : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

---

(١) التفسير : ٢٥ / ٤٨-٤٩ م١٣.

(٢) سورة الأعراف : ٥٩ - ٦٢.

وقال تعالى في قصة هود : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (١) .

وقد استوعب هذا التحليل صفحات كثيرة ، وسأكتفي بذكر بعضها يقول : (واعلم أن ألفاظ هذه القصة (٢) موافقة للألفاظ المذكورة في قصة نوح عليه السلام إلا في أشياء :

الأول : في قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وفي قصة هود : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ والفرق أن نوحاً عليه السلام كان مواظباً على دعواهم وما كان يؤخر الجواب عن شبهاتهم لحظة واحدة ، وأما هود فما كانت مبالغته إلى هذا الحد فلا جرم جاء " فاء التعقيب " في كلام نوح دون هود) (٣) .

الثاني : (... إن نوحاً عليه السلام قال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وأما هود عليه السلام فقال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ، فنوح عليه السلام قال : ﴿ أَنصَحُ لَكُمْ ﴾ وهو صيغة الفعل ، وهود عليه السلام قال : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ وهو صيغة اسم الفاعل ونوح عليه السلام قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهود عليه السلام لم يقل ذلك ، لكنه زاد في كونه أميناً ، والفرق بين الصورتين أن الشيخ عبد القاهر النحوي ذكر في كتاب دلائل الإعجاز (٤)

---

(١) سورة الأعراف : ٦٥ - ٦٨ .

(٢) أي قصة هود عليه السلام .

(٣) التفسير : ١٦١/١٤ م٧ .

(٤) ينظر دلائل الإعجاز : ١٧٤ في باب الفروق في الخبر إذا كان بالاسم وإذا كان بالفعل .

أن صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة ،وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار على ذلك . وإذا ثبت هذا فنقول : إن القوم كانوا يبالغون في السفاهة على نوح عليه السلام ، ثم إنه في اليوم الثاني كان يعود إليهم ويدعوهم إلى الله ،وقد ذكر الله تعالى عنه ذلك فقال : * رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فلما كان من عادة نوح عليه السلام العود إلى تجديد تلك الدعوة في كل يوم وفي كل ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل فقال : *وَأَنْصَحُ لَكُمْ * وأما هود عليه السلام فقوله : (١) * وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ * يدل على كونه مثبتاً في تلك النصيحة مستقراً فيها ،أما ليس فيها إعلام بأنه سيعود إلى ذكرها حالاً فحالاً ويوماً فيوماً) (٢).

فالفخر يهتم بالصياغة وتشابهها سواء اتفقت الموضوعات أو اختلفت ويبحث عن أدق الفروق المعنوية بينها ،ونظراته هذه تفتح لنا مجالات رحبة لدراسة اختلاف الصياغات في تكرار القصص ، لمعرفة ما تبرزه كل قصة من جانب من جوانب العبرة لم يكن في غير هذا الموضع على هذا القدر وذلك لا يكون إلا بعد تحليل القصة في كل موضع تحليلاً دقيقاً يبين خوافي ألفاظها ، وما فيها من معاني لم تذكر في القصة الأخرى ،ثم ربط كل قصة بالسياق العام للسورة ،ومثل هذه الدراسات لا تدرك بالهوينى إنما تحتاج إلى جهد وتخلية بال .

كذلك يقارن الفخر بين قول رسل الله (الملائكة) مع نبي الله إبراهيم عليه السلام ثم مع لوط عليه السلام حيث تتشابه الصياغة قال تعالى :

---

(١) ذكر " أما " ولم يذكر لها جواباً والأصح حذفها ليستقيم الكلام .

(٢) التفسير : ١٤/١٦٢-١٦٣ م٧٠

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (١).

ويبين الفخر الفروق الدقيقة بين كل تعبير وآخر بطريقة مفصلة تعتمد على الشرح المسهب (٢)، ولولا خشية الإطالة والإملال لذكرتها، ذلك أني كما قلت سابقاً لا أهدف إلى الاستقصاء إنما إلى بيان طريقته في التناول.

ومثل هذا النوع من المقارنات كثيرة في تفسيره، وقد ذكرت أشملها وأوفاها في الرؤية البلاغية، حتى يتبين لنا حسه البلاغي في تذوق كلمات لغة النص، والكشف عن أدق دلالاتها مما يفوق به غيره.

وإن كنا نجد مثل هذه النظرات عند السابقين له، إلا أننا لا نجدها بهذه الطريقة من الاستيعاب والدقة والشمول، ولذلك رأيت أكثر هذه الدقائق مبثوثة في كتب التفسير بعده أو الكتب التي تهتم بالمتشابه في الصياغة في القرآن الكريم.

---

(١) سورة العنكبوت : (٣١ - ٣٣).

(٢) ينظر التفسير : ٢٥/٦٢-٦٤، م١٣.

الفصل الخامس

الإعجاز القرآني في التفسير

الإعجاز في تفسير الفخر الـــرازى

يتصل إعجاز القرآن بعلم المعاني اتصالاً وثيقاً ،ذلك أن إعجاز القرآن يتحقق بتراكيبه ونظمه ،والنظم كما عرفه عبد القاهر هو توخى معانى النحـــو فيما بين الكلم ،و يقصد بمعانى النحو تعلق الكلام بعضـه ببعض.(١)

وعلم المعاني يبحث في أحوال اللفظ العربي في هيآته المختلفـــة كما يقول الخطيب القزويني : (علم يعرف به أحوال اللفظ العر بي التي بهـــا يطابق مقتضى الحال).(٢)

وعلى هذا فإن أحوال اللفظ العر بي تتولد من تعلق الكلام بعضـــه ببعض فيشمل التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والتأكيد والحذف وغير ذلـــك، وهذه الأبواب هي أبواب علم المعاني .

ولا يعد علم البيان أصلاً في الإعجاز ،لأنه جزء من النظـــــــم ، ولا تجرى مباحثه في كل آيات القرآن .

يقول عبد القاهر : (ولا يمكن أن تجعل " الاستعارة " الأصل في الإعجاز وأن يقصر عليها ،لأن ذلك يؤدى إلى أن يكون الإعجاز في آى معدودة من السور الطوال مخصوصة).(٢)

كما لا يعد علم البديع سبباً في الإعجاز ،لأن البشر يستطيعون أن يحذقوه كما قال الباقلاني.(٣)

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز : ٨١.

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٩١.

(٣) ينظر إعجاز القرآن : ١٢٨.

إذن فالإعجاز يتحقق بعلم المعاني ، ويتصل به اتصالاً وثيقاً ولذلك فقد درست إعجاز القرآن عند الفخر الرازي ، وأنا بصدد الحديث عن مباحث علم المعاني في تفسيره .

تتعدد أوجه الإعجاز عند الفخر في تفسيره ، وقد حاولت لَمَّ أشتاتها المتفرقة في المواضع المختلفة ، والنظر في كل رأي وتحريره . وأول كلام له في الإعجاز جاء في سورة البقرة وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

فقد بين فيه أن وجه الإعجاز في القرآن يعرف من طريقين :

الأول : أن القرآن كان في مستوى كلام العرب بقدر ينقض العادة .

الثاني : أن القرآن إن لم يكن معجزاً ببلاغته فهو معجز بالصرفة .

وقد جره الوجه الأول إلى الحديث عن وجود وجوه في القرآن تقتضي نقصان بلاغته ، وهيَ مصيبة في كلام البشر لكنها لم تُعب في القرآن ، وبها بلغ النهاية في الفصاحة ، وسأتناول الطريق الأول بالدراسة ثم انتقل إلى الطريق الثاني .

يقول الفخر مبيناً مكانة القرآن من الكلام البليغ : (واعلم أن كونه معجزاً يمكن بيانه من طريقين :

الأول : أن يقال : إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة : إما أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء ، أو زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة ، أو زائداً عليه بقدر ينقض . والقسمان الأولان

---

(١) آية : ٢٣ .

باطلان فتعين الثالث ... وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً هو إذن تفاوت ناقض للعادة فوجب أن يكون معجزاً) (١) .

ثم تحدث عن الوجوه التي قامت عليها بلاغة العرب وخلا منها القرآن فبلغ النهاية في الفصاحة والبلاغة ، وحصرها في سبعة وجوه .

يقول : (واعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وراءها فدل ذلك على كونه معجزاً .

أحدها : أن فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة ، وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء ، فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفق العرب عليها في كلامهم) (٢) .

فالقرآن الكريم يخلو من كل هذه الموضوعات التي تعاورها الشعراء وأفاضوا فيها في دواوينهم ، وهذا يعني أن في القرآن موضوعات جديدة لم يعتدها العرب في أشعارهم ، بلغ بها القرآن الغاية التي لا تدرك .

والوجه الثاني : الذى لا يوجد في القرآن ويوجد في كلام العرب الكذب الذى يحسن فى الشعر .

يقول : (ثانيها : أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق وتنزه عن الكذب في جميعه ، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيداً ، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ،

---

(١) ، (٢) التفسير الكبير : ٢/ ١٢٦ م١ .

ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي وأن الله تعالى مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة جاء القرآن فصيحاً كما ترى) (١) .

ونحن نعرف أن النقاد قديماً قالوا : (أصدق الشعر أكذبه) وليس معنى الكذب في الشعر قلب الحقائق على غير وجهها الصحيح ،إنما الكذب هو التحليق في الخيال والخروج على قيود الحياة ،والخروج على حدود الواقع .

والقرآن الكريم قد فتح أبواباً جديدة لم يعهدها العرب ربطتهم بالواقع ،وحددت منهجاً لحياتهم يسيرون عليه ،عن سلوكهم ونظم حياتهم ، وجادلتهم ببراهين حولت عقول كثير من قساة القلوب.ومن شأن الموضوعات الدينية التي تضفي على الأسلوب إشراقاً وصفاءً عدم المبالغة في الخيال وعدم التكلف .

ثم يذكر الفخر الوجه الثالث لخصائص القرآن ،ويدور حول ما جاء عليه القرآن من علوم البلاغة على درجة لا يتسرب إليه الضعف والفتور الذى يصيب البشر في كلامهم.

يقول : (إن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنما يتفق في القصيدة في البيت والبيتين والباقي لا يكون كذلك ،وليس كذلك القرآن ،لأنه كله فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته) (٢) .

وأحب أن أشير إلى أن ندرة التراكيب البليغة في كلام البلغاء كان معروفاً عند أكثر علماء الأدب والبلاغة ،فعبد القاهر الجرجاني يشير إلى هذه الندرة فيقول : (إنك أحياناً تجد مواضع الحسن تتلاحق وتكثر في العين

---

(١) ،(٢) التفسير الكبير : ١٢٦/٢ م١ .

فتتبين قدر قائلها ،وأحياناً تحتاج إلى أن تستقرى عدة قصائد ،بل أن تغلى ديواناً من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات) .(١)

ويقول الآمدى وهو يوازن بين أبي تمام والبحترى منبهاً على أنه لا يوجد شاعر اتسم كل شعره بالحسن ،والخلو من السقطات ،والفساد في الصياغة : (وغير منكر لفكر نتج من المحاسن ما نتج ،وولد من البدائع ما ولد أن يلحقه الكلال في الأوقات والزلل في الأحيان) .(٢)

ويقول على بن عبد العزيز الجرجاني : (ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه إما في لفظه ونظمه ، أوترتيبه أوتقسيمه أو معناه أوإعرابه) .(٣)

هذا في كلام البشر أما سور القرآن فإنها تقوم من أولها إلى آخرها على تراكيب بليغة متلاحقة كالأجزاء من الصيغ ،وبصورة مطردة كما يؤكده الفخر .

وهذا الوجه الذى ذكره الفخر سبقه الباقلاني إلى القول به وهو يتحدث عن أوجه إعجاز القرآن يقول : (ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ،والتصرف البديع ،والمعاني اللطيفة ،والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ،والتناسب في البلاغة ،والتشابه في البراعة ،على هذا القول ، وعلى هذا القدر ،وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال) .(٤)

---

(١) دلائل الإعجاز : ٨٨-٨٩ .
(٢) الموازنة بين الطائيين : ٣٥ .
(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ٤ .
(٤) إعجاز القرآن : ٦٠ .

ويبدو أن الفخر أخذ منه هذا الوجه وغيره من الوجوه التي ذكرها ،لأن الباقلاني اهتم كثيراً بالموازنة بين القرآن وبين غيره من ضروب الكلام لمعرفة الفرق بينهما .

ثم يذكر الفخر الوجه الرابع ،مؤكداً للوجه الثالث ،لأنه يبين فيه اطراد فصاحة القرآن ،واستواءه على نمط واحد من البراعة والحسن يقول :

(ورابعها : أن من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ،وفي القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلاً)(١).

أما الوجه الخامس لخصائص القرآن -كما يراه الفخر فهو :

(أنه اقتصر على إيجاب العبادات ،وتحريم القبائح ،والحث على مكارم الأخلاق ، وترك الدنيا ،واختيار الآخرة ،وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة)(٢).

وهذا الوجه يمت إلى الوجه الأول بصلة ، لأنه يتعلق بموضوعات القرآن ،فإذا كان الوجه الأول يبحث في موضوعات الشعراء التي بها تكون بلاغة العرب فإن هذا الوجه يتصل بالمعاني الجديدة التي وإن كانت تنقص من بلاغة البلغاء فإنها لا تنقص من بلاغة القرآن .

ولكن لماذا يقول الفخر إن أمثال هذه الكلمات ويقصد بها المعاني توجب تقليل الفصاحة ؟

أقول : إن هذه المعاني إذا تناولها الشعراء قللت من بلاغة أشعارهم لأنها جديدة وبالتالي تخلو من الخيال . ترى ذلك في شعر أمية ابن أبي الصلت الذى كان يدور حول المعاني الإلهية، والحديث عن قصص الأنبياء ،لذلك فشعره شعر ضعيف ،لا يصل في بلاغته إلى شعر امرئ القيس

---

(١) التفسير : ١٢٦/٢ م١.

في وصف الليل ،ولا النابغة في وصف الناقة ،وسأضرب لذلك مثلاً من شعره - وإن كان هذا من باب الزيادة -.

يقول وهو يصف القمر في السماء :

والشَّهر بَيْن هِلاله و محاقه أجل لعلم الناس كيف يُعَدَّدُ

لا نقص فيه غَيْر أن خَبيئَه قمر وساهور يُسلُّ ويغمدُ

خَرِقٌ يهيم كهاجع في نومه لم يقض ريب نعاسه فيهجَّدُ

فشعره يفقد المتانة والرصانة ،وحسن الصوغ ،وسعة الخيال ؛ لأنه يهتم بالمعاني الدينية التي يستحيل الخيال معها في كلام البشر .

وفي القرآن الكريم معان جديدة لم يعهدها العرب من أحكام وتشريعات ومواعظ و قصص ،جاءت على هيئة عالية من الحسن والجودة والفصاحة.

ثم يذكر الفخر الوجه السادس وهو يتعلق باطراد الفصاحة في كل موضوعات القرآن الكريم ،وانقطاعها عند العرب.

يقول : (إنهم قالوا إن شعر امرىء القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء ،و صفة الخيل ،وشعر النابغة عند الخوف ،وشعر الأعشى عند الطرب ،ووصف الخمر ،وشعر زهير عند الرغبة والرجاء ،و بالجملة فكل شاعر

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت : ٣٠.

الشهر : القمر ، الساهور : كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف فيما تزعم العرب ، الخرق : المدهوش المتحير ،الهاجع : النائم ليلاً ،الريب : الحاجة ، يهجد : يوقظ من النوم .

يحسن كلامه في فن فإنه يضعف كلامه في غير ذلك الفن ،أما القرآن فإنه جاء فصيحاً في كل الفنون على غاية الفصاحة) .(١)

ومن يتأمل دواوين الشعراء يظهر له ذلك بوضوح ،ويرى كيف تقوى قدرات الشاعر في موضوعات ،ثم تختفي أوتتضاءل في موضوعات أخرى ،أما في القرآن فتعلو البلاغة في كل موضوع يتناوله .

ويعد الباقلاني هذا وجهاً من وجوه الإعجاز حيث يقول : (. . .إن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين ،على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها ،من ذكر قصص ،ومواعظ ،واحتجاج ،ووعد ووعيد . . . وغير ذلك من الوجوه التي يشمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل ،والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور . فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ،ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ،ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين . . . ولذلك ضرب المثل بامرىء القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ،وبزهير إذا رغب) .(٢)

ويبدو تأثر الفخر بالباقلاني واضحاً في هذه الوجوه الستة. حيث ذكرها وهو يتحدث عن وجوه الإعجاز ،فقد ذكر أن من وجوه إعجاز القرآن ما يرجع إلى الجملة وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم ،ومباين للمألوف من خطبائهم، وله أسلوب يختص به ويتميزعن أساليب الكلام المعتاد .

وقد وعى الفخركلام الباقلاني ولخصه على ما رأيناه سابقاً ،ووضعه تحت ما اجتمع في القرآن من وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته ومع ذلك فإنه بلغ الغاية في الفصاحة.

---

(١) التفسير : ٢/١٢٧ م١.

(٢) إعجاز القرآن : ٦٠-٦١.

وبعد أن ذكر الفخر الوجه السادس دعمه بآيات قرآنية تدل على علو الفصاحة في سائر أبواب المعاني في القرآن ، وكنت أتمنى أن يفعل ذلك بعد ذكر كل وجه من الوجوه السابقة.

يقول :(.. أما القرآن فقد جاء فصيحاً في كل الفنون في غاية الفصاحة ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال في الترغيب : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ (٢) وقال في الترهيب : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ ... الآيات ﴾ (٣) وقال : ﴿ أَأَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُمْ الآية ﴾ (٤) وقال : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ (٥) وقال في الزجر ما لا يبلغه وهم البشر وهو قوله : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ (٦) وقال في الوعظ ما لا مزيد عليه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ (٧) وقال في الإلهيات : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ... الآية ﴾. (٨)

وقد وقفت عند عبارته : (أما القرآن فقد جاء فصيحاً في كل الفنون في غاية الفصاحة) ورأيت أن أبين وجه الفصاحة والبلاغة وحسن النظم في بعض الآيات التي ذكرها ، والتي جاءت في شتى المعاني ، بطريقة أتوخى فيها الاختصار ومستفيدة من طريقة الفخر في تحليل الآيات.

---

(١) سورة السجدة : من الآية ١٧.

(٢) سورة الزخرف : من الآية ٧١.

(٣) سورة الإسراء : من الآية ٦٨.

(٤) سورة الملك : ١٦ ومن الآية ١٧.

(٥) سورة إبراهيم : ١٥-١٧.

(٦) سورة العنكبوت : من الآية ٤٠.

(٧) سورة الشعراء : ٢٠٥.

(٨) سورة الرعد : من الآية ٨. التفسير : ٢/١٢٧ م١.

لقد ذكر الفخر آيتين في الترغيب ، تتحدثان عما أعده الله للمؤمنين من نعيم الجنة ، ترغيباً لهم في الطاعات والعمل الصالح ، وكلتاهما على درجة عالية رفيعة من البلاغة .

وهناك عناصر مشتركة بين الآيتين تظهر بوضوح بعد تحليل كل آية ، والنظر في دقائق معانيها ، ووضع اليد على ما اختص به القرآن من بديع النظم ، وحسن البيان ، والعلو في الفصاحة ، والمعنى العام للآيتين واحدة لكن في كل آية دقائق ورقائق تختص بها وتناسب سياقها .

فالآية الأولى : * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ * أتت في سورة السجدة بعد ذكر جزاء المتقين الذين يخرون لله سجداً ، والذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وهذا وصف لجزائهم في الجنة ، وجاءت الجملة القرآنية بصورة النفي (بلا) دون (ما) لتدل على امتداد الجهل بما في الجنة وفي تنكير (نَفْسٌ) إفادة العموم والشمول وذلك يشمل كل ما خلقه الله وأودع فيه نفساً ، ثم ما وراءها من علمه المنفرد بالغيب الذى يعجز عنه كل مخلوق أيا كان نوعه ، وفي مجيء أداة الموصول (مَا) دون (الَّذِى) مناسبة لصلتها (أُخْفِيَ) ، ومناسبتها لعدم العلم لأنها تستخدم للمبهم في أمره ، وإيثارها على غيرها من الألفاظ (كغمض واستتر) ، ثم زيادة الترغيب في القيد : * قُرَّةِ أَعْيُنٍ * ، وقرة العين ما تقر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره كما قال الفخر في التفسير ، وقد جاءت مجازاً لتدل على السعادة وراحة القلب ، ثم ما وراء إضافة القرة إلى الأعين للدلالة على أن ما خفي في غاية الحسن والكمال .

ونلاحظ ما في هذه الآية من اجتماع دلالات الخفاء في قوله : * فَلَا تَعْلَمُ * * مَا * * أُخْفِيَ * وكأنها ترمي بالسامع في غياهب الحيرة والتشوق إلى ما خفي عنه فتولد فيه التطلع إلى الجنة والرغبة في دخولها .

والآية الثانية التي ذكرها في الترغيب : * وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ * جاءت في سياق ذكر أوصاف الجنة بعد أن يأمر الله المؤمنين بدخولها : * ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * (١) وهذه الآية تصف كل ما في الجنة من نعيم بألفاظ قليلة موجزة ،نظمت على هيئة خاصة ونظم خاص أصابت به شاكلة المعنى، فكل لفظ يحمل بين أعطافه قدراً كبيراً من المعنى ،فقوله تعالى * فِيهَا * أي في الجنة حيث أضمرت للعلم بها ،ولأن المقام مقام حديث عنها ،ومن شأن الأشياء المعروفة العظيمة القدر ألا يصرح بلفظه إكباراً وتعظيماً له ، وكأن كل النفوس تعرفه فلذلك يضمر ولا يظهر ، ثم يأتي الموصول في * مَا تَشْتَهِيهِ * ليعبر عن طول شهوة الإنسان ،وعدم نهايتها ، ففي الجنة إشباع لجميع المشتهيات وهذا ما يرمى إليه الضمير المفعول الذى اتصل بالفعل ، ثم تأتي الجملة المعطوفة * وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ * التي قال عنها الألوسي : إنها تخصيص بعد تعميم ، أى أن ما تلذه الأعين داخل فيما تشتهيه الأنفس ، وقال تعالى : * تَلَذُّ * ولم يقل (تلذه) عطفا على *تَشْتَهِيهِ * للدلالة - والله أعلم- على أن ما في الجنة من مشاهدات لا تمثل نهاية لذة الأبصار ،لأن هناك لذة للمؤمنين أكبر وهي لذة رؤية الله تعالى (٢) .

وفرق بين هذه الآية وما قبلها مع أن غرضهما واحد ،لأن الآية الأولى تبهم أمر معرفة ما في الجنة من سعادة وقرة أعين بعناصر عدة * لاَ تَعْلَمُ * * مَا * *أُخْفِيَ * .

---

(١) سورة الزخرف : ٧٠ .

(٢) ينظر روح المعاني ،للألوسي : ٢٥/ ٩٨ .

وفي الآية الثانية يتضح المعنى قليلاً ليشير إلى ما يجده الإنسان من إشباع ولذة لشهواته ،ولكن تظل غلالة الإبهام تتراءى لتتشوق النفس حيث أضمر المفعول في ﴿ تَشْتَهِيهِ ﴾ وحذف في ﴿ تَلَذُّ ﴾ .... وهكذا تتكاثف العناصر اللغوية لتؤدى الغرض الذى سيقت له من ترغيب في العمل الصالح المؤدى إلى الجنة التي هذه صفاتها .

أما في غرض الترهيب فقد ذكر الفخر آيات ثلاث ،تتشابه آيتان منها في الصياغة والمعنى .

الآية الأولى قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ .

والثانية قوله تعالى : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ .

فالأولى جاءت في مقام ذكر تفرده تعالى بالتصرف في هذا العالم، وقدرته على تخويف من كفر من عباده بحقائق مخلوقة ، سبقها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ (١) ثم ذكرت هذه الآية ، وقد بدئت بالاستفهام ﴿ أَفَأَمِنتُم ﴾ الذى يدل على الإنكار والتوبيخ والتخويف لمن يكذب ويعرض عن الله بعد إذ أنجاه ،فهل تأمنون عذاب الله والحال أنكم أعرضتم ؟ ، وقوله : ﴿ مَن فِي السَّمَاءِ ﴾ كناية عن الله سبحانه وتعالى وقد حذف لفظ الجلالة للدلالة على أن معرفته ثابتة في العقول ، فلا تخفى قدرته وعظمته ،وفيه أيضاً تهويل وتخويف ،لأن من في السماء بيده زمام كل شيء والإنسان يخاف من عذاب السماء أكثر مما يخاف من عذاب الأرض .

---

(١) سورة الإسراء : ٦٧ .

ثم يأتي المفعول به المؤول * أَنْ يَخْسِفَ * والخسف هو انقلاب ظاهر الأرض في باطنها ،وفيه ما فيه من التخويف والتهويل ، وقد قيد الخسف بـ (بِكُمْ) أي مصاحب لذواتكم؛ لأنكم المقصودون ،والخسف لا يشمل الأرض كلها إنما جانب منها ،وفي ذلك دلالة على أن البر والبحر بيد الله ،وخسف جزء من الأرض كفيل بأن يخوفكم ويرهبكم ،والبر نعمة وخسف جزء منه سيهلكهم هلاكاً ،يقول الفخر : (وإنما قال : * جَانِبَ الْبَرِّ * لأنه ذكر البحر في الآية الأولى فهو جانب ، والبر جانب . خبّر الله تعالى أنه كما قدر على أن يغيبهم في الماء ،فهو قادر على أن يغيبهم في الأرض)[1] ثم عطف هذه الجملة على * أو يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً * والحاصب : هي الحجارة الصغيرة ،وإرسال الحاصب من السماء فيه دلالة على الغضب والسخط، وفيه أيضاً تهويل وتخويف لهؤلاء المعاندين * ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * : (يعني لا تجدوا ناصراً ينصركم ويصونكم من عذاب الله).[2] وفي (ثُمَّ) استبعاد وجود الناصر في ذلك الوقت .

وتأتي الآية الثانية من سورة الملك لتتحدث عن قدرته على إنزال عذابه * ءَأَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * .

وبدأت أيضاً بالاستفهام الإنكاري ،أي إنكار أن يأمنوا مكر الله ، والحال أنهم عصاة معاندون ،وتتحد صياغة الآية مع سابقتها إلا أن هنا رتب على الخسف أن تمور الأرض ، فالمور من نتائج الخسف ،ومعنى تمور أن ترتج وتضطرب وفي مجيئه بالمضارع استحضار للمور وكأنه حادث ،

---

(١)،(٢) التفسير : ٢١/١٢ م١١.

فهو أدى للتخويف والتهويل وقد جاء بعد : * إذا * التي تدل على المفاجأة ، وقيد الفعل بقوله : * مَن فِي السَّمَاءِ * دون سائر الآيات لعدة وجوه ذكرها الفخر ، منها أن السماء موضع عذابه تعالى ، أو أن في ذكرها تفخيم لسلطان الله وتعظيم لقدرته ، أو أن المقصود به الملك الموكل بالعذاب وهو جبريل عليه السلام[1] .

ثم تأتي (أَمْ) للإضراب ، والانتقال إلى إنكار آخر ، وفرق بينها وبين (أَوْ) في الآية السابقة ، وتتكرر (أَمِنتُمْ) مرة أخرى للتأكيد ، وفيه إنكار عليهم أن يأمنوا من أن يرسل عليهم من السماء حاصباً في * أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً * ثم تتفرع منها جملة * فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * والسين تدخل على الفعل للدلالة على وقوعه في المستقبل القريب ، وهو وإن لم يحصل فإن فيه تهديداً وتحذيراً وتهويلاً . وفي قوله : * كَيْفَ نَذِيرِ * إخبار عن صدق الرسول وعقوبة الإنذار[2] كما قال الفخر .

وقد قدم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب ؛ لأن الخسف من أحوال الأرض وإنزال الحاصب من أحوال السماء ، وخوف الإنسان من تقلب أحوال الأرض أقرب من خوفه من أحوال السماء ، فذكرت أولاً .

وهذه الآية أكثر دلالة على التخويف والترهيب ففيها خسف للأرض لا لجانب منها ، ثم تكرار (أَمِنتُمْ) مرتين مع الاستفهام .

وفي الزجر ذكر الفخر آية واحدة ووصفها بأنها : (ما لا يبلغه وهم البشر) في قوله تعالى : * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا * .

---

(١)، (٢) ينظر التفسير : ٣٠ / ٧٠ م١٥ .

هذه الآية تذكر أصناف العذاب التي نزلت على الذين كفروا ولم يذعنوا لأوامر الله ، وقد جاءت في سياق ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم الصادين عن دين الله، ونلاحظ أنها بنيت على التقسيم ، وبدء كل قسم بـ (كُلًّا) وهي تفيد الاستغراق والشمول ، وقد جاءت مفعولاً به مقدماً فأفادت الاهتمام بأمر هؤلاء وذلك أبلغ في مقام الأخذ والانتقام . ثم نتأمل الأفعال : (أَخَذْنَا - أَرْسَلْنَا - خَسَفْنَا - أَغْرَقْنَا) في إضافة الـ (نا) إليها دلالة على عظمته تعالى وقدرته ، ثم نلاحظ اختلاف النسق في * أَخَذَتْهُ * .

وفي ذكر الضمير * مِنْهُم * دون الاسم الصريح دلالة على أنهم ليسوا من المكانة حتى يذكروا ، أو أن عذابهم لا يخفى على أحد . فقوم لوط أرسل عليهم حاصباً ومدين وثمود أخذتهما الصيحة ، وقارون خسف به الأرض ، وفرعون أغرق في البحر ، وفي الجمع بين صنوف العذاب زجر للذين يعصون الله ما أمرهم ، وقد ذكر الفخر كلاماً لطيفاً في سر تنوع العذاب فقال :

(فحصل العذاب بالعناصر الأربعة ، والإنسان مركب منها وبها قوامه ، وبسببها بقاؤه ودوامه ، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سبباً لعدمه ، وما به بقاؤه سبباً لفنائه)(١) .

ثم ذكر الفخر آية واحدة في الوعظ من سورة الشعراء ، وهي قوله تعالى : * أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * وقد جاءت في سياق ذكر إصرار الكفار على الجحود ، وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ، مع يقينهم بنبوته ، استكباراً وعناداً ، فهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، قال تعالى : * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم

---

(١) التفسير : ٢٥/٦٨ م١٣ .

مَاكَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّاكَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ *.(١)

فالآية جاءت بين آيات فتناهت في الوعظ ،وقد جيء بفعل الرؤية والاستفهام ليكون في معنى أخبر ، إفادة لمعنى التعجب والإنكار ،وأن حق هذه القصة أن يخبر بها كل أحد حتى يتعجب من أمرهم.(٢)

والآية الأخيرة التي ذكرها الفخر في الإلهيات ،وهي قوله تعالى : * اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ *.(٣)

تدل على تفرده بالألوهية وإثبات العلم له دقائقه وعظائمه.

وقد بدئت الآية بلفظ الجلالة * اللَّهُ * مقدمة على الفعل * يَعْلَمُ * لبيان اختصاصه وحده بهذا العلم ،فالله وحده يعلم ما في بطون الأرحام. ثم جاءت (مَا) في * مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى * لتدل على أن أمر الحمل مبهم لا يعلمه أحد ،(وكل أنثى) يدخل تحتها كل أنثى على وجه الأرض من إنسان وحيوان ،ثم يمتد علمه ومعرفته لما تنقص به الأرحام وهذا معنى * مَا تَغِيضُ * فغيض الرحم انحباس دم الحيض عنه(٤) ، وكذلك علمه لما تزداد ،وزيادتها فيضان الحيض منها أو ما فيها من أجنة ، وفي مجيء الأفعال مضارعة متوالية (تَحْمِلُ - تَغِيضُ - تَزْدَادُ) دلالة على تكرار هذا الأمر من كل أنثى واستمرار علمه تعالى لهذه الأمور.

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٨ - ٢٠٧.

(٢) روح المعاني ،للآلوسي : ١٩/ ١٣١.

(٣) سورة الرعد : من الآية ٨.

(٤) ينظر التفسير : ١٩/ ١٦ م١٠.

وهكذا رأينا آيات القرآن هذه دالة على الفصاحة في سائر أبواب المعاني ، وقد فتحت أبواباً وآفاقاً جديدة لا عهد للعرب ولا لبيانهم بها صلة، فهي جديدة في أبوابها ، فلم يكن هناك اعتقاد بالجنة ولم يكن هناك ما ينظم حياة الناس وما يزجرهم عما هم فيه من فوضى وطيش ، فجاءت هذه المعاني الجديدة من نوع خاص غير ما اعتادوه على أعلى درجة من الصياغة - وإن اتحد الغرض - تفيض بمعان لا تنتهي ولا تنضب .

وبعد أن يدلل الفخر بهذه الآيات على الوجه السادس ، يذكر الوجه السابع لخصائص القرآن ، وهو لا يتصل بالوجوه السابقة ؛ لأنه يتحدث فيه عن اشتمال القرآن على أصول جميع العلوم .

يقول : (إن القرآن أصل العلوم كلها ، فعلم الكلام كله في القرآن ، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن ، وكذا علم أصول الفقه ، وعلم النحو واللغة ، وعلم الزهد في الدنيا ، وأخبار الآخرة ، واستعمال مكارم الأخلاق . ومن تأمل كتابنا في دلائل الإعجاز علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه البلاغة إلى النهاية القصوى) (١) .

ويلتقي الفخر في هذا الوجه مع أبي حامد الغزالي الذى ذهب إلى أن في القرآن جميع العلوم الدينية والدنيوية ، وأنها كامنة في مطاويه ، وقد أشار إلى ذلك في العديد من مؤلفاته فيذكر في إحياء علوم الدين أن في القرآن رموزاً ودلالات على كل ما اختلفت فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، والقرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها (٢) .

---

(١) التفسير : ٢/١٢٧ م١ .

(٢) ينظر إحياء علوم الدين : ١/٣٤١ .

وبعد أن ذكر الفخر الطريق الأول وأسهب في الحديث عنه عرض للطريق الثاني ، وقد بناه على افتراضين :

الأول : أن يكون القرآن معجزاً ببلاغته ، الثاني : أن يكون معجزاً بالصرفة ثم يسلم بهما جميعاً في نهاية حديثه .

يقول : (الطريق الثاني : أن نقول القرآن لا يخلو إما أن يقال إنه كان بالغاً في الفصاحة إلى حد الإعجاز ، أو لم يكن كذلك ، فإن كان الأول ثبت أنه معجز ، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة ، فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة ، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق للعادة ، فكان ذلك معجزاً ، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه ، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب)(١) .

الفخر هنا في مقام جدل وإلزام حجة ، فالقرآن إما أن يكون معجزاً بالبلاغة أو بالصرفة ، والقول بالصرفة قائم على تفسيرات ثلاثة ذكرها العلوي :

الأول : يكون المراد أن الله سلب دواعيهم عن المعارضة مع توفر الأسباب .

الثاني : أن يكون المراد أن الله سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بمثله .

الثالث : أن يراد بالصرفة المنع بالإلجاء والقسر(٢) .

والصرفة عند الفخر هي أن المعارضة ممكنة لكن الله دفعهم عنها . وقد لاحظت أن الفخر يكرر ما يشبه مقولته السابقة في مواضع عدة من التفسير ، بل

---

(١) التفسير : ١٢٧/٢ م١ .

(٢) ينظر الطراز : ٣٩١/٣ - ٣٩٢ .

أن الإعجاز في السور القصار كسورة الكوثر والعصر راجع إلى الصرفة ،وما عداها من سور يكون الإعجاز بالبلاغة.

يقول : (فإن قيل قوله : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ [(١)] يتناول سورة الكوثر ،وسورة العصر ،وسورة قل يا أيها الكافرون ،ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن ،فإن قلتم إن الإتيان بأمثال هذه السورة خارج عن مقدور البشر كان ذلك مكابرة ،والإقدام على أمثال هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين ، قلنا فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني وقلنا إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز حصل المقصود ،وإن لم يكن الأمر كذلك كان امتناعهم عن المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزاً ،فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز)[(٢)] فإذا لم يكن الإعجاز بالبلاغة فهو بالصرفة .

وطريقة الفخر هنا تقوم على المجادلة والإقناع وإقامة الحجة على إثبات أن الإعجاز في السور القصار يكون بالصرفة.

ومن الغريب أنه في (نهاية الإيجاز) يعقد فصلاً في وجه الإعجاز في سورة الكوثر ،اختصره من رسالة للزمخشري في هذه السورة ،يسهب الحديث فيه عن وجه إعجازها من الناحية البلاغية.[(٣)]

كذلك نجده في كتابه هذا يرد مذهب الصرفة وهو يتحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم ،ويدلل على فساده بثلاثة وجوه .[(٤)]

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٣ .

(٢) التفسير : ١٢٨/٢ م١ .

(٣) ينظر نهاية الإيجاز : ٣٧٥ .

(٤) المصدر السابق : ٨٠ .

أما في التفسير فهو يعرض لهذا المذهب ،ويسلم به على حد مارأينا بل إنه يذكره عند تفسير الآيات التي تدل دلالة واضحة على نفي هذا المذهب. كقوله في قوله تعالى : ﴿ قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [(١)] (وللناس فيه قولان : منهم من قال القرآن معجز في نفسه ،ومنهم من قال إنه ليس معجزاً ، إلا أنه لما صرف دواعيهم عن الإثبات بمعارضته مع أن تلك الدواعي كانت قوية ،كانت هذه الصرفة معجزة . والمختار عندنا في هذا الباب أن نقول القرآن في نفسه إما أن يكون معجزاً أو لا يكون ،فإن كان معجزاً فقد حصل المطلوب ،وإن لم يكن معجزاً بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة ،وما كان لهم عنها صارف ومانع ، وعلى هذا التقدير كان الإتيان بمعارضته واجباً لازماً ، فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضاً للعادة فيكون معجزاً. فهذا هو الطريق الذى نختاره في هذا الباب) [(٢)].

فهو لا يرى انفراد القرآن بوجه مما قاله الناس ، ولذلك اختار هذين الوجهين، فهو إما معجز في نفسه ، أو معجز بعدم قدرتهم على المعارضة مع إمكانها وهو ما يعرف بالصرفه ،مع أن سياق الآية التي ذكر فيها هذين الوجهين تدل على اجتماعهم وعجزهم مع بقاء قدرتهم،فهي تحدد طريقاً واحداً للإعجاز يعود إلى القرآن نفسه [(٣)] ، ولو كان قد سلبهم الله القوى لما ذكر تساندهم وتظاهرهم؛لأن من ليس لهم قدرة لا يكون لاجتماعهم أثر.

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨.

(٢) التفسير : ٥٥/٢١ م١١.

(٣) ينظر البيان في إعجاز القرآن : ٢٣.

وبعد أن ثبت أن هذا رأيه ،وقد ذكره في عدة مواضع من التفسير ، لا يختلف في موضع عن الآخر ، بل إن العبارات تكاد تكون واحدة ،مبنية كلها على الافتراضات.

أحب أن أعرض سؤالاً أتلمس الإجابة عليه ، وهو ما الذى دفع الرازى إلى القول بهذا المذهب مع أنه نقضه في النهاية ،وأصر على أن القرآن معجز بالفصاحة ،وما الذى دفعه أن يكرر ذلك مراراً فيقول : (فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب) .

ويقول : (فهذا هو الطريق الذى نختاره في هذا الباب).

ويقول بعد ذكر الصرف في السور القصار : (... ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن ،فإن قلتم إن الإتيان بأمثال هذه السورة خارج عن مقدور البشر كان ذلك مكابرة والإقدام على أمثال هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين ، قلنا فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني) .

أقول : واضح أن الفخر يذهب بهذا الكلام مذهب مجاراة الخصم، وهو نوع من الجدل الملزم في النهاية إلى الحق الذى يراه ،ولعله سلك هذا الطريق قطعاً للشغب ،وحسماً للأمر ، وسداً لباب الشبهة - وهذا ما يوحي به كلامه - فهو قد عاش في عصر استشرت فيه الفتن ،وتشعبت المذاهب ،وكثرت الفرق الكلامية من شيعة و معتزلة ومرجئة وكرامية ،وكانت المعارك الطاحنة تقع بينهم ،وللفخر كثير من المناظرات مع أئمة هذه الفرق ،دفع فيها كل حجة باطلة، وأكثر هؤلاء من أهل الزيغ والضلال،ولا يملكون من الطبع ما يجعلهم يقتنعون بإعجازه بالبلاغة والنظم ،فرمى في وجوههم هذه المقولة.

وقد تنبه بعض العلماء إلى هذا التناقض القائم في التفسير ،وإلى قول الفخر بالبلاغة والصرفة في السور القصار ،فأرجعه إلى أنه طريقة في المجادلة للمنافحة عن الحق .

يقول ابن كثير : (وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق ، وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر، وإنا أعطيناك الكوثر)[١].

وفي موضع آخر من التفسير يستعرض الفخر آراء وأقوال العلماء في أسباب إعجاز القرآن ثم ينقضها كلها ، ويختار الوجه القائل بأنه معجز بفصاحته مستدلاً بنظم الآية التي كان بصدد تفسيرها من سورة هود ، وهي قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٢] يقول : (اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزاً ، فقال بعضهم : هو الفصاحة ، وقال بعضهم : هو الأسلوب وقال ثالث : هو عدم التناقض ، وقال رابع : هو اشتماله على العلوم الكثيرة ، وقال خامس : هو الصرف ، وقال سادس : هو اشتماله على الاخبار عن الغيوب . والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة . واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية ، لأنه لو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم ، أو الإخبار عن الغيوب ، أو عدم التناقض لم يكن لقوله : ﴿ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ معنى ، أما إذا كان وجه الإعجاز هو الفصاحة صح ذلك ، لأن الفصاحة تظهر بالكلام ، سواء كان الكلام صدقاً أو كذباً ، وأيضاً لو كان الوجه في كونه معجزاً هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة العالي في الفصاحة)[٣] والفصاحة عند الفخر مرادفة للبلاغة - على حد ما بينت في مبحث النظم عنده - .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ١/ ٦١ .

(٢) سورة هود : ١٣ .

(٣) التفسير : ١٧/ ٢٠٣ م٩ .

ومعنى قول الفخر : (لأنّ فصاحة الفصيح تظهر بالكلام سواء كان صدقاً أوكذباً) أى أن التحدى هنا وقع باللفظ دون المعنى ،لأنّ الافتراء يوصف به المعنى لا اللفظ والفصاحة تظهر بالقدرة على النظم سواء كان المعنى صدقاً أوكذباً .

ويقصد بقوله : (واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية) علماء منهم عبد القاهر الجرجاني الذى ذكر هذه الآية وقال : (وذاك أنا نعلم أن المعنى " فأتوا بعشر سور تفترونها أنتم " وإذا كان المعنى على ذلك ، فبنا أن ننظر فى الافتراء إذا وصف به الكلام ،إلى المعنى يرجع أم الى اللفظ والنظم ،وقد عرفنا أنه لا يرجع إلا إلى المعنى)(١) .

وفي كلام الفخر الأخير : (لوكان الوجه في كونه معجزاً هو الصرف . . . إسقاط للقول بالصرفة وإقامة الحجة على ذلك ،وهذا يؤيد ما ذهبتُ إليه سابقاً من أن قوله بالصرفة في بعض المواضع مجاراة للخصم.

ولم يحاول أن يبطل أى قول من الأقوال التي ذكرها إلا القول بالصرف، وفي ذلك دلالة على أنه أكثر الأقوال بعداً عن قيام الإعجاز عليه ،ومناقضاً للقول بأنه معجز بالفصاحة ،لأنّ الفصاحة تعنى أن يأتوا بمثله فى حسن النظم، والصرفة تعنى أن يأتوا بمثله حتى ولوكان كلاماً ركيكاً وبين الوجهين تناقض وتباين واضح .

واختيار الفصاحة وجهاً للإعجاز هو الرأى الذى استقر عليه في حديثه عن إعجاز القرآن في كتابه (نهاية الإيجاز) بعد أن نقض جميع الوجوه ودلل على فسادها بالحجة والبرهان حيث يقول : (ولما بطلت هذه المذاهب

---

(١) الرسالة الشافية : ٦١٧ .

ولا بد له من أمر معقول حتى يصلح التحدى به ،ويعجز الغيرعنه ،ولم يبـق وجه معقول فـي الإعجاز سوى الفصاحة ،علمنا أن الوجه فى كون القرآن معجزاً هو الفصاحـة) .(١)

وقد يرجع الفخرالإعجاز إلى فصاحة اللفظ وشرف المعنى وإلى ترتيبات القرآن ،التي رأيناه يتتبعها تتبعاً دقيقاً ، ويحرص على بيان دقائقهـا في أكثرآيات القرآن ،ويرى ما في تسلسلها و ترابطها من الدقائق واللطائـف الخفية ، بل يسميها نظماً ،يقول عند تفسيرآخرآيات سورة البقرة : (ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ،وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحـة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ،ولعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك ،إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمـور ، وليس الأمر في هذا الباب كما قيل :

وَالنَّجْمُ تَسْتَصغِرُ الأَبْصارُ رؤيتَه
وَالذَّنبُ للطَّرفِ لَا للنَّجم في الصِغَرِ) (٢)

وأظن أنه يقصد بفصاحة اللفظ وشرف المعنى البلاغة القائمة فـي القرآن ، والتي يسميها دائماً الفصاحة، وهذا خلاف ما قال به عبد القاهر من أن الإعجاز يكون بالنظم على طريقة مخصوصة ،ورفض ما قاله فريق من رجـوع المزية إلى اللفظ ،وما قاله آخرون من رجوع المزية إلى المعنى .(٣)

---

(١) ص : ٨٢ .
(٢) التفسير : ١٣٩/٧ م٤ .
(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ٥٧ .

وإذا كان عبد القاهر يساوى بين الفصاحة والبلاغة والترتيب فإن الفخر يفرق بينهما، وأراه هنا متأثراً بأبي هاشم الجبائي الذى يجعل النظم في هذين العنصرين يقول القاضي عبد الجبار نقلاً عنه : (قال شيخنا أبوهاشم : إنما يكون الكلام فصيحاً بجزالة لفظه ، ولا بد من اعتبار الأمرين)(١) .

ثم يعقب القاضي عبد الجبار على كلامه ويبين أن صورة تركيب الكلام أساس في بلاغة العبارة وفصاحتها فيقول : (اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ، وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة)(٢) .

ثم يرجع الفخر الإعجاز ثانياً إلى الترتيب ونظم الآيات ، أى المناسبات القائمة بين كلمات الآية الواحدة ، وما بين الآية وآية أخرى ، ثم ما بين أغراض الكلام في السورة الواحد ... وهكذا حتى يمتد ليشمل مناسبة سورة مع سورة ، والتي حرص على أن يسميها نظماً .

ويربط الفخر هنا بين المناسبات القرآنية والأسلوب ... ولكن ما معنى الأسلوب ؟ الإعجاز بالأسلوب يعني اختصاص القرآن بطريقة نظم لا يوجد لها نظير في كلام الناس المعتاد من نثر وشعر .

وقد ذكر الفخر الأسلوب ، ورد إليه الإعجاز ، في موضع من التفسير فقال : (أن يكون " أى الإعجاز " بحسب النظم في الأسلوب ، وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ، ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل)(٣) .

---

(١) ، (٢) المغني : ١٦/١٩٩ .

(٣) التفسير : ٢٦/٢٦٨ م ١٣ .

ولكن ما وجه الشبه بين المناسبات وبين الأسلوب الذى جعل الفخر يقول عنه : (لعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك) .

قد يكون تفرد القرآن بهذه الطريقة من الترابط يشبه أسلوب القرآن أى طريقته التي تفرد بها في النظم ، ولذلك شبهه بها .

وهكذا فالإعجاز عنده يظهر من طريقين :

١ - إعجاز من حيث فصاحة ألفاظه وشرف معانيه .

٢ - من حيث نظم كل جملة مع اختها بالنظر إلى ترتيبها والمناسبة بينهما .

والوجه الأول قد يقصد به الفصاحة القائمة على هذين الأمرين ، ورجحتُ أنه أخذه من الجبائي .

أما الوجه الثاني فلم يقل به أحد قبل الفخر وجهاً للإعجاز القرآني، ويظهر تفرده في ذلك من خلال ربطه بين الآيات والسور ارتباطاً وثيقاً حتى تصير بناء واحداً لا خلل بين أجزائه حتى لقد قال : (إن الإعجاز يكاد ينحصر في هذا المعنى الذى لا يوجد أبداً في كلام البشر) (١) .

كما أن معرفة هذه المناسبات مما يخفى على الناظر، فقد يظهر أن المعاني متنافرة بعيدة الأغراض، وبالتأمل الفاحص، وإعمال الفكر في السابق واللاحق يظهر لنا الترابط والعلاقة .

والرافعي من المحدثين الذين يوافقون الفخر، في تحقيق الإعجاز من جهة المناسبات القرآنية .

---

(١) نقلاً من (دراسة في إعجاز القرآن) : ٢٤٥، بحث ملحق بآخر كتاب (أسرار التكرار في القرآن) للكرماني، من تأليف محقق الكتاب عبد القادر أحمد عطا .

يقول : (من أعجب ما اتفق في هذا القرآن من وجوه إعجازه أن معانيه تجرى في مناسبة الوضع وإحكام النظر مجرى ألفاظه على ما بيناه من أمرهـــــا ، ولا يعدم المفكروجهاً صحيحاً من القول في ربط كل كلمة بأختها ، وكل آيـــــة بضريبتها ، وكل سورة بما إليها ، وهو علم عجيب أكثر منه الفخر الرازى فـــي تفسيره)[(١)] .

ويأخذ الفخرعلى المفسرين إعراضهم عن التنبه للمناسبات ، التـــي سماها لطائف لدقتها ، ولحاجتها إلى التأمل ، وهذا شأن أكثر العلمـــاء ، يستشعرون بعظم المسألة العلمية التي يتفردون بالبحث عنها ، ويتهمون غيرهـــم من أهل العلم بالغفلة وعدم إدراك عظم الحقائق ، فأبو بكر النيسابورى كان يزدرى علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة ، ويقول ابن العربي في هذا العلم : (فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبيـــن الله ...)[(٢)] .

وأدعنا لا أقول إن الفخر يفضل القول بأن القرآن معجز بألفاظـــه ومعانيه في موضع آخر من التفسير وهو بصدد تفسير قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[(٣)] .

يقول : (كون القرآن أحسن الحديث إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه .

---

(١) إعجاز القرآن : ٢٤٤ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٣٨ .

(٣) سورة الزمر : من الآية ٢٣ .

القسم الأول : أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين :

الأول : أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة.

الثاني : أن يكون بحسب النظم في الأسلوب ؛ وذلك لأن القرآن ليس من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل مع أن كل ذي طبع سليم يستطيبه ويستلذه .

القسم الثاني : أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى وفيه وجوه :

الأول : أنه كتاب منزه عن التناقض ... ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات.

الوجه الثاني : اشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل) .(١)

في موضع آخر يجمع إلى الإعجاز بالبيان الإعجاز بالإخبار عن الغيوب والإعجاز لاشتماله على العلوم الكثيرة مستنبطاً هذه الوجوه من سياق الآية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .(٢)

يقول : (... بين الله تعالى أولاً كونه معجزاً من وجوه :

أحدها : أن الأقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل ...)

ثانيها : قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك لأن بعض الناس قال : إنا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية

---

(١) التفسير : ٢٦/٢٦٨ م١٣.

(٢) سورة النمل : ٧٦ - ٧٧.

على التوحيد والنبوة وشرح صفات الله تعالى ،وبيان نعوت جلاله ما لم نجده في شيء من الكتب . . . ووجدنا ما فيه من الشرائع . .ووجدناه مبرأ من التناقض . . . فكان هدى ورحمة من هذه الجهات .

وثالثها : إنه هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه في الفصاحة حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز)[1] ويبطل الفخر مذهب جعل الإعجاز في الإخبار عن الغيوب في كتابه (نهاية الإيجاز) لأن الغيوب لا توجد في كل سورة وكل آية .[2]

وهكذا ظل الفخر يعدد وجوه الإعجاز في كثير من تفسيره الآيات، كلما تحدث عن المعجز أو التحدى أو عن معنى آية تتحدث عن صفات القرآن وقد تتكاثر عنده فتصل إلى خمسة وجوه كما في تفسيره لقوله تعالى :
﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[3] فقد ذكر أن القرآن معجز من خمسة وجوه ، البلاغة ،والإخبار عن الغيوب ، والبراءة من النقص ،واشتماله على الأحكام ،واشتماله على أنواع العلوم ،[4] فهو في أكثر المواضع حريص على أن يجعل البلاغة أو الفصاحة إحدى وجوه الإعجاز ، سائراً في ذلك على نهج أكثر علماء العربية .

على أنه أحياناً يرجع الإعجاز إلى وجوه أخرى غير الفصاحة ويفصل القول في ذلك ، نظراً لأن مقام تفسير الآية التي يفسرها يقتضي ذلك كأن يستنبط

---

(١) التفسير : ٢٤/٢١٥-٢١٦ م١٢ .

(٢) ينظر نهاية الإيجاز : ٨٢ .

(٣) سورة الفرقان : ٦ .

(٤) ينظر التفسير : ٢٤/٥١-٥٢ م١٥ .

وجهين للإعجاز من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) فيقول : (واعلم أن الناس اختلفوا في أن القرآن معجز من أى الوجوه ، فقال بعضهم إنه معجز لاشتماله على الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ومنهم من قال إنه معجز لاشتماله على العلوم الكثيرة وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ كل شيء ﴾) (٢) .

ثم يحقق المسألة ويتحدث عن احتواء القرآن على شتى العلوم الدينية فيقسم ويفرع ويشرح ويستشهد حتى يقول : (فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الشرعية ، عقليها ونقليها ، اشتمالا يمنع حصوله في سائر الكتب فكان ذلك معجزاً) (٣) .

وقد ذكرت سابقاً أن بعض العلماء قد أطال في الحديث عن العلوم المستنبطة من القرآن كالغزالي ، بل إن بعضهم قد بالغ في ذلك فرأى أن القرآن قد اشتمل على شتى أنواع العلوم ، فالسيوطي يقول : (وأنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء ، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها) (٤) .

وقد لاحظت أن بعض الكتب التي تتحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم ، تذكر أن الرأى يرجع الإعجاز في القرآن إلى الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . فيقول الزركشي وهو يعدد أوجه الإعجاز وينسبها إلى من قال بها : (إن وجه الإعجاز الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من

---

(١) سورة يونس : ٣٧ .

(٢) ، (٣) التفسير : ١٧ / ١٠٠ م٩ - سورة يوسف : من الآية ١١١ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٢٩ .

جميع العيوب وغير ذلك مقترناً بالتحدى ، واختاره الإمام فخر الدين)[1] .

ويقول السيوطي : (وقال الإمام فخر الدين وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب)[2] .

وقول العلماء هذا يخالف ما ذهب إليه الفخر (في نهاية الإيجاز) حيث نقض مذهب الصرفة ، والابتداء بأسلوب ، والتناقض والاختلاف ، واشتماله على الغيوب ، ولم يرتض إلا مذهب الإعجاز بالفصاحة .

لكنه في التفسير ذكر وارتضى وجوهاً متعددة للإعجاز ، فتارة يقصره على وجه واحد ، وتارة على وجهين ، وتارة على ثلاثة . . . وهكذا -كما رأينا - ولا أعلم لماذا قصر هؤلاء العلماء مذهب الفخر في الإعجاز على هذه الوجوه مع أنه ذكر وجوهاً أخرى كالإعجاز بالمناسبات ، وهو وجه انفرد به في ذلك الوقت ، أو اشتماله على سائر العلوم وغير ذلك من الأوجه التي ذكرها .

وأتساءل هنا ما الذى جعل الفخر يضطرب في تحديده للإعجاز في التفسير على هذه الطريقة ، هل هو مذهبه في مجاراة الخصم على حد ما ذكرت في قوله بالصرفة ، أو أن هناك سبباً أو أسباباً أخرى وراء هذا الاختلاف في الأقوال .

أرى أن هناك أمراً يمكن أن يقال وهو أن تلاميذ الفخر هم الذين كتبوا عنه تفسيره ، فقد كان يمليه عليهم من فوق المنبر ، وكان كبارهم نحو الثلاثمائة فلا يبعد أن تكون كتابتهم عنه مختلفة ، فبعضهم يزيد وبعضهم ينقص ، وقد يحدث تغيير من الذين نقلوا عنهم بعد ذلك ، وبهذا يمكن تعليل هذا الاضطراب في التفسير .

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٩٨ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١١٩ .

الباب الثالث

تأثـر الفخـر وأثــره

الفصل الأول
تأثر الفخر بمن قبله

أ – تأثره بعبد القاهر الجرجاني ٠

ب – تأثره بالزمخشري ٠

جـ – تأثره ببعض المفسرين ٠

د – تأثره ببعض النحاة ٠

أ - تأثره بعبد القاهر الجرجاني

يبدو أثر الإمام عبد القاهر ظاهراً في تفسير الفخر، ذلك أنه - كما نعلم - لخص كتابي عبد القاهر، ورتب أبوابهما وحرر مسائلهما كما يقول في مقدمة كتابه (نهاية الإيجاز) لكنه لم يضف شيئاً إلى ما قاله الشيخ عبد القاهر، مع أن الشيخ كان يدعو دائماً إلى البحث وشق حجب فقه هذه اللغة والتغلغل في أسرارها، واكتفى بتلخيصها ووضعها في أطر وقواعد.

وقد لاحظت أنه لم يعن بنقل أكثر بلاغة عبد القاهر التي ذكرها في النهاية إلى حيز التطبيق في التفسير، فلم أجد له ذكراً إلا في أبواب متعددة. كما أنه أهمل في التفسير تحليل كثير من الآيات التي نقلها عن عبد القاهر في النهاية من الناحية البلاغية في شتى الأبواب، كما يبدو تأثره به من خلال متابعته للزمخشري الذي بدوره طبق كثيراً مما قرره عبد القاهر.

ذلك أنني أجملت تأثره بعبد القاهر في ثلاثة طرق :

١ - أنه ينقل منه القاعدة ثم يطبقها على الآية.

٢ - يستشهد به في الرد على بعض المسائل.

٣ - يأخذ عنه أخذاً غير مباشر.

١ - لخص الفخر بعض أبواب عبد القاهر، وأثبتها في التفسير، وهذه الأبواب هي :

أ - باب التقديم : اختصر الفخر كلام عبد القاهر هذا الباب، وبين ما يفيده التقديم بعامة.

ذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (١) حيث بنى جوابه فيها على ما قاله عبد القاهر.

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨.

يقول : (لو قال : يتربص المطلقات ،لكان ذلك جملة من فعـــل وفاعل ، فما الحكمة في ترك ذلك وجعل المطلقات مبتدأ ،ثم قوله : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ إسناد الفعل إلى الفاعل ، ثم جعل هذه الجملة خبراً عن هذا المبتدأ ،والجواب قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتاب : " دلائل الإعجاز " إنك إذا قدمت الاسم فقلت : " زيد فعل " فهذا يفيد من التأكيد والقوة ما لا يفيده قولـــك : " فعل زيد " ،وذلك لأن قولك : " زيد فعل " يستعمل في أمرين :

أحدهما : أن يكون لتخصيص ذلك الفاعل بذلك الفعل ،كقولك : أنا أكتب في المهم الفلاني إلى السلطان ، والمراد دعوى الإنسان الانفراد .

الثاني : أن لا يكون المقصود ذلك ،بل المقصود أن تقديـــم ذكر المحدث عنه بحديث كذا لإثبات ذلك الفعل كقولهم : هو يعطـــي الجزيل ،لا يريد الحصر ،بل أن يحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبـه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١) ليس المراد تخصيص المخلوقية ،وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَــدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ (٢) وقول الشاعر :

هُمَا يَلْبَسَانِ الْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَــةٍ

شَحِيحَانِ مَا اسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَــا (٣)

فكل هذه الأمثلة ذكرها عبد القاهر في الدلائل .

---

(١) سورة النحل : ٢٠ .

(٢) سورة المائدة : من الآية ٦١ .

(٣) ورد في التفسير (شجيهان) على خلاف ما أثبت عند عبد القاهر في الدلائل ،وقد صححتها ،والبيت لعمرة بن الخثعمية ترثى ابنيها .

ثم إن الذى ظهر لي وترجح عندى أن عبد القاهر لم يقل إن مثل : (زيد فعل) يفيد القصر ،بدليل أنه لما مثل اقتصر في تمثيله على ما كان المسند إليه ضميراً ،فيفيد عندئذ القصر، ولم يأت بمثال واحد للاسم الظاهر المقدم على الفعل لإفادة القصر ،بل كل أمثلته من هذا النوع ،مثل بها لما يفيد التقوية والتوكيد .

ورأى أن الفخر هنا قد ألحق تقديم المسند إليه الاسم بتقديم المسند إليه الضمير في إفادة التوكيد والقصر بدلالة أن أمثلة القرآن والشعر التي ذكرها قدم فيها الضمير على الفعل .

وقد رجعت إلى (نهاية الإيجاز) لأتثبت من الأمر فوجدته لا يفرق بينهما أيضاً يقول : (فإذا قدمت الاسم فقلت : زيد قد فعل ، وأنا فعلت ، اقتضى أن يكون القصد إلى الفاعل يقتضي وجهين :

الأول : أن يكون الغرض تخصيص ذلك الفعل بذلك الفاعل كقولك : أنا كتبت في معنى الأمر الفلاني ...

الثاني : ألا يكون المقصود هو التخصيص ،بل لأجل أن تقديم ذكر المحدث عنه بحديث آكد لإثبات ذلك الفعل له ،مثل قولهم : (هو يعطى الجزيل) .(٢)

أدعى ذا لأقول : إن الفخر في تطبيقاته على القرآن يرى أن التقديم لا يخرج عن هذين الغرضين ،فهو يسمى دلالة الاختصاص في أغلب الأحوال دلالة القصر ،ويسمى دلالة تأكيد إثبات الفعل العناية والاهتمام .

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز : ١٢٨ ومابعدها - باب التقديم والتأخير.

(٢) نهاية الإيجاز : ٣٠٧-٣٠٨ .

ثم يذكر الفخر بعد كلامه السابق الذى نقله من عبد القاهر أثر التقديم على النفس آخذاً ذلك أيضاً من عبد القاهر .

يقول الفخر : (والسبب في حصول هذا المعنى عند تقديم ذكر المبتدأ أنك إذا قلت : عبدالله ، فقد أشعرت بأنك تريد الإخبار عنه ، فيحصل فى العقل شوق إلى معرفة ذلك ، فإذا ذكرت ذلك الخبر قَبِلَه العقل قبول العاشق لمعشوقه ، فيكون ذلك أبلغ فى التحقيق ونفي الشبهة) (١) .

وهذا هو ما ذكره عبد القاهر ، يقول : (فإذا قلت : (عبدالله) فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً " قام " أو قلت " خرج " أو قلت " قدم " فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له ، وقدمت الإعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقَبِلَه قبول المهيأ له المطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة ، وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق) (٢) .

---

(١) التفسير : ٦/ ٩٣ م٣ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٣٢ .

التوكيـــد :

لخص الفخر كلام عبد القاهر في باب (إنَّ) ومواقعها في الكلام، وقد ذكر ذلك وهو يتحدث عن (إنَّ) نحوياً عند تفسيره لقوله تعالى : * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ *(١) فبعد أن حقق في أصلها، وذكر رأي البصريين والكوفيين فيها تحدث عن عملها بلاغياً عند عبد القاهر، دون أن يطبق ما قاله على فائدة (إنَّ) في الآية. بدأ حديثه عنها بقصة المبرد مع الكندي - التي ذكرتها سابقاً في مبحث التوكيد- ، ثم ذكر خصائصها مدعماً ذلك بالأمثلة المتعددة من القرآن والشعر، فمن خصائصها أنها تكون جواباً عن سؤال يقول الفخر : (واحتج عبد القاهر على صحة قوله - أي المبرد - بأنها إنما تذكر جواباً لسؤال السائل بأنَّ قد رأيناهم قد ألزموها الجملة من المبتدأ والخبر إذا كان جواباً للقسم نحو : والله إنَّ زيداً منطلق، ويدل عليه في التنزيل قوله : * وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ *(٢) ...

ثم بعد أن ذكر أمثلة متعددة قال إنها تأتي أيضاً إذا كان الخبر على خلاف ظن السامع يقول : (وقال عبد القاهر : والتحقيق أنها للتأكيد، وإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن في خلافه لم يحتج هناك إلى (إنَّ) وإنما يحتاج إليها إذا كان السامع ظن الخلاف، ولذلك تراها تزداد حسناً إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله كقول أبي نواس :

عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ   إِنَّ غِنَى نَفْسِكَ فِي الْيَأْسِ

---

(١) سورة البقرة : ٦ .

(٢) سورة الكهف : ٨٣ ومن الآية ٨٤ . التفسير : ٢ / ٤١ م ١ .

وإنما حسن موقعها لأنّ الغالب من الناس لا يحملون أنفسهم على اليأس).[1]

وذكر أن من خصائصها أيضاً ،أنها تجيء إذا ظن المتكلم في الذى وجد أنه لا يوجد وضرب على ذلك أمثلة.

والفخر في كل هذا ينقل عن عبد القاهر ،ويلخص أفكاره ،لكنه لـــم يطبق هذه الدواعي على الآيات القرآنية ،ولم يهتم بذكر دواعي للتوكيد غيرها إلا قليلاً -كما رأيناه في مبحث التوكيد -.

---

(١) التفسير : ٢/ ٤١ م١٠

العطــف :

يمنع الفخر عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية ،لكنه يجيزه إذا كان هناك أسرار تعبر عنها الجملة معتمداً في ذلك على قول عبد القاهر الجرجاني في أن الاسم يدل على الثبوت،والفعل على التجدد والحدوث.

يقول في تفسير العطف في قوله تعالى : * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ *(١) : (... هنا عطف الاسم على الفعل ،لأن قوله : * أَدَعَوْتُمُوهُمْ * جملة فعلية ،وقوله : * أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * جملة اسمية ،واعلم أنه ثبت أن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز إلا لفائدة وحكمة ،وتلك الفائدة هي أن صيغة الفعل مشعرة بالتجدد والحدوث حالاً بعد حال ،وصيغة الاسم مشعرة بالدوام والثبات والاستمرار).(٢)

فهذا ملخص كلام عبد القاهر في دلالة الاسم ودلالة الفعل يقول :
(إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئاً بعد شيء ؛وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شيء).(٣)

و ينسب إليه هذا الكلام صراحة في موضع بين فيه سر عطف الجملة الاسمية على الفعلية عند تفسيره لقوله تعالى : * إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ *(٤) : (عطف الاسم على

---

(١) سورة الأعراف : ١٩٣.
(٢) التفسير : ١٥/٩٦ م٨.
(٣) دلائل الإعجاز : ١٧٤.
(٤) سورة الأنعام : من الآية ٩٥ .

الفعل قبيح فما السبب في اختيار ذلك ؟ ... إن لفظ الفعل يدل على أن ذلك الفاعل يعتني بذلك الفعل في كل حين وأوان ، وأما لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة ، وضرب الشيخ عبد القاهر الجرجاني لهذا مثلاً في كتاب (دلائل الإعجاز) فقال قوله : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ﴾ (١) إنما ذكر بلفظ الفعل وهو قوله : ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ لأن صيغة الفعل تفيد أنه تعالى يرزقهم حالاً فحالاً وساعة فساعة ، وأما الاسم فمثاله قوله تعالى : ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (٢) فقوله : ﴿بَاسِطٌ﴾ يفيد البقاء على تلك الحالة الواحدة) (٣) .

فهو وإن شاع عنه أنه يمنع عطف الجملة الاسمية على الفعلية - كما رأينا عند ابن هشام . إلا أنه أجازه بناءً على ما قاله عبد القاهر واستنبطه من دلالة الاسم ودلالة الفعل .

---

(١) سورة فاطر : من الآية ٣ .

(٢) سورة الكهف : من الآية ١٨ .

(٣) التفسير : ٩٨/١٣ م٢ .

٢ - وقد يعترض الفخر على أقوال بعض العلماء ، فيستشهد على صحة قوله بما قرره عبد القاهر ، من ذلك أن الواحدي حين قدر مفعولاً للفعل ، رد عليه الفخر بأن ذلك يوجب تغيير المعنى وخروجه عن المراد ، بناء على ما ذكره عبد القاهر في باب الحذف .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾(١) : (قال الواحدي - رحمه الله - قوله : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أي سمعنا قوله وأطعنا أمره ، إلا أنه حذف المفعول لأن في الكلام دليلاً عليه من حيث جوابه ، وأقول هذا من الباب الذي ذكره عبد القاهر النحوي - رحمه الله - إن حذف المفعول به ظاهراً أو تقديراً أولى ؛ لأنك إذا جعلت التقدير سمعنا قوله ، وأطعنا أمره ، فإذن ههنا قول آخر غير قوله ، وأمر آخر يطاع سوى أمره ، فإذا لم يُقَدَّر فيه ذلك المفعول أفاد أنه ليس في الوجود قول يجب سمعه إلا قوله ، وليس في الوجود أمر يقال في مقابلته أطعنا إلا أمره ، فكان حذف المفعول صورة ومعنى في هذا الموضع أولى)(٢).

فمراد الآية إثبات الفعل على وجه الإطلاق دون اعتبار مفعول له وقد ذكر ذلك عبد القاهر في باب حذف المفعول فقال : (فاعلم أن أغراض الناس تختلف في ذكر الأفعال المتعدية فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين ، فإذا كان الأمر كذلك كان الفعل المتعدي كغير المتعدي في أنك لا ترى له مفعولاً لا لفظاً ولا تقديراً)(٣).

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨٥ .
(٢) التفسير : ٧/١٤٧ م٤ .
(٣) دلائل الإعجاز : ١٥٤ .

وللفخر اعتراضات على بعض آراء عبد القاهر :

من ذلك أن عبد القاهر يطعن في تقدير خبر محذوف في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (١) والتقدير : وقالت اليهود عزير ابن الله معبودنا ، ويقول : إن الاسم إذا وصف بصفة ثم أخبر عنه فمن كذبه انصرف التكذيب إلى الخبر ، وصار ذلك الوصف مسلماً ، ويضعف الفخر هذا القول ويرد عليه .

وسأذكر قول عبد القاهر المثبت في الدلائل ، ثم قول الفخر في التفسير ، يقول عبد القاهر : (أن يكون " الابن " صفة ، ويكون التنوين قد سقط على حد سقوطه في قولنا : " جاءني زيد بن عمرو " ويكون في الكلام محذوف ، ثم اختلفوا في المحذوف ، فمنهم من جعله مبتدأ فقدر : " وقالت اليهود وهو عزير بن الله " ، ومنهم من جعله خبراً فقدر : " وقالت اليهود عزير بن الله معبودنا " ، وفي هذا أمر عظيم ، وذلك أنك إذا حكيت عن قائل كلاماً أنت تريد أن تكذبه فيه ، فإن التكذيب ينصرف إلى ما كان فيه خبراً دون ما كان صفة) (٢) .

والفخر عند تفسيره لهذه الآية يرجح قول من جعل " ابن " صفة والخبر محذوفاً ، ثم يذكر ما رآه عبد القاهر ، ويضعف رأيه فيقول : (وطعن عبد القاهر الجرجاني في هذا الوجه في كتاب دلائل الإعجاز . . . وهذا الطعن عندي ضعيف أما قوله : إن من أخبر عن ذات موصوفه بصفه بأمر من الأمور وأنكره منكر توجه الإنكار إلى الخبر فهذا مسلم ، وأما قوله : ويكون ذلك تسليماً لذلك الوصف فهذا ممنوع ، لأنه لا يلزم من كونه مكذباً لذلك الخبر بالتكذيب أن يدل على أن ما سواه لا يكذبه بل يصدقه ، وهذا بناء على دليل الخطاب وهو ضعيف لا سيما في مثل هذا المقام) (٣) .

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٣٠ .

(٢) الدلائل : ٣٧٦ .

(٣) التفسير : ٣٦/١٦ م٨ .

٣ - هناك نظرات بلاغية في التفسير الكبير ترجع في أصولها إلى عبد القاهر ، وقد حرصت على ذكرها في مواضعها من البحث ، وسأذكر بعضها مما لم أوضحه وضوحاً ظاهراً ، كحرصه في بعض أبواب المعاني على بيان الأثر النفسي له ، فمثلاً في باب الالتفات ، بين الفخر ما يثيره هذا الأسلوب في النفس.

يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (١) : (... إن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً على نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت : قال زيد كذا وكذا ، وقال خالد كذا وكذا ، وقال عمرو كذا ، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً) (٢).

ويذكر الفخر الأثر الذي تبعثه الجملة الاستفهامية حين تأتي خبراً ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (٣) : (لما قال : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ كان كأنه يريد أن يأتي بالخبر فسكت عنه ثم قال في نفسه إن السكوت قد يوهم أنه لظهور حال الخبر كما يسكت على زيد في جواب من جاء ؟ فقال : ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ممتحناً زاعماً أنه لا يفهم ليكون ذلك دليلاً على أن سكوته على المبتدأ لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه وغرابته) (٤).

وهكذا كان عبد القاهر يرجع إلى النفس ويرصد ما يجده فيها من إحساس بالنوع الذي يتناوله ، وهو في ذلك يتتبع حركتها وهي تتلقى هذا الأسلوب البلاغي .

---

(١) سورة لقمان : من الآية ١٠ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٤٤-١٤٥ م١٣ .

(٣) سورة الواقعة : ٨ .

(٤) التفسير : ٢٩/١٤٥ م١٥ .

فمثلاً في باب الاستفهام يذكر ما يثيره الاستفهام الإنكاري في النفس يقول : (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار ، فإن الذي هو محض المعنى : أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له " فافعل " فيفضحه ذلك ، وإما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ)[1].

وغيره كثير يشيع في كتابه ، ويظهر بوضوح .

وقد اهتم الفخر بذكر مثل هذه التأثيرات لهذه الأساليب في تفسيره دون كتابه (نهاية الإيجاز) الذي كان تبويباً وتقعيداً لمسائل عبد القاهر .

---

(١) الدلائل : ١١٩ - ١٢٠ .

وهناك بعض المسائل البلاغية تعود في أصولها إلى عبد القاهر لكن يبدو أن الفخر قد أخذها من الزمخشري ولم يأخذها من عبد القاهر مباشرة.

كدلالة تعريف الخبر على القصر، وقد ذكرها كثيراً في التفسير يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (١) : (ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه ، فإنك إذا قلت : زيد هو العالم ، يفيد أنه لا عالم غيره) (٢).

ويقول عبد القاهر في الخبر المعرف بالألف واللام : (أن تقصر جنس المعنى الذى تفيده بالخبر على المخبر عنه ، لا على معنى المبالغة ، وترك الاعتداد بوجوده في غير المخبر عنه، بل على دعوى لا يوجد إلا منه) (٣).

كذلك يذكر الفخر دلالة تعريف الخبر على الكمال في الصفة وهي ما ذكره عبد القاهر ، يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤) : (أى هم الكاملون في الظلم البالغون المبلغ العظيم فيه ، كما يقال العلماء هم المتكلمون ، أى هم الكاملون في العلم فكذا ههنا) (٥).

ويقول عبد القاهر : (أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة وذلك قولك : " زيد هو الجواد " و " عمرو هو الشجاع " تريد أنه الكامل ، إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه) (٦).

---

(١) سورة الكوثر : ٣.
(٢) التفسير : ٣٢/١٣٣ م١٦.
(٣) دلائل الإعجاز : ١٨٠.
(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٥٤.
(٥) التفسير : ٦/٢٢٤ م٣.
(٦) دلائل الإعجاز : ١٧٩.

ب ـ تأثر الفخر بالزمخشري

أول ما يلفت انتباه الباحث عن النواحي البلاغية في تفسير الفخر الرازي كثرة نقولاته عن الزمخشري، على الرغم من اختلاف مذهبيهما، فالزمخشري يدافع عن عقائد المعتزلة، والرازي يهاجمها وينتصر لأهل السنة والجماعة، ولم يقتصر اهتمامه على نظرات ودقائق اللغة والبلاغة، بل نقل عنه كثيراً من دقائق التفسير، وفند كثيراً من مسائل مذهبه الاعتزالي.

وقد لاحظت أن آثار الزمخشري البلاغية واضحة في كثير من أبواب المعاني عند الفخر في تفسيره، فهو يأخذ عنه ويقتفي أثره.

ويتنوع هذا الأخذ، لأن الفخر لم يكن ينقل عنه كيفما اتفق له، بل كان حريصاً على أخذ ما يوافق رأيه ويقتنع به (١)، وقد تتبعت هذا الأخذ فوجدته أنواعاً:

---

(١) كان الفخر يثني على الزمخشري عندما يروقه ويعجبه كلامه، ويصفه بالجهل عندما لا يعجبه، كأن يخوض في المسائل الاعتزالية.
فمثلاً عند تفسير قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ سورة غافر: ٧ يذكر الفائدة في قوله تعالى ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بعد الحمد والتسبيح في أن الله سبحانه لو كان حاضراً بالعرش لكان حملة العرش يشاهدونه، ولما كان إيمانهم موجباً للمدح، ولما لم يكن ذلك واقعاً فقد ذكر الله إيمانهم على سبيل المدح والثناء يقول الفخر بعد هذا: (ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً). التفسير: ٢٧/٣٤ م١٤.
ولعل سر ثناء الفخر عليه أنه رد على المجسمة.
ويقول في موضع آخر ذاماً له عند تفسير قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ... ﴾ سورة آل عمران: ١٨:
(ولقد خاض صاحب الكشاف ههنا في التعصب للاعتزال وزعم أن الآية دالة على أن الإسلام هو العدل والتوحيد، وكان ذلك المسكين بعيداً عن معرفة هذه الأشياء، إلا أنه فضولي كثير الخوض فيما لا يعرف. فهذا المسكين ما شم رائحة العلم من أين وجد ذلك). التفسير: ٨/٢٢٣ م٤.

١ - نقل الفخر كثيراً من الأسرار والنكات البلاغية التي في الكشاف نقلاً حرفياً مفصلاً قد لاحظت -كما قلت سابقاً- أن أقوال الزمخشري تسري في كل باب من أبواب المعاني ، وهي نوعان :

نوع يشير فيه إلى أنه من قول صاحب الكشاف ، وآخر لا يشير إلى أنه من قول الزمخشري ، وهذا يمثل أكثر ما في التفسير .

وكثيراً ما كنت أظن أن هذا الرأي للفخر ، وعند البحث والتحقيق أجد أنه للزمخشري ، لذلك فقد حرصت على مراجعة كل قول بلاغي للفخر في تفسير الزمخشري حتى أميز ما هو للفخر وما هو للزمخشري .

ومن هذا النوع ذكره لسر التكرار والعطف في قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (١) يقول الفخر : (في تكرير ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى ثبت لهم الاختصاص بالفلاح أيضاً ، فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين . فإن قيل : فلم جاء مع العاطف وما الفرق بينه وبين قوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ (٢) ؟ قلنا : قد اختلف الخبران هنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمت فإنهما متفقان ، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد ، وكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى فهي من العطف بمعزل) (٣) .

فهو ينسب القول لنفسه بدلالة قوله (قلنا) مع أنه للزمخشري (٤) .

---

(١) سورة البقرة : ٥ .

(٢) سورة الأعراف : من الآية : ١٧٩ .

(٣) التفسير : ٣٨/٢ م١ .

(٤) ينظر الكشاف : ١٤٦/١ .

وكان أحياناً ينقل صفحات كاملة عنه ، ويظهر ذلك بوضوح عند تفسيره لأول سورة البقرة ، حتى إنه يخيل إلينا أننا أمام تفسير الزمخشري . ارجع إلى آية : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [1] نجد أن الفخر نقل ما يتعلق بأسرار نظم هذه الآية من الكشاف [2] ، وغيره كثير في التفسير .

٢ - وقد يشرح فكرته ويفصل ما يجمله ، رغبة في بيانها وتوضيحها . فمثلاً يقول الزمخشري في الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [3] : (وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها أحد) [4] .

ويتناول الفخر هذا القول فيشرح معنى التعجب ويقول : (أما قوله : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، فإن كان ذلك على وجه الاستفهام فهو خذلان ، لأنه قد عرف منه ما تكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة ، وهو يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة فما فائدة هذا القول ، وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأي تعجب في الإعراض عن حجة لا فائدة فيها ، وإنما التعجب كله من الإقدام على عبادتها ، فإن الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها ، فكأن أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل بتعجب فاسد غير مبني على دليل وشبهه ، ولا شك أن هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه) [5] .

---

(١) سورة البقرة : ١٩ .

(٢) ينظر الكشاف : ٢٢٤/١ .

(٣) سورة مريم : ٤٦ .

(٤) الكشاف : ٥١١/٢ .

(٥) التفسير : ٢٢٨/٢١-٢٢٩ م١١ .

ويذكر الزمخشري أن ضمير الفصل في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ [(١)] يفيد أن المسند ثابت للمسند إليه دون غيره ، ويأتي الفخر ويشرح معنى كلامه ويدعمه بالأمثلة.

يقول الزمخشري : (و " هُمْ " فصل وفائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة والتوكيد وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره) [(٢)].

ويقول الفخر : (" هُمْ " فصل وله فائدتان ، إحداهما : الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة ، وثانيتهما : حصر الخبر في المبتدأ ، فإنك لو قلت : الإنسان ضاحك ، فهذا لا يفيد أن الضاحكية لا تحصل إلا في الإنسان ، أما لو قلت : الإنسان هو الضاحك ، فهذا يفيد أن الضاحكية لا تحصل إلا في الإنسان) [(٣)].

فهو يسميه قصراً ، ويشرح دلالته ، بينما أجمله الزمخشري فقال : (المسند ثابت للمسند إليه دون غيره).

٣ - وقد يذكر الفخر السر البلاغي الذي يراه الزمخشري ، ثم يضيف إليه سراً آخراً يستنبطه من الآية .

فمثلاً يذكر وجهين لتقديم المفعول عن فعله : الأول للزمخشري والآخر له في قوله تعالى : ﴿ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ [(٤)] ، يقول :

---

(١) سورة البقرة : ٥ .

(٢) الكشاف : ١٤٦/١ .

(٣) التفسير : ٣٨/٢ م١ .

(٤) سورة البقرة : من الآية ٨٧ .

أحدهما : أن يراد الحال الماضية؛لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس ...

الثاني : أن يراد فريقا تقتلونهم بعد ، لأنكم حاولتم قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة).(١)

وأرى أن ما ذكره الزمخشري أقوى في الإشارة إلى المعنى ،لأنه فهم من الفعل المضارع دلالته على تجسيد الحدث الماضي واستحضاره وكأنه يحدث أمام الأعين . أما الفخر في الوجه الثاني فقد فهم من الفعل المضارع دلالته على الاستقبال فقط . ولذلك قال : (إن يراد فريقا تقتلونهم بعد) .

و يبين الفخر سر مجيء كلمة :"سيق" في جانب المؤمنين وسوقهم إلى الجنة في قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً .. ﴾(٢) فيرجع ذلك إلى أربعة أوجه : أحدها للزمخشري والباقية له .

يقول : (فإن قيل السوق في أهل النار معقول ... وأما أهل الثواب فإذا أمروا بالذهاب إلى موضع الكرامة والراحة والسعادة فأي حاجة فيه إلى السوق ؟ والجواب من وجوه :

الأول : أن المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة .. فإذا قيل لواحد منهم : اذهب إلى الجنة ،فيقول : لا أدخلها حتى يدخلها أحبائي وأصدقائي فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة.

---

(١) التفسير : ٣ / ١٩١ م٢ .
(٢) سورة الزمر : من الآية ٧٣ .

والثاني : أن الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار ، فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مواقف الجلال والجمال ... فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة.

والثالث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أكثر أهل الجنة البلــه وعليون الأبرار)[1] فلهذا السبب يساقون إلى الجنة.

والرابع : أن أهل الجنة وأهل النار يساقون إلا أن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف ... والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم ؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين .. والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان)[2].

والوجه الرابع هو للزمخشري[3] ، وهو الذى أخذ به كثير من المفسرين كالبيضاوي[4] وأبي السعود[5] وأبي حيان[6] والألوسي[7].

وقد يجمل الفخر ما يأخذه عن الزمخشري وجهاً من أربعة وجوه يذكرها في فوائد الالتفات في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[8].

---

(١) سند الحديث : (حدثنا سلامة بن روح عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أكثر أهل الجنة البله ".
والحديث ضعيف لقول ابن عدى : (وهذا الحديث بهذا الإسناد منكر لم يروه عن عقيل غير سلامة هذا).
الكامل في ضعفاء الحديث ، الإمام الحافظ أبو أحمد عبد الله بن عدى الجرجاني : ٣/١١٦٠.

(٢) التفسير : ٢٣/٢٧ م ١٤.

(٣) ينظر الكشاف : ٣/٤١١.

(٤) أنوار التنزيل : ٤/٣٣.

(٥) إرشاد العقل السليم : ٧/٢٦٤.

(٦) البحر المحيط : ٧/٤٤٣.

(٧) روح المعاني : ٢٤/٣٣.

(٨) سورة البقرة : ٢١.

يقول : (إن الله تعالى لما قدم أحكام الفرق الثلاثة ،أعني المؤمنين والكفار والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب ،وهو من باب الالتفات المذكور في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفيه فوائد :

أحدها : أن فيه مزيد هز وتحريك للسامع،كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث : إن فلاناً من قصته كيت وكيت ،ثم تخاطب ذلك الثالث فقلت : يا فلان من حقك أن تسلك الطريقة الحميدة . . . فهذا الانتقال من الغيبة إلى الحضور يوجب مزيد تحريك لذلك الثالث .

وثانيها : كأنه سبحانه وتعالى يقول : جعلت الرسول واسطة بيني وبينك أولاً ،ثم الآن أزيد في إكرامك وتقريبك ،فأخاطبك من غير واسطة، ليحصل لك مع التنبيه على الأدلة شرف المخاطبة والمكالمة .

وثالثها : أنه مشعر بأن العبد إذا كان مشتغلاً بالعبودية ،فإنه يكون أبداً في الترقي .

ورابعها : أن الآيات المتقدمة كانت في حكاية أحوالهم ،وأما هذه الآيات فإنها أمر وتكليف ، ففيه كلفة ومشقة فلا بد من راحة تقابل هذه الكلفة ، وتلك الراحة هي أن يرفع ملك الملوك الواسطة من البين ويخاطبهم بذاته) (١)

فالوجه الأول للزمخشري وما عداه من استنباطات الفخر .

وقد يرد الزمخشري سبب الحذف إلى دلالة ما قبله ،لكن الفخر يرى أن هناك سراً بلاغياً يكمن وراء الحذف .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا . . ﴾ (٢)

---

(١) التفسير : ٢ / ٩٠ م١ .

(٢) سورة الأعراف : من الآية ٤٤ .

(فإن قلت : هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ما وعدنا ربنا ؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه)[١] .

ويقول الفخر في بيان السبب : (قوله : ﴿ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقاً ﴾ يدل على أنه تعالى خاطبهم بهذا الوعد ، وكونهم مخاطبين من قبل الله تعالى بهذا الوعد يوجب مزيد التشريف ، ومزيد التشريف لائق بحال المؤمنين ، أما الكافر فهو ليس أهلاً لأن يخاطبه الله تعالى ، فلهذا السبب لم يذكر الله تعالى أنه خاطبهم بهذا الخطاب بل ذكر تعالى أنه بين هذا الحكم)[٢] .

وربما لا يضيف الفخر إلى قول الزمخشري ، إنما يستحسن ما يذهب إليه ، ويبين فضل الطريقة التي اتبعها.

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾[٣] : (هلا قيل طاهرة ؟ الجواب في المطهرة إشعار بأن مطهراً طهرهن وليس ذلك إلا لله تعالى)[٤] هذا الكلام ذكره الزمخشري[٥] ، وقد أضاف الفخر إليه فقال : (وذلك يفيد فخامة أمر أهل الثواب ، كأنه قيل إن الله تعالى هو الذي زينهن لأهل الثواب) .

كذلك يبين فائدة عود الضمير على المتقدم الذي ذكره الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾[٦] يقول الزمخشري : (والضمير في ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ ضمير مبهم و ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ تفسيره كقولهم : ربه رجلاً)[٧] .

---

(١) الكشاف : ٢/ ٨٠ .

(٢) التفسير : ١٤/ ٨٩ م٧ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٥ .

(٤) التفسير : ٢/ ١٤٢ .

(٥) ينظر الكشاف : ١/ ٢٦٢ .

(٦) سورة البقرة : من الآية ٢٩ .

(٧) الكشاف : ١/ ٢٧٠ .

ويذكر الفخر هذا القول ويضيف إليه : (وفائدته أن المبهم إذا تبين كان أفخم وأعظم من أن يبين أولاً ؛ لأنه إذا أبهم تشوفت النفوس إلى الاطلاع عليه، وفي إبيان بعد ذلك شفاء لها بعد التشوف) . (١)

فإن كان الزمخشري قد بين موقع الضمير ومابعده من حيث الناحية النحوية فالفخر قد بين فائدته البلاغية وأثره على النفس ، ومثل هذا كثير في التفسير .

٤ - وفي قليل من الأحيان كان الفخر يعترض على الزمخشري في بعض النكات البلاغية كاعتراضه عليه حين ذكر أن الأجدر أن يأتي الشرط (بإنْ) لا (بإذا) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾ (٢) حيث يقول : (وحقه أن يجيء بإنْ لا بإذا كقوله : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ . (٣)

ويرد عليه الفخر بقوله : (واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن ، وهو ضعيف؛ لأنّ كل واحد من (إنْ) و (إذَا) حرف الشرط، إلا أن حرف (إنّ) لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ، فلا يقال إن طلعت الشمس أكرمتك ، أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع .. فههنا لما كان الله تعالى عالماً بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة ، لا جرم حسن استعمال حرف "إذَا") . (٤)

فالفخر قد رأى جراءة الزمخشري على القرآن ، ثم ضعف ما رآه من وجه لا يناسب الأدب مع كلام الله .

---

(١) التفسير : ٢/١٧٠ م١٠ .

(٢) سورة الإنسان : من الآية ٢٨ .

(٣) سورة محمد : من الآية ٣٨ . الكشاف : ٤/٢٠١ .

(٤) التفسير : ٣٠/٢٦١ م١٥ .

٥ - وفي أغلب الأحوال كان الفخر يلتقط القاعدة البلاغية من الكشاف ، ثم يطبقها على كثير من الآيات. وسأكتفي في بيان ذلك ببعض الأمثلة ،لأنني حرصت على بيان ما كان أساسه للزمخشري أثناء البحث في أبواب المعاني .

فمثلاً ، يربط الزمخشري في تفسيره بين الإعراب والنظم ،لأنـــه يقصد بالنظم البحث عن العلاقة الإعرابية بين الكلمات في الآية.(١)

من ذلك أنه يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾.(٢)

: (فإن قلت : أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم ؟ قلت : الواو الأولى عاطفة لـ "كَفَرْتُم" على فعل الشرط . . . وكذلك الواو الأخرى عاطفة لـ " اسْتَكْبَرْتُمْ " على " شَهِدَ شَاهِدٌ " وأما الواو في "وَشَهِدَ شَاهِدٌ" فقــد عطفت جملة قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . ﴾ على جملة قوله : ﴿ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم ﴾ ونظيره قولك : إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك وأعرضت عني . . .) .(٣)

وحرص الفخر على بيان العلاقة الإعرابية في كثير من الآيات ،وسماها نظماً - كما ذكرت في مبحث النظم عند الفخر- .

وأخذ الفخر عن الزمخشري كثيراً من معاني التنكير ،لأنه ذكر معاني للتنكير قامت عليها دراسة المتأخرين ،واعتمدوا عليه في ذلك اعتماداً كبيراً.(٤)

---

(١) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٢٥٧ .

(٢) سورة الأحقاف : من الآية ١٠ .

(٣) الكشاف : ٣/ ٥١٨ - ٥١٩ .

(٤) ينظر البلاغة القرآنية : ٣١٥ .

والفخر سبقهم إلى هذا الأخذ ،حيث تتردد في تفسيره دلالة النكرة على التعظيم والتبعيض والتفخيم والاختصاص والكمال والقلة.(١)

وقد سار الفخر على هديه أيضاً في بيان المعاني الأدبية لحروف الجر وملاءمتها للسياق ، فمثلاً يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(٢) : (فإن قلت:كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت : لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركضه حيث شاء ،والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه)(٣).

ويتبعه الفخر في ذلك فيقول في قوله تعالى : ﴿ ... وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾(٤) : (كلمة "عَلَى" تفيد الاستعلاء فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها)(٥).

ويقول في قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٦): (إنه تعالى ذكر كلمة "عَلَى" حتى يدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم)(٧).

كذلك يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(٨) : (قوله : ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين ،وقوله في مواضع"على بينة" و"عَلَى هُدًى" إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه)(٩).

---

(١) ينظر مبحث التنكير في هذا البحث .
(٢) سورة سبأ : ٢٤ .
(٣) الكشاف : ٢٨٩/٣ .
(٤) سورة الأنفال : من الآية ١١ .
(٥) التفسير : ١٣٩/١٥ م٨ .
(٦) سورة المائدة : من الآية ٥٤ .
(٧) التفسير : ٢٦/١٢ م٦ .
(٨) سورة يس : من الآية ٤٧ .
(٩) التفسير : ٢٦ / ٨٥ م١٣ .

وغير ذلك كثير مما حرصت على الإشارة إليه أثناء دراسة أبواب علم المعاني .

واعتبرُ الفخر امتداداً للزمخشري في الكشف عن الأسرار والدقائق البلاغية للقرآن الكريم ، فهو إما أن يأخذ عنه أو يستلهم منه ، لكن بطريقتــه الحكمية وعقليته الأصولية التي كان يتمتع بها .

جـ - تأثره بالمفسرين

نقل الفخر من المفسرين كثيراً من الآراء التي تتعلق بالوجهة البلاغية. وقد لاحظت أنه يهتم منها بالدرجة الأولى بما يتعلق بنظم الآيات ووجه ترابطها ، ومناسبتها لما قبلها ، وهي التي اهتم بتحقيقها في كل تفسيره.

ثم يهتم ثانياً بنقل بعض اللطائف البلاغية من هذا التفسير ، إما لحسنها أو للرد عليها - كما سنرى إن شاء الله -.

أبو مسلم الأصفهاني (١) ت ٣٢١ :

كان الفخر معجباً بآراء أبي مسلم في التفسير ، مع أنه معتزلي المذهب، فيرتضي أقواله التي توافقه ، ويذكرها ، وقد امتدحه بقوله : (وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير كثير الغوص على الدقائق واللطائف).(٢)

---

(١) اسمه محمد بن بحر الأصفهاني ، من أصفهان ، معتزلي من كبار الكتاب ، كان عالماً بالتفسير وبغيره من صنوف العلم ، له تفسير يسمى (جامع التأويل) ، جمع سعيد الأنصاري الهندي نصوصاً منه وردت في (تفسير الفخر الرازي) وسماه (ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل) في جزء صغير مطبوع . الأعلام ، للزركلي : ٦ / ٥٠ .

(٢) ذكر الفخر هذا القول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ سورة آل عمران : ٤١ فقد ذكر أن أبا مسلم قال : إن المعنى أن زكريا لما طلب من الله تعالى آية تدل على حصول العلوق قال : آيتك ألا تكلم ... أي تكون مشتغلاً بالذكر والتسبيح والتهليل معرضاً عن الخلق .. فإن كانت لك حاجة دل عليها بالرمز ، فإذا أمرت بهذه الطاعة فاعلم أنه قد حصل المطلوب) ثم قال الفخر : (وهذا القول عندي حسن معقول ، وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير ...) التفسير : ٨ / ٤٤ م٤ .

فقد اهتم الفخر بنقل بعض الإشارات البلاغية عنه ، وخاصة ما يتصل بمناسبة الآيات في السورة الواحدة ،كأن يبين صلة قوله تعالى : * لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ * (١) بما قبلها من الآيات.

يقول الفخر : (في كيفية النظم ،قال أبومسلم : إنه تعالى لما قال في آخر الآية المتقدمة : * وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * ذكر عقيبه ما يجرى مجرى الدليل العقلي فقال : * لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ *. (٢)

و يحرص الفخر في هذه السورة حرصاً كبيراً على بيان وجه المناسبة بين الآيات مستعيناً بأقوال العلماء كأبي مسلم وغيره.

كذلك يذكر الفخر رأى أبي مسلم في صلة قوله تعالى : * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً * (٣) بقوله تعالى في السورة نفسها : * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً *. (٤)

يقول : (قال أبومسلم إن من قوله : * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ * إلى ههنا يتم الكلام وينقطع ثم قوله : * وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ * خطاب مستأنف فكأنه قال : ويسألونك ولا تعجل بالقرآن) (٥) وينقل عنه بعض معاني الاستفهام لحسن تأويلها وتفرده بها كما في قوله تعالى : * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *. (٦)

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨٤.

(٢) التفسير : ٧/١٣٤ م٤.

(٣) سورة طه : ١٠٥.

(٤) سورة طه : ١١٤.

(٥) التفسير : ٢٢/١٢١-٢٢٢ م١١.

(٦) سورة آل عمران : ١٤٢.

يقول الفخر : (قال أبومسلم في : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ إنه نهي وقع بحرف الاستفهام الذى يأتي للتبكيت ،وتلخيصه : لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد ... وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيداً)(١).

ولم يعقب الفخر على كلامه كأن يذكر رأيه في معناها أو رأى غيره ،وقد رجعت إلى الزمخشرى فلم أجده يتعرض لما تدل عليه من معنى ،وهذا يدل على أن الفخر ينقل منه ما حسن من الكلام وما تفرد به.

كذلك ينقل عنه رأيه في معنى الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾(٢) : (قال أبو مسلم قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ وإن كان بصيغة الاستفهام ، إلا أن المقصود منه التقرير في النفس ،ومن عادة العرب في إبهام المخاطب وإزالة الشك عنه أن يقولوا : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته ، أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره)(٣).

فأبو مسلم هنا يربط معنى الاستفهام بعادة العرب في كلامها ،وهذا ما كان يحرص الفخر على التقاطه من أفواه العلماء ،وسار عليه في أكثر أبوابه ، وذلك بأن يقيس أسلوب القرآن على كلام الناس ؛لأنه لا يجوز الفصل بين مصادر التشريع ومنابع اللغة . وهكذا فإن جُلّ علمائنا الأوائل ربطوا بين القرآن ومذاهب العرب في كلامها .

---

(١) التفسير : ١٩/٩ م٥.

(٢) سورة التوبة : من الآية ١٠٤.

(٣) التفسير : ١٨٩/١٦ م١.

القفال[1] ت ٣٦٥ هـ :

يكثر نقل الفخر من القفال ، ويُطلق لقب القفال في كتب التراجم على ثلاثة من العلماء ، محمد بن علي بن اسماعيل القفال ، وابنه القاسم بن محمد بن علي القفال ، وعبد الله بن أحمد القفال ، وقد رجح استاذى الفاضل الدكتور علي العمارى أن يكون المراد بالقفال في التفسير هو محمد بن علي بن اسماعيل[1] المتوفى سنة ٣٦٥ هـ لأن له تفسيرا في القرآن[2] وقد أثنى عليه الفخر لدقة تأويلاته للآيات القرآنية يقول : (واعلم أن القفال - رحمه الله - كان حسن الكلام في التفسير ، دقيق النظر في تأويلات الألفاظ ، إلا أنه كان عظيم المبالغة في تقرير مذهب المعتزلة ، مع أنه كان قليل الحظ من علم الكلام ، قليل النصيب عن معرفة كلام المعتزلة)[3].

وقد نقل الفخر عنه أوجه نظم كثير من الآيات القرآنية ، والنظم عند الفخر - كما نعلم - معرفة صلة الآيات بما قبلها في المعنى ، وإقامة المناسبة بينها ، مثل أن يبين صلة قوله تعالى : * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً *[4] بما قبلها من الآيات التي تحدثت عن مساعدة الله للمسلمين يوم بدر : * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *[5].

يقول : (قال القفال - رحمه الله - يحتمل أن يكون ذلك متصلاً بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالاً جمعوها

---

(١) هو محمد بن علي بن اسماعيل الشاشي القفال ، أبو بكر ، من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب ، عنه انتشر مذهب الشافعي في بلاده (شاش) . الأعلام ، للزركلي : ٦/٢٧٤ .

(٢) ينظر الإمام فخر الدين الرازى : ١٤٩-١٥٠ .

(٣) التفسير : ٧/١١ م٤ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٣٠ .

(٥) سورة آل عمران : ١٢٣ .

بسبب الربا ، فلعل ذلك يصير داعياً للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك)[١].

وأرى أن وجه الاتصال هذا فيه تكلف لعدم ظهوره واضحاً ، وقد ذكره الفخر ؛ لأنه ذكر قبل كلامه هذا أن هناك من قال إن آية الربا ابتدائية لا تعلق لها بما قبلها ، وكان الفخر - كما نعلم - يرى أن المناسبة بين كل آية وآية قائم في كل القرآن ، حتى إنه يقول إن القرآن في اتصاله كسورة واحدة[٢].

ويستحسن الفخر ربط القفال بين قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾[٣] بما قبلها من آيات النهي عن أكل الأموال بالباطل ، وعن قتل النفس يقول : (قال القفال - رحمه الله - إنه تعالى لما نهاهم في الآية المتقدمة عن أكل الأموال بالباطل ، وعن قتل النفس أمرهم في هذه الآية بما سهل عليهم ترك هذه المنهيات ، وهو أن يرضى كل أحد بما قسم الله له)[٤].

ويقف القفال عند آية المداينة[٥] ، ويبين كيف تفرعت آياتها وامتدت لتعبر عن هذا المعنى ، وينقل الفخر عنه هذا فيقول : (قال القفال - رحمه الله تعالى - : والذي يدل على ذلك[٦] أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار ، وفي هذه الآية بسط شديد ، ألا ترى أنه قال : ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم

---

(١) التفسير : ٩/٢ م٥ .

(٢) ينظر التفسير : ٩/٣ م٥ .

(٣) سورة النساء : من الآية ٣٢ .

(٤) التفسير : ١٠/٨٢ م٥ .

(٥) سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٦) أي على ما قاله الفخر من قبل من أنه تعالى بالغ في الوصية بحفظ المال حتى تتحقق تقوى المؤمن .

بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ * ثم قال ثانياً : * وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ * ثم قال ثالثاً : * وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ * فكان هذا كالتكرار لقوله : * وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ * لأن العدل هو ما علمه الله ،ثم قال رابعاً : * فَلْيَكْتُبْ * وهذا إعادة الأمر الأول ،ثم قال خامساً : * وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ * وفي قوله : * وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ * كناية عن قوله * وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ * ، لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه ،ثم قال سادساً : * وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ * وهذا تأكيد ، ثم قال سابعاً : * وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا * فهذا كالمستفاد من قوله : * وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ * ثم قال ثامناً : * وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ * وهو أيضاً تأكيد لما مضى ،ثم قال تاسعاً : * ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا * فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة) .(١)

ويعترض عليه حين يذكر أن الفاء سببية في قوله تعالى : * وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا *(٢) ثم يذكر الوجه الصحيح الذي يرتضيه ويبين علة ذلك يقول : (قال القفال : الوجه في دخول الفاء في بعض ما وقع به القسم والواو في بعض مبني على الأصل ، وهو أن عند أهل اللغة الفاء تقتضي الوصل والتعلق ،فإذا قيل : قام زيد فذهب ،فالمعنى أنه قام ليذهب ، فكان قيامه سبباً لذهابه ومتصلاً به ،وإذا قيل : قام وذهب فهما خبران كل واحد منهما قائم بنفسه ولا يتعلق بالآخر ، ثم

---

(١) التفسير : ١١٦/٧ م٤ .

(٢) سورة المرسلات : ١-٥ .

إن القفال لما مهد هذا الأصل فرع الكلام عليه في هذه الآية بوجرة[(١)] لا يميل قلبي إليها ،وأنا أفرع على هذا الأصل فأقول : أما من جعل الأولين صفتين لشيء والثلاثة الأخيرة صفات لشيء واحد فالإشكال عنه زائل ،وأما من جعل الكل صفات لشيء واحد فنقول إن حملناها على الملائكة فالملائكة إذا أرسلت طارت سريعاً،وذلك الطيران هو العصف ،فالعصف مرتب على الإرسال فلا جرم ذكر الفاء،أما النشر فلا يترتب على الإرسال ،فإن الملائكة أول ما يبلغون الوحي إلى الرسل لا يصير في الحال ذلك الدين مشهوراً منتشراً،بل الخلق يؤذون الأنبياء في أول الأمر وينسبونهم إلى الكذب والسحر والجنون،فلا جرم لم يذكر الفاء التي تفيد التعقيب بل ذكر الواو ،بلى إذا حصل النشر ترتب عليه حصول الفرق بين الحق والباطل وظهور ذلك الحق على الألسنة،فلا جرم ذكر هذين الأمرين بحرف الفاء) .[(٢)]

وقد أحسن الفخر كثيراً حين لحظ هذا المعنى للفاء.

القاضي عبد الجبار[(٣)] ٤١٥ هـ :

من أكبر علماء المعتزلة ،استفاد الفخر من مؤلفاته ،ونقل كثيراً من آرائه كما يبدو ظاهراً في التفسير .

---

(١) لم أعرف معنى هذه الكلمة وماذا يقصد بها،فرجعت إلى نسخة المطبعة الخيرية فوجدته يقول : (بوجوه لا يميل قلبي إليها) ٨/ ٣١١ المطبعة الخيرية.

(٢) التفسير : ٣٠/ ٢٦٧-٢٦٨ م١٥.

(٣) أبوالحسين عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني ،قاضي ، أصولي ،كان شيخ المعتزلة في عصره ،لقب بقاضي القضاة ،ولي القضاء بالري ومات فيها،له كتب كثيرة منها (تنزيه القرآن عن المطاعن) ، و (المغني) و(متشابه القرآن)وغيرها . الأعلام و الزركلي : ٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤ .

وعنى الفخر بنقل ما يتعلق بنظم الآيات ، وترابط بعضها مع بعض ، فمثلاً يبين مناسبة قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ (١) بما قبلها ، يقول الفخر في كيفية النظم وجوه :

الأول : قال القاضي رحمه الله : إنه تعالى لما أجمل في قوله: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾ فصل بعد ذلك في هذه الآية تلك الأضعاف ، وإنما ذكر بين الآيتين الأدلة على قدرته بالإحياء والإماتة من حيث لولا ذلك لم يحسن التكليف بالإنفاق) (٢).

كما ينقل عنه صلة آخر سورة البقرة بما قبلها من الآيات ، والتي حرص الفخر على الكشف عن صلة آياتها بعضها مع بعض ، يقول في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ... ﴾ (٣) : (في كيفية النظم قال القاضي إنه تعالى لما أمر بهذه الوثائق أعني الكتبة والأشهاد والرهن فكان المقصود من الأمر بها صيانة الأموال ، والاحتياط في حفظها ، بين الله تعالى إنما المقصود لمنفعة ترجع إلى الخلق ، لا لمنفعة تعود إليه سبحانه منها ، فإنه له ملك السموات والأرض) (٤) ولا يبعد أن يكون الفخر قد تأثر بكل هؤلاء الذين نقل عنهم ، وأقام كلامه في ضرورة مراعاة المناسبة على كلامهم ، ووسعها وطبقها على كل آيات القرآن وجعلها من وجوه إعجازه .

ويذكر الفخر في موضع للتقديم رأى القاضي عبد الجبار قبل رأيه

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٦١ .

(٢) التفسير : ٤٧/٧ م٤ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٨٤ .

(٤) التفسير : ١٣٤/٧ م٤ .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾(١) : (قوله : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ فإن قيل إنزال الكتاب يكون قبل وصول الأمر والنهي إلى المكلفين ، ووصول الأمر والنهي إليهم يكون قبل التبشير والإنذار ، فلم قدم ذكر التبشير والإنذار على إنزال الكتب ؟ أجاب القاضي عنه فقال : لأن الوعد والوعيد منهم قبل بيان الشرع ممكن فيما يتصل بالعقليات من المعرفة بالله وترك الظلم ..)(٢) .

ثم يذكر رأيه فيقول : (وعندي فيه وجه آخر وهو أن المكلف إنما يتحمل النظر في دلالة المعجز على الصدق ، وفي الفرق بين المعجز إذا خاف أنه لو لم ينظر فربما ترك الحق فيصير مستحقاً للعقاب ، والخوف إنما يقوى ويكمل عند التبشير والإنذار ، فلا جرم وجب تقديم البشارة والنذارة)(٣) وتوجيه القاضي أكثر صلة بالمعنى من توجيه الفخر .

ويبدو تأثره بالقاضي في موضع ذكره في سر تكرار القصص القرآني حيث يقول : (ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خالياً من الفائدة)(٤) .

ويقول القاضي في كلام طويل نجتزئ منه قوله : (.. إن العادة من الفصحاء جارية بأنهم قد يكررون القصة الواحدة في مواطن متفرقة لأغراض تتجدد في المواطن وفي الأحوال)(٥) .

وغير ذلك مما أشرت إليه في مباحث علم المعاني .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢١٣ .

(٢) التفسير : ٦/١٥ م٣ .

(٣) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٤) التفسير : ١٨/٩-١٠ م٩ ذكرها عند بيان سر تكرار قصة نوح في كل من سورة يونس وسورة هود .

(٥) المغني : ١٦/٣٩٧ .

الواحدى (١) ت ٤٦٨ هـ :

كان الفخر كثير النقل منه والمناقشة له ، وذكر اسم تفسيره (البسيط) في مواضع كثيرة فيقول : (قال الواحدى في البسيط) (٢) ويقول : (والواحدى طول في هذا الباب في كتاب البسيط فليرجع إليه) (٣).

وقد ناقشه الفخر ورد عليه في كثير من الآراء البلاغية منها وغير البلاغية .

وسأقتصر منها على بعض ما يتعلق بالنواحي البلاغية ، من ذلك أنه رد عليه حين قدر مضمراً للفعل ، واستشهد على ذلك بقول عبد القاهر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٤) فقال : (قال الواحدى -رحمه الله تعالى- : وفيه إضمار ، والمعنى شديد العقاب له ، وأقول بيّن عبد القاهر النحوى في كتاب دلائل الإعجاز أن ترك هذا الإضمار أولى ، وذلك لأن المقصود من الآية التخويف بكونه في ذاته موصوفاً بأنه شديد العقاب من غير التفات إلى كونه شديد العقاب لهذا أولذلك) (٥).

---

(١) أبوالحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي ، مفسر ، عالم بالأدب ، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل أصله من ساوه (بين الري وهمذان) ولد ومات بنيسابور من كتبه (البسيط) و(الوسيط) و (الوجيز) كلها في تفسير القرآن . الأعلام ، للزركلي : ٤/٢٥٥ .

(٢) التفسير : ١٩٨/٧ م٤ .

(٣) التفسير : ٥٥/١٣ م٧ .

(٤) سورة البقرة : ٢١١ .

(٥) التفسير : ٤/٦ م٣ .

وهذه القاعدة قد ذكرها عبد القاهر وهو يتحدث عن حذف المفعول فذكر أن هناك من يذكر الفعل دون حاجة إلى مفعول لفظاً وتقديراً .(١)

وقد قاس الفخر حذف الموصوف في كلام الواحدى على حذف المفعول به عند عبد القاهر، لأنه لم يتعرض لحذف الصفة أو الموصوف .

ورد عليه الفخر أيضاً حين قدر مفعولاً به للفعل (يقول : في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾(٢) وقد ذكرتها سابقاً في أثر عبد القاهر على التفسير .

ولاحظت أن الفخر وإن اهتم بذكر نظرات الواحدى البلاغية، إلا أنه رأى أنها لا تصل إلى نظرات الزمخشرى لذلك يفضلها على ما يقوله الواحدى .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً .. ﴾(٣) : (قال الواحدى - رحمه الله - معنى الآية فإن خفتم عدواً فحذف المفعول لإحاطة العلم به، قال صاحب الكشاف : فإن كان بكم عدواً أو غيره، وهذا القول أصح، لأن هذا الحكم ثابت عند حصول الخوف سواء كان الخوف من العدو أو من غيره) .(٤)

وهو هنا يبين سر حسن وجه الزمخشرى، لأنه لم يحدد مفعولاً معيناً، لأن المقصود الخوف عامة .

وأرى أن سبب استحسانه له أنه اعتبر ما رآه عبد القاهر في الحذف من إثبات الفعل دون نظر إلى تقدير مفعول .

---

(١) ينظر الدلائل : ١٥٤ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨٥ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٣٩ .

(٤) التفسير : ٦/١٦٥-١٦٦ م٣ .

ويرد الفخر عليه أيضاً حين ذكر أن (على) جاءت صلة لا عمل لها في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾.(١)

يقول : (قال الواحدي ويشبه أن يكون (على) هنا صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالنصر ، وما وقع في تفسيره يشبه أن لا يكون صلة ؛ لأن كلمة (على) تفيد الاستعلاء فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها).(٢)

وفي رده هذا اعتمد على قول الزمخشري في أن (على) تفيد الاستعلاء.

---

(١) سورة الأنفال : من الآية ١١.

(٢) التفسير : ١٥/١٣٨-١٣٩ م٨.

د- تأثر الفخر بالنحـــاة

استفاد الفخر من آراء بعض النحاة في تدعيم الوجه البلاغي ،كسيبويه مثلاً فقد استشهد بأقواله في مواضع بلاغية عدة في التفسير،كأن يذكر مقولتـه المشهورة : (إنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى) [١] التي وردت في الكتاب ،وذلك في بحث التقديم -كما مر- وحرص الفخر على أن ينسب إليه هذا القول كلما ذكره علة للتقديم.

يقول في سر التقديم في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ ... ﴾ [٢] : (... قال سيبويه إنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى ...) [٣].

ومثله قوله في قوله تعالى : ﴿ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾ [٤] : (ما الحكمة في ترك هذا الترتيب الحقيقي؟، قلنا : الحكمة فيه ما ذكره سيبويه وهو إنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى) [٥].

و يستدل بقول سيبويه أيضاً في بيان علة تقديم الظرف على عامله في قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدُ ﴾ [٦] فقد ذكر أن سيبويه يقول : إن الظرف لا يقدم في الكلام العربي الفصيح ،ثم يذكر أنه يأتي في القرآن لعلة بلاغية يقول الفخر : (في الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو

---

(١) الكتاب : ٣٤/١.
(٢) سورة الأنعام : من الآية ١٠٠.
(٣) التفسير : ١٢٠/١٣ م٧.
(٤) سورة المائدة : من الآية ٧٠.
(٥) التفسير : ٢٣٥/١٥ م٨.
(٦) سورة الاخلاص : ٤.

لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه ، فما باله ورد مقدماً في أفصح الكلام ؟ والجواب : هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة في ذات الله، واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف ، وتقديم الأهم أولى ، فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقاً للتقديم) (١).

ويذكر الفخر كلام سيبويه في أن الاستفهام يخرج عن أصل معناه كما في النداء ، ويدعم به قول الزمخشري .

يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) : (قال صاحب الكشاف " الهمزة " و " أم " مجردتان لمعنى الاستفهام، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً ، قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء ، كقولهم : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام ، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء) (٣).

كما يظهر تأثره بابن جني - وإن لم يذكر اسمه - في معرفة معنى الكلمة عن طريق تقاليب حروفها ، وقد أكثر من ذلك في التفسير - على حد ما بينت في مبحث الكلمة.

وهناك نحاة نقل منهم الفخر آراء تتعلق بالمعاني كالفراء والزجاج والفارسي ، ولكن لم يكن لهذه الآراء أثر واضح على التطبيق البلاغي في علم المعاني في التفسير . فمثلاً يذكر الفراء أن معنى النفي نهي في قوله تعالى :

---

(١) التفسير : ١٨٤/٣٢ م١٦.

(٢) سورة البقرة : ٦.

(٣) التفسير : ٤٦/٢ م١.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (١) ثم يبين الفخر سر مجيء الإنشاء هنا على هيئة الخبر يقول الفخر : (قال الفراء في موضع ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ على النهي ، إلا أنه جاء على لفظ الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ بالرفع والمعنى على النهي ... إن الإخبار في معنى الأمر والنهي آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي ، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه) (٢).

والفراء يذكر هذا الكلام في كتابه (معاني القرآن) (٣).

ويأخذ من الزجاج ما يتصل من الآيات القرآنية بطرائق العرب في كلامها ، لأنه يعلم أن معرفة أسرار الآيات لا تتكشف إلا بمعرفة أسلوب العرب في التعبير عن المعنى .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٤) : (قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام وتصرف العرب في ذلك) (٥).

وينقل عنه أيضاً تأويله للحسرة في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٦).

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٨٣ .
(٢) التفسير : ٢٧٦/٣ م٢ .
(٣) ينظر : ٥٣/١ .
(٤) سورة الأنعام : ٢٣ .
(٥) التفسير : ١٩٢/١٢ م٦ .
(٦) سورة الأنعام : من الآية ٣١ .

يقول : (قال الزجاج : معنى دعاء الحسرة تنبيه الناس على ما سيحصل لهم من الحسرة ، والعرب تعبر عن تعظيم أمثال هذه الأمور بهذه اللفظة . . . وهذا أبلغ من أن يقال الحسرة علينا . .)[١] .

وبذلك نرى الفخر مولعاً بذكر طرائق العرب في كلامهم أثناء شرحه لمسائل البلاغة واستشهاده بها، ثم قياس الآية القرآنية عليها .

وينقل الفخر قول أبي على الفارسي حين ذكر السر في تخالف إعراب الصفات الكثيرة في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ . . ﴾[٢] : (قال أبو علي الفارسي : وإذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن تخالف بإعرابها، ولا تجعل كلها جارية على موصوفها ، لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب في الوصف والإبلاغ في القول ، فإذا خولف بإعراب الأوصاف كان المقصود أكمل ، لأن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع من الكلام وضروب من البيان)[٣] .

وأخيراً أقول إنما اقتصرت على ذكر هؤلاء دون غيرهم ، لأن تأثيرهم كان بارزاً أثناء دراستي لعلم المعاني ، وأقول إن عقلية العالم لا تحد بعلم أو عالم يتأثر به ، بل تنطلق لتنهل من كل معين حتى تتكوّن نظرته في العلم الواحد ، وقد رأينا أنه تأثر بكثير من العلماء في هذا الباب غير من ذكرت ، كتأثره بالباقلاني في بيان ما اختص به القرآن من وجوه بلاغية لا توجد في كلام العرب .

---

(١) التفسير : ٢٠٨/١٢ م٦ .
(٢) سورة البقرة : من الآية ١٧٧ .
(٣) التفسير : ٤٨/٥ م٣ .

كما أرى تشابهاً بين أفكاره وأفكار الخطابي في الفروق بين الكلمات ، وأراه ينقل من رشيد الدين الوطواط تعريف الالتفات ، وألحظه أيضاً يرجع السبب في الحذف إلى ما ذهب إليه الرماني من ذهاب الوهم كل مذهب ، وغير ذلك مما يدل على أنه وعى التراث البلاغي للقرآن الكريم ، ثم مزجه بشخصيته الأصولية ، ثم أخرج لنا نظرات بلاغية عليها سيما الفخر الرازي وثقافته الخاصة .

الفصل الثاني

أثـر الفخر فيمن بعده

أ - أثره في الدراسات البلاغية .

ب - أثره في كتب التفسير .

جـ - أثره في كتب علوم القرآن .

أ - أثر الفخر في الدراسات البلاغيـة

هل للتفسير الكبير أثر في الدراسات البلاغية بعده ؟

سؤال ظل يلح عليّ طوال مدة هذه الدراسة ،ولذلك عرضت النظرات البلاغية في التفسير على بعض كتب البلاغة ،لأعرف مدى هذا التأثير.

فتناولت أولاً (مفتاح العلوم) للسكاكي : لأنه يعد من أوائل من تأثروا به ، ذلك أنه التقى به وعرف فضله وحقه ،ومدحه بأبيات بيّن فيها منزلته ، يقول فيها :

اِعلمنْ علماً يَقينَـا ... أنَّ رَبَّ العَالَمينـَا

لَوْ قَضَى فِي عَالِمِهِم ... خِدْمَةَ لِلأعلَمينـَا

أَخدمَ الرازىَ فخـراً ... خِدْمةَ العَبْدِ بن سِينَا (١)

وهذا يستدعي أن يكون السكاكي قد قرأ كتب الفخر واطلع عليها ،وبالتالي تأثر به ، وتقعيده للبلاغة كان بإيحاء منه .

وكثير من العلماء يرجعون الفضل الأول في هذا العمل للسكاكي ، متجاوزين الفخر الرازي ، فمثلاً يقول ابن خلدون : (ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخض السكاكي زبدته ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب) . (٢)

وكتاب الفخر (نهاية الإيجاز) هو الأساس الذى بنى عليه السكاكي بلاغته في (مفتاح العلوم) .

---

(١) مرآة الجنان ،لليافعي : ٤/ ٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٥٥٢ .

وبما أن ما في التفسير صدى لما في كتاب (نهاية الإيجاز) فسأحاول هنا أن أتحسس العلاقة بين مفتاح السكاكي وتفسير الفخر ،التي لم تكن لتبدو ظاهرة جلية في مسائل علم المعاني على حد وضوحها في مسائل علم البيان .

ويبدو هذا التقارب بينهما في مسائل أجملها على النحو الآتي :

١ - أنّ السكاكي قد تابع الفخر في جعل الفصاحة من صفات اللفظ فقد قسمها إلى قسمين، منها ما هو راجع إلى المعنى ،ومنها ما هو راجع إلى اللفظ وذلك في كتابه النهاية ، يقول السكاكي ذاكراً صفات فصاحة آية : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ . . . ﴾ اللفظية : (وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة سليمة من التنافر ،بعيدة عن البشاعة ،عذبة من العذبات) .(١)

وأجده في التفسير يصف ألفاظ بعض الآيات بالفصاحة يقول في قوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾(٢) : (هذا مع ما في اللفظتين من الفصاحة والجزالة للتنويع)(٣) ويقصد باللفظتين (رزق - يطعمون) وجزالتها يعني قوتها النابعة من توفر شروط الفصاحة من عدم تنافر ، وبشاعة وعذوبة .

٢ - ذكر السكاكي وجوهاً أربعة لإعجاز القرآن وارتضى الخامس وهو القول برأي إعجاز القرآن بفصاحته وبلاغته .

---

(١) المفتاح : ١٧٨ .

(٢) سورة الذاريات : ٥٧ .

(٣) التفسير : ٢٨/٢٣٥ م١٤

يقول : (... فمنهم من يقول وجه الإعجاز هو أنه عز سلطانه صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الإتيان بمثله .. ومنهم من يقول وجه إعجاز القرآن وروده على أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلامهم ... ومنهم من يقول وجه إعجازه سلامته عن التناقض ... فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة)[1].

وهذه هي الوجوه التي ذكرها الفخر في (نهاية الإيجاز) وفندها كما ذكرها أيضاً في التفسير مع وجوه أخرى وفندها ، وثبت رأيه على أن الإعجاز بالفصاحة.

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[2] : (اختلف الناس في الوجه الذى لأجله كان القرآن معجزاً ، فقال بعضهم هو الفصاحة ، وقال بعضهم هو الأسلوب ، وقال ثالث : هو عدم التناقض ، وقال رابع : هو اشتماله على العلوم الكثيرة ، وقال خامس : هو الصرف ، وقال سادس : هو اشتماله على الإخبار عن الغيوب ، والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة)[3].

٣ - يذكر السكاكي أغراضاً للحذف شاعت بعده في كتب البلاغة، وقد رأيت تقارباً بين بعض هذه الأغراض ، وبين عبارات قالها الفخر في أسباب الحذف، وإن كان هذا التقارب لا يظهر بوضوح وجلاء.

يقول السكاكي في حذف المسند : (والترك راجع إما لضيق المقام وإما للاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر ، وإما لتخييل أن في تركه تعويلاً

---

(١) المفتاح : ٢١٦-٢١٧.

(٢) سورة هود: من الآية ١٣.

(٣) التفسير : ٢٠٣/١٧ م٩.

على شهادة اللفظ ... وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة كقولك خالق لما يشاء ، فاعل لما يريد ...)[١].

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾[٢] : (فكان المتكلم في أول الأمر مخبراً ، ثم لم يخبر بشيء ، لأن في الإخبار تطويلاً ، ثم لم يسكت وقال ذلك ممتحنا زاعماً أنك لا تعرف كنهه ، وذلك لأن من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ، ثم يسكت عن الخبر قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير الخبر ، كما أن قائلاً إذا أراد أن يخبر غيره بأن زيداً وصل ، وقال إن زيداً ، ثم قبل قوله جاء وقع بصره على زيد ورآه جالساً عنده يسكت ، ولا يقول جاء لخروج الكلام عن الفائدة ، وقد يسكت عن ذكر الخبر في أول الأمر لعلمه بأن المبتدأ وحده يكفي لمن قال : من جاء ؟ فإنه إن قال : زيد ، يكون جواباً ، وكثيراً ما نقول : زيد ولا نقول : جاء)[٣].

وعبارات السكاكي تحوم حول هذا المعنى خاصة عندما يقول في الحذف تعويل على شهادة العقل ، وفي الذكر تعويل على شهادة اللفظ ، لأن في الحذف إثارة للعقل وتنشيطاً له وبعثاً على البحث عن المحذوف ، فيكون هو الموصل له .

كما أن الفخر كان يذكر أن الحذف للاختصار ، أي للاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر عند السكاكي .

---

(١) مفتاح العلوم : ٧٦ .

(٢) سورة الواقعة : ٨ .

(٣) التفسير : ٢٩ / ١٤٥ م١٥ .

٤ - يتبع السكاكي الفخر في بعض المسائل النحوية التي لها صلة بالبلاغة .

من ذلك أن سيبويه و بعض النحويين [١] يجيزون عطف الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية .

لكن الفخر يمنعه مطلقاً متبعاً في ذلك رأى الجمهور فيقدر العطف حين يحصل بين الخبر والإنشاء.

فيقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [٢] : (إنه لقائل أن يقول : ﴿ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ خبر وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أمر ، وعطف الأمر على الخبر لا يجوز ، جوابه التقدير : قل أمر ربي بالقسط وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد) [٣].

ويذكر السكاكي آيات كثيرة عطف فيها الخبر على الإنشاء و يقدر هذا العطف متبعاً في ذلك الرأى الذى سار عليه الفخر في التفسير ، يقول :

(وأما الحالة المقتضية للتوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع ، فهي إن اختلفا خبراً وطلباً أن يكون المقام مشتملاً على ما يزيل الاختلاف من تضمين الخبر معنى الطلب أو الطلب معنى الخبر ومشركاً بينهما في جهات جامعة) [٤].

ومن الآيات التي يذكرها ويؤولها قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ . . ﴾ [٥] يقول : (فإن الكلام مشتمل

---

(١) ينظر مغني اللبيب : ٢/٤٨٢ .

(٢) سورة الأعراف : من الآية ٢٩ .

(٣) التفسير : ١٤/٦١ م٧ .

(٤) مفتاح العلوم : ١١٢ .

(٥) سورة النمل : ٨-٩ ومن الآية ١٠ .

على تضمين الطلب معنى الخبر ، وذلك أن قوله : " وَأَلْقِ عَصَاكَ " معطوف على قوله : " أَن بُورِكَ " ، والمعنى : فلما جاءها قيل: بورك وقيل: ألق عصاك)(١).

٥ - ويقبح النحاة عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية ، لكن السكاكي يستحسن هذا العطف إذا وجد سر بلاغي خولف من أجله نسق الجملتين المعطوفتين متبعاً في ذلك الفخر.

يقول السكاكي : (واعلم أن الوصل من محسناته أن تكون الجملتان متناسبتين ككونهما اسميتين أو فعليتين وما شاكل ذلك ، فإذا كان المراد من الإخبار مجرد نسبة الخبر إلى المخبر عنه من غير التعرض لقيد زائد كالتجدد والثبوت وغير ذلك لزم أن تراعي ذلك ، فتقول قام زيد وقعد عمرو ، أو زيد قام وعمرو قاعد ، وكذا زيد قام وعمرو قعد ، وأن لا تقول قام زيد وعمرو قاعد ، وكذا قام زيد وعمرو قعد . . . أما إذا أريد التجدد في إحداهما والثبوت في الأخرى كما إذا كان زيد وعمرو قاعدين ، ثم قام زيد دون عمرو وجب أن تقول قام زيد وعمرو قاعد بعد ، وعليه قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (٢).

وهذا ما أورده الفخر في مواضع متعددة من التفسير - على حد ما رأينا في باب الفصل والوصل - ، فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (٣) : (واعلم أنه ثبت أن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز إلا لفائدة وحكمة) (٤) ثم بين أن فائدة هذا العطف يكون عندما يراد بالجملة الفعلية دلالتها على التجدد والحدوث ، والجملة الاسمية في دلالتها على الاستمرار والدوام.

---

(١) مفتاح العلوم : ١١٣.

(٢) المصدر السابق : ١١٨.

(٣) سورة الأعراف : من الآية ١٩٣.

(٤) التفسير : ١٥/٩٦ م٨.

فتأثر السكاكي بمذهب الفخر يبدو هنا واضحاً .

ويكثر خلط السكاكي بين المسائل النحوية والمسائل البلاغية في كتابه مما لا نجده في كتب البلاغة السابقة له .

ولا يبعد تأثره في ذلك بالزمخشرى والفخر الرازى في تفسيرهما فقد حرص الفخر على أن يخرج الآية نحوياً ثم يذكر العلة البلاغية - كما رأيناه - في بعض الأبواب.

٦ - مزج السكاكي بين البلاغة والأصول في دراسة المسائل البلاغية متبعاً في ذلك الفخر الذى يعد أول من درس البلاغة دراسة أصولية وربط بينهما ، فيذكر العموم والخصوص ، والإجمال والتفصيل، ودليل الخطاب، والإطلاق والتقييد .

وكل هذه المصطلحات أصولية تتردد كثيراً في تفسير الفخر ، يقول السكاكي : (ولإفادة التقديم عندهم التخصيص تراهم يفرعون على التقديم ما يفرعون على نفس التخصيص ، فكما إذا قيل ما ضربت أكبر أخويك فيذهبون إلى أنه ينبغي أن يكون ضارباً للأصغر بدليل الخطاب) (١) .

ويتردد مصطلح دليل الخطاب في عدة مسائل بلاغية في التفسير فيذكره وهو يتحدث عما يفيده لفظ العموم (كُل) حين ينصب أو يرفع يقول : (واعلم أن للشيخ عبد القاهر في هذا الباب كلاماً حسناً ، قال : إن المعنى في هذا البيت يتفاوت بسبب النصب والرفع ، وذلك لأن النصب يفيد أنه ما فعل كل الذنوب ، وهذا لا ينافي كونه فاعلاً لبعض الذنوب . . . بل عند من يقول بأن دليل الخطاب حجة يكون ذلك اعترافاً بأنه فعل بعض الذنوب...) (٢) .

---

(١) المفتاح : ١٠١ .

(٢) التفسير : ٢٢١/٢٩ م١٥ .

٧ ـ وترددت عند السكاكي عبارات (علماء علم المعاني)[١] (أذهان الراضة من علماء المعاني)[٢] ولكن لم يحدد من هم علماء المعاني ؟ على غرار ما فعل الفخر في تفسيره، فقد كان يقف كثيراً عند علماء المعاني ويذكر أقوالهم، وأظن-كما قلت سابقاً- أن المراد بهم المتخصصون في دقائق معاني القرآن، الذين يغوصون في الكشف عنها.[٣]

٨ - أكثر السكاكي من الحدود والتعريفات والتقسيمات والتسبيبات والتعليلات، وبناء العبارات بناءً منطقياً، وهذا ما كان يجرى في التفسير وإن كان لا يحرص فيه كثيراً على ذكر الحدود والتعريفات، لكنه كان كثيراً ما يثبت القاعدة بمقدمة ثم يبنى عليها نتائج وتفريعات، كما أنه كان يكثر من ذكر التسببات والتعليلات في الوجوه البلاغية. وهكذا يظهر أثر التفسير في المفتاح .

---

(١)،(٢) المفتاح : ٩٥ - ١١٩.

(٣) ينظر مبحث النظم في هذا البحث.

سأتناول ثانياً كتاب (المطول) لسعد الدين التفتازاني أبين فيه أثر تفسير الفخر فأقول : ألف هذا الكتاب سعد الدين شرحاً لمتن (التلخيص) للخطيب القزويني ،الملخص لبلاغة السكاكي ،فناقش وحلل واعترض بطريقة منطقية ،واستفاد في ذلك من كتب كثيرة ذكرها في أول كتابه بطريقة التورية المعروفة في عصره ،وليس منها أى كتاب من كتب الفخر يقول :
(فإن أحق الفضائل بالتقديم ،وأسبقها في استيجاب التعظيم هو التحلي بحقائق العلوم والمعارف ،والتصدى للإحاطة بما في الصناعات من الكتب واللطائف ،لا سيما علم البيان ،المطلع على نكت نظم القرآن ،فإنه كشاف عن حقائق التنزيل رائق ،مفتاح لدقائق التأويل فائق ، تبيان لدلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، إيضاح لمعالم الإيجاز وآثار الفصاحة،تلخيص لغوامض مشكل كتاب الله تعالى ومعضله ،تقريب للغوص على فرائد مجملة ومفصلة ،قواعده كافية في ضوء المصباح إلى أنوار التأويل ..).(١)

وقد وجدت اتفاقاً بين بعض ما ذكره الفخر وما ذكره سعد الدين من مسائل في المعاني ، لا استبعد تأثره فيها بالفخر وإن كان بطريق غير مباشر .

١ - استدرك سعد الدين على عبد القاهر في تعميمه لقاعدة (كُلّ) حين يتفاوت إعرابها ، في حالة الإثبات وحالة النفي في قوله :
(إذا تأملنا وجدنا إعمال الفعل في "كل" والفعل منفي لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن) (٢) وقوله في حالة الإثبات

---

(١) المطول : ٢ .
(٢) دلائل الإعجاز : ٢٧٨ .

(واعلم أنك إذا نظرت وجدت الإثبات كالنفي فيما ذكرت لك) [١].

فقد رأى سعد الدين أن هذه القاعدة غير مطردة ، ولا تنسحب على كل الأساليب العربية ، وأنه حكم أكثرى لا كلي .

فقال : (إن كانت "كُلّ" في المعنى مفعولاً للفعل أو الوصف المحمول عليها أو العامل فيها نحو : ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، ولم آخذ كل الدراهم ، ونحوما كل الدراهم آخذها أنا ، وما آخذ أنا كل الدراهم فيفيد تعلق إدراك المرء ببعض متمنياته ، وتعلق الأخذ ببعض الدراهم بدليل الخطاب وشهادة الذوق والاستعمال ، وقال الشيخ : إذا تأملنا وجدنا إدخال "كل" في حيز النفي لا يصلح إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن ، وفيه نظر ، لأنا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ فالحق أن هذا الحكم أكثرى لا كلي) [٢].

وقد سبق الفخر سعد الدين إلى إدراك أن هذه القاعدة ليست كلية فهو يقول في قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ : (وقد يكون تفاوت الإعراب في هذا الباب بحيث لا يوجب تفاوت المعنى كقوله : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ ﴾ فإنك سواء قرأت "والقمر" بالرفع أو بالنصب فإن المعنى واحد ، فكذا في هذه الآية سواء قرأت : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ أو قرأت : ﴿ وَكُلٌّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ فإن المعنى واحد غير متفاوت) [٣].

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٧٨ .

(٢) المطول : ١٢٥ .

(٣) التفسير : ٢٩ / ٢٢١ م ١٥ .

٢ - ويسمى سعد الدين خروج الاستفهام إلى غير معناه الحقيقي معنى مجازياً ، متبعاً في ذلك الفخر الذى يعد - حسب علمي واستقصائي - أول من سماه بهذا الاسم .

يقول سعد الدين : (ثم إن هذه الكلمات الاستفهامية كثيراً ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسب المقام بمعونة القرائن ، وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله) .(١)

وقد ذكر الفخر بعد تسميته هذه العلاقات مجازاً ذكر أن العلاقة هي علاقة المشابهة وهذا مما لم يلتفت إليه سعد الدين . يقول في قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾(٢) : ("ما" لفظة وضعت لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها ، تقول ما الملك ؟ وما الروح ؟ ، وما الجن ؟ ، والمراد طلب ماهياتها ، وشرح حقائقها ، وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً ، فحصل بين الشيء المطلوب بلفظ "ما" وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه ، والمشابهة إحدى أسباب المجاز) .(٣)

٣ - يوافق سعد الدين رأى الجمهور ومنهم الفخر في الالتفات من أنهم يشترطون التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر من الطرق الثلاثة ، بشرط أن يكون التعبير الثاني على خلاف مقتضى الظاهر ، وإن كان السكاكي لا يشترط سبق التعبير عنه بطريق آخر .

وطريقة السعد هي طريقة الفخر الذى حرص على تطبيقها في التفسير ، فقد سمى أى نوع من أنواع الانتقال في الأسلوب التفاتاً - كما بينت في مبحث الالتفات - .

---

(١) المطول : ٢٣٥ .

(٢) سورة النبأ : ١-٢ .

(٣) التفسير : ٣١/٣-٤ م١٦ .

ب - أثره في كتب التفسير

لا تكاد تخلو كتب التفسير بعد الفخر من أخذ لآرائه وأقواله بما في ذلك النظرات البلاغية ، فقد كان لها الحظ الوافر من هذا الأخذ . وتتنوع طريقة هذا التأثير وتختلف من مفسر إلى آخر.

وسأكتفي بعرض ثلاثة تفاسير يظهر فيها أثر الفخر.

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي [١] ت ٦٨٥ هـ :

يتسم تفسيره بالاختصار ،أخذ من الكشاف كثيراً من المسائل ، وترك مافيه من اعتزال ، كما أنه استمد بعض النكات البلاغية من تفسير الفخر ، وأخذ منه بعض المباحث التي تتصل بالكون والطبيعيات ،وقد ذكر في مقدمة تفسيره أنه يحتوى على نكات رائعة ،منها ما استنبطها بنفسه ،ومنها ما أخذها ممن قبله .

ومما أخذه من الفخر فيما يتعلق بعلم المعاني :

فهو قد يضيف إلى ما قاله الفخر من علة للالتفات في قوله تعالى :

* لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * [٢].

يقول الفخر : (هلا قيل لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم ،فلم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ... ؟ الجواب : ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات) [٣].

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن على الشيرازى ،ناصر الدين البيضاوى ، قاضي ،مفسر ،علّامة ،ولد بالمدينة البيضاء بفارس ،رحل إلى تبريز وتوفي فيها . من تصانيفه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ،ويعرف بتفسير البيضاوى وله كتب كثيرة منها المطبوع و منها المخطوط .
الأعلام ، الزركلي :٤/ ١١٠.

(٢) سورة النور : ١٢.   (٣) التفسير الكبير : ٢٣/ ١٧٨م ١٢.

ويقول البيضاوي فيها : (وإنما عدل فيه من الخطاب إلى الغيبة، مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين ، والكف عن الطعن فيهم ، وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم)[1] .

وأولع البيضاوي بتلك الأسرار البلاغية التي تتعلق بالكون والطبيعيات فأخذ كثيراً منها .

من ذلك أنه يقول وهو يتحدث عن سر الفاصلة في قوله تعالى : * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *[2] (* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * على وجود الصانع وحكمته ، فإن من تأمل الحبة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أعلاها ، ويخرج منها ساق الشجرة ، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها ثم ينمو ، ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار ، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطباع مع اتحاد المواد ، ونسبة الطبائع السفلية والتأثيرات الفلكية إلى الكل ، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس ...)[3] .

وهذا الكلام هو قول الفخر في هذه الآية حيث يقول : (إن الحبة الواحدة تقع في الطين ، فإذا مضت على هذه الحالة مقادير معينة من الوقت نفذت في داخل تلك الجنة أجزاء من رطوبة الأرض ونداوتها فتنتفخ الحبة، فينشق أعلاها وأسفلها ، فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الأرض إلى الهواء ، ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة في قعر الأرض ... ثم إن تلك

---

(١) أنوار التنزيل : ٤/ ٧٥ م٢ .

(٢) سورة النحل : ١١ .

(٣) أنوار التنزيل : ٣/ ١٧٧ م٢ .

الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ، ثم يخرج منها الأوراق والأزهار والأكمام والثمار ، ثم إن تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع . . . ومع تشابه نسب هذه الأشياء نرى هذه الأجسام مختلفة في الطبع والطعم واللون والرائحة والصفة ، فدل صريح العقل على أن ذلك ليس إلا لأجل فاعل قادر حكيم رحيم) (١) .

فالبيضاوي يختصر الكلام ولا يسهب كما هو عادة الفخر .

ومن ذلك أيضاً قوله في سر الالتفات في قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ..﴾ (٢) .

: (﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ عدل به من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته والتنبيه على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره) (٣) .

وهذا ليس إلا اختصاراً لما قاله الفخر تأمل قوله في هذه الآية : (ما حكمة الالتفات في قوله تعالى : ﴿فَأَنبَتْنَا﴾ ؟ جوابه : أنه لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلا الله تعالى ، وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة هو الإنسان ، فإن الإنسان يقول: أنا الذى ألقى البذر في الأرض الحرة وأسقيها وأسعى فى تشميسها فإذن أنا المنبت للشجرة، فلما كان هذا الاحتمال قائماً، لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة) (٤) .

---

(١) التفسير الكبير : ٢٤٠/١٩ م١٠ .
(٢) سورة النمل : من الآية ٦٠ .
(٣) أنوار التنزيل : ١١٩/٣ م٢ .
(٤) التفسير الكبير : ٢٠٦/٢٤ م١٢ .

فالعبارات وإن اختلفت لكن المعنى واحد فقول البيضاوى : (لتأكيد اختصاص الفعل بذاته) هو قول الفخر : (إن خالق السموات . . . ليس إلا الله تعالى) وبقية كلامه هو اختصار لبقية كلام الفخر .

ويأخذ البيضاوي من الفخر النكات البلاغية التي تتصل بطبيعة تكوين الإنسان يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) : (عطف على "يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ" لأنه من رواد فهما من حيث أن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى ،لأن المقصود تعديد النعم ،ولا ينتقض بإسناد الإماتة إليه ،فإن الموت من حيث أنه لا يحس به لا ضرر فيه ،وإنما الضرر في مقدماته ،وهي المرض ، ثم إنه لأهل الكمال ،وصلة إلى نيل المجاب التي تستحقر دونها الحياة الدنيوية،وخلاص من أنواع المحن والبليات ،ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه ،وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر والصحة إنما تحصل باستحفاظ اجتماعها والاعتدال المخصوص . . .) (٢) .

وهذا من عند الفخر فهو يقول : (لم قال مرضت دون أمرضني ؟ وجوابه : من وجوه :

الأول : أن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه .

الثاني : أن المرض إنما يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي ،أما الصحة فهي إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها . . .

---

(١) سورة الشعراء : ٨٠ .

(٢) أنوار التنزيل : ٣/١٠٥ م٢ .

وثالثها : وهو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم ، والمرض مكروه ... وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم ، ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إليه تعالى ...).[1]

وهكذا يظهر لنا كيف أن البيضاوى أخذ واختصر من كلام الفخر ما يوضح المعنى ، وإن لم يلتزم الترتيب الذى سلكه الفخر.

ويهتم البيضاوى قليلاً بالمناسبات بين الآيات ، ويبدو أخذه ، ذلك أنه يقول في صلة قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾[2] بما قبله : (لما بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة وأطنب في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة مثل ما أمر بها ، وهي شاملة للاستقامة في العقائد).[3]

وقد ذكر الفخر الرابطة والمناسبة في هذه الآية مطولة مسهبة كعادته يقول : (واعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعد والوعيد قال لرسوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وهذه الكلمة كلمة جامعة في كل ما يتعلق بالعقائد والأعمال سواء كان مختصاً به ، أو كان متعلقاً به ، أو كان متعلقاً بتبليغ الوحي وبيان الشرائع ...).[4]

وغير ذلك كثير أكتفي بما ذكرت.

---

(١) التفسير الكبير : ١٤٥/٢٤ م١٢.

(٢) سورة هود : من الآية ١١٢.

(٣) أنوار التنزيل : ١٢٣/٣.

(٤) التفسير : ٧٢/١٨ م٩.

٢ - لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن[١] ت ٧٤١ :

هذا التفسير اختصره الخازن من (معالم التنزيل) للبغوى ،وضم إليه ما نقله ولخصه من التفاسير الأخرى مع حذف الأسانيد وتجنب الإسهاب.[٢]

يقول في مقدمة تفسيره : (ولم أجعل لنفسي تصرفاً سوى النقل والانتخاب ،مجتنباً حد التطويل والإسهاب ،وحذفت منه الإسناد ،لأنه أقرب إلى تحصيل المراد).[٣]

أكثر في تفسيره من ذكر القصص ،وأحياناً كان يبين درجة ضعفها أو كذبها ،وكثيراً ما يغفل عن ذلك ،وهو كثير الاستطراد في المسائل المختلفة من أخبار ،ومواعظ ،وأحكام فقهية ،فهو جامع شامل .

وفي هذا التفسير كثير من النكات البلاغية التي ينقلها عن الفخر الرازى .

وقد لاحظت أنه قليل التصرف فيما ينقل ، فقد يختصر ما أسهب فيه الفخر، من ذلك أن الفخر قد أطال في بيان سر تقديم من يستحق النفقة في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾[٤] .

---

(١) هو علي بن محمد بن ابراهيم الشيحيّ ،علاء الدين المعروف بالخازن ، عالم بالتفسير والحديث ،من فقهاء الشافعية ،بغدادى الأصل ، كان خازن الكتب بالمدرسة السميساطية فيها وتوفي بحلب . له تصانيف منها : (لباب التأويل في معاني التنزيل ،يعرف بتفسير الخازن) الأعلام ،للزركلي : ٥/٥ .

(٢) ينظر التفسير والمفسرون : ١/ ٣١٠-٣١١ .

(٣) لباب التأويل : ١/٣ .

(٤) سورة البقرة : ٢١٥ .

يقول : اعلم أنه تعالى راعى الترتيب في الإنفاق ، فقدم الوالدين ، وذلك لأنهما كالمخرج من العدم إلى الوجود في عالم الأسباب ، ثم ربياه في الحال الذى كان في غاية الضعف فكان إنعامهما على الابن أعظم من إنعام غيرهما عليه ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ لأن الله تعالى هو الذى أخرج الإنسان من العدم إلى الوجود في الحقيقة ، والوالدان هما اللذان أخرجاه إلى عالم الوجود في عالم الأسباب الظاهرة ، فثبت أن حقهما أعظم من حق غيرهما ، فلهذا أوجب تقديمهما على غيرهما في رعاية الحقوق ، ثم ذكر تعالى بعد الوالدين الأقربين ، والسبب فيه أن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بمصالح جميع الفقراء ، بل لا بد وأن يرجع البعض إلى البعض ، والترجيح لا بد له من مرجح ، والقرابة تصلح أن تكون سببا للترجيح من وجوه ...) [1] ثم يذكر ثلاثة أسباب لترجيح القرابة ويختصر الخازن هذا الكلام فيقول : (وإنما قدم الإنفاق على الوالدين لوجوب حقهما على الولد ، لأنهما كانا السبب في إخراجه من العدم إلى الوجود ، وإنما ذكر بعد الوالدين الأقربين ، لأن الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء ، فتقديم القرابة أولى من غيرها) [2] .

وقد يضيف الخازن وجهاً إلى ما ذكره الفخر ، فمثلاً يقول الخازن في قوله تعالى : ﴿ ... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [3] : (لم خص داود في هذه الآية بالذكر دون غيره من الأنبياء ؟ قلت : فيه وجوه :

---

(١) التفسير : ٦/ ٢٥ م٣ .

(٢) لباب التنزيل : ١/ ١٤٠ .

(٣) سورة الإسراء : من الآية ٥٥ .

أحدها : أن الله تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض . .

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى كتب له في الزبور أن محمداً خاتم النبيين ، وأن أمته خير الأمم .

الوجه الثالث: أن اليهود زعمت أن لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾)[1] .

وقد ذكر الفخر الوجه الأول والثاني[2] ، أما الثالث فهو من استنباطات الخازن .

وينقل الخازن كثيراً من الأسرار البلاغية لآيات كثيرة من تفسير الفخر .

من ذلك أنه يبين سبب مجيء الفعل على صيغة المفاعلة في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[3] : (وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد ، لأن المسيء قد أمكن من نفسه وطرق السبيل إليها بفعله ، فكأنه أعدل[4] عليه من يعاقبه بذنبه ويأخذه به)[5] .

وهذا ما ذكره الفخر في سبب مجيء الفعل على هذا الوزن يقول : (﴿ لَا تُؤَاخِذْنَا ﴾ أي لا تعاقبنا ، وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد ؛ لأن الناسي قد أمكن من نفسه وطرق السبيل إليها بفعله فصار من يعاقبه بذنبه كالمعين لنفسه)[6] .

---

(١) لباب التنزيل : ٣/ ١٦٧ .

(٢) ينظر التفسير الكبير : ٢٠/ ٢٢٠ م١٠ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٨٦ .

(٤) ذكر في النسخة (أعدل) وهذا لا يناسب السياق وأظنه (أعان) فهو يناسب السياق .

(٥) لباب التأويل : ١/ ٢٠٧ .

(٦) التفسير الكبير : ٧/ ١٥٥ م٤ .

ويأخذ الخازن من الفخر سر التكرار في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) يقول : (وقيل : فائدة تكرارها الإعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه ، ففيه حث للعباد على تكريرها ، والاشتغال بها ، فإنه من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات) (٢).

وهذا ما ذكره في هذه الآية يقول : (فائدة هذا التكرير الإعلام بأن المسلم يجب أن يكون أبداً في تكرير هذه الكلمة ، فإن أشرف كلمة يذكرها الإنسان هي هذه الكلمة ، فإذا كان في أكثر الأوقات مشتغلاً بذكرها وبتكريرها كان مشتغلاً بأعظم أنواع العبادات ، فكان الغرض من التكرير في هذه الآية حث العباد على تكريرها) (٣).

وما ذكره الخازن من سر للترتيب في قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) (٤) هو من عند الفخر.

يقول الخازن : (واعلم أن الله تعالى ذكرهنا ثمانية عشر نبياً من الأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب لا بحسب الزمان ، ولا بحسب الفضل ، لأن الواو لا تقتضي الترتيب ، ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب ، وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم السلام بنوع من الكرامة والفضل) (٥).

---

(١) سورة آل عمران : ١٨.
(٢) لباب التأويل : ٢٠٧/١.
(٣) التفسير الكبير : ٢٢٣/٧ م٤.
(٤) سورة الأنعام : ٨٤-٨٥-٨٦.
(٥) لباب التأويل : ٣١/٢.

ويقول الفخر : (رعاية الترتيب واجبة ،والترتيب إما أن يعتبر بحسب الفضل والدرجة وإما أن يعتبر بحسب الزمان والمدة ،والترتيب بحسب هذين النوعين غير معتبر في هذه الآية فما السبب ؟ قلنا الحق أن حرف الواو لا يوجب الترتيب . . . وأقول عندي فيه وجه من وجوه الترتيب ، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل) .(١)

ومثل هذا النقل كثير في التفسير اكتفيت ببعضه،لأنه يوفي بالغرض. لأن الهدف ليس الاستقصاء الدقيق لكل ما نقله إنما بيان موقفه مما قاله الفخر الرازي في مثل هذه النكات البلاغية .

٣ - البحرالمحيط لأبي حيان(٢) ت ٧٤٥ :

اهتم هذا التفسير بمسائل النحو ووجوه الإعراب في المقام الأول ،إلا أنه لم يهمل ما عداها من النواحي التي تتصل بالتفسير ،من فقه وقراءات ومعاني لغوية وغيرها ،كما أنه لم يغفل الناحية البلاغية في القرآن ،والتي نقل أكثرها من الزمخشري ثم من الفخر الرازي . وأكثر أبوحيان من النقل عن الفخر الرازي في شتى الموضوعات .

---

(١) التفسير الكبير : ٦٨/١٣ م٧ .

(٢) هو محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي الأندلسي ،من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات ،ولد في إحدى جهات غرناطة، وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة وتوفي فيها ، بعد أن كف بصره ،اشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه . من كتبه : تفسير البحر المحيط ، النهر ، اختصر به البحر المحيط وغيرها كثير من الكتب. الأعلام ،للزركلي : ١٥٢/٧ .

وقد ذكر في مقدمة التفسير الكتب التي ينبغي للمفسر الاحاطة بها ، ولم يذكر منها تفسير الفخر الرازي .

وسأحاول هنا بيان أثر تفسير الفخر في هذا التفسير من الناحية البلاغية فأقول : إن أول ما نلحظه من تأثير اعتناؤه بالمناسبة بين الآيات في القرآن ، سائراً في ذلك على نهج الفخر ،آخذاً منه كثيراً من هذه المناسبات. من ذلك أن أبا حيان يقول عند بيان مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾ (١) بما قبله : (هذا هو الإنعام التاسع وهو جامع لنعم الدنيا والدين ،أما في الدنيا فلأنه أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ،ولولا هو لهلكوا في التيه ،وهذا أبلغ من الماء المعتاد في الإنعام؛ لأنهم في مفازة منقطعة ،وأما في الدين فلأنه أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه ..) (٢) .

وهذا هو قول الفخر في الآية نفسها حيث يقول : (واعلم أن هذا هو الإنعام التاسع من الإنعامات المعدودة على بني إسرائيل ،وهو جامع لنعم الدنيا والدين ،أما في الدنيا فلأنه تعالى أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا في التيه ،كما لولا إنزاله المن والسلوى لهلكوا ..) (٣) ثم يذكر كلاماً طويلاً بعدها يذكر فيه نعم الدين،أما أبو حيان فإنه يلخص كلام الفخر ولا يذكره كاملاً لطوله.

ويقول أبو حيان في صلة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٤) بما قبله

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٦٠ .

(٢) البحر المحيط : ١/٢٢٦ .

(٣) التفسير الكبير : ٣/١٠١-١٠٢ .

(٤) سورة المائدة : ٨٧ .

من ذكر أحوال النصارى : (ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنه تعالى لما مدح النصارى بأن منهم قسيسين ورهباناً، وعادتهم الاحترازعن طيبات الدنيا ومستلذاتها، أوهم ذلك ترغيب المسلمين في مثل ذلك التقشف والتبتل، بين تعالى أن الإسلام لا رهبانية فيه)[١].

وهذا هو قول الفخر في مناسبة الآية بما قبلها يقول : (وجه النظم بين هذه الآية وما قبلها ؛ وذلك لأنه تعالى مدح النصارى بأن منهم قسيسين ورهباناً، وعادتهم الاحتراز من طيبات الدنيا ولذاتها ،فلما مدحهم أوهم ذلك المدح ترغيب المسلمين في مثل تلك الطريقة ،فذكر تعالى عقيب هذه الآية إزالة لذلك الوهم، ليظهر للمسلمين أنهم ليسوا مأمورين بذلك)[٢].

فالفخر يطلق على المناسبة نظماً،وهذا ما سار عليه في أكثر تفسيره.

و يصرح أبوحيان أحياناً بأنه يلخص ما قاله الفخر في بيان المناسبة، لأن الفخر كان في أكثر الأحوال يسهب في الشرح ويُطَوّل .

يقول أبوحيان في مناسبة قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[٣] بما قبله : (ومناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما قال : " ما على الرسول إلا البلاغ " صار كأنه قيل ما بلغه الرسول فخذوه وكونوا منقادين له ،وما لم يبلغه فلا تسألوا عنه ولا تخوضوا فيه فربما جاءكم بسبب الخوض الفاسد تكاليف تشق عليكم ، قاله أبوعبدالله الرازي وفيه بعض تلخيص)[٤].

---

(١) البحر المحيط : ٤/ ٨ .

(٢) التفسير الكبير : ١٢/ ٧٥ م٦ .

(٣) سورة المائدة : من الآية (١٠١) .

(٤) البحر المحيط : ٤/ ٣٠ .

أما الفخر[1] فقد أسهب في بيان المناسبة وذكر ثلاثة أوجه لها .

واهتمام أبي حيان بهذه المناسبات وأخذه لكثير منها ،جعله يهتم بها في آيات لم يذكر الفخر وجه مناسبتها ،ويوجد له طريقاً في بيانها يسير عليه في كل التفسير.من ذلك أنه يقول في مناسبة أواخر سورة البقرة كلاماً حسناً في المناسبات ،حيث يربطها بطرائق العرب في كلامها ،يقول في قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ : (ولما كان مفتتح هذه السورة بذكر الكتاب المنزل ،وأنه هدى للمتقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب ،وبما أنزل إلى الرسول وإلى من قبله كان مختتمها أيضاً موافقاً لمفتتحها ، وقد تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها ، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء ،وسأبين ذلك إن شاء الله في آخر كل سورة سورة ، وذلك من أبدع الفصاحة حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله وهي عادة للعرب في كثير من نظمهم ، يكون أحدهم آخذاً في شيء ثم يستطرد منه إلى شيء آخر،ثم إلى آخر هكذا طويلاً ثم يعود إلى ما كان آخذاً فيه أولاً)[2] .

وذكر الفخر صلة أول السورة بآخرها، وعد هذه الروابط من الفصاحة، وأبوحيان يقتبس منه ،ويعرض الكلام بأسلوبه وطريقته .

يقول : (أنه بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، وبين في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ والْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وهذا هو المراد بقوله في أول السورة : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾)[3] .

---

(١) ينظر التفسير الكبير :١١١/١٢ م٦ .

(٢) البحر المحيط :٢/ ٣٦٣-٣٦٤ .

(٣) التفسير :١٣٨/٧ م٤ . سورة البقرة : من الآية ٣ .

ثم يقول الفخر : (ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته) [(١)].

وليس هناك أدنى شك في أن أباحيان قد أفاد مما ذكره الفخر من المناسبات ، ولذلك حرص على بيان روابط الآيات في السورة الواحدة منها ما هو منقول عن الفخر وأكثرها من عنده.

مثلاً يذكر أبوحيان مناسبة سورة الأنبياء لما قبلها ولم يذكر الفخر المناسبة في هذه السورة .

يقول أبوحيان في قوله تعالى : * اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * [(٢)] : (مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر : * قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا * [(٣)] قال مشركو قريش : محمد يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال وليس بصحيح ، وإن صح ففيه بُعْد فأنزل الله تعالى : * اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ *) [(٤)].

ومثل ذلك في كثير من السور.

كذلك أخذ أبوحيان كثيراً من التعليلات البلاغية من تفسير الفخر دون أن ينسبها إليه.

يقول في قوله تعالى : * فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ * [(٥)] : (وعدل عن اسم الفاعل وهو أو مسافراً إلى * أَوْ عَلَى سَفَرٍ *

---

(١) التفسير : ١٣٩/٧ م٤.

(٢) سورة الأنبياء : ١.

(٣) إشارة إلى آخر آية في سورة طه * قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى * آية : ١٣٥ .

(٤) البحر المحيط : ٢٩٥/٦.

(٥) سورة البقرة : من الآية ١٨٤.

إشعاراً بالاستيلاء على السفر لما فيه من الاختيار للمسافر، بخلاف المرض فإنه يأخذ الإنسان من غير اختيار، فهو قهري بخلاف السفر)[١].

وهذا هو قول الفخر يقول : (لقائل أن يقول رعاية اللفظ تقتضي أن يقال : فمن كان منكم مريضاً أو مسافراً ، ولم يقل هكذا بل قال : * فَمَن كَانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ * وجوابه : أن الفرق هو أن المرض صفة قائمة بالذات فإن حصلت حصلت وإلا فلا ، وأما السفر فليس كذلك ، لأن الإنسان إذا نزل في منزل فإن عدم الإقامة كان سكونه هناك إقامة لا سفراً ، وإن عدم السفر كان هو في ذلك الكون مسافراً ، فإذن كونه مسافراً يتعلق بقصده واختياره)[٢].

ويقول في قوله تعالى : * فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا *[٣].

* وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا * هذا كالتوكيد لقوله تعالى : * فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ * نهاهم أن لا يكون الإمساك ضراراً ، وحكمة هذا النهي أن الأمر في قوله : * فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ * يحصل بإمساكها مرة بمعروف، هذا مدلول الأمر ، ولا يتناول سائر الأوقات وجاء النهي ليتناول سائر الأوقات ويعمها)[٤].

ويقول الفخر في هذا : (لقائل أن يقول : لا فرق بين أن يقول : * فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ * وبين قوله : * وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً * لأن الأمر

---

(١) البحر المحيط : ٢/ ٣٠ .

(٢) التفسير الكبير : ٥/ ٨١ م٣ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٣١ .

(٤) البحر المحيط : ٢/ ٢٠٨ .

بالشيء نهي عن ضده ، فما الفائدة في التكرار ؟ والجواب : الأمر لا يفيد إلا مرة واحدة ، فلا يتناول كل الأوقات ، أما النهي فإنه يتناول كل الأوقات ، فلعله يمسكها بمعروف في الحال ، ولكن في قلبه أن يضارها في الزمان المستقبل)[1] فالتعليل واحد مع اختلاف بسيط في العبارات .

ويقول أبوحيان أيضاً في قوله تعالى آخذاً من الفخر : ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾[2] : (قيل : وقال " فيها " ولم يقل " منها " تنبيهاً على ما قاله عليه السلام " واتجروا في أموال اليتامى التجارة لا تأكلها الزكاة " ، والمستحب أن يكون الإنفاق عليهم من فضلاتها المكتسبة)[3] .

ويقول الفخر في هذه الآية : (وإنما قال : " فيها " ولم يقل " منها " لئلا يكون ذلك أمراً بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقاً لهم ، بل أمرهم أن يجعلوا أموالهم مكاناً لرزقهم بأن يتجروا فيها ويثمروها فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لا من أصول الأموال)[4] .

وفي بعض الأحيان يعترض أبوحيان على مسائل الفخر البلاغية ويصفه بالجهل باللسان العربي .

من ذلك أن الفخر يقدر محذوفاً في قوله تعالى : ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[5] فيقول : (تقدير الكلام : لهم درجات عند الله ، إلا أنه حسن هذا الحذف ، لأن اختلاف أعمالهم قد صيرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها ، فكان هذا المجاز أبلغ من الحقيقة)[6] .

---

(١) التفسير الكبير : ٦/١١٨ م٣ .
(٢) سورة النساء : من الآية ٥ .
(٣) البحر المحيط : ٣/١٧٠ .
(٤) التفسير الكبير : ٩/١٩٣ م٥ .
(٥) سورة آل عمران : ١٦٣ .
(٦) التفسير الكبير : ٩/٧٧ م٥ .

ويذكر أبوحيان رد بعض أهل العلم عليه فيقول : (وقال الرازي تقديره " لهم درجات " قال بعض المصنفين راداً عليه " اتبع الرازي في ذلك أكثر المفسرين بجهله وجهلهم بلسان العرب ، لأن حذف لام الجر هنا لا مساغ له ، لأنه إنما تحذف لام الجر في مواضع الضرورة أو لكثرة الاستعمال ، وهنا ليس من تلك المواضع ، على أن المعنى دون حذفها حسن متمكن جداً).(١)

وقد يرى أبو حيان أن الفخر أساء فهم كلام بعض أهل العلم فيرد عليه رداً قاسياً ، من ذلك أن الفخر ذكر عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢) أن سيبويه يرى أن قراءة ﴿ وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ ﴾ بالنصب أولى ، ثم رد الفخر هذا القول وقال إن فيه طعناً لما تواتر عليه القراء من القراءة بالرفع ، وفنده من خمسة أوجه.(٣)

وهنا قام أبوحيان ورد كلام الفخر ، واتهمه بالتجاسر على أقوال العلماء ، وقال إن سيبويه لا يريد من كلامه تفضيل قراءة النصب .

يقول : (قال سيبويه الوجه في كلام العرب النصب كما تقول زيداً فاضربه ، ولكن أبت العامة إلا الرفع يعني عامة القراء وجلهم ، ولما كان معظم القراء على الرفع تأوله سيبويه على وجه يصح ، وهو أنه جعله مبتدأ والخبر فهو محذوف ، لأنه لو جعله مبتدأ والخبر " فَاقْطَعُوا " لكان تخريجاً على غير الوجه في كلام العرب ، ولكان قد تدخل الفاء في خبر (أل) وهو لا يجوز عنده(٤) ، وقد تجاسر أبوعبدالله محمد بن عمر المدعو بالفخر الرازي ابن خطيب الري على سيبويه ، وقال عنه ما لم يقله ، فقال الذي ذهب إليه سيبويه ليس بشيء والذي يدل على فساده وجوه) .

---

(١) البحر المحيط : ٣/١٠٢ .

(٢) سورة المائدة : ٣٨ .

(٣) ينظر التفسير الكبير : ١١/٢٢٩-٢٣٠ م٦ .

(٤) ينظر الكتاب ، لسيبويه : ١/١٤٣-١٤٤ .

ثم ذكر الوجوه وفندها واحدة واحدة ،وسأكتفي بذكر ما يتعلق منها بالبلاغة ،وما قاله أبوحيان في تفنيدها .

يقول الفخر في الوجه الخامس : (إن سيبويه قال : هم يقدمون الأهم فالأهم ،والذى هم بشأنه أعنى ،فالقراءة بالرفع تقتضي تقديم ذكر كونه سارقاً على ذكر وجوب القطع ،وهذا يقتضي أن يكون أكبر العناية مصروفاً إلى شرح ما يتعلق بحال السارق من حيث أنه سارق ،وأما القراءة بالنصب فإنها تقتضي أن تكون العناية ببيان القطع أتم من العناية بكونه سارقاً،ومعلوم أنه ليس كذلك ،فإن المقصود في هذه الآية بيان تقبيح السرقة والمبالغة في الزجر عنها).[1]

ويرد أبوحيان هذا الوجه بقوله : (الذى ذكر فيه سيبويه أنهم كانوا يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى هو ما اختلفت فيه نسبة الإسناد كالفاعل والمفعول ،قال سيبويه : فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى على الأول يعني في ضرب عبدالله زيداً ،قال : وذلك ضرب زيداً عبدالله لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً ،ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ ،فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدماً ،هوعربي جيد كثير كأنهم يقدمون الذى بيانه لهم أهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعاً يهمانهم و يعنيانهم انتهى ،والرازى حرّف كلام سيبويه وأخذه حيث لا يتصور اختلاف نسبته وهو المبتدأ والخبر فإنه ليس فيه إلا نسبة واحدة بخلاف الفاعل والمفعول . . . أما الآية فهي من باب ما النسبة فيه لا تختلف إنما هي الحكم على السارق بقطع يده، وما ذكره الرازى لا يتفرع على كلام سيبويه بوجه).[2]

---

(١) التفسير الكبير : ١١/ ٢٣٠ م١٠.

(٢) البحر المحيط : ٣/ ٤٨١ - ٤٨٢ .

وأقول : إن كلمة سيبويه : (يقدمون الذى بيانه أهم وهم بشأنه أعنى) تعنى كل تقديم وتأخير ،ولا تقتصر على ما اختلف فيه نسبة الإسناد كالفاعل والمفعول ،فهو يقول في تقديم الظرف : (والتقديم هنا والتأخير فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً ،في العناية والاهتمام ، مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول ،وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير)[(١)] فلا حرج من أن يقال قدم السارق أو قدم القطع .

وكان أبو حيان يأخذ أحياناً نظرات الفخر البلاغية من كتاب (المنتخب) و (ري الظمآن) فيقول : (قال صاحب المنتخب ...) و (قال صاحب ري الظمآن) ثم يذكر النكات البلاغية التي يذكرها الفخر ، ولم أعرف من هو صاحب المنتخب وري الظمآن ،حتى وجدته يقول في مواضع من التفسير : (وفي المنتخب للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي)[(٢)] ويقول : (قال أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسى في ري الظمآن)[(٣)] فعرفت أن مؤلف الكتابين عالم واحد ،وهو عالم بالأدب والتفسير والحديث توفى سنة ٦٥٥ هـ ،كان ضريراً أصله من مرسيه ،ومن كتبه (التفسير الكبير) سماه ري الظمآن ،وله (التفسير الأوسط) و(التفسير الصغير)[(٤)] ، وأظن أن المنتخب اسم لأحد هذين التفسيرين نقل فيه كثيرمن نظرات الفخر البلاغية.

ومن النكات البلاغية التي نسبها لهذا العالم وهي في الأصل للفخر قوله في مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ .. ﴾[(٥)] بما قبلها : (عد صاحب المنتخب هذا إنعاما

---

(١) الكتاب : ١/٥٦ .

(٢) البحر المحيط : ١/١٦١ .

(٣) المصدر السابق : ١/٢٥٣ .

(٤) الأعلام ،للزركلي : ٦/٢٣٣ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٥٤ .

خامساً وقيل هذه الآية ومابعدها منقطعة مما تقدم من التذكير بالنعم ؛ وذلك لأنه أمر بالقتل ، والقتل لا يكون نعمة ، وضعف بأن من أعظم النعم التنبيه على ما به يتخلصون من عقاب الذنب العظيم وذلك هو التوبة)(١).

وهذا هو قول الفخر حيث يقول : (اعلم أن هذا الإنعام الخامس قال بعض المفسرين : هذه الآية ومابعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم وذلك لأنها أمر بالقتل ، والقتل لا يكون نعمة ، وهذا ضعيف من وجوه . . .)(٢) ثم يسهب في الموضوع ويذكر أربعة وجوه لضعفه ، وصاحب المنتخب ملخص هنا لكلام الفخر.

ويقول أبوحيان في تنكير : " قتال " مرتين في قوله تعالى :

* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ *(٣).

: (قيل في المنتخب : إنما نكر فيها لأن النكرة الثانية هي غير الأولى ، وذلك أنهم أرادوا بالأول الذى سألوا عنه ، فقال عبد الله بن جحش وكان لنصرة الإسلام وإذلال الكفر فلا يكون هذا من الكبائر ، بل الذى يكون كبيراً هو قتال غير هذا ، وهو ما كان الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر ، فاختير التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة)(٤).

ويقول الفخر في سبب تنكير " قتال " : (إن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد بالثاني إذن غير الأول ، والقوم أرادوا بقولهم : * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ * ذلك القتال المعين الذى أقدم عليه عبد الله ابن جحش ، فقال تعالى : * قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ * وفيه تنبيه على أن القتال الذى يكون كبيراً ليس هو هذا القتال الذى سألتم عنه ، بل هو قتال آخر ؛

---

(١) البحر المحيط : ٢٠٥/١.

(٢) التفسير الكبير : ٨٤/٣ م٢.

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢١٧.

(٤) البحر المحيط : ١٤٦/٢.

لأنّ هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر ،فكيف يكون هذا من الكبائر ،إنما القتال الكبير هو الذى يكون الغرض فيه هدى الإسلام وتقوية الكفر ، فكان اختيارالتنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة) [(١)].

وقد ينقل صاحب (رى الظمآن) قاعدة بلاغية من الفخر أخذها من عبد القاهر دون الإشارة إلى ذلك ،ويأتي أبو حيان وينقل مقولة صاحب (رى الظمآن) كما هي ، يقول في قوله تعالى : ﴿ والمُطَلَّقاتُ يَترَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [(٢)] : (قال في رى الظمآن «زيد فعل» يستعمل في أمرين : أحدهما :تخصيص ذلك الفعل بذلك الأمر كقولهم :أنا كتبت في المهم الفلاني إلى السلطان ، والمراد دعوى الإنفراد . الثاني : أن لا يكون المقصود ذلك بل المقصود أن تقديم المحدث عنه بحديث آكد لإثبات ذلك الفعل له كقولهم : هو يعطي الجزيل، لا يريد الحصر بل المراد أن يحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبه ،ومعنى يتربصن ينتظرن ولا يقدمن على تزوج) [(٣)].

وهذا الكلام قد ذكره الفخر ونسبه إلى عبد القاهر وهو يبين دلالة التقديم ،وقد أسهب الفخر فيه ودلل عليه بآيات قرآنية ،وبيت شعر [(٤)] ،وقد ذكرته في عدة مواضع من هذا البحث ،في مبحث التقديم ،وفي بيان أثر عبد القاهرعلى الفخر ،وبينت ما فيه من تصرف في مقولة عبد القاهر ، فقد ساوى الفخر بين دلالة تقديم المسند إليه الضمير ، ودلالة تقديم المسند إليه الاسم الظاهر ،وهذا ما لم يرده عبد القاهر ،ولم يرم إليه في حديثه في باب التقديم، فمن شاء فليرجع إلى ما سبق من دراسة لهذه المقولة. وبهذا كان أثر الفخر في هذا التفسير واضحاً .

---

(١) التفسير الكبير : ٦ / ٣٣ م٣ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ .

(٣) البحر المحيط : ٢ / ١٨٥ .

(٤) ينظر التفسير الكبير : ٦ / ٩٣ م٣ .

جـ - أثره في كتب علوم القــرآن .

اهتمت كتب علوم القرآن بالحديث عن كل ما يتصل بعلوم القــرآن ، بما فيها المباحث المتعلقة بعلم البلاغة. واعتمدت هذه الكتب على مصــادر التراث التي سبقتها، فجمعت ما تفرق منها مما اهتم بالقــرآن ، ومنها الكتــب التي تتحدث عن بلاغته وإعجازه. ويعد التفسير الكبير للفخر الرازي أحــــد هذه المصادر التي اُعتمد عليها ولذلك نجد آراء الفخر مبثوثة في هذه الكتب، البلاغية منها وغير البلاغية.

وسأتناول - إن شاء الله - بعض كتب علوم القرآن ، وأبين مدى استفادتها من آراء الفخر ، منها :

١ - البرهان في علوم القرآن للزركشي .

٢ - معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي .

*

أولا - البرهان في علوم القرآن للزركشي (١) ت ٧٩٤ هـ :

كتاب البرهان من الكتب التي عنيت بعلوم القرآن ، وفيه دراسـات كثيرة زاخرة ، جمع فيه الزركشي أشتاتاً من أقوال العلماء ، وأشار إلى مصنفاتهم جامعاً في ذلك بين آراء المفسرين والفقهاء والأصوليين وأصحاب الكلام وعلماء العربية ، بما فيهم من علماء النحو واللغة والبلاغة ، فجاء كتابه غزير المادة متنوع الموارد شاملاً جامعاً ، اشتمل على سبعة وأربعين نوعاً من أنواع علوم القرآن .

علوم

---

(١) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبوعبد الله ، بدر الدين ، عالم بفقه الشافعية والأصول ، تركي الأصل ، مصري المولد والوفاة . له تصانيف كثيرة منها البرهان في علوم القرآن ، الأعلام ، للزركلي : ٦/ ٦٠ .

ويتضح من كتابه هذا أنه اطلع على تفسير الفخر الرازى ، لذلك يذكره في مواضع كثيرة ، مرة ينقل أقواله ، ومرة يرد عليه رأيه بعد مناقشته فيه وكان يسميه (الإمام فخر الدين) وأحياناً يقول (حكى الإمام) دون ذكر اسمه .

وسأحاول هنا أن ألقى الضوء على بعض مواقف الزركشي من الفخر في تفسيره الكبير .

يذكره بدءاً فى باب المناسبات بين الآيات ، وهو الباب الذى اشتهر به الفخر في تفسيره ، فقد لاحظ كثرة اعتناء الفخر بذكر المناسبات بين الآيات والسور مما لا يوجد عند غيره من المفسرين ، ولذلك يذكر في تفسيره الشيء الكثير منها .

كما نقل عنه عبارته المشهورة في أن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط يقول الزركشي في هذا الشأن : (وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته ، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى وقال في تفسيره : " أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط ") .(١)

وقد استلهم في حديثه عن المناسبات وأنواعها بعضاً مما ذكره الفخر في التفسير فمثلاً يقول : (إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة فيها . . كافتتاح سورة (فاطر) بـ(الحمد) أيضاً فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِن قَبْلُ ﴾ (٢) وهذا مما حرص الفخر على بيانه فقد بين صلة كثير من السور بآخر ما قبلها ، كصلة أول الروم بآخر العنكبوت ،

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٣٦/١ .

(٢) سورة سبأ : من الآية ٥٤ . البرهان : ٣٨/١ .

وصلة أول لقمان بآخر الروم ، وصلة أول سورة محمد بآخر سورة الأحقاف ... وهكذا .

وأيضاً يقول الفخر وهو يبين صلة أول (فاطر) بآخر (سبأ) :

﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً ﴾ فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلاً وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى ؛ لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت) . (١) فالفخر قد أسهب في بيان الصلة ووضحها .

ويقول الزركشي كذلك : (وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة في الأمر به) . (٢)

وهذه المناسبة بين أول سورة الحديد وآخر الواقعة ذكرها الفخر أيضاً ، يقول في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٣) :

(ويحتمل أن يكون المراد فسبح واذكر ربك باسمه الأعظم وهذا متصل بما بعده لأنه قال في السورة التي تلي هذه " أي سورة الحديد " :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ فكأنه قال سبح لله ما في السموات فعليك أن توافقهم) . (٤)

وينقل الزركشي بعض هذه المناسبات من التفسير الكبير ، كنقله لصلة سورة الكوثر بسورة الماعون حيث يقول : (ومن لطائف سورة الكوثر أنها

---

(١) التفسير الكبير : ٢٦/٢ م ١٣ .

(٢) البرهان : ٣٨/١ .

(٣) سورة الواقعة : ٩٦ .

(٤) التفسير الكبير : ٢٠٥/٢٩ م ١٥ .

كالمقابل للتي قبلها ،لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة : البخل ،و ترك الصلاة ،والرياء فيها ،ومنع الزكاة ،فذكر هنا في مقابلة البخل : * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * أى الكثير ،في مقابلة ترك الصلاة : * فَصَلِّ * أى دم عليها ،وفي مقابلة الرياء : * لِرَبِّكَ * أى لرضاه لا للناس ،وفي مقابلة منع الماعون : * وَانْحَرْ * وأراد به التصدق بلحم الأضاحي فاعتبر هذه المناسبة العجيبة).(١)

وهذا النقل يكاد يكون حرفياً ،بل إن قوله : (فاعتبر هذه المناسبة العجيبة) هي من عند الفخر .

ويأخذ الزركشي من الفخر بعض خصائص القرآن في ترتيب الآيات التي استنبطها وذكرها في مواضع عدة، حيث يقول الزركشي : (وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً،ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق ،ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ،ليعلم عظم الآمر والناهي ،وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك) ومثل هذه الخصائص لا تعرف إلا بالنظر في كل آيات القرآن وكيفية ترتيبها ،وقد عني الفخر بذلك يقول عند تفسيره لآيات من سورة البقرة : (... ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد)(٣) ويقول في موضع آخر : (اعلم أن عادة الله في القرآن مطردة بأنه تعالى مهما ذكر وعيداً ذكر بعده وعداً).(٤)

وقول الفخر فيه نظر لأنه قد يأتي في القرآن الوعد أولاً ثم يعقبه

---

(١) البرهان : ٣٩/١ ، التفسير الكبير : ١١٧/٣٢ م١٦ .

(٢) البرهان : ٤٠/١ .

(٣) التفسير الكبير : ٤١/٦ م٣ .

(٤) المصدر السابق : ١٠٤/٧ م٤ .

الوعيد كما في سورة غافر : * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ *(١) فجاء الوعد ثم الوعيد، وكذلك في قوله تعالى في سورة الحجر : * نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ *(٢) وقد تبعه الزركشي في هذا دون التنبه له، وذكر مثل هذه الكلام كذلك في سورة النساء(٣) وفي غيرها من السور.

ويستحسن الزركشي مقارنة الفخر في باب الفواصل بين ثلاث فواصل متتالية في أوائل سورة النحل، فقد انتهت الأولى : * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * والثانية : * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * والثالثة : * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ *(٤) ذلك لأن الفخر اعتمد في بيان الأسرار على الطبيعيات وحركة الأفلاك.

يقول : (وقد تجتمع فواصل في موضع واحد ويخالف بينها وذلك في مواضع منها في أوائل النحل، وذلك أنه سبحانه بدأ فيها بذكر الأفلاك فقال : * خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ * ثم ذكر خلق الإنسان فقال : * مِن نُّطْفَةٍ *، وأشار إلى عجائب الحيوان فقال : * وَالأَنْعَامَ * ثم عجائب النبات فقال : * هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *(٥) فجعل مقطع هذه الآية التفكر .....

---

(١) من الآية : ٣.

(٢) الآية : ٤٩ - ٥٠.

(٣) ينظر التفسير الكبير : ٦٢/١١.

(٤) سورة النحل : ١١-١٢-١٣.

(٥) سورة النحل : ١٠-١١.

وفيه جواب عن سؤال مقدر، وهو أنه لم لا يجوز أن يكون المؤثر فيه طبائع الفصول وحركات الشمس والقمر؟ ولما كان الدليل لا يتم إلا بالجواب عن هذا السؤال، لا جرم كان مجال التفكر والنظر والتأمل باقياً) [(١)].

وكلامه الأخير هو من تفسير الفخر يقول: (ولقائل أن يقول: لا نسلم أنه تعالى هو الذى أنبتها ولم لا يجوز أن يقال: إن هذه الأشياء إنما حدثت وتولدت بسبب تعاقب الفصول الأربعة وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب ؟ وإذا عرفت هذا السؤال فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تاماً ... بل يكون مقام الفكر والتأمل باقياً، فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله: ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾) [(٢)].

ويواصل الزركشي نقله من الفخر في سر مجيء الفاصلة بعدها بـ ﴿ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [(٣)].

ويرد الزركشي على الفخر حين يرفض قول الواحدى بالتقديم والتأخير في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَدُنْهُ ﴾ [(٤)] حيث يقول الفخر: (إن قوله: ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجًا ﴾ يدل على كونه مكملاً في ذاته وقوله " قيماً " يدل على كونه مكملاً لغيره، وكونه كاملاً في ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملاً لغيره فثبت بالبرهان العقلي أن الترتيب الصحيح هو الذى ذكره الله تعالى، وما ذكر من التقديم والتأخير فاسد يمنع العقل من الذهاب إليه) [(٥)].

---

(١) البرهان : ١/٨٤-٨٥.

(٢) التفسير الكبير : ١٩/٢٤٠ م١٠.

(٣) ينظر البرهان : ١/٨٥، والتفسير الكبير : ٢٠/٢-٣ م١٠.

(٤) سورة الكهف : من الآية ١.

(٥) التفسير الكبير : ٢١/٧٦.

ويتعجب الزركشي من هذا الفهم للآية ، ويذكر أن التقديم والتأخير لا يتنافى مع المعنى المراد فيقول : (وهذا فهم عجيب من الإمام ، لأن القائل بالتقديم والتأخير لا يقول بأنه كونه غير ذي عوج متأخر عن كونه قيماً في المعنى ، وإنما الكلام في ترتيب الألفاظ لأجل الإعراب ، وقد يكون أحد المعنيين ثانياً قبل الآخر ويذكر بعده) [1] .

---

(١) البرهان : ٢٧٧/٣ .

ثانيا - معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١) ، ت ٩١١ هـ :

يبحث هذا الكتاب في أوجه إعجاز القرآن ، فقد رأى السيوطي أن أوجه إعجاز القرآن كثيرة لا نهاية لها ، ذكر منها خمسة وثلاثين وجهاً ، وكانت طريقته في تناول الموضوع أنه يبدأ بذكر الكتب التي ألفت في الموضوع والعلماء الذين ألفوا فيه ، وإن كان هو ألف فيه شيئاً ذكره ، ثم يتحدث عنه حديثاً مسهباً ، ولذلك يعد كتابه موسوعة جمعت كثيراً من المعارف المتنوعة.

ونقل السيوطي في هذا الكتاب بعض آراء للفخر ، وناقشه في بعضها ، وكان النقل إما مباشراً ، أو نقلاً عنه من كتب أخرى، لخصت واختصرت كلام الفخر. من ذلك أنه ينقل تلخيصات الزركشي في البرهان لبعض كلام الفخر ، كنقله لسر تنوع فواصل آيات النحل التي ذكرتها سابقاً ، وكنقله لعبارة الزركشي في علم المناسبة : (وعلم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته ، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين وقال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط) . (٢)

كما نقل عنه لطائف سورة الكوثر التي لخصها من تفسير الفخر. (٣)

ويذكر السيوطي كلاماً لابن المنير في أسرار الفواصل ، لكنه في الأصل للفخر الرازي ، فهو يقول في الفرق بين الفاصلتين في الآيتين المتشابهتين :
﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٤) :

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي جلال الدين : إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو ٦٠٠ مصنف ، نشأ في القاهرة ، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا للتأليف حتى توفي . الأعلام ، للزركلي : ٣ / ٣٠١ .

(٢) معترك الأقران : ١/٥٥ .

(٣) ينظر المصدر السابق : ١/٦٧ . والبرهان في علوم القرآن للزركشي : ١/٣٩ .

(٤) سورة إبراهيم : من الآية ٣٤ .

قال ابن المنير : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[١] كأنه يقول إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان : كونك ظلوماً ،وكونك كفاراً ، يعني لعدم وفائك بشكرها ،ولي عند إعطائها وصفان ،وهما أني غفوررحيم ،أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي ،فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير ، ولا أجازى جفاك إلا بالوفاء) .[٢] والفخر الرازى سابق لابن المنير الذى توفي عام ٦٨٣هـ .

وهذا الكلام هو للفخر ، إذ يقول : (إنه تعالى قال في هذا الموضع : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ وقال في سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة كأنه يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذى أخذتها ، وأنا الذى أعطيتها ،فحصل لك عند أخذها وصفان : وهما كونك ظلوماً كفاراً ،ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفوراً رحيماً والمقصود كأنه يقول : إن كنت ظلوماً فأنا غفور ،وإن كنت كفاراً فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير ،ولا أجازى جفاءك إلا بالوفاء) .[٣]

و ينقل عن الفخر جوازه لعطف الجملة الاسمية على الفعلية إذا كان هناك سر وراء هذا العطف .

يقول السيوطي : (اختلف في جوازعطف الاسمية على الفعلية وعكسه ، فالجمهور على الجواز وبعضهم على المنع ،ولقد لهج به الرازى في تفسيره) .[٤]

---

(١) سورة النحل : ١٨ .

(٢) معترك الأقران : ١/٤٤ .

(٣) التفسير الكبير : ١٣٣/١٩ م١٠ .

(٤) معترك الأقران : ٦٢٠/٣ .

ومعنى" لهج به " يعنى ذكره كثيراً في تفسيره ، وينقل السيوطي عنه بعضاً مما قاله في هذا العطف ، يقول السيوطي في بيان سر عطف الاسم على الفعل في قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [(١)] : (قال الإمام فخر الدين : " لما كان الاعتناء بإخراج الحي من الميت أشد أتى فيه بالمضارع ليدل على التجدد " كما في قوله : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [(٢)]) [(٣)] .

وغيره كثير اكتفي بما قلته منعا للتطويل .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ٩٥ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٥ .

(٣) معترك الأقران : ٣ / ٦٥١ .

الخاتمة

أ - خلاصة البحث .

ب - نتائج البحث .

جـ - قائمة المصادر والمراجع .

أ - خلاصة البحث

في التمهيد :

ألقيت الضوء على حياة الفخر الرازي ، فذكرت اسمه واسم والده كما ذكر في تفسيره ، ثم ذكرت كنيته ، ومولده واختلاف الرواة في سنة مولده ثم رجحت وجهاً رأيته أقرب ، وأشرت إلى شيوخه الذين تلمذ عليهم ، ومنهم والده كما ذكر في التفسير ، ثم بينت أنواع ثقافته وتبحره في شتى العلوم ، واتصاله بالحكام ، ورحلاته . وتحدثت عن صفاته الخُلُقية وما وهبه الله منها ، ثم صفاته الخَلْقِيَة ، وذكرت مذهبه العقدي وبينت أنه كان سنياً ، ومذهبه الفقهي ، فقد كان شافعي المذهب ، ورددت من خلال تفسيره على من زعم أنه كان شيعياً ، وعرضت لصورة عصره والصراعات التي كانت تعج بها الساحة آنذاك وأثرها في تكوين عقليته ، وذكرت بعض مؤلفاته التي أثبتها في التفسير ، ثم أثبت له أبياتاً من الشعر من التفسير ومن كتب التراجم ، وذكرت الأغراض التي دارت حولها ، وملت إلى أنها إلى النظم أقرب منها إلى الشعر .

ثم تحدثت عن تفسيره المسمى (بمفاتيح الغيب) وبينت فضله وأقوال العلماء فيه ثم تعرضت لمن قال إن الفخر لم يكمل تفسيره وأثبت - حسب جهدي المتواضع - أنه أكمله .

ثم تحدثت عن مكانته البلاغية التي عرفت من خلال كتابه (نهاية الإيجاز) وأوردت كلام بعض الباحثين حول منزلته ، ثم بينت أن روحه البلاغية تظهر من خلال تفسيره ، الذي نقل فيه كثيراً من الأصول البلاغية إلى المجال التطبيقي الذي نراه يتسع ويتشعب . وذكرت كيف أن بحث علم المعاني في التفسير سيكون مكملاً لدراسات بلاغية دارت حوله تقوم على التفصيل والاستقصاء لأكثر المسائل مما لم نره في الدراسات السابقة .

وفي الدراسة البلاغية قبل الفخر :

بدأت الحديث عن المراد بعلم المعاني ،فتتبعت هذه اللفظة حتى غدت تطلق على علم من علوم البلاغة ،فبدأت بمفهومها عند اللغويين ثم بينت أنها كانت تطلق على الكتب التي تبحث عما يشكل من القرآن والشعر ، ثم رأيت ابن فارس يتحدث عن (معاني الكلام) فيحصرها في عشرة أنواع ، ثم تحدث عن خروج كل نوع عن معناه الذى وضع له إلى معنى يفهم من السياق ، وهذه كانت الخطوة الأولى في نشأة هذا العلم حيث يراد به المعاني الإضافية التي تفهم من المعاني المباشرة.

ثم وجدت (المعنى) و (معنى المعنى) و (معاني النحو) عند عبد القاهر ،وبينت المراد من كل مصطلح ،ورأيته يربط بين معاني النحو والنظم، ثم يذكر الأبواب التي تأتي عليها صور معاني النحو ، وهذه الأبواب التي ذكرها لا تخرج عن أبواب المعاني التي انتهى إليها العلماء ،ولم يبين الزمخشرى المراد بعلم المعاني في مقدمة تفسيره ،ولا الفخر في تلخيصه لكتابي عبد القاهر ، ثم يتحدد معنى هذا العلم عند السكاكي فيعرفه تعريفاً شاملاً ،ويذكر أبوابه ،وجاء من بعده الخطيب وعرفه تعريفاً آخراً ، ورتب أبوابه على طريقته ،وبهذا صار علم المعاني علماً له تعريفه وأبوابه.

ثم تحدثت عن علم المعاني عند البلاغيين أولاً ثم عند المفسرين . وقد فصلت بينهما لأنني بصدد دراسة البلاغة القرآنية التي أسهم فيها كل من البلاغيين والمفسرين ،وأريد أن أبين إسهام كل منهما في دفع مباحث هذا العلم حتى عهد الفخر ،ومدى استفادته من كلا المنهجين ،وكيف كان امتداداً لهما ،وبينت كيف أن علماء اللغة أسهموا مع البلاغيين في تطورهذا العلم على حد ما رأينا ، وحاولت أن أتوخى الاختصار في هذه الدراسة ،لأنها بمثابة التمهيد لتطبيقات الفخر الرازى ،وتناولت فيه أكثر مباحث علم المعاني ،

فذكرت أولا عنايتهم بحروف الكلمة من حيث تلاؤم وتناسب الحروف كما عند الرماني وابن سنان ، كما تحدثت عن اللفظة المفردة عند عبد القاهر ، ورفضه أن ترجع الفصاحة إليها ، كما تحدثت عن صفاتها ، وعن قيمة اللفظ في الكلام ، والفرق بين الفعل والاسم وغيرها من قضايا الكلمة.

وفي الاستفهام : تحدثت عن إشارات سيبويه فيه وتفريقه بين الهمزة وهل ، كما ذكر بعض المعاني التي تخرج إليها ، ولابن جني حديث عن خروج الاستفهام إلى غير معناه الأصلي ، بين فيه الأسباب التي تدعو إلى هذا الخروج ، ثم تحدثت عن تكاملها في دراسة عبد القاهر .

وفي الأمر والنهي : تحدثت عن إشارات المتقدمين لها كسيبويه وابن فارس وابن جني ، كما اهتم بهما علماء الأصول والفقه ، وبينت ما ذكره ابن الشجرى من معاني الأمر والنهي .

وفي التقديم : عرضت لرأى ابن طباطبا في رفضه له ، وتحدثت عن أصول هذه الدراسة عند سيبويه ، وتعرضت لابن جني الذى رفض أن يكون للتقديم علة بلاغية في كتابه (الخصائص) لكنه يعدل عن هذا الرأى في كتابه (المحتسب) ويرى أن التقديم للعناية ، ثم يتكامل هذا البحث عند عبد القاهر الذى وضع قواعد هذا الباب وبين فساد بعض التراكيب التي لا تراعي هذه القواعد ، واعتنى بضرب الأمثلة ، كما بين أثره في النفس .

وفي الحذف : تناولت ما قاله سيبويه فيه من ذكر ما حذف وذكر السبب والعلة، وذكر أنواعاً كثيرة له ، ويسمى ابن جني هذا البحث شجاعة العربية ويعجب به ويقدره، لكنه يتبع طريقة النحاة في أكثر الأحيان ، وتعرضت لدراسة قدامة وابن جني ، فوجدتهم لا يهتمون ببيان سر الحذف ، ثم وقفت على جهود عبد القاهر وتكامل هذا الباب على يديه .

وفي الإيجاز : تحدثت عنه كما تصوره الجاحظ ،وتعرضت لحديث العسكرى نقلاً من الرماني ، ثم يطالعنا الخفاجي بدراسة متميزة للإيجاز ، ولم يتناول عبد القاهر هذا الباب ،وإنما أشار إليه إشارات بسيطة.

وفي الفصل والوصل : ذكرت وصف بعض البلاغيين وأصحاب الفصاحة له في حديثهم ،ثم بينت كيف بدأت أصوله في كتب النحو ،و منهم من أبرز معاني الفصل والوصل كالمبرد ، وتحدثت عن ظهور هذا الباب واضحاً عند عبد القاهر.

و في التكرار : ذكرت أن البلاغيين وأصحاب الدراسة الأدبية لم يبسطوا القول فيه؛ لأنه نشأ في أحضان الدراسات القرآنية ،وللجاحظ أحاديث عن فضل التطويل في الكلام ،وسمى التكرار ترديداً ،ثم تلاه ابن جني في الاهتمام به ،وأجاز أنواعاً منه ،كما عرض له ابن رشيق ،وأسهب في الحديث عنه في الشعر ومتى يحسن ومتى يقبح دون الإشارة إلى الأغراض .

و في الاعتراض : بينت ما قاله ابن جني في فائدته ،ومواقعه ، ودلالاته النفسية ، وأشرت إلى أن بعض البلاغيين يدخلونه في الالتفات.

و في الالتفات : أشرت إلى التفاتات جرير ،ثم تحديد ابن المعتز له ، وقدامة بن جعفر وكيف تداخلت فيه أمثلة الاعتراض ،كما تعرضت لابن جني الذى بين سره في آيات من القرآن .

وهكذا وجدت علماء البلاغة اهتموا بالقاعدة ثم إقامة الشاهد والمثل عليها دون الاهتمام باستقصائها .

ثانيا : علم المعاني عند المفسرين :

بينت بدءاً كيف أن علم المعانى عند المفسرين ويلحق بهم دارسو الإعجاز القرآني قد اتسع وتعددت جوانبه ،ذلك لأنهم يطبقون القاعدة البلاغية على القرآن ،فتظهر لهم وجوه جديدة وأغراض لم تظهر في الناحية التطبيقية .

ففي بحث المفردات : بينت اهتمام دارس الإعجاز بالكلمة القرآنية كالخطابي الذى اهتم بمؤدى الكلمة ،والفروق اللغوية بين ما تشابه منها وذكرت قول الرماني في الكلمة القرآنية ،وقول ابن عطية وهو مفسر للقرآن ، ثم تعرضت لدراسة الزمخشرى في التفسير فقد اهتم بالمفرد بأنواعه اسماً وفعلاً وحرفاً مطبقاً ما قاله العلماء قبله .

وفي التقديم : ذكرت أن الدراسات القرآنية في مرحلة مبكرة لم تسهم في وضع أصوله ،بل أشارت إليه دون تحديد لسره البلاغي كأبي عبيدة والفراء ، ثم تظهر دراسة الزمخشرى التي طبقت منهج عبد القاهر في هذا الباب على خير وجه .

وفي الاستفهام : أشار أبوعبيدة إلى أنه لا يراد به معناه الحقيقي في آيات من القرآن ،وقاسه بالشعر ،وتبعه الفراء فذكر معاني بعض أساليب الاستفهام في القرآن ،وسار على نهجهما ابن قتيبة ،ثم اتسع هذا المبحث عند الزمخشرى وظهر التطبيق الحي لمنهج عبد القاهر .

في الأمر والنهي : بينت أن أبا عبيدة ذكر أن للأمر ظاهراً وباطناً ، وباطنه هو المعنى الذى يخرج إليه ،ورأيت ابن قتيبة يجعله تحت باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ،ثم يتسع هذا المبحث أيضاً عند الزمخشرى في حيز التطبيق على القرآن ،فيذكر معاني كثيرة له .

وفي الحذف : أشرت إلى تقدير أبي عبيدة للمحذوف في بعض الآيات القرآنية دون تحديد سر بلاغي لها ، واشترط في حسنها علم السامع بما حذف ، وتبعه الفراء في هذه الطريقة ، وذكرت أن ابن قتيبة ذكر أنواعاً له دون تحديد لسره البلاغي أيضاً ، متبعين في ذلك طريقة النحاة ، ثم تعرضت لدراسة الرماني له تحت باب الإيجاز حيث ذكر آيات كثيرة من القرآن ، كما أنه نفث في هذه الدراسة الروح البلاغية ، فبين أسرار صور منه ، ثم كانت دراسة الزمخشري ، الذي اعتمد فيها على تقدير المحذوف ثم ذكر سر لحذفه .

وفي الإيجاز : ذكرت ما قاله العلماء فيه من أنه من أهم سمات القرآن . فأبو عبيدة يذكر أنه من مذاهب العرب في كلامها ، ويذكر آيات فيها حذف فيقدره ، ويتبع الفراء أبا عبيدة في هذه الطريقة وهو يفسر آيات القرآن ، ويعرض ابن قتيبة له ويذكر إيجاز القصر في القرآن ، ويتناول آيات عديدة ، ثم رأيت الرماني يذكره تحت باب مستقل ويعرفه تعريفاً محدداً ويقسمه إلى قسمين ، ويكشف عن قيمته البلاغية ، ويقارن بينه وبين التطويل ، كما يعده الباقلاني من أقسام البلاغة .

وفي الفصل والوصل : ذكرت أن بدايته ظهرت على أيدي المفسرين الذين بحثوا في روابط آيات القرآن ربطاً نحوياً كالفراء ، ثم عرضت للباقلاني الذي عني بعلاقات المعاني الجزئية المختلفة في الآية ، ثم وجدت الزمخشري يبين علاقات الجمل القرآنية المنفصلة والمتصلة بالواو أو الفاء ، واضعاً نصب عينيه كل ما قاله عبد القاهر في هذا الباب ، وقد اتسعت وتشعبت طرق هذا الباب في تفسيره .

وفي التكرار : أشرت إلى ازدهاره في ظل الدراسات القرآنية ، فبينت أن الفراء تحدث عنه من الناحية النحوية ، وأجاز تكرار الجمل إن كان هناك

غرض بلاغي ، واهتم ابن قتيبة بأنواعه في القرآن ،كما جعله الباقلاني من أقسام البديع ،وذكرت أن القاضي عبد الجبار أسهم في الدفاع عنه في القرآن ، وذكر أنواعاً له ، ثم بينت كيف كان تفسير الزمخشري امتداداً لبيان صوره وأسراره .

وفي الالتفات : بدأت بأبي عبيدة الذي يعد من أوائل من التفت إلى اختلاف الضمائر في الخطاب في القرآن وسماه مجازاً ، ثم بينت أن الفراء ذكره في معاني القرآن ، كذلك الطبري في تفسيره ،ضرب له أمثلة من الشعر ، ثم وقفت أمام تفسير الزمخشري فوجدته يعرض صوراً كثيرة منه ، ويبين قيمته البلاغية وأثره على النفس .

وفي الفواصل القرآنية : ذكرت أن الفراء قد ساوى بين ما يجوز في الشعر العربي وبين ما في القرآن، فقد يعدل من لفظ إلى آخر من أجل مشاكلة الآيات ،ثم ذكرت أن ابن قتيبة ينكر عليه ذلك ،و يميز منه ما كان هاء أو حذف حرف. ثم تعرضت لرأي الرماني الذي تحدث عن هذا المبحث في أوجه بلاغة القرآن وعرفه وذكر أنواعه ، وضرب أمثلة له من القرآن ،ورأيت الباقلاني يوافق ابن قتيبة ويرفض قول الفراء ،ثم يذكر سراً لتقديم هارون على موسى في آية : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ،وعرجت على تفسير ابن عطية فرأيته يوافق الفراء في آرائه ، ثم انتهيت إلى الزمخشري الذي اهتم بالفواصل ،ورفض رأي الفراء ، ووقف عند كثير من الآيات ، بين فيها وجه ملائمة الفاصلة للسياق قبلها، وبين في آيات قليلة أن سر العدول مراعاة الفاصلة .

مبحث علم المعاني عند الفخر :

١ - رأى الفخر في النظم :

رأيت أنه من الواجب أن أبدأ أولاً بمفهوم النظم عنده ، ذلك أني وجدت هذه الكلمة تتردد كثيراً في التفسير فرأيت أن أتتبعها لأعرف مدلولها وكلمة النظم في أكثر التفسير تعني المناسبة القائمة بين كل آية وآية ، أو بين آخر الآية ومابعدها أو بين مقطع ومقطع آخر . ذلك أنه يقرن أحياناً كلمة النظم بالترتيب والمناسبة . وقد يعني بالنظم الروابط والعلاقات النحوية وينقل في ذلك آراء النحاة في هذا الربط الإعرابي ، وبينت أن هذا ما بنى عليه عبد القاهر نظرية النظم ، وكما تحدث عن اتصال النظم في التفسير ، تحدث كذلك عن تفكك النظم ، ويتمثل عنده في عدم فهم الظاهرة الإعرابية التي تؤدى إلى اختلال المعنى . ثم يذكر أن القرآن قد يخرج عن رعاية النظم لسر بلاغي أراده القرآن ، كما أن النظم يحسن ويلطف حين يكون مطلع الكلام دالاً على ما سيأتي من المعاني . وقد يعني بالنظم المعنى القريب الموافق للآية .

ثم وقفت عند مصطلح (علم المعاني) وتتبعته في التفسير لأعرف هل ذكره وإن ذكره فما مفهومه ؟ وما موضوعاته ؟ ، وقد توصلت إلى أنه لم يذكر هذا المصطلح أبدا في التفسير بل كان يذكر (علماء المعاني) ويعني بهم الذين يبحثون عن دقائق معاني القرآن ، وجرني هذا إلى تتبع مصطلح (علم البيان) فوجدته يذكره ويذكر (علماء البيان) ويريد بهما علم البلاغة وعلماء البلاغة وهو في هذا متابع لعبد القاهر والزمخشرى . وذكر مصطلح (الفصاحة) في مواضع من التفسير خاصة وهو يتحدث عن إعجاز القرآن ، وقد كان يريد به معنيين : الأول البلاغة مطلقاً متبعاً في ذلك القاضي عبد الجبار ، الثاني : أنه يجعل الفصاحة من صفات اللفظ .

٢ - في دراسة المفردات :

بينت فيه ما أثاره الفخر من لفتات فنية في ربط المفرد بسياقه سواء كان اسماً أو فعلاً أو حرفاً ، فتناولت أولا اهتمامه بالكلمة القرآنية ، وقسمت طرق تناوله لها ، فقد درس إيحاءات الكلمة وما تدل عليه وهي في سياقها ، فالروغان مثلاً يدل على معنى السرعة ، والويل يدل على الشدة ، والظل والمغفرة تدلان على الستر وهو في كل هذا متأثر بابن جني الذى بحث عن إيحاءات الكلمة من خلال تقاليبها اللغوية . كما اهتم بدلالة الكلمة التي يفهم منها بعد معرفة معناها اللغوى ، ففرق بين النزع والنشط فأحدهما يدل على الجذب بشدة ، والآخر على الجذب برفق ولين . ويربط الفخر بين المعنى الصوتي والمعنى اللغوى للكلمة ، لأن للصوت أثراً في تحديد المعنى ، وقد يفاضل بين كلمتين من جهة جرسهما وموسيقاهما كالقارعة والحاقة ، ويرد ذلك إلى أن في القرآن فاضلاً ومفضولاً وما نزل آخراً كان أبلغ ، وقد ناقشت هذه القضية وبينت أن لا تفاوت بين مراتب بلاغة القرآن . كما عنى الفخر بالكلمة القرآنية من جهة وضعها الملائم لسياقها بحيث لا يؤدى غيرها مؤداها ، ويبين قيمتها في أداء المعنى ، وهذه كثيرة جداً في التفسير ، وقد اخترت بعضاً منها يفي بالغرض ، وكانت طريقته أنه يقارن الكلمة القرآنية بغيرها من الكلمات ثم ما تحققه هذه الكلمة من المعنى ، وكنت أقارن بين أقواله وأقوال غيره من العلماء أحياناً لأبين مكانة كلامه من التراث البلاغي ، ويذكر أن القرآن يعدل عن اللفظ الأشهر إلى خلافه لدلالته على المعنى . وقد يثبت القرآن المعنى بنفي ضده ، وهو في ذكر السر يستعين بما قاله الزمخشرى فيهما . وتعرض كذلك لمجالات استخدام اللفظة القرآنية وطريقة جريانها في القرآن ، وكنت كثيراً ما أتثبت من رأيه إما بالرجوع إلى القرآن أو إلى أقوال علماء اللغة .

كما تعرضت لحديثه عن الفروق بين الكلمات التي يظن أنها بمعنى واحد ، وعند التحقيق نجد أن لكل كلمة معنى خاصاً بها ، وقد جمعت الكثير منها لكني ذكرت بعضها لضيق المقام ولتحقيق الغرض الذى من أجله عملت هذه الدراسة ، وكان الفخر يستشعر صعوبة هذا الباب فيذكر أنه لا يتأتى لكل أحد ولا يظهر إلا للبارع ، وقد سار على طريقة معينة في هذا التمييز حيث يذكر معنى الكلمة واستعمالاتها عند العرب ثم في القرآن ، وقد يتعرض لتقاليبها .

وتناول الفخر الكلمة من حيث إفرادها وجمعها ، فالرحمة تأتي بالجمع لبيان تعدد رحماته ، والعذاب بالمفرد لبيان أن عذابه واحد . وتأتي النعمة مفردة في مقام الكثرة وتعني بها جنس النعم ، وتأتي النعمة جمعاً في مقام الكفر للتنبيه بالأدنى على الأعلى ، كما اهتم الفخر بالبحث عن الفرق بين الريح والرياح في القرآن وذكر أن الجمع يأتي في مواضع الرحمة والمفرد في مواضع النقمة والعذاب ، سائراً في ذلك على هدى غيره من المفسرين كابن عطيه والزمخشري ، ثم أثبتُ خطأ ما ذهب إليه مستعينة ببحث للدكتور الفاضل علي العماري في الفرق بينهما . ويأتي جمع القلة تنبيهاً على قلة ثمار الدنيا بالقياس إلى ثمار الآخرة ، ويأتي الجمع ويراد به الواحد لتعظيمه وبيان منزلته ، ويأتي المصدر مفرداً بين صيغ جمع جاءت أسماء وذلك على خلاف ما اتفق عليه أهل اللغة فيبين سره البلاغي . وقد تتنوع كلمات الآية بين جمع وإفراد لسر بلاغي ، كذلك يجمع ما لا يعقل جمعاً مذكراً سالماً موافقة لاعتقاد المشركين .

ثم انتقلت إلى مبحث الأفعال والمشتقات عند الفخر ، فرأيته يهتم بدلالة الفعل كأن يأتي أحد الفعلين مبنياً للمجهول والآخر للمعلوم في آية واحدة ، ويفرق بين صيغة (تَفَاعَل) المعطوفة على صيغة (تَفعِل) في آية واحدة ، وقد تدل صيغة (تَفَعَّل) على شدة الاهتمام والمبالغة في الفعل .

وتتفاوت أزمنة الأفعال في الآية الواحدة بين الماضي والمضارع فيدل الماضي على انقطاع الفعل والمضارع على تجدده وتكراره ، وقد يأتي الماضي دالاً على بُعْدِ الزمن والمضارع على قرب وقوع الفعل ، ويستعمل الماضي موضع المضارع لاستمرار وقوعه ، كما يدل اجتماعهما على الاستمرار ، ثم بينت أن بعض الدارسين يلحقون هذا النوع من الانتقال في زمن الأفعال بباب الالتفات كالعلوى وابن الأثير ، ولم يشر الفخر إلى ذلك في أى موضع من التفسير . وقد يأتي الماضي ويراد به المستقبل لأغراض متعددة تتبعتها في أكثر التفسير فوجدت أنها أكثر ما تجيء في أمور الآخرة لتحقق وقوعها ، ولم يصرح أنها من المجاز كما فعل المتأخرون إلا في موضع واحد ، كما أن بعض المتأخرين وضعوه تحت مبحث خروج الكلام على مقتضى الظاهر كالخطيب وأصحاب الشروح .

ثم تناولت نظرته في المشتق فوجدته أحياناً يقارن بينه وبين الفعل فيفرق بين اسم الفاعل والفعل ، ويذكر أن اسم الفاعل يدل على ثبوت الصفة ورسوخها ولا يفهم ذلك من دلالة الفعل . وهو هنا متأثر بعبد القاهر في هذا التفريق . وفرق بين الدوام والاستمرار في اسم الفاعل هنا وبين الدوام والاستمرار في الفعل المضارع الذى ذكره سابقاً . ثم بين الفخر بعض معاني المشتقات وأسرارها البلاغية .

وفي مبحث التعريف يهتم ببيان دلالة المعرف سواء كان بأل أو بالإضافة أو باسم الموصول أو باسم الإشارة .

فالتعريف بأل يدل على المعهود السابق ، وقد تدخل على المفرد فتفيد حصول فرد من الجنس ، وتدخل على الجمع ويراد بها الاستغراق مبالغة في المعنى ، وتدخل على المفرد وعلى الجمع فتفيد الاستغراق ، ويخالف في كتابه المحصول ما ذهب إليه هنا ، فيذكر أن الجمع المعرف بلام الجنس إذا لم يكن

للمعهود فهو للاستغراق ،كما أن الواحد المعرف بلام الجنس لا يفيد العموم، وقد دعم أقواله بأدلة منطقية . ويتطرق الفخر للمعاني البلاغية (لأل) فيذكر أنها تفيد معنى الكمال في الصفة وهذا ما ذكره عبد القاهر من قبله ،وقد يعرف الظاهر المعلوم الذى لا ينبغي أن ينكر وقد يأتي جامعاً بين الحصر وكمال الصفة، ولا يجمع المتأخرون بينهما فتعريف الطرفين إما أن يفيد القصر على وجه الحقيقة أوعلى وجه المبالغة لكماله.

ويأتي الاسم الموصول للإشارة إلى ما يجرى مجرى المعلوم وإن كان مجهولاً، كما أن القرآن قد يعدل من لفظ (من). دون (ما) لاختصاص العقلاء بالتخويف، و يعدل إلى (ما) لأن الغلبة حاصلة لغير العقلاء ،أوللدلالة على قدرته تعالى، وقارنت بين قوله هذا وقول الزمخشرى فوجدته أكثر إدراكاً للمعنى البلاغي .

ويأتي التعريف بالإضافة لأغراض منها أنه يفيد اختصاص المضاف إليه بالمضاف أولكمال الصفة أو المدح والتعظيم أو التشريف وغير ذلك من المعاني. وقد لاحظت أن الفخر كثيراً ما يقارن بين التعريف والتنكير إما في سياق آية واحدة أو في آيتين متشابهتين في الصياغة . وقد أثبتُ بعض الآيات في هذا الشأن .

وللتنكير عند الفخر معان كثيرة ،فقد تفيد الإفراد وهو الأصل الذى هي عليه ،كما أنها تأتي في معرض الوعيد والتهديد ،وكان يجمع أحياناً بين دلالة التعظيم ودلالة التنكير ،وقد وجدت السكاكي بعده يجمع بينهما لكن سعد الدين يفرق بينهما ،وقد يفيد التنكير معنى الكمال في الصفات. و يرى أن التنكير في آية : * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ * يفيد الكمال في معنى الحياة ،لكن الزمخشرى يرى أنها تفيد الاختصاص أى حياة مخصوصة، ثم بينت أن اختلاف المعاني لا يعني خطأ أحد منها فكل عالم يرى من النص

ما لا يراه غيره . وقد يفيد التنكير التعظيم، ويفيد التقليل والتحقير . وتظهر قدرة الفخر على تقليب المعاني في النص القرآني، فيذكر أن النكرة قد تحتمل أكثر من معنى ، فقد تفيد التحقير تارة والتهويل تارة أخرى ، أوتحتمل التحقير والتفخيم ،ويبدو تأثره هنا واضحاً بالزمخشري ،لأننا لا نجد دراسة سابقة ذكرت هذه المعاني للتنكير . وقد تتكرر النكرة مرتين في آية واحدة ،ولكل واحدة سر خفي عبرت عنه ،وتأتي النكرة مفردة ويراد بها الجمع لشهرتها ، وفي أثناء حديثه عن معاني النكرة كان يبين قيمتها في أداء المعنى ، وقد ختمت هذا البحث بعرض رأى للمرحوم أحمد بدوى انحرف فيه عن الصواب فبينت وجه الحق كما أراه .

واهتم الفخر بمعاني الحروف ، فأشرت إلى ما يلحظه في معاني حروف الجر على الرغم من إهمال البلاغيين الحديث عنها وعدها من أبواب البلاغة . والمفسرون هم الذين التفتوا إلى معانيها ،وللفخر نظرات جيدة في هذا الباب تنبئ عن دقة ذوقه البلاغي ، فقد ذكر وجوهاً (اللام) في الكلام فهي تأتي لعود المنافع ،و (على) تأتي لعود المضار ، ورأيته هنا يستلهم هذه المعاني من الزمخشري ويطبقها على كثير من الايات . أما (على) فيذكر أنها تدل على الاستعلاء والتمكن ،وفي موضع آخر يشير إلى أن (على) جاءت على سبيل الاستعارة كما في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى ﴾ ويتبع هنا الزمخشري أيضاً ، وقد ظهر هذا الاتجاه بعده عند المتأخرين . وتناول الحرف (في) وسوى بينه وبين (اللام) ثم ما لبث أن رأى أن (في)تدل على الإحاطة واللام لا تحمل ذلك . كما تحدث عن معنى (الباء) وسبب مجيء الفعل متعدياً بها .

وللفخر دراسة جيدة في دلالة حرفي الشرط (إنْ وَإذَا) فيتفق مع غيره في أن (إنْ) تأتي للشرط الذى لا يكون مقطوعاً بوقوعه ،و (إذَا)

في الشرط المقطوع بوقوعه ، وتفرد بأن سمى خروج كل منهما عن أصله مجازاً ، وقد لاحظ خروج آيات عدة من القرآن خرجت فيها الأداة عن معناها لتحقيق غرض بلاغي ، ويعترض الفخر على الزمخشري حين يرى أن (إذا) جاءت في القرآن على غير موضعها .

كما يتحدث عن لفظ العموم (كل) حين تأتي في النفي وفي الإثبات ، فعندما تتقدم على الفعل وترفع فإنها تفيد عموم النفي ، وإذا نصبت أفادت أن النفي يعم أكثر الأفراد ، وهذا ما يسمى بنفي العموم ، وقد نقل هذا عن عبد القاهر كما يقول . ثم طبق القاعدة عليها في حالة الإثبات ورأى موافقة بعض الآيات لهذه القاعدة فقوله تعالى : * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * مما يختلف فيه المعنى باختلاف الإعراب ، وخروج البعض الآخر عن هذه القاعدة كما في قوله تعالى : * وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى * فاختلاف الإعراب لا يؤدي إلى اختلاف المعنى ، وهكذا يرى أن قاعدة عبد القاهر لا تطرد في القرآن الكريم . وقد عرجت على رأيه في نهاية الإيجاز فوجدته يقول : إن ما جزم به الشيخ عبد القاهر لا يكون إلا عند من يقول بدليل الخطاب فهو غير مطرد في كل دلالة (كل) وبذلك كان الفخر أول من اعترض على عدم اطراد هذه القاعدة .

كما تعرض الفخر لمعاني حرف العطف (ثم) فهي تأتي لاستبعاد حصول مابعدها وهذا المعنى سبقه به الزمخشري ، ويسميه الفخر في موضع آخر التعجب والإنكار من الفعل ، وقد ذكرت في هذا الموضع كلاماً لأبي حيان مؤداه أن إفادة (ثم) لهذه المعاني لا تفهم إلا من السياق ، ولم يقل بها أحد من النحاة ، وقد رددت عليه في ذلك . وقد تأتي (ثم) لترتيب خبر على خبر دون مراعاة الترتيب الزمني ، ويخالفه الزمخشري فيها بوجه حسن . كما تأتي لبيان عظمة ما هو واقع بعدها .

وتحدث الفخر عن الفروق بين أدوات النفي (لَنْ) أقوى في تأكيد النفي من (لا) ويقارن بينهما في آيتين متشابهتين في الصياغة إحداهما جاءت (بلن) والأخرى (بلا) وهوهنا يوافق الزمخشرى في أن (لَنْ) أقوى في التوكيد ،وقد عرضت لقول الزمخشرى في أنها تفيد التأبيد لكن الفخر لا يأخذ بهذا الرأى واكتفى بقوله الأول . وقد استأنست بحديث ابن هشام عنها .

كما فرق بين (لما) و (لم) في آية : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا .. ﴾

٣ - البحث في نظم الجملة :

بدأت بمبحث التقديم : ورأيت أن جزئياته ومسائله تتعدد ،فتناولت أولاً تقديم المسند إليه الذى يشمل تقديم الاسم على الفعل وتقديم الاسم على المشتق ويذكر الفخرهنا أن التقديم إما أن يفيد التخصيص أو التأكيد ، وينقل ذلك من عبد القاهر ،وقد رجعت إلى عبد القاهر فوجدته لم يقل أن تقديم الاسم على الفعل يفيد الاختصاص ،ولم يأت بمثال واحد على ذلك والذى ذكر ذلك هو الزمخشرى . ولاحظت أنه عند التطبيق لا يخرج التقديم عن هذين الغرضين . وفي موضع آخر يتبع الفخرالزمخشرى في دلالة التقديم على الاختصاص بعد (لو) وقد رأيت أن هذا الوجه لا يفيده ، لأنّ ما بعد (لو) لا يكون إلا فاعلاً لفعل محذوف ،ولا يعد فاعلاً مقدماً ، وقلّ ما يلتفت الفخر إلى دلالة التقديم على التوكيد ،وقد تتبعت الآيات التي يأتي فيها تقديم المسند للتأكيد فلم أجده يلتفت إلى التقديم فيها فعزوت ذلك إلى أن همته كانت منصرفة إلى التفسير في المقام الأوّل . وفي تقديم المسند أى الخبر بأنواعه رأيت أنه لم يطل الوقوف عند المسند المقدم في الآيات ،ولم يتناول ذلك إلا في آيات قليلة ،وأكثر ما تفيده الحصر والاختصاص ، وقد بينت أنه لم يكن يفرق بينهما كما فعل السبكي .

أما التقديم في المتعلقات فهو عنده إما للاختصاص أو للعناية والاهتمام وقد وجدت أن تقديم الجار والمجرور على فعله لا يفيد عنده إلا القصر ويظهر ذلك في آيات كثيرة. أما تقديم المفعول فقد يفيد الحصر والاختصاص وقد يفيد العناية والاهتمام ، ورأيته هنا يصدر أكثر كلامه عن الآيات بعبارة سيبويه (يقدمون الذين بيانه أهم وهم بشأنه أعنى) ، ولم يكن يجمع بين الدلالتين متبعاً في ذلك الزمخشري ، وقد عرضت هنا لرأى أبي حيان الذى كان يرى أن التقديم لا يفيد الحصر ، ويرفض صوراً كثيرة تدل على الاختصاص لتعارضها مع العناية والاهتمام ، ويتعرض الفخر لآيات في التقديم فيذكر أنها تفيد العناية والاهتمام دون البحث عن سرها البلاغي المتعلق بفقه الآية ، وهذا يخالف ما قال به عبد القاهر من أن سر التقديم لا يكون للعناية والاهتمام فقط بل لا بد من البحث عما وراءه من أسرار . وقد يتعرض الفخر لسبب تقديم متعلق المفعول وما يفيده ، فيذكر أنه للعناية ثم يذكر غرضاً آخر كما في آية : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ وقد تتبعت هذه الآية عند كثير من العلماء وبينت ما دار حولها من مناقشات . كما بين السر في تقديم معمول إحدى الجملتين المتعاطفتين ويذكر سراً بلاغياً لها نظه المفسرون عنه بعد ذلك ، ويربط ذلك ببيان أثر التقديم على النفس ، فيرصد حركتها وهي تتلقاه ويبدو هنا تأثره بعبد القاهر ، ثم ينتقل إلى بيان أسرار تقديم بعض المعمولات على بعض ، وقد رأيتها كثيرة في التفسير ومتنوعة فاخترت بعضاً منها .

ثم تحدثت عن مباحث الإنشاء فبدأت بمبحث الاستفهام فوجدته يتناول فيه قضايا متعددة منها : أنني لاحظت أنه يذكر أثر الاستفهام في الكلام وقيمته في أداء المعنى ، فهو يثبت المعنى في النفس ويوضحه ويؤديه بطريقة أبلغ من أدائه مجرداً ، ثم قارن الفخر بين دلالة الاستفهام في إظهار المعنى ودلالة غيره من أساليب الإنشاء كالنهي مثلاً ، وله كلام جيد في الحديث

عن جملة الخبر حين تكون استفهاماً ، ورأيته في كل هذا يتتبع حركة النفس وهى تتلقى هذا الأسلوب متأثراً في ذلك بعبد القاهر .

ثم تعرضت للمعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام فبينت أن طريقته كانت تقوم على تحديد حرف الاستفهام ثم بيان معناه الذى خرج إليه ، ونقل عن الزمخشرى قوله إن معنى الاستفهام يتسلخ عن الأداة ويراد بها معنى آخر ، ويستشهد في ذلك بسيبويه ، وقد اعتبرته أول من سمى المعاني التي يخرج إليها الاستفهام معاني مجازية ، ذلك أنه أشار إلى ذلك في عدة مواضع ، ثم تحققت من الموضوع فثبت لي أن المتأخرين قد خاضوا في هذه المسألة من أصحاب الشروح والحواشي .

ثم ذكرت بعض معاني الاستفهام عند الفخر منها الإنكار والتقرير والأمر والتعجب والتبكيت والتهكم والتعظيم ، وفي أكثر ملاحظاته كان يشير إلى ما يثيره الاستفهام من معاني لا تكون في غيره من الأساليب ويذكر أن المستفهم عنه هو ما يلي الهمزة متأثراً في ذلك بما قاله عبد القاهر ويقيسه بالتقديم في النفي ، ويذكر أن الهمزة تدخل على الفعل أحياناً ويراد به إنكار الفعل ، وقارنته بما قاله الزمخشرى ، وثبت أن الفخر فاقه من حيث كشفه عن سره البلاغي .

ثم تناولت الاستفهام الذى يأتي مع جوابه فقد يأتي للإيضاح أو لبيان ظهور الأمر ووضوحه .

ولاحظت أنه يتحدث عن دخول الهمزة على واو العطف وأن في دخولها سراً لا يكون عند حذفها ، وينكر أن تكون زائدة متابعاً في ذلك الزمخشرى ، ويخرج منها إلى بيان الفرق بين الفاء والواو بعد حرف الاستفهام . ولم يتعرض إلى آيات كثيرة في هذا النوع .

ثم تحدثت عن الأمر : وذكرت تعريف الفخر له في التفسير ، ومن ثم إحالته إلى المحصول في شأنه ، فرجعت إلى المحصول فوجدته يتحدث

عن الأمر ، ويذكر فيه خمسة عشر وجهاً لخروجه عن معناه الحقيقي ،وناقشت ابن السبكي في قوله إن الفخر لا يشترط الاستعلاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ثم تعرضت للمعاني التي ذكرها للأمر في التفسير منها الزجر والنهي والتهديد ، وقد يأتي للإهانة والتنكيل والاستبعاد والدعاء والخضوع وغير ذلك ،وقد لاحظت أن الفخر كان يستدرك في بعض الآيات فيذكر أن الأمر لا يراد به معناه الحقيقي .

وقد تتعدد الوجوه البلاغية للأمر الواحد فأقف عندها لأبين أقربها لمعنى الآية مستدلة على ذلك بأقوال المفسرين . ويذكر الفخر أن الأمر والخبر قد يتعاقبان فيأتي الأمر ويراد به الخبر ويأتي الخبر ويراد به الأمر ،ويضرب لذلك أمثلة من القرآن ،وهو في هذا متأثر بالزمخشري ناقل عنه بعض الأسرار .

ثم تعرضت للنهي بعد أن عرفته وذكرت حكمه الذي ذكره في المحصول، ثم تناولت المعاني التي أفادتها أساليب النهي كما يراها ، فمن المعاني أنها تأتي لمواصلة التنبيه عن ارتكاب أمر لم يرتكب وذلك عند مخاطبة الرسول : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ وهذا ما سماه الزمخشري الإلهاب والتهييج والإثارة لشدة التمسك بما هو عليه. وقد يأتي النهي للتغليظ والزجر أو للدعاء والتضرع .

وقد لاحظت أن النهي في التفسير قد يأتي بأساليب النفي لأسرار بلاغية فتناولت عدة صور منها ، منها الحث على المسارعة في الامتثال ،والوثوق بوقوع الفعل ،ويرد الفخر على من أول النهي في آية ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ بأنه نفي ودعمه بحجج قوية. ويتوالى الأمر والنهي في بعض الآيات فيذكر أن ذلك يكون للتوكيد فالأمر يفيد أن الفعل لا يقع إلا مرة واحدة ،والنهي يتناول كل الأوقات .

وللفخر في مبحث الحذف كلام يبين فيه أغراض الحذف فيرجعه إلى ثلاثة أوجه: لعلم المخاطب، أو لاختصار العبارة أو لطول القصة.

وعند التطبيق على آيات القرآن يرجع سر الحذف إما إلى دلالة ما قبله، أو إلى علم المخاطب به، أو إلى الاختصار والإيجاز، أو إلى سر بلاغي راجع إلى سياق الآية، فقد يحذف الحرف إظهاراً لقوة المعنى وأهميته، وقد يحذف حرف الجر من العبارة حتى تكون مجازاً، وقد رد أبو حيان عليه واتهمه بالجهل؛ لأن حذف حرف الجر ليس له مسوغ، وأكثر المفسرين اتبعوا الفخر في قوله، وقد يحذف الفعل عند شدة الموقف، وقد يحذف المنادى لإحساس النفس بالقربى، ويحذف متعلق الفعل لعظم المحذوف وفخامته، ويحذف الخبر ليذهب الوهم كل مذهب. وهنا يبدو تأثره بالرماني الذى يعد أول من أرجع الحذف إلى ذهاب النفس كل مذهب. ويهتم الفخر بحذف جواب (لو) فهو إما أن يقدره في الكلام دون التعرض لسره البلاغي، أو يذكر السر البلاغي لحذفه، ويؤكد أن حذفه أبلغ في المعنى من إظهاره.

وفي باب الإيجاز يتحدث عنه بنوعيه، إيجاز الحذف وهو داخل تحت باب الحذف، فقد أشار في قليل من المواضع إلى أن الحذف يأتي للاختصار والإيجاز، أما القصر فقد تناول فيه بعض الآيات وبين ما تضمنته من إيجاز، فتناول آية: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ وقارنها بمثل العرب (القتل أنفى للقتل) وأسهب في بيان التفاوت بينهما، وظهر لي أنه استعان في بيان هذا الفرق ببعض ممن سبقوه.

ثم وقف عند بعض الآيات الموجزة وبين المعاني التي تحطها وتحيط بها فيقول: (هذا كلام جامع) (كلمة جامعة حاوية) وغير ذلك من العبارات، كما كشف عن وجه الإيجاز في أساليب المجاز كالاستعارة والكناية.

وفي مبحث التوكيد تحدث الفخر عن قصة المبرد مع الكندى ثم نقل بعض ما قاله عبد القاهر عن دواعي التوكيد . وقد تعرضت للتوكيد عنده من ناحيتين : الأولى : دواعي التوكيد ، والثانية : عناصر التوكيد . وفي الأولى وجدته لا يهتم بدواعي التوكيد إلا في مواضع يسيرة ، فيذكر أن التوكيد يأتي لمواجهة تكذيب المكذبين ، ويأتي التوكيد بضمير الفصل في الأمر الذى يظن الإنسان أنه من فعله وليس كذلك في الحقيقة ، ولا يؤكد به فيما لا يتوهم أنه من فعله ، فالتأكيد يتصاعد بحسب الاعتقاد ، ويأتي التأكيد كذلك ليؤكد صحة ما اعتقده الإنسان . ويأتي التوكيد بطرق عدة فقد يكون بالحروف أو بالتكرار أو بالمصدر أو بالصفة وغير ذلك من أساليب التوكيد .

وفي مبحث القصر اقتصر حديث الفخر في نهاية الإيجاز على القصر بإنما والنفي والاستثناء ، لكنه يتسع فى التفسير فيذكر طرقاً أخرى كالتقديم وتعريف الطرفين . فصور تقديم الجار والمجرور تفيد عنده القصر دائماً ، ومن صور التعريف التعريف بضمير الفصل ، ولا يعده أكثر البلاغيين من طرق القصر . وذكر الفخر صوراً كثيرة له ، أما تعريف الطرفين فتفيد القصر الحقيقي . وتعرض لإنما فذكر أن هناك من قال إنها للحصر وآخرون قالوا إنها موصولة ، وذكر احتجاجات كل فريق ، ثم رأى أنها لا تكون إلا للقصر ، واتفق مع الزمخشرى في أن (أنما) بالفتح يفيد القصر بينما رد أبوحيان أن تكون للقصر لأنها إذا أفادت ذلك كان القصر حقيقياً وسياق الآية لا يتناسب معه ، وقد رد الفخر على مثل قول أبي حيان من أن القصر هنا يكون ادعائياً وما عداه غير منظور إليه . وقد رجعت إلى تفاسير عدة فوجدتها تؤيد رأى الفخر . أما النفي والاستثناء فلم يتناوله مفيداً للحصر إلا في مواضع قليلة ، وعندما يأتي يؤوله على معنيين فهو إما استثناء متصل وعندئذ يدل على القصر ، أو منقطع فيخرج عنه إلى باب تأكيد المدح بما يشبه الذم .

وقد لاحظت أن الفخر اهتم بأسرار كثير من الصفات في القرآن فجمعتها ووضعتها تحت مبحث الوصف ، فقد يأتي الوصف لتمييز الموصوف الذى تتعدد أجناسه أو يوصف لشهرته ، أو يوصف للمبالغة ، أو لبيان قدرة الله ، أو لشدة الهول ، أو لغيرها من الأسرار التي ذكرتها .

ويقف الفخر عند قيود الجملة التي قال عنها العلماء أنها تأتي لتربية الفائدة ، ويذكر أسرار كثير منها . فقد تأتي لتوكيد المعنى ، ولإثبات كمال قدرته وعلمه ، وللنهي عن الرياء ، وللتعظيم وللمبالغة ، ولإظهار البهجة والسرور بالعمل وغيرذلك .

وفي مبحث وضع المظهر موضع المضمر بينت قيمة المبحث كما ذكره عبد القاهر وموقعه في النفس ، ولم يهتم الفخر بذكر أسراره إلا في مواضع قليلة من التفسير ، فالاسم الظاهر يأتي موضع المضمر للتفخيم والتعظيم ، أو لزيادة التقبيح أو للتعجب ، كما يستغنى عن الظاهر بضميره لأغراض منها الشهرة ، ويقارن الفخر بين آيتين إحداهما جيء فيها بالضمير والأخرى بالاسم الظاهر فبين السر البلاغي لكل منهما ، كما كان يلجأ أحياناً إلى الحقائق العلمية لبيان سرمجيء المضمر بدل الظاهر ، وقد تتبعت بعض الآيات التي يعود فيها ضمير الشأن على ما بعده فلم أجد الفخر يهتم بنكتاتها البلاغية أو أثرها في النفس ، بل كان يكتفي بتخريجها نحوياً .

٣ - البحث في الجمل :

بدأته بباب المناسبات ، وهو من أطول المباحث البلاغية في التفسير ، وهو ما يميزه عن غيره من كتب التفسير ، وقد ذكرت مقدمتي تعريف هذا العلم ، وأول من ظهرعلى يديه ، وكلام أهل العلم فيه ، وبداياته ثم مكانته عند الفخر ، وإرجاعه الإعجاز إليه ، وإرجاع كثير من أسرار القرآن ودقائقه له ،

وأشرت إلى ما كان يراه من أنه علم لا يتأتى إلا بالعلم والرياضة الروحية ، وقد وجدت الفخر كثير الإعجاب به ، دائم الثناء عليه ، والنعت له ، ثم تتبعته في التفسير فوجدته ستة أنواع :

١ - مناسبة جزئيات الآية الواحدة .

٢ - مناسبة بين آية وآية .

٣ - مناسبة بين أجزاء وموضوعات السورة الواحدة .

٤ - مناسبة بين أول السورة وآخرها .

٥ - مناسبة بين أول السورة وآخرما قبلها .

٦ - مناسبة بين سورة وسورة أوعدة سور .

وقد وقفت عند كل نوع ، وكشفت عن طريقته في تناوله ، وأيدت ذلك بأمثلة اخترتها من التفسير .

ويتسع مبحث الفصل والوصل في التفسير الكبير عما هو عليه في النهاية فلا يختص بالجمل التي لا محل لها من الإعراب ، ولا بالواو من بين حروف العطف ما دام هناك سر بلاغي تشير إليه الجملة . وبدأت بوصل الجمل بالواو فهي تأتي لتعطف الخاص على العام ، ويمنع الفخر عطف الجملة الخبرية على الإنشائية فلذلك يؤوله حين يرد في القرآن ، ويقبح عطف الجملة الاسمية على الفعلية لكنه يجيزه عند وجود سر بلاغي ، وقد رجعت إلى كتب النحو فوجدت ابن هشام في مغني اللبيب يرجع هذا المنع للفخر الرازي مستدلاً على ذلك بتأويله للعطف في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ وقد رأيت أن أتحقق من كلام ابن هشام هذا فرجعت إلى تفسيره للآية فلم أجده يذكر هذا التأويل فيها ، وخرجت من هذا إلى أن الفخر لا يمنع العطف مطلقا ، لأنه يجيزه عند وجود سر بلاغي مستأنساً في ذلك بقول عبد القاهر من أن الاسم يدل على الثبوت والدوام ، والفعل على التجدد والحدوث ، فإذا أريد

بالجملتين هذين المعنيين جاز العطف ،ثم تساءلت إذا كان قد وافقه أحد من البلاغيين في ذلك فوجدت السكاكي يوافقه فيه .

ويذكر أن النحاة يشترطون في عطف الأفعال التماثل في الزمن لكنه يجيزه إذا وجدت نكتة بلاغية ،وقد تعطف الجملةعلى مرادفتها في المعنى وذلك للتأكيد ،وقد تعطف آية على آية بينهما آيات متفرعة من الآية الأولى، ولم يحرص الفخر هنا على بيان وجه الارتباط بينهما ،وإن كان قد اهتم في النهاية بعطف الجمل وبين كيف تترابط وتتواصل .

ثم تناولت الفصل بين الجمل فوجدته يذكر أن الجملة تفصل عما قبلها للتوضيح أو للاستئناف والقطع ، ويكثر من ذكر الجمل المستأنفة التي تأتي جواباً عن سؤال تثيره الجملة الأولى ،وقد تفصل الجملة لأنها توكيد لها ، وقد تتتابع الجمل ولا رابط بينها لتعدد النعم أو لبيان ما قبله وإيضاحه .

وكثيراً ما يجمع الفخر بين الحديث عن سر فصل الآيات ووصلها بالواو في آيات متتابعة كبداية سورة الرحمن ، الذى نجده فيه شارحاً لكلام الزمخشرى . وقد تأتي آيتان متتاليتان إحداهما وصلت بما قبلها والأخرى فصلت فيبين سر ذلك ناظراً إلى ما قبلها من مقتضيات الأحوال . كما يذكر سر فصل ووصل الآيات ذات الغرض الواحد في سور متفرقة. ويلحظ تكرار بعض الأساليب في الآية الواحدة مفصولة وموصولة فيبين سرها كما في : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في سورة البقرة. ويدخل في هذا المبحث عطف الجمل بالفاء ومقارنتها بنظيراتها مما عطف بالواو . ويرى أن اختلاف الموضوع يؤدى إلى اختلاف النسق فما جاء حديثاً عن الدلائل الآفاقية يعطف بالواو، وما تحدث عن الدلائل النفسية يعطف بالفاء . وقد يلجأ الفخر إلى التفريق بين ما عطف بالواو والفاء على نظرات خاصة يفهمها من إيحاءات

الآية فيعمم الحكم، وقد ثبت لي خطؤها بالرجوع إلى آيات أخرى من القرآن .

وفي التكرار استقصيت أكثر أساليب التكرار في التفسير فوجدتها أنواعا فصنفتها حسب ما يلي : تكرار في اللفظ والمعنى - تكرار في المعنى دون اللفظ - تكرار في اللفظ دون المعنى . النوع الأول : يمثل أكثر صور التكرار في التفسير ، وقد ذكر لها أغراضاً كثيرة منها التلطف لصرف النفس المنغمسة في الضلال ، أو يأتي للتحقير ، وكان الفخر يحرص أحياناً على ربطه بمذاهب القوم في أساليب لغتهم، ويدل على التوكيد في آيات كثيرة ، وقد يفيد التكرار الحث على غرس العبارة في النفس ، أو للدلالة على بقاء الأمر . وذكر وجوهاً لتكرار قوله تعالى : * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ولكنه في النهاية لا يعدها من الإيجاز وذلك في مقام الرد على من طعن في التكرار في القرآن ، لأن المعنى في كل مرة يختلف عن المعنى في الآخر . وكان الفخر يستأنس بأقوال العلماء قبله ثم يذكر ما يراه .

وتعرض الفخر لجملة الاعتراض في الكلام ، واهتم بذكر قيمتها البلاغية في أداء المعنى ، وقد وجدتها عنده في التفسير تفيد إما التوكيد وهو المعنى الذى اشتهر به العرب ، وإما معاني بلاغية أشار إليها . فبينت أولاً ما تفيده جملة الاعتراض من توكيد ، ورأيته أحياناً يشرح معنى التوكيد في جملة الاعتراض ، وتأتي جملة الاعتراض لتصور أدق ما يتطلبه المعنى وكأنها تعليق جانبي على المشهد ، وتأتي لتبين شدة أحوال من يتحدث عنهم كالمنافقين بسبب أعمالهم السيئة ، ويذكر الفخر أن من شروط جملة الاعتراض أن يكون لها تعلق بما قبلها من كلام ، كما تأتي بين المعطوف والمعطوف عليه لإبداء العذر ، وتأتي بين الصفة والموصوف للقطع بجهل الكفار في : * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * وقد تفرد الفخر بذكر هذا السر وإن كان أكثر المفسرين

قد أجمعوا على أنه للتأكيد ، وتعرضت لرأى أبي السعود والألوسي ،وقد لاحظت أنه سكت عن بيان سر جملة الاعتراض : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ التي وقعت بين المقسم والمقسم عليه وكأنه لا يرى فيها اعتراضاً ،ولا يعتبره ابن عطية اعتراضاً ، كما تقع جملة الاعتراض بين المشبه والمشبه به وفي كثير من صور الاعتراض كنت أقارن بين ما قاله الفخر وغيره من العلماء لأبين مكانة قوله.

وفي مبحث الالتفات: عرجت أولاً على رأى الفخر فيه في نهاية الإيجاز فوجدته يذكر له تعريفين : الأول : تعريف ابن المعتز ، وقد حصره في العدول من الغيبة إلى الخطاب والعكس . والثاني : يعرفه بأنه تعقيب الكلام بجملة تامة ملاقية إياه في المعنى ليكون تتميماً لها ،وقد ذكرت أن هذا هو التذييل الذى جعله المتأخرون من أنواع الإطناب ،ولم أجد أحداً من المتقدمين يذكره تعريفاً للالتفات ، وقد وجدت رشيد الدين الوطواط يذكر هذين التعريفين في : (حدائق السحر) ورجحت أن يكون الفخر ناقلاً منه . ثم رجعت إلى التفسير لأتبين رأيه فيه ،فلاحظت أن الالتفات عنده هو ما انتقل فيه الأسلوب من طريق إلى آخر من طرق الخطاب ، ثم يذكر سر بلاغة وحسن هذا الأسلوب ،ويأخذ على العلماء عدم اهتمامهم ببيان سر مواقع الالتفات ، لأنه لاحظ أنهم يقولون إن في الكلام التفاتاً دون بيان لسره ،وقد يقصد بهذا الكلام عبد القاهر الذى لم يتناول هذا الأسلوب بالدراسة ، ثم يقول إنه أسهب في الحديث عن سر بلاغة الالتفات في آية : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ وقد رجعت إلى هذه الآية فوجدته يذكر أن الانتقال من الغيبة إلى الحضور يدل على التقريب ،والانتقال من الحضور إلى الغيبة يدل على المقت،وذكر هذا الوجه في سبب انتقال بعض الآيات ،لكنه لا يطرد في كل التفسير ،لأنه لا يمكن تحديد سر بلاغي واحد للطريق الواحد من طرق الانتقال ،فالمعاني تتنوع والأساليب تختلف والسياق هو الذى يولد الوجه ويحدده .

وفي مبحث الفواصل القرآنية : بينت رأيه في أواخر الآيات ،فوجدته يتفق أن تأتي الفاصلة لمراعاة أواخر الآية ،ويرى أن القرآن يراعى في الفاصلة جانب اللفظ والمعنى ،وهذا معجز فيه ،وقد أخذ على الذين أرجعوا التقديم والتأخير من أجل الفاصلة ، ثم وقف عند كثير من فواصل القرآن فبين سرهـا وصلتها بما قبلها وهي عنده نوعان : نوع يسهل فيه إقامة العلاقة بين الفاصلة ومضمون الآية بأن يأتي توكيداً لها ،وذكرت أن هذا النوع يدخل تحت باب التذييل في الإطناب . ونوع آخر يعتد من اتصال الفاصلة بما قبلها من آيات . ويبحث الفخر عن الفرق بين فاصلة ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ و﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ ويرى أن التفكر يكون حين يحتاج مضمون الآية إلى كثير من التأمل والنظر، والتعقل يأتي حين تتم الدلائل ولم يبق إلا مجرد العقل . وقد خالفته في رأيه هذا مستدلة على ذلك بما لاحظته وبما قاله العلماء . وقد تناول كثيراً من الآيات وبين صلتها بالمعنى سواء كانت متتالية أو متباعدة ، كما أنه تناول فواصل بعض القصص القرآني المتكررة وبين الفرق بينها ،كما أن نظراته امتدت إلى ما قبل الفواصل .

٤ - إعجاز القرآن في التفسير :

ذكرت بدءاً اتصاله بعلم المعاني من جهة النظم ،ثم تعرضت لأول حديث للفخر عن الإعجاز في سورة البقرة فوجدته يعرفه من طريقين : الأول : أن القرآن في مستوى كلام العرب يقدر ينقض العادة ، الثاني : أن القرآن إن لم يكن معجزاً ببلاغته فهو بالصرفة . ثم جره هذا إلى الحديث عن وجود وجوه في القرآن تقتضي نقصان بلاغته ،وهي معيبة في كلام البشر ، لكن القرآن بلغ الغاية من الفصاحة ،وكنت أوضح عما غمض منها ،كما بينت تأثره بالقاضي الباقلاني في بعض الوجوه . ثم ذكر آيات في موضوعات مختلفة دلت على علو الفصاحة ،

وقد تناولت بعض هذه الآيات وحللتها وبينت فيها وجه علوها في الفصاحة، ويبدو تأثره في الوجه القائل بأن القرآن يشتمل على أصول جميع العلوم بأبي حامد الغزالي . ثم عرضت للوجه الثاني الذي ذكره وبناه على افتراضين :

الأول : أن يكون القرآن معجزاً ببلاغته .

الثاني : إن لم يكن كذلك فهو معجز بالصرفة ،

ثم نراه يجمع بينهما في النهاية دون ترجيح واحد منهما ، ثم ذكرت آراء العلماء في مذهب الصرفة ،ورأيت أن الفخر متبع فيه قول بعض العلماء في أن الله قد سلب دواعيهم عن المعارضة مع توفر الأسباب . ثم تتبعت هذا المذهب في التفسير فوجدته يذكره مرات ،بل إنه في موضع يقول إن الإعجاز في السور القصار راجع إلى الصرفة ، وما عداها من سور يكون الإعجاز بالبلاغة ،ورجعت إلى كتابه (النهاية) فوجدته ينقض القول بالصرفة وله فصل في بيان إعجاز القرآن في سورة الكوثر وهي من السور القصار . ثم رجحت أن طريقة الفخر هذه تقوم على مذهب مجاراة الخصم الملزم للحق في النهاية . ولا يزال يردد رأيه هذا حتى فى الآيات التي تدل دلالة واضحة على نفي هذا المذهب ، ثم رأيته في موضع آخر ينفي كل وجوه أقوال العلماء في الإعجاز بما فيها الصرفة إلا القول بالبلاغة ،يرجع إليه الإعجاز ،وهذا ما استقر عليه رأيه في الإعجاز فى (نهاية الإيجاز) ،ووجدته في موضع آخر يرجع الإعجاز إلى فصاحة اللفظ وشرف المعنى وترتيبات القرآن ،فوقفت عند رأيه وناقشته ،وفي مواضع كثيرة من التفسير يجمع بين عدة وجوه قد تصل إلى خمسة وجوه ، ثم تحدثت في نهاية المبحث عن السبب الذى جعله يضطرب - حسب ظني - في تحديد وجه الإعجاز تحديداً قاطعاً في التفسير .

تأثر الفخر بمن قبله وأثره فيمن بعده :

فبدأت بتأثره بمن قبله فتناولت تأثره بعبد القاهر على حدة ثم بالزمخشري لأثرهما البارز في التفسير ، ثم تناولت تأثره بباقي المفسرين ثم بالنحاة . وقفت عند تأثره بعبد القاهر وأجملتها في ثلاثة طرق :

الأول : أنه ينقل منه القاعدة ثم يطبقها على الآية التي هو بصدد تفسيرها .

الثاني : يستشهد بكلامه في الرد على بعض المسائل البلاغية.

الثالث : يأخذ منه أخذاً غير مباشر وهذا يظهر في مسائل كثيرة كنت أقف عندها وأنا أبحث في أبواب المعاني .

ثم وقفت عند تأثره بالزمخشري ،ولاحظت أن أثره يبدو بارزاً جداً في التفسير ،ويتنوع هذا الأثر فهو إما أن ينقل منه ،وهذا كثير جداً ومنتشر في كل مباحث التفسير ،أو قد يشرح فكرته ويفصل ما يجمله لإيضاحها وبيانها أو يضيف إلى ما يقوله في الآية من نكات بلاغية ،وفي قليل من الأحيان كان الفخر يعترض علىّ الزمخشري في بعض اللفتات البلاغية ،وفي أغلب الأحوال وجدت الفخر يلتقط القاعدة البلاغية ويطبقها على كثير من الآيات.

كما يبدو تأثره بالمفسرين واضحاً فهو كثير النقل عنهم ،بما في ذلك المسائل البلاغية ، فينقل عن أبي مسلم الأصفهاني الذى كان يقول عنه : (أبومسلم حسن الكلام في التفسير كثير الغوص في الدقائق واللطائف) فينقل عنه ما يتصل بمناسبة بعض الآيات في القرآن الكريم كما ينقل عن القفال أيضاً دون أن يذكر اسمه فحاولت أن أعرف من هو حيث وجدت ثلاثة من العلماء يلقبون فرجحت أحدهم لأن له تفسيراً في القرآن ،وكان الفخر كثير الثناء عليه يقول : (إنه حسن الكلام في التفسير) ، نقل عنه أوجه نظم كثير من آيات القرآن

واستفاد الفخر كذلك من القاضي عبد الجبار وإن كان معتزلياً،وعني بالنقل عنه فيما يتعلق بنظم الآيات وترابط بعضها مع بعض،كما أنه كان كثير النقل عن الواحدي ،وذكر اسم تفسيره : (البسيط) في مواضع كثيرة ،وناقشه ورد عليه بعض الآراء البلاغية .

وتأثر الفخر أيضاً بكثير من النحاة في تدعيم الوجه البلاغي كسيبويه مثلاً الذي ردد بعض أقواله ،كما يظهر تأثره بابن جني في معرفة معنى الكلمة عن طريق تقاليب حروفها التي عني بها كثيراً في التفسير،كما نقل عن الفراء والزجاج والفارسي، وكان يصرح بهذا النقل فيما يتصل بالنكات البلاغية. ثم ختمت الفصل بأن ذكرت أن تأثر الفخر لم يقتصر على هؤلاء ،لأن عقلية العالم لا تحد بعلم أو بعالم يتأثر به ، ذلك أنا رأينا تشابهاً بين أفكاره وأفكار غيره من السابقين واضحاً في ثنايا معالجتي لكثير من قضايا البحث كالباقلاني في إعجاز القرآن ،والخطابي في الفروق بين الكلمات المتشابهة والرماني في أسرار الحذف، ورشيد الدين الوطواط في الالتفات وغيرهم مما لمحته وسجلته في البحث ، وإنما اكتفيت في هذا الفصل بذكر أبرزهم وأوضحهم في التأثير .

أثر الفخر فيمن بعده :

لقد وجدته شائعاً في ثلاثة مجالات :

الأول : أثره في كتب البلاغة : لا يبدو أثر التفسير في كتب البلاغة واضحاً وضوح أثر (النهاية) ،وقد حاولت أن أتحسس أثر التفسير في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي من نواحي متعددة ،وكذلك تناولت المطول للتفتازاني وأوجدت أوجه التشابه بينه وبين التفسير من عدة نواحي أيضاً .

الثاني : أثره في كتب التفسير : وجدت أن كثيراً من كتب التفسير تمتلئ بأقوال الفخر من الناحية البلاغية . فتناولت ثلاثة من كتب التفسير وبينت تأثرها بتفسير الفخر وهي : تفسير البيضاوي وتفسير الخازن وتفسير أبي حيان ، وختمت البحث ببيان أثر التفسير في كتب علوم القرآن والإعجاز، حيث أنها اهتمت بنقل كثير من نظراته البلاغية الخاصة ،فتعرضت للزركشي في كتابه :(البرهان في علوم القرآن) وبينت ما أخذه وما نقله عن الفخر ، ثم تعرضت للسيوطي في كتابه (معترك الأقران) وبينت أيضاً ما أخذه من الفخر وطريقته في هذا الأخذ .

ب - نتائج عامة للبحث

توصلت إلى نتائج عامة في بلاغة الفخر في التفسير أجملها فيما يأتي :

١ - بلاغة الفخر في التفسير بلاغة تذوقية خالية من الأحكام العقلية والقواعد التقريرية التي نجدها في (نهاية الإيجاز) .

٢ - تتسع المسائل البلاغية وتتفرع في الباب الواحد من أبواب علم المعاني عند تطبيقها على القرآن ، مع أنها محدودة في كتابه البلاغي : (نهاية الإيجاز) كبحث الالتفات والفصل والوصل والتقديم .. وغيرها .

٣ - كثير من أبواب المعاني التي نجدها متسعة في التفسير لم يذكرها في كتابه (النهاية) كالتنكير والجمع والإفراد والفواصل والتكرار وغيرها .

٤ - تغلب عليه العقلية الأصولية في مناقشة بعض القضايا البلاغية فيذكر دليل الخطاب ، وسلب العموم وغيرها .

٥ - له نظرات بلاغية تفوق غيره من المفسرين كالزمخشري الذى عرف بنظراته البلاغية المتفوقة .

٦ - كان أحياناً يثبت القاعدة البلاغية المنقولة عن البلاغيين ، ثم يطبق عليها الآية التي هو بصدد تفسيرها ، كما رأينا في باب التقديم ، والتوكيد ، وعطف الاسم على الفعل .

٧ - قد تتناقض أقواله في المسألة البلاغية الواحدة في التفسير ، فيذكر رأياً ثم يذكر ما يناقضه كما في مسألة الإعجاز .

٨ - يستعين بالأمثلة البسيطة الدائرة على ألسن العامة وذلك لتفهيم القاعدة البلاغية التي يشرحها ، وهي منتشرة في أكثر نظراته البلاغية .

٩ - في قليل من الأحيان كان لا يقتصر في نظراته البلاغية إلى ما ترمي إليه دلالات اللغة من معاني ، بل كان يستنبط معاني خاصة يفهمها من النص هي أقرب إلى نظرات الصوفية وشفافيتهم العالية في فهم النص .

١٠- أكثر من استنباط المعاني المتعددة للوجه البلاغي الواحد ، فيميل إلى الإطناب والتطويل ، وهذه سمة بارزة في كل أبواب المعاني ، تدل على قدرته الفائقة على تقليب الكلمات والتقاط فرائد المعاني التي قد تخفى .

١١- أرجع أسرار بعض الآيات البلاغية إلى الظواهر الكونية مما لا نراه عند غيره من البلاغيين .

١٢- أكثر ما امتاز به التفسير من الناحية البلاغية في علم المعاني اهتمامه بالمناسبات.

١٣- يبدو تأثره بالزمخشري واضحاً جداً في كل أبواب البحث ويتنوع هذا الأخذ .

١٤- أرى أن نظراته البلاغية في التفسير تمثل الرأي الأخير له لأنه ألفه بعد (النهاية) كما ذكر في تفسير سورة البقرة.

وفي نهاية هذه الرحلة المباركة الممتعة في رحاب تفسير القرآن الكريم أقف لأفي بحق الله سبحانه وتعالى وأحمده وأشكره ، وأنّى لي ذلك وحقه لا يُوفّى وشكره لا يُؤدّى . فقد وفقني وأسبغ علي نعمته في أن جعلني من خدمة هذا الكتاب الكريم ، ولكن كيف أشكرك يا الهي ؟ سأقول كما علمتني :

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

وأقول :

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

ربنا .. بدأت باسمك وأختم به ، فلك الحمد في الأولى والآخرة ولك الحكم وإليك تصير الأمور ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

جـ- فهرس المصادر والمراجع

جـ - فهرس المصادر والمراجــــع

- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ،
مصر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الرابعـــة
١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

- أثر النحاة في البحث البلاغي : د . عبد القادر حسين ،
القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٥م .

- إحياء علوم الدين : أبو حامد محمد الغزالي ،
بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

- إرشاد العقل السليم : أبو السعود محمد بن محمد العمادى ،
بيروت : دار إحياء التراث العربي .

- أساس البلاغة : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ،
تحقيق : الأستاذ عبد الرحيم محمود ،
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم : د . صبّاح دراز
مصر : مطبعة الأمانة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ،
تحقيق : محمد رشيد رضا .
بيروت : دار المعرفـة .

- أسرار التكرار في القرآن : محمود بن حمزة الكرماني ،
تحقيق : عبد القادر أحمد عطا
مصر : دار الاعتصام ، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

- الإشارة إلى الإيجاز : ابو محمد عز الدين بن عبد السلام ،
بيروت : دار المعرفة.
- الإعجاز البلاغي : د . محمد أبو موسى ،
مصر : مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
- الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره : د . محمد يوسف القاسم
القاهرة : دار المطبوعات الدولية ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الإعجاز في دراسات السابقين : د . عبد الكريم الخطيب
مصر : دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.
- إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ،
تحقيق : الشيخ عماد الدين احمد حيدر
بيروت : مؤسسة المكتبة الثقافية ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعي ،
بيروت : دار الكتاب العربي ، الطبعة التاسعة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- الأعلام : خير الدين الزركلي ،
بيروت : دار العلم للملايين ، الطبعة السابعة ١٩٨٦م.
- الإمام فخر الدين الرازي - حياته وآثاره : د . علي العماري ،
مصر : المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية - الكتاب الثالث ١٣٨٨هـ
- ١٩٦٩م.
- الأمالي الشجرية : ضياء الدين هبة الله بن علي بن الشجري ،
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله البيضاوي ،
بيروت : دار صادر .

- الإعجاز والإيجاز : أبو منصور الثعالبي ،

بغداد : مكتبة دار البيان - بيروت : دار صعب.

- الإيضاح : الإمام الخطيب القزويني ،

شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ،

بيروت : دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ،

بيروت : دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

- بدائع الفوائد : ابو عبد الله محمد بن أبي بكر المشتهر بابن قيم الجوزية

القاهرة : مكتبة ابن تيمية - مكتبة العلم بجدة

- البداية والنهاية : الحافظ بن كثير ،

بيروت : مكتبة المعارف.

- البديع : ابن أبي الأصبع المصرى ،

تحقيق : حفني محمد شرف ،

القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر - الطبعة الثانية

- البديع : عبد الله بن المعتز ،

نشره وعلق عليه : المستشرق اغناطيوس كراتشقوفسكي ،

دمشق : دار الحكمة.

- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي ،

تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم .

بيروت : دار المعرفة ، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

- بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدى ،

مصر : مكتبة الآداب ومطبعتها ، الطبعة السادسة .

- البلاغة تطور وتاريخ : د . شوقي ضيف .

مصر : دار المعارف ، الطبعة السابعة.

- البلاغة عند السكاكي : د . أحمد مطلوب .
بغداد : منشورات مكتبة النهضة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : د . محمد أبوموسى .
القاهرة : مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- البيان العربي : د . بدوي طبانة ،
بيروت : دار العودة ، الطبعة الخامسة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
- البيان والتبيين : أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،
تحقيق : عبد السلام محمد هارون
مصر : مكتبة الخانجي ، الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م .
- تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ،
تحقيق : السيد أحمد صقر ،
القاهرة : دار التراث ، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .
- التصوير البياني : د . محمد أبو موسى ،
القاهرة : مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- التفسير البلاغي للاستفهام : د . عبد العظيم المطعني ،
مصر : المكتبة التوفيقية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م
- تفسير القرآن العظيم : أبوالفداء اسماعيل بن كثير ،
القاهرة : دار الكتب المصرية ،
- التفسير الكبير : فخر الدين حسين بن عمر الرازي ،
١ - بيروت : دار الفكر ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م
٢ - مصر : المطبعة الخيرية ، الطبعة الاولى ١٣٠٧هـ
- تفسير النصوص في الفقه الاسلامي : د . محمد أديب الصالح ،
دمشق : المكتب الاسلامي ، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

- التفسير ورجاله : الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ،
القاهرة : مجمع البحوث الاسلامية ،الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

- التفسير والمفسرون : د . محمد حسين الذهبي ،
مصر : الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م،

- التكرار - مظاهره وأسراره - : عبد الرحمن الشهري ،
رسالة ماجستير مقدمة من قسم اللغة العربية - جامعة أم القرى .

- التلخيص في علوم البلاغة : جلال الدين محمد القزويني الخطيب ،
ضبط وشرح : عبد الرحمن البرقوقي
مصر : المكتبة التجارية ،الطبعة الثانية ١٣٥٠هـ - ١٩٣٢م.

- تهذيب اللغة ، للأزهري ،
تحقيق : عبد الحليم النجار - مراجعة : محمد علي النجار
مصر : الدار المصرية للتأليف والترجمة .

- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : الخطابي - الرماني - الجرجاني ،
تحقيق : محمد خلف الله ،د . محمد زغلول سلام
مصر : دار المعارف ،الطبعة الثالثة .

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن : أبوجعفر محمد بن جرير الطبري ،
بيروت : دار الفكر ،١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

- الحجة في علل القراءات السبع : أبوعلي الحسن بن أحمد الفارسي ،
تحقيق : علي النجدي ناصف - د . عبد الفتاح شلبي
مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

- حدائق السحر في دقائق الشعر : رشيد الدين الوطواط ،
تحقيق : إبراهيم أمين الشواربي .
القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.

- الحيوان : أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،

تحقيق : عبد السلام هارون ،

بيروت : المجمع العلمي العربي الاسلامي .

- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ،

تحقيق : محمد علي النجار ،

بيروت : دار الهدى للطباعة والنشر .

- خصائص التراكيب : د . محمد أبو موسى ،

القاهرة : مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

- درة التنزيل وغرة التأويل : الخطيب الإسكافي ،

بيروت : دار الأفاق الجديدة ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م .

- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ،

تحقيق : محمود محمد شاكر ،

القاهرة : مكتبة الخانجي .

- دلالات التركيب : د . محمد أبوموسى ،

القاهرة : مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

- ديوان أمية بن أبي الصلت :

قدم له وعلق على حواشيه : سيف الدين الكاتب ، أحمد عصام الكاتب .

بيروت : دار مكتبة الحياة .

- ديوان النابغة الذبياني .

شرح وتقديم : عباس عبد الساتر ،

بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى .

- ديوان كثيّر .

جمع وشرح : د . إحسان عباس .

بيروت : دار الثقافة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

- الرسالة الشافية : عبد القاهر الجرجاني ،
القاهرة : مكتبة الخانجي (ملحق بدلائل الإعجاز)
- روح المعاني : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي ،
بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- روضات الجنات : محمد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني ،
تحقيق : أسد الله إسماعيليان
قم : خيابان ارم
- الريح والرياح في القرآن وفي كلام العرب : د . علي العماري ،
بحث مخطوط .
- سر الفصاحة : الأمير أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي ،
بيروت : دار الكتب العلمية.
- سير أعلام النبلاء : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ،
تحقيق : شعيب الأرنؤوط
بيروت : مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- شذرات الذهب : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ،
بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر
- شروح التلخيص : مختصر سعد الدين التفتازاني ،
مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ،
عروس الأفراح ، لبهاء الدين السبكي ،
مصر : المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ
- الصاحبي : أبو الحسين احمد بن فارس ،
تحقيق : السيد أحمد صقر
القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٧٧م.

- الصناعتين : أبوهلال الحسن العسكرى ،

تحقيق : د . مفيد قميحة ،

بيروت : دار الكتب العلمية ،الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

- طبقات الشافعية : أبونصر عبد الوهاب بن علي السبكي ،

تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو - محمود محمد الطناحي ،

مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- الطراز : يحيى بن حمزة العلوى اليمنى ،

بيروت : دارالكتب العلمية ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

- العمدة : أبوعلي الحسن بن رشيد القيرواني ،

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،

بيروت : دارالجيل للنشر والتوزيع ،الطبعة الرابعة ١٩٧٢م .

- عيار الشعر : محمد احمد بن طباطبا العلوى ،

تحقيق : عباس عبد الساتر ،

بيروت : دارالكتب العلمية ،الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

- العين : الخليل بن أحمد الفراهيدى ،

العراق : وزارة الثقافة - دارالرشيد للنشر - سلسلة المعاجم

والفهارس (٤٣) .

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان : نظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى ،

تحقيق : إبراهيم عطوة عوض ،

مصر : شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده ،الطبعة الأولى ،

١٣٨١هـ - ١٩٦٢م .

- فخر الدين الرازى بلاغياً : ماهر مهدى هلال ،

العراق : منشورات وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية .

- الفروق اللغوية : أبوهلال العسكرى ،

ضبطه وحققه : حسام الدين القدس ،

بيروت : دار الكتب العلمية .

- الفصل في الملل والأهواء والنحل : ابن حزم الظاهرى ،

وبهامشه الملل والنحل : لأبي الفتح محمد الشهرستاني ،

بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر .

- الكامل في ضعفاء الحديث : الإمام الحافظ أبو أحمد عبدالله بن عدى

الجرجاني ،

تحقيق : لجنة من المختصين بإشراف الناشر ،

بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر .

- الكتاب : عمرو بن عثمان بن قنبر ،

تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،

الرياض : دار الرفاعي ،القاهرة : مكتبة الخانجي .

- كتاب الإقناع في القراءات السبع : أبوجعفر أحمد بن علي الأنصارى ابن الباذش ،

تحقيق : د . عبد المجيد قطامش ،

مكة : مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي ،

- الكشاف : أبوالقاسم جار الله محمود الزمخشرى ،

وبهامشه الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال : أحمد بن المنير .

وحاشية السيد الجرجاني ،

بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر .

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة ،

دار الفكر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

- لسان العرب : أبوالفضل جمال الدين ابن منظور ،

بيروت : دار صادر .

- لسان الميزان : الإمام شهاب الدين علي بن حجر العسقلاني ،
بيروت : منشورات موسسة الاعلمي للمطبوعات .
- المباحث البيانية في تفسير الفخر الرازى : د . احمد هنداوى هلال ،
رسالة دكتوراة مقدمة من جامعة الأزهر ١٤٠١ هـ .
- المثل السائر : ضياء الدين بن الأثير ،
تحقيق : د . احمد الحوفي - د . بدوى طبانة ،
القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة .
- المجاز في اللغة والقرآن : د . عبد العظيم المطعني ،
القاهرة : مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- مجاز القرآن : أبوعبيدة معمر بن المثني ،
علق عليه : د . محمد فوءاد سزكين ،
مصر : مكتبة الخانجي .
- المحتسب : أبوالفتح عثمان بن جني ،
تحقيق : على النجدى ناصف - د . عبد الحليم النجار - د . عبد الفتاح شلبي ،
دار سزكين للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- المحرر الوجيز : أبو محمد عبد الحق بن عطية الاندلسي ،
١ - تحقيق : الرحالي الفاروق - عبدالله بن إبراهيم الأنصارى ،
السيد عبد العال السيد إبراهيم - محمد الشافعي صادق العناني ،
قطر : موسسة دار العلوم .
٢ - تحقيق : المجلس العلمي بفاس ،
المملكة المغربية : وزارة الاوقاف والشوءون الإسلامية .
- المحصول في علم الأصول : فخر الدين محمد بن عمر الرازى ،
دراسة وتحقيق : طه جابر فياض العلواني ،
الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية - لجنة البحوث والنشر .

- المدخل إلى علم الاسلوب : د . شكرى عياد ،

الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

- مرآة الجنان : الإمام أبوعبد الله اليافعي ،

بيروت : مؤسسة الاعلمي ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

- المزهر : جلال الدين السيوطي ،

مصر : مطبعة السعادة ، ١٣٢٥ هـ .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل ،

بيروت : المكتب الاسلامي للطباعة والنشر .

- المطول على التلخيص : سعد الدين التفتازاني ،

مصر : مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ .

- معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ،

بيروت : عالم الكتب - الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

- معترك الأقران في إعجاز القرآن : جلال الدين السيوطي ،

تحقيق : علي محمد البجاوى ،

مصر : دار الفكر العربي .

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ،

القاهرة : دار الحديث .

- معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ،

بيروت : دار إحياء التراث العربي .

- المغني في أبواب التوحيد والعدل : القاضي أبي الحسن عبد الجبار ،

تحقيق : محمود محمد الخضيرى ، ج ١٦ .

مصر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .

- مغني اللبيب : أبو محمد عبد الله بن هشام الأنصارى ،

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،

بيروت : دار إحياء التراث العربي ،

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة : أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده ،
مراجعة وتحقيق : كامل كامل بكرى -عبد الوهاب أبو النور ،
مصر : دار الكتب الحديثة .
- مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف السكاكي ،
بيروت : دار الكتب العلمية .
- المفردات في غريب القرآن : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ،
تحقيق : محمد سيد كيلاني ،
بيروت : دار المعرفة.
- المفصل : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ،
بيروت : دار الجيل ،الطبعة الثانية .
- مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس ،
تحقيق عبد السلام محمد هارون ،
ايران : دار الكتب العلمية - اسماعيليان نجفي ،
- المقتضب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ،
القاهرة : المجلس الأعلى للشئون الاسلامية -لجنة إحياء التراث العربي
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ،
بيروت : دار القلم ،الطبعة الخامسة ١٩٨٤م.
- من أسرار التعبير في القرآن : د . محمد أبو موسى ،
مصر : دار الفكر العربي -١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- من أسرار التعبير في القرآن : د . عبد الفتاح لاشين ،
شركة مكتبة عكاظ ،الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- من أسرار القرآن : د . على العمارى (بحث مخطوط) .

- من أسرار اللغة : د . إبراهيم أنيس ،

القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة السادسة ١٩٧٨ م .

- من الإعجاز البلاغي للقرآن : د . صبّاح دراز ،

القاهرة : دار التوفيقية للطباعة بالأزهر .

- من بلاغة القرآن : أحمد أحمد بدوى ،

القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر ،

- الموازنة بين الطائيين : أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ،

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،

بيروت : مكتبة العلمية .

- النبأ العظيم : د . محمد عبد الله دراز ،

الكويت : دار القلم ، الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م .

- النجوم الزاهرة : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ،

مصر : وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ابو الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي ،

الهند - حيدر آباد مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ،

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

- نقد الشعر : أبو الفرج قدامة بن جعفر ،

تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ،

القاهرة : مكتبة الكليات الازهرية - الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

- نقد النثر : أبو الفرج قدامة بن جعفر ،

بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

- نهاية الإيجاز : الإمام فخر الدين الرازى ،

تحقيق : د . بكرى شيخ أمين .

بيروت : دار العلم للملايين الطبعة الأولى ١٩٨٥ م .

- الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل الصفدي ،
باعتناء : هلموت ريتر ،
ألمانيا : دار النشر فرانز شتاينر ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م .
- وفيات الأعيان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ،
تحقيق : د . إحسان عباس ،
بيروت : دار صادر .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحـة

الباب الثانـي

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث